دراسات حول المدينة المنورة

(٦)

المدينة

في صدر الإسلام

الحياة الأدبية

تأليف

الدكتور محمد العيد الخطراوي

مكتبة دار التراث

المدينة المنورة - ص. ب ٢٨٨٥٢

مؤسسة علوم القرآن

دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة

في صدر الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مؤسسة علوم القرآن

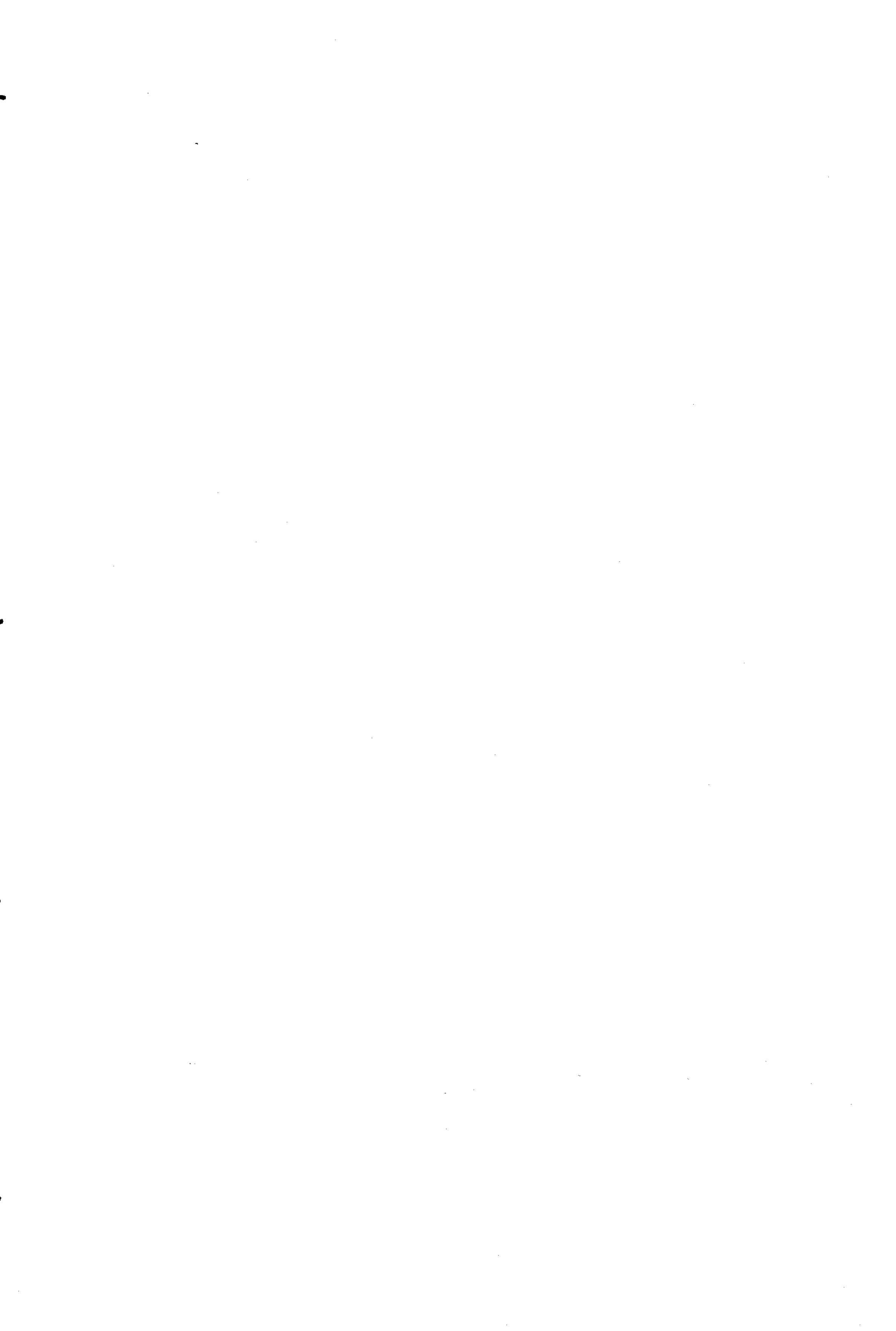
سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

مُقَــدِّمَة المؤلّف

تملؤني البهجة، وتسرح بي الخواطر كل مسرح، مع وصـول كل كتاب من هذه السلسلة (دراسات حول المدينة المنورة) إلى أيدي القرّاء، الذين منحوني ثقتهم وتشجيعهم، وزادوا بإقبالهم عليها من إيماني بالكلمة، وتقديري لمسؤوليتها وثقتي بغَنائها وجدواها. وتصور لي الأحـلام وأنا في غمرة الرضا أن في إمكاني مواصلة الرحلة، من أجل تحقيق ما تطمح إليه نفسي من دراسة كل ما يتصل بالمدينة المنورة في شتى الجـوانب ومختلف العصور، بكل ما يسمح به جهدي ووقتي، وبجميع إمكاناتي التي أستعين فيها بالله وأستقدره وأستهديه، غير أني لا أزال أطمع في مساندة إخواني من الكتّاب والباحثين، وأدعوهم بإصرار إلى المشاركة في هذه المهمة، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

المدينة المنورة ١ جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ

الدكتور محمد العيد الخطراوي



الفَصْل الأوَّل

الشعر وموقف الإسلام منه

- موقف الشعر من الإسلام.
- موقف الإسلام من الشعر.
- الرد على القائلين بضعف الشعر الإسلامي.
- موقف القرآن الكريم.
- موقف الرسول ﷺ.
- موقف الصحابة.
- خطأ استعمال المقاييس الجاهلية.



- ١ -

قد يكون من المناسب قبل أن نبحث موقف الإسلام من الشعر أن نتعرف إلى موقف الشعر من الإسلام، لأن الشعر أسبق في الوجـود من الإسلام، ولأن موقف الإسلام من الشعر ناتج في تقديرنا عن موقف الشعر منه.

كان الشعر أقوى الأسلحة القولية في الحياة الجاهلية ـ كما أشرنا غير مرة ـ وهو في عمومه تعبير عن روح قائليه وصورة لنفوسهم، ومرآة لمواقفهم واتجاهاتهم، يحمل في ثناياه كل القيم الجاهلية ويقف دونها ويدافع عنهـا ويستميت من أجلها، فلما جاء الإسلام وأحدث تلك الرجة الاجتماعية، وغيّر من معالم الحياة، وأطاح بكثير من القيم المتعارفة والعادات الموروثة، لقيه أكثرهم بالكيد والحرب والعناد، وسلّوا في وجهه كل سلاح، وكان الشعر ضمن هذه الأسلحة المرفوعة في وجه الإسلام، وانطلق شعراء قريش ينظمون القصائد والمقطعات يهجون النبي ﷺ والذين معه، وينالون من دعوته وعقيدته أشد النيل وأقواه، وإذا قلنا: الشعر، فمعناه أن المشركين سخـروا أقوى الأجهزة الإعلامية في وجه الدعوة الإسلامية، ليحولوا الجزيرة العربية كلها ضد هذه الدعوة وصاحبها، في الوقت الذي لم تكن هذه الدعوة تملك جهازاً إعلامياً واحداً تقف به أمام تلك الأبواق المغرضة الحاقدة، وقد كان لذلك أثره القاسي في نفس الرسول ﷺ وفي نفوس أصحابه، وكان ذلك يقف سداً حاجزاً بين الدعوة ووصولها إلى الناس، لأن الشعر في العصر الجاهلي كان

يمتاز بمكانة لا تغالب، كما كان سريع الانتشار بين القبائل، وبخاصة إذا كان مرتبطاً بلون من ألوان الصراع، وقد كان الصراع بين المشركين والـدعوة الإسلامية أعظم صراع شهدته الجزيرة، لأنه من جهة يمثل حرباً بين الشرك والتـوحيد، ومن جهـة أخرى تشتـرك فيه قـريش راعيـة السلم وحـاميـة المقدسات، وفي الواقع أن صفة الانتشار للشعر بين العرب كانت ثابتة له حتى في الظروف العادية، فما إن تُقال القصيدة هنا اليوم حتى تسمع هناك غداً، (كأن بين واحات الجزيرة ومدنها وقبائلها هذه الأجنحة الخفيفة الطائرة، التي تنقل أحداثها وما يقال في هذه الأحـداث من شعر، وكـأنما صَمت الصحـراء وهدوؤها هيآ الوسط الطيّع الذي يفي بالوساطة ويصفو لها)[1]، إن هذا الشعر كان يمثل عقبة كأداء في طريق الدعوة، ويؤثر في نفوس القبائل المجاورة ويصرفهم عن سماع الهدى، ولو كان أمره قاصراً على مكة أو المدينة لهان الأمر، لأنه لا يزيد عن أن يكون ضباباً عابراً تتكفل المخالطة والمواجهة بإزالته، وإعطاء الصورة الصادقة عن محمد ودينه وأتباعه، ولكنه كان ينتشر في البلاد الأخرى وينقل عن الإسلام صورة مشّوهة، ويفسد على أولئك الدعاة الأبرار الذين كان يبعثهم ﷺ إلى القبائل يبصّرونهم بالدعوة ويدعونهم إلى دين التوحيد، ومعنى هذا أن الشعر لم يحسن استقبال الإسلام ولم يرحب بمبادئه، بل ناصبه العداء من أول يوم، وشهر في وجهه السلاح، وفي الواقع كان موقف الشعر من الإسلام تعبيراً عن موقف الجاهلية بكل ما فيها من معانٍ شركيّة وقيم معادية لكل ما جاء به الإسلام. وقد كان الرسول ﷺ يتألم كثيراً مما لقيه من هذا الشعر وأصحابه، وعرض على الأنصار أن يتولوا الرد عليهم، وأن يناصروه بألسنتهم كما ناصروه بإيوائه ومؤازرته، فانبرى حسان وابن رواحة وكعب بن مالك يردّون فخراً بفخر وهجاءً بهجاء.

ومن جهة أخرى فإن القرآن ببلاغته وفصاحته وما فيه من نسق بياني مؤثّر كثيراً ما كان يفسد على شعراء المشركين تأثيرهم، فما هو إلا أن تعيه

---

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص ٣٢٧.

الآذان حتى يتسلّل إلى القلوب ويسري إلى النفوس، فيقودها إلى الإيمان ويهديها إلى الفطرة الصحيحة،

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

فقد كان القرآن ينتزع التسليم والإعجاب ببيانه حتى من أعدائه، فلما سمعه الوليد بن المغيرة قال: (والله إن فيه لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق).

- ٢ -

وإذا كنا عرفنا هذا الموقف الذي وقفه الشعر من الإسلام، فماذا كان موقف الإسلام من الشعر؟ وما السبيل التي سلكها لرد سلاح المشركين إلى صدورهم؟ هل صحيح أنه حارب الشعر وذم الشعراء وحطّ من مكانتهم، كرد فعل لهذا الموقف، وقضى على هذه الآلة الفنية بين العرب؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نفسر وجود شعراء من الصحابة عاصروا الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين؟

ربما كان من الخطإ أن نتعجل الجواب عن هذه الأسئلة، ونعطي حكماً سريعاً في هذه القضية، وقد ألّف فيها بعضهم كالدكتور يحيى الجبوري كتاباً مستقلاً سمّاه (الإسلام والشعر)، مما يدل على أهمية القضية ودقة الحكم فيها، ولم يسعدني الحظ في الحقيقة بالاطّلاع على هذا الكتاب، ولكن صاحبه كان يشير إلى بعض ما ورد فيه، في كتابه الآخر: (شعر المخضرمين).

ومن الملاحظ أن الآراء تباينت حول هذه القضية بين القدامى والمحدثين، ووصلت إلى درجة التناقض.

فمن قائل: إن الإسلام غضّ من شأن الشعر وهوّن من قدره، وصرف الناس عنه وكرّهه لهم، ومن ثم ضعف الشعر وقلّ الشعراء، وعلى هذا الأساس عدّوا عصر صدر الإسلام مرحلة ضعف وخمول في تاريخ الشعر

العربي بعد أن كان قوياً في العصر الجاهلي، مستدلين بمثل قول ابن سلام: (وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علومهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون... فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد، وغزْوِ فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، وألِفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير)[1]، وقول ابن خلدون: (انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوّة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك، وسكنوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملّة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه)[2]. وقالوا: إن السيوطي قال في تفسير الخضرمة نقلاً عن ابن فارس: (وتأويل المخضرم من خضرمت الشيء أي قطعته... ويمكن أن يكون ذلك لأن رتبتهم في الشعر نقصت، لأن حال الشعر تطامنت في الإسلام، لِما أنزل الله تعالى في الكتاب العربي العزيز، وهذا عندنا هو الوجه)[3]، وقالوا: إن القرآن ذم الشعراء وهاجمهم حين قال: ﴿ والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ﴾[4]، وأن الرسول ﷺ قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً»[5].

ومن قائل[6]: إن الشعر لم يتوقف ولم يتخلّف في هذا العصر، لأن من

(١) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٤: ٢٥.

(٢) المقدمة ص ٤٢٧ طبعة المطبعة البهية.

(٣) المزهر ١: ٢٩٦ دار إحياء الكتب.

(٤) الشعراء ٢٢٤.

(٥) العمدة لابن رشيق: ١: ١٢ الطبعة الأولى.

(٦) العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص ٤٢.

عاشوا فيه كانوا يعيشون في الجاهلية كحسان وابن رواحة من المدينة، ولبيد والعباس بن مرداس من غيرها، فكيف يصح أن يلجموا أو يخرسوا كما يدّعي ابن خلدون، إلا إذا أصيبوا بفساد في الجسم أو العقل، ولم يثبت شيء من ذلك تاريخياً، وبالرجوع إلى مثل الكتب التالية يعلم الدارسون مدى ازدهار الشعر في ذلك العصر: الأغاني ـ الطبري ـ سيرة ابن هشام ـ الإصابة ـ الاستيعاب ـ المفضليات ـ الأصمعيات ـ الشعر والشعراء ـ وأخيراً طبقات فحول الشعراء أيضاً. ومن الظلم للإسلام أن يقال: إنه كفّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه، (ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالاً، فإن أحداثه حلّت من عقدة الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه، فإذا بنا نجد مكة التي لم تعرف في الجاهلية بشعر كثير، يكثر شعراؤها، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها)[1].

ـ ٣ ـ

وإذا كان لا بدّ لنا من الاختيار بين الرأيين فإننا نؤثر أن نكون مع أصحاب الرأي الثاني، بعد أن نضيف إليه شيئاً من التحفّظ والحذر من الانسياق وراء المبالغة، فالحق أن الإسلام لم يهجّن الشعر مطلقاً ولم يحمل على كل شاعر، ويمكننا أن نفهم الموقف في ظل الأمور التالية:

١ ـ أن ابن سلام لم يكن يريد بما قاله أن الشعر ضعف في صدر الإسلام، وإنما كان يريد التدليل على ضياع كثير من الشعر الجاهلي، وذلك لانصراف همم الناس إلى حفظ القرآن والحديث وانشغالهم بالجهاد والفتوح، بدلاً من حفظ الأشعار وروايتها، وأنهم لم يكونوا دوّنوا منه شيئاً، ومع ذلك فإن ما ذهب إليه ليس قضية مسلّمة، فإن كتب الأدب والتاريخ لا تزال تزخر بالشعر وناظميه، وكل ما في الأمر أن الشعر كان في الحياة الجاهلية هو كل

(١) المصدر السابق ٤٦.

شيء وأصبح في الحياة الإسلامية واحداً من عدة أشياء، لا استنقاصاً للشعر أو حطّاً من مكانته، وإنما هو اهتمام بتلك الأشياء الأخرى أيضاً كفنون ووسائل للتعبير.

٢ ـ أن ابن خلدون يجعل توقف العرب عن قول الشعر مرتبطاً بمدة نزول الوحي على الرسول ﷺ، وعلى افتراض صحّة رأيه، فإنه لا يكاد ينطبق إلا على من كان يهمه أمر هذا الوحي، وهم شعراء المدينة، أما الشعراء المشركون في مكة وغيرهم، فإنهم لم يصدقوا بالدعوة الإسلامية حتى يشغلوا بها، أو تكون سبباً في انصرافهم عن قول الشعر، ومن المعلوم أن أكثر القبائل العربية إنما أسلمت بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة، وعليه فإنهم لم ينشغلوا بالوحي إلا لمدة عامين فقط انتقل بعدها الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وعلى تقدير صحة هذا الرأي أيضاً مع بيان فساده، هل يستأهل أن نجعل من انشغالهم سنتين عن قول الشعر قضية..؟ وهل لو افترضنا سكوت شعراء عصر من العصور سنتين ـ مع فساد هذا الافتراض عقلاً وواقعاً ـ يكون سبباً في نعت ذلك العصر بالضعف ونعت شعرائه بالتخلّف؟ في الواقع إن قول ابن خلدون بادي الاضطراب بيِّن الفساد، ولذا نرى آخر كلامه ينقض أوله، فيذكر أن الرسول استمع إلى الشعر وأثاب عليه. وكان عليه أن يذكر أيضاً شعر حسان وكعب وابن رواحة ووقفتهم للدفاع عن الرسالة وصاحبها وتشجيع النبي ﷺ لهم على ذلك. وكان عليه أيضاً أن يذكر أنهم حتى بعد فتح مكة في العامين المحتملين كانت الوفود تأتي إلى الرسول ﷺ بالمدينة بخطبائها وشعرائها، ويجري بينهم وبين شعراء المدينة وخطبائها أخذٌ وردٌّ ومقاولات، كما هو المعروف عن وفد بني تميم.

وربما كان الأمر الأشد غرابة في كلام ابن خلدون أنه لم ينسب لهم الخرس في الشعر فقط، بل أضاف إليهم الخرس في النثر أيضاً، ولا ندري كيف غاب عن ذهنه ازدهار الخطابة والرسائل والنثر الحواري في هذا العصر على يد الرسول وصحبه وخلفائه الراشدين من بعده؟ ومن حسن الحظ أننا لم

نجد من تابع ابن خلدون في هذا الرأي الغريب، بل إن الذين تحدثوا عن ضعف الشعر في هذه الفترة نظروا إليها على أنها فترة الازدهار والعنفوان للنثر، يقول الدكتور شكري فيصل: (وإذا كانت السلائق الأدبية وجدت في التعبير الشعري بعض العوائق، سواء فيما كان من خصومة القرآن للشعر أو فيما كان من أثر الهجرات الحربية، فإن هذه السلائق قد وجدت متنفسها الذي انطلقت منه، في الأدب النثري، وكان هذا الأدب النثري الذي تفتح في صدر الإسلام عن أطيب الثمرات هو وحده الذي مثّل ازدهار الأدب، على حين كان الشعر يمثل نوعاً من الركود والانحدار)[1]، بل إنه يجعل من النثر أداة التعبير الأولى في صدر الإسلام، فيقول: (والواقع إننا إذا أردنا أن نلتمس الحياة الأدبية في هذا الدور فإنما يجب أن نلتمسها هنا، في نشأة النثر الأدبي وفي نموّه، وفي انصراف الناس إليه من دون ألوان التعبير الأخرى، فهذا النثر هو مقياس التطور الأدبي الذي يأخذ طريقه إلى التفتّح وينشر عبقه هنا وهناك)[2].

٣ ـ أن الإسلام لا يحارب الشعر كله، ولا يذم الشعراء جملة، ولا لأن الشعر فنٌّ من القول ممقوت أو أن الشعراء جماعة منكرة، وإنما جاء ذلك الذم لأمرين: أولهما راجع لمعناه، والثاني عائد لمبناه، أراد الإسلام من حيث المعنى أن يصحح مسار هذا الفن القولي، ويبتعد به عن المعاني الجاهلية الهابطة، كإثارة العصبيات وتغذية الفتن وتزيين الباطل وتحسين الشهوات، والإغراق في الهجاء والملاحاة، وهي معانٍ حاربها الإسلام في جميع قوالبها وأشكالها، بغض النظر عن كونها ترِد في الشعر أو النثر، وعلى هذا فالإسلام لم يذم الشعر مطلقاً من حيث هو شعر، بل ذم الشعر الذي يحمل المعاني الجاهلية ويروّج لها بين الناس، لأن ذلك الشعر في هذه الحالة يصطدم مع أبسط المبادىء الإسلامية الداعية للأخوة والوحدة والمساواة، وإلغاء الفوارق النَّسبية، ثم هو

---

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص ٣٥٠.
(٢) المرجع السابق.

ذمّ نوعـاً آخر من الشعراء وقف في وجه الدعوة وناصبها العداء وهجا المسلمين وشبّب بنسائهم، ومن حق الإسلام أن يفعل هذا، ويتنزل القرآن في سبب هؤلاء الشعراء المنحرفين وشعرهم الفاسد، وذلك تقدير منه للكلمة وإدراك لمدى تأثيرها في حياة الناس، وهل الحياة كلها سوى كلمـةٍ تحدد موقفاً، وفعل يترجم ذلك الموقف؟

وأما من حيث المبنى فإن الشعر كان عندهم المثل الأعلى للبلاغة، فلما بهروا ببلاغة القرآن نسبوه إلى الشعر، وقد يكونون أيضاً هدفوا إلى التسوية بين الرسول ﷺ وبين الشعراء إقلالاً لشأنه، وصدّاً للناس عن فكرة الرسالة، فذمّ الله الشعراء ونفى الشعر عن النبي ليبطل زعمهم، وليؤكد أن القرآن ليس من ذلك الطراز الشعري الساحر، الذي يؤثر في النفوس بوزنه وقافيته، وبما فيه من تزيين وتخييل، فهو تنزيل من حكيم حميد، نزل بلسان عربي مبين معجز، فهو أرقى من الشعر وأبعد تأثيراً، وأبلغ من النثر وإن جاء على بنيته ووزانه.

وقد أجمع المفسرون[1] على أن ما جاء من ذم للشعـراء في (سورة الشعراء) إنما كان المقصود به الشعراء المشركين الذين كانوا يؤذون رسول الله ويهجونه، والذين كانوا يقولون في الأغراض الجاهلية، كما أنه إبطال لنسبة القرآن إلى الشعر، يقول أبو السعود العمادي[2]: (إن هذا القول مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول الله من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام، بعد أن أبطل ما قالوه من أنه من قبيل ما تلقي الشياطين على الكهنة، بما مرّ من بيان أحوال الكهنة المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام). وذكر السيوطي تعليلاً آخر لتنزيه الرسول عن قول الشعر، فقال[3]: (إن علماء العروض مجمعون

(١) روح المعاني للألوسي ١٩: ١٤٥ وما بعدها. والكشاف للزمخشري ٣: ١٣٠ وما بعدها وغيرهما.

(٢) هامش الفخر الرازي ٧: ٣٠١.

(٣) المزهر للسيوطي ٢: ٤٧٠، والدد: اللهو.

على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع، إلا أن صناعة الإيقاع تقسيم الزمان بالنغم، وصناعة العروض تقسيم الزمن بالحروف المسموعة، فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع، والإيقاع ضرب من الملاهي، لم يصلح ذلك لرسول الله ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما أنا من دد، ولا ددٍ مني»، وفي هذا التعليل كثير من الوجاهة، بالإضافة إلى التعليل الذي ذكرته، وهو إبطال ما هدفوا إليه من الحط من شأنه ﷺ من نسبته إلى الشعر وقطع كل صلة بينه وبين السماء، ولهذا جاء رد القرآن حاسماً مشتملاً على ثلاث جمل، صُدِّرت كل واحدة منها بأداة نفي، فقال: ﴿ وما علّمناه الشعر، وما ينبغي له، إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين لينذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين ﴾[1] قال الزمخشري[2] حول ﴿وما علمناه الشعر﴾: (على معنى أن القرآن ليس بشعر، وما هو من الشعر في شيء، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفّى يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء من معانيه)، وقال حول[3] ﴿ وما ينبغي له ﴾: (وما يصح له... أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له ولم يتسهل، كما جعلناه أميّاً لا يتهدّى للخطّ ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض، وعن الخليل: كان الشعر أحب إلى الرسول ﷺ من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له، فإن قلت: فقوله:

أنا النبيُّ لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

قلت: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة ولا تكلّف. إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه أن جاء موزوناً، كما يتفق من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً، ولا يخطر ببال المتكلم ولا

(١) يس ٦٩.
(٢) الكشاف للزمخشري ٣: ٣٢٩.
(٣) المرجع السابق.

السامع أنها شعر)، وقال السيوطي بهذا الصدد[1]: (قيل: إن بعض الناس كتب في عنوان كتاب:

للإمام المسيب بن زهير بن عقال بن شبّة بن عقال

فاستوى هذا في الوزن الذي يسمى الخفيف، ولعل الكاتب لم يقصد به شعراً).

وفارق آخر مهم بين الشعر والقرآن غير الوزن والقافية يتمثل في المعنى والغرض، وهذا ما تشير إليه بقية الآية الكريمة ﴿إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين﴾ قال الزمخشري: (يعني ما هو إلا ذكرٌ من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن، كما قال: إن هو إلا ذكرٌ للعالمين. وما هو إلا قرآن وكتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين، فلكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين)، فالقرآن للوعظ والتذكير والإنذار وهداية الناس وتوجيههم إلى الخير وعبادة الله وإقامة الحجة على الكافرين، بينما الشعر الجاهلي لكل شيء غير هذا.

وقد فهم بعضهم من هذه الآية ذم القرآن للشعر مطلقاً، وليس الأمر كذلك كما قلنا قال ابن العربي[2]: (هذه الآية ليست من عيب الشعر، كما لم يكن قوله: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ من عيب الكتابة، فلم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي ﷺ من عيب الشعر).

وروي أن المأمون قال لأبي علي المنقري: (بلغني أنك أميٌّ، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء، وأما الأمية وكسر الشعر، فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يقيم الشعر، فقال له: سألتك على ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعاً، وهو

---

(١) المزهر ٢: ٤٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن المقرطبي ١٥: ٥٤.

الجهل، يا جاهل.. إن ذلك كان للنبيّ ﷺ فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة. وإنما منع النبي ﷺ ذلك لنفي الظنّة عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة).

وقد غالى أقوام في معابة الشعر لما وقر في نفوسهم من فهم خاطىء لهذه الآية، فراحوا ينفون عن الرسول ﷺ إقامة الوزن في التمثّل بالشعر، بطريقة تثير الضحك وتظهر الرسول بمظهر العجز، فقالوا: إنه أنشد قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك مَنْ لم تزوده بالأخبار

وإنه أنشد: كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً.

فقال له أبو بكر: يا رسول الله: إنما قال الشاعر:

هريرةَ ودِّع إن تجهزت غازياً كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهياً

والصحيح في رأيي أنه لا مانع البتة من أن يتمثل الرسول ﷺ بالشعر على وزنه الصحيح، وهو القائل: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» وأن يصيب بعض كلامه وزناً شعرياً كقوله:

أنا النبيُّ لا كذِبْ أنا ابنُ عبد المطّلب

لأن (التمثّل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره، لا يوجب أن يكون قائلها عالماً بالشعر، ولا يسمى شاعراً باتفاق العلماء، كما أن مَنْ خاطَ خيطاً لا يكون خياطاً، قال أبو إسحاق الزجّاج: معنى ﴿وما علمناه الشعر﴾: وما علمناه أن يشعر، أي ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئاً من الشعر. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا. وقد قيل: إنما أخبر الله عزّ وجلّ أنه ما علّمه الله الشعر، ولم يخبر أنه لا ينشد شعراً)[1]، وقد ثبت بالفعل تمثله ببعض الأشعار مستقيمة، كقول عبد الله بن رواحة:

---

(١) المرجع السابق ١٥ : ٥٣.

يبيت يجافي جنبه عن فراشه　　　إذا استثقلت بالمشركين المضاجع[1]

ومما تقدمَ يبين أنّ ليس كل شعر مذموماً ولا كل شاعر مرذولاً، وإنما ذلك منوط بالمعنى والغرض ووسيلة الأداء، فإن استقام ذلك كله سما الشعر وعلا قدر الشاعر، فكان محبباً للرسول ﷺ منسجماً مع دين الله، ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظُلِموا ﴾. وجاء حسان وكعب وابن رواحة وغيرهم من شعراء المسلمين إلى النبي ﷺ فقالوا: إن الله أنزل في الشعر ما أنزل، فقال رسول الله: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»[2].

٤ ـ إن ما جاء على لسان الرسول ﷺ من ذمٍ للشعر في قوله: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً»، يلتقي مع قوله الآخر: «من قال في الإسلام هجاءاً مقذعاً فلسانه هدْر»، أي أن المقصود منه ما أوضحناه آنفاً في الفقرة السابقة، ويوضحه ما ثبت عنه من حبٍّ للشعر وتحريض عليه، وإعجاب به وإثابة لبعض قائليه. وذلك حينما يكون متفقاً مع الروح الإسلامية منسجماً مع مبادىء الدعوة، مناصراً للحق رائداً للفضائل والأخلاق، مسهماً في بناء المجتمع وشد أواصره، فقد روي عنه أنه قال[3]: «إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه، فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه»، كما روي عنه[4]: «إنما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب»، فالأصل في الشعر والفضل فيه أن يوافق الحق، وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على أن يتجه الشعر إلى التعبير عن المفاهيم الإسلامية ونشر المُثل الجديدة، وأن ينأى عن ضلالات الجاهلية وعصبياتها، وكثيراً ما كان يطرب لسماع الشعر، ويقول حين يهتز لبعض روائعه: «إن من البيان

---

(١) المرجع السابق. واستثقلت: استقرت.
(٢) تفسير الخازن ٣: ٣٧٣. وأبجد العلوم للقنوجي ص ٥١٩.
(٣) العمدة لابن رشيق ١: ٢٧.
(٤) المرجع السابق.

لسحراً وإن من الشعر لحُكْماً أو حكمة»[1]. وهو بهذا يؤكد القيمة الفنية للشعر، بعد أن أكد بما سبق مهمته في الحياة ونَهج له وجهته الصحيحة، ففي شقّيْ هذا الحديث تتضح هذه القيمة الفنية التي ينبغي أن تتم في الشعر، فهو قوة مؤثرة تنفذ إلى القلوب فتخلبها بجمالها وتجعلها تستجيب لما تـودُّ أن تستجيب له، وتنصرف عمّا ترغب الانصراف عنه، وهو ذو غاية شريفة يحمل في طواياه الحكمة والفكر والغذاء العقلي أيضاً، فلا يستعمل في الشر وإثارة الفتن كما يحلو لبعضهم استعماله، وبذلك يتحقق دوره الإيجابي في الحياة.

وروى الترمذي عن جابر بن سمرة قال: (جالست النبيَّ ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، وربما ابتسم معهم)[2].

وقد سبق أن ذكرنا استماعه لشعر ابن الخطيم يقال في مجلسه وأنه سأل الخزرج عن مدى صدقه في قوله:

أُجالدهم يـوم الحديقـة حاسـراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فأجابوه بأن ابن الخطيم كان صادقاً في ذلك.

وروي عن عائشة[3] قالت: (كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد، ينشد عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله ﷺ).

وروى مسلم عن عائشة أيضاً قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى[4]، يعني من المشركين وشعرائهم.

وذكر أبو الفرج أن الرسول ﷺ حين اشتدّ عليه أذى شعراء قريش قال

---

(١) المرجع السابق ١: ١٢.
(٢) أبجد العلوم ص ٢٠٣ ـ تفسير الخازن ٣: ٣٧٤.
(٣) أبجد العلوم ص ٢٠٣.
(٤) المرجع السابق.

للأنصار: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال: والله ما يسرّني به مقول بين بصرى وصنعاء)[١]، وانضم إليه كعب وابن رواحة.

وقال لحسان: (اهجهم وروح القدس معك)[٢].

وأنشد النابغة الجعدي النبي ﷺ قوله:

بلغنا السماء مجدُنا وجدودُنا وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فأُعجب به[٣] لكنه قال: فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال النابغة: الجنّة. فقال الرسول ﷺ: قال: إن شاء الله، فقال: إن شاء الله، ثم قال:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له النبي ﷺ: أجدت، لا يفضُضِ الله فاك، قالوا[٤]: وقد عمّر النابغة أكثر من مائة سنة، وما انفضّ من فيه سنٌّ ببركة هذا الدعاء.

وذكر ابن[٥] رشيق أن حسان بن ثابت أنشد الرسول ﷺ، وهو يجاوب الشاعر المكي أبا سفيان بن الحارث قوله:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فقال له: جزاؤك عند الله الجنة يا حسان.

فلما قال:

---

(١) الأغاني ٤: ١٣٧ دار الكتب.
(٢) الجمهرة ص ٣٠.
(٣) الأغاني ٥: ٩ ثقافة وفي العمدة ١: ٢٨ فغضب النبي.
(٤) المرجع السابق وأبجد العلوم ٢٠٣ والعمدة ١: ٢٨ وجمهرة أشعار العرب ص ٣٣.
(٥) العمدة ١: ٢٨..

فإن أبي ووالدَه وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

قال له: وقاك الله حرّ النار، فقضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة، وسبب ذلك شعره.

والجزء الإسلامي[1] من هذه القصيدة الذي تضمن البيتين السابقين قاله حسان قبل فتح مكة ردّاً على هجاء أبي سفيان بن الحارث للنبي ﷺ، وهو[2]:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثيرُ النقع، موعدُها كداء[3]
يبارين الأعنَّة مصعدات على أكتافها الأسل الظِّماء[4]
تظلُّ جيادنا متمطراتٍ تلطّمهنّ بالخُمُر النساء[5]
فإمَّا تُعرضوا عنا اعتَمَرْنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يومٍ يُعزُّ الله فيه من يشاء
وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس له كِفاء[6]
وقال الله: قد أرسلتُ عبداً يقول الحق إنْ نفع البلاء[7]
شهدتُ به، فقوموا صدِّقوه فقلتم: لا نقوم، ولا نشاء
وقال الله: قد يسّرتُ جنداً هم الأنصار عُرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معدٍّ سباب، أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرِب حين تختلط الدماء

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أن مقدمتها جاهلية، للحديث الصريح فيها عن الخمرة.
(٢) ديوان حسان ص ٨.
(٣) كداء: الثنية العليا بمكة.
(٤) يبارين: يجارين الأعنة في سرعة الانقياد.
(٥) متمطرات: مسوعات. الخمر: واحده خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والغاية من التلطيم هنا: رد الخيل عن غايتها.
(٦) كفاء: نظير.
(٧) البلاء: الامتحان.

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوّف نخب هواء[1]
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبدُ الدار سادتها الإماء[2]
هجوتَ محمداً، فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه، ولستَ له بكفءٍ ... فشرُّكما لخيركما الفداء
هجوت مباركاً، بَرّاً، حنيفاً ... أمين الله، شيمتُه الوفاء
فمن يهجو رسولَ الله منكم ... ويمدحه، وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
فإمّا تثقفنَّ بنو لؤيّ ... جذيمة، إنّ قتلهم شفاء[3]
أولئك معشر نصروا علينا ... ففي أظفارنا منهم دماء
وحلفُ الحارث ابنِ أبي ضرار ... وحلف قريظة منّا براء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدّره الدلاء

ومن رضاه على حسان أنه وهب له إحدى الجاريتين اللتين أهداهما إليه المقوقس ملك مصر، عقب قصيدة له، بينما خصّ نفسه بالثانية، وقد استولدها حسان ابنه عبد الرحمن:

وكان الرسول ﷺ يعجبه قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظلُّه ... حتى أنال به كريم المأكل

وقال: (ما وصف لي أعرابي قطّ فأحببت أن أراه، إلّا عنترة)[4].

وذكر أبو الفرج[5] أنه قيل لرسول الله: إن أبا سفيان بن الحارث

---

(١) المجوف: الجبان لا قلب له. ومثله: النخب، والهواء.
(٢) عبد الدار: هم قوم أبي سفيان بن الحارث، وحسان هنا يشير إلى موقف بني عبد الدار في بدر، وأن الذي استنقذ رايتهم جارية منهم.
(٣) تثقفن: ماضيه ثقف، أي أدركه وظفر به.
(٤) الأغاني ٨: ٢٤٣ دار الكتب.
(٥) الأغاني ١٥: ٢٨ دار الكتب.

القرآن شيئاً. .؟ فقرأ سورة (عَبَس) وزاد فيها من عنده: وهو الذي أخرج من الحبلى نَسَمةً تسعى، من تراسيف وحَشىً، فصاح به النبيّ ﷺ وقال له: كُفّ، فإن السورة كافية. ثم قال: هل تروي من الشعر شيئاً؟ فأنشده:

حيِّ ذوي الأضعان تَسْبِ قلوبَهمْ ... تحيّتَكَ القُربَى، فقد تُرقَع النَّعَلْ
وإن دحَسوا بالكرْهِ فاعفُ تكرُّماً ... وإن خَنَسوا عنك الحديثَ فلا تَسَلْ[1]
فإن الذي يؤذيك منه سماعُه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَل

فقال النبي ﷺ: «إن من الشعر حِكَماً، وإن من البيان سحراً».

وعن زهير[2] بن صرد الجشمي قال: لما أسَرَنا رسولُ الله ﷺ يوم هوازن ذهب يفرق السبي فأتيتُه فقلت:

امنُنْ علينا رسولَ الله في كرَمٍ ... فإنك المرءُ نرجوه وننتظر
امنُن على بيضةٍ قد عاقها قدر ... مشتِّتٌ شملَها، في دهرها غِيَر
أبقت لنا الدهر هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغمَّاء والغمر
إن لم تداركهمُ نعماءُ تنشرها ... يا أرجح الناس علماً حين يُختبر
امنُن على نسوة قد كنت تَرْضعُها ... وإذ يَزينك ما تأتي وما تذَر
لا تجعلنّ كمن شالت نعامتُه ... واستبق منّا فإنّا معشر زُهُر
إنا لنشكر للنَّعماء إذ كُفرَتْ ... وعندنا بعد هذا اليوم مدّخر
فألبِس العفْوَ مَنْ قد كنت تَرْضعه ... من أمهاتك، إنّ العفو مشتهر
يا خير من مرِحت كُمْتُ الجياد له ... عند الهياج إذا ما استُوقد الشرر
إنا نؤمّل عفواً منك تلبسه ... هذي البرية، إذ تعفو وتنتصر
فاعفُ عفا الله عما أنت واهبُه ... يوم القيامة إذ يُهدَى لك الظَّفر

---

(١) دحسوا: دحس بين القوم: أفسد بينهم. وخنسوا: أخفوا.
(٢) التراتيب الإدارية ١: ٢١٦.

عمرو بن سليم الخزاعي المدينة على الرسول مستنصراً فأنشده[1]:

يـا رب إنّي نـاشـدٌ محمـدا ... حلفَ أبيـنـا وأبيـه الأتـلدا
نحن ولـدنـاهم، فكـانـوا ولَـدا ... ثُمَّت أسلمنـا، فلم ننزع يـدا
إن قـريشـاً أخلفـوك الموعـدا ... ونـقضـوا ميثـاقـك الـمؤكّـدا
ونصبـوا لي فيـك داءاً رَصـداً ... وبيّتـونـا بـالـوتيـر هُـجّـدا
وقـتّـلونـا ركّـعـاً وسـجّـدا ... وزعمـوا أنْ لست تـدعـو أحـدا
وهـم أذلُّ وأقـلُّ عـدداً ... فـانصـرْ هـداك الله نصـراً أيِّـدا
وادع عـبـادَ الله يـأتـوا مـدَدا ... فـيهـم رسـولُ الله قـد تجـرّدا
إن سيم خسفـاً وجهُـه تـربَّـدا ... في فيلق كـالبحر يجـري مُزْبـدا

فدمعتْ عينا رسول الله ﷺ، ونظر إلى سحابة قـد بعثها الله فقـال: (والذي بعثني بالحق نبيّاً إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب، وخرج من معه لنصرهم).

ووفد قرة[2] بن هبيرة العامري في قومه على الرسول فبايعه وأسلم، فحياه وكساه بُردين، وحمله على فرس، واستعمله على قومه فقال قرة يذكر ذلك، ويذكر ناقته في قصيدة له طويلة:

حبـاها رسـول الله، إذ نزلت بـه ... وأمكنهـا من نـائـل غيـر مفنـد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبـرَّ وأوفـى ذمـة من مـحمـد
وأكسَى لبرد الحال قبـل ابتذالـه ... وأعْـطى لرأس السـابح المتجـرِّد

وكذلك وفد[3] العلاء بن الحضرمي على النبي ﷺ فقال: أتقرأ من

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣٣.
(٢) المرجع السابق ص ٣٤.
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢:١٨ والممتع في علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي ص ٣١ تحقيق د/منجي الكعبي ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس.

الشعر؟ فقال رسول الله: (خلّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل)[1].

وروى عمر بن الشريد عن أبيه قال: ردفت وراء النبي ﷺ فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم، قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال، هيه، ثم أنشدته بيتاً، قال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت، فقال: (لقد كاد يسلم في شعره)[2]، وقال فيه[3] في مناسبة أخرى: (آمن لسانه وكفر قلبه).

وقدم على رسول الله ولد يشكو أباه في مال له، فأنشده الوالد أبياتاً قالها في ابنه، وهي:

غذوتك مولوداً، وعلْتُك يافعاً ... تعلّ بما أحنو عليك وتنهل
إذا ليلة نابتْك بالسقم لم أبِتْ ... لسقمك إلاَّ ساهراً أتململ
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت حتم موكّل
كأنّي أنا المطروق دونك بالذي ... طُرقت به دوني فعيني تَهمل
فلما بلغت السنَّ وِالغاية التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمِّل
جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضِّل
فليتك إذ لم ترع حقَّ أبوّتي ... فعلتَ كما الجار المجاور يفعل

فبكى رسول الله، ثم أخذ بتلابيب ابنه، وقال له: (اذهب فأنت ومالك لأبيك)[4].

وأغارت قريش على خزاعة وكانت خزاعة في حلف مع النبي، فقدم

---

(١) تفسير الخازن ٣: ٣٧٣ وأبجد العلوم ص ٥١٩.
(٢) أبجد العلوم ص ٢٠٧ والتفسير نفسه.
(٣) أبجد العلوم ص ٢٠٧.
(٤) المرجع السابق ص ٢٠٤.

يهجوك، فقام عبد الله بن رواحة فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، فقال: أأنت الذي تقول: (فثبّت الله)؟ قال: نعم، يا رسول الله، أنا الذي أقول:

فثبّت الله ما أعطاك من حسن   تثبيتَ موسى، ونصراً كالذي نصروا

فقال: وأنت فعل الله بك مثل ذلك. قال: فوثب كعب بن مالك، فقال: يا رسول الله ائذن لي. فقال: أنت الذي تقول (همّت)؟ قال: نعم، يا رسول الله، أنا الذي أقول:

همّت سَخينة أن تغالِب ربها   وليُغلبَنَّ مغالبُ الغلّاب[1]

فقال له: أما إن الله لم ينسَ ذلك لك.

وذكر أيضاً أن النبي خرج على كعب بن مالك وهو ينشد فلما رآه كأنه انقبض، فقال: ما كنتم فيه؟ فقال كعب: كنت أنشد، فقال رسول الله ﷺ: أنشِد، فأنشد حتى أتى على قوله: (مَقاتِلنا عن جذ منا كلِّ فخمة) فقال رسول الله ﷺ: لا تقل: مقاتلنا عن جذمنا، ولكن قل: مقاتلنا عن ديننا.

ووقف رسول الله ذات مرة بباب كعب بن مالك فخرج فأنشده، ثم قال: إيه، فأنشده ثلاث مرات، فقال الرسول: لَهذا أشد عليهم من وقع النبل[2].

ودخل رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

خلُّو بني الكفار عن سبيله   اليوم نضربْكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول

(١) السخينة: طعام يتخذ من الدقيق، دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء وكانت قريش تعيّر بها، لاقتصارها عليها في الأزمة، ثم صار لقباً لها.
(٢) المرجع السابق.

وتشفع كعب بن زهير بشعره للرسول فقبل اعتذاره وحقن دمه بعد أن كان أهدره، وذلك في قصيدته (بانت سعاد) وقد تغزل فيها وشبّه رضابها بالخمر، وخلع عليه الرسول بسببها بردته وقالوا: إنه لما سمع قول كعب:

إن الرسول لنورٌ يستضاء به ... مهند من سيوف الهند مسلول

قال له: بل من سيوف الله، فقال كعب: (مهند من سيوف الله مسلول).

وهكذا يتبين أن الرسول لم يحارب كل شعر، وإنما حارب شعراً بعينه، ولم يذم كل الشعراء، وإنما ذمّ الشعراء الذين وصفهم القرآن بالطيش والسفاهة والغواية، وفي غير ذلك كان يستعذب الشعر ويبدي إعجابه به ويثيب عليه ويشجع قائليه، ويعتبره نوعاً من الجهاد في سبيل الله، وهو القائل: (الشعر ديوان العرب)[1]، والقائل: (الشعر كلام من كلام العرب جزل، تتكلم به في نواديها وتسلّ به الضغائن بينها)[2]. فالرسول ﷺ حارب الشعر الفاسد المناوىء للدعوة والحامل شعار الجاهلية، وكان دائماً يتعهد الشعر ويرعى الشعراء ويوجههم الوجهة الصحيحة التي تتفق مع شريعة الله. وقد بلغ الشعراء الصحابة الذين مدحوه ﷺ بين رجال ونساء قرابة مائتين[4]، جمعهم الحافظ فتح الدين محمد بن محمد الأندلسي المعروف بابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ في قصيدة ميمية ثم شرحها في مجلد سمّاه (منح المدح) ورتبهم على حروف المعجم، من بينهم صاحب القصيد، وصاحب البيت المفرد.

٥ ـ وقد كان موقف الصحابة من الشعر مستمدّاً من موقف القرآن والرسول منه، يقبلون منه ما كان منسجماً مع عقيدتهم، ويرفضون كل ما فيه شبهة جاهلية، فكان بعضهم يقوله ويُعَرف به في الجزيرة العربية كلها كشعراء الرسول الثلاثة، وبعضهم يقرض منه البيت والبيتين وأكثر، أو يتمثل به.

---

(١) الجمهرة ص ٣٠ والعمدة ١: ٢٨ سعادة.

(٢) الجمهرة ص ٣٠ والعمدة ١: ٢٨ سعادة.

(٣) التراتيب الإدارية ١: ٢١٠.

فلما سمعه الرسول ﷺ قال: ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقالت قريش: ما كان لنا فهو لله ورسوله، وقالت الأنصار كذلك، وجرى العفو عليهم بسبب هذا الشعر الذي ذكر فيه الشاعر الرسول باسترضاعه فيهم.

وعرضتْ له ﷺ قتيلة[1] بنت النضر بن الحارث وهو يطوف فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشَف منكبه، وقالت تبكي أباها، وقد كان أُخذ أسيراً يوم بدر وقتله النبي لكثرة عدائه للدعوة وشدة أذاه:

أيــا راكبــاً إنْ الأثيــل مــظنّــةٌ	من صبح خامسة وأنت موفق[2]
أبـلغ بهــا ميّتــاً بــأن تــحيــة	ما إن تزال بهـا النجائبُ تخفق
منّي إليــك وعبــرة مسفــوحــة	جـادت بـواكفهــا وأخـرى تخنق
هــل يسمعنّي النضــر إن ناديتـه	أم كيف يسمــع ميت لا ينـطق
أمحمـد يــا خيـر ضِنْء كـريمـةٍ	في قومها، والفحلُ فحل مُعْرق[3]
مــا كان ضـرَّك لو مننتَ وربمـا	منَّ الفتى وهــو المغيظ المحنق
أو كنت قــابـلَ فــديـة فلينفقنْ	بــأعـزّ مــا يغلو بــه مــا ينفق
فـالنضر أقـربُ مَنْ أسرتَ قـرابة	وأحـقُّهـم إنْ كــان عتـق يعـتق
ظلت سيــوف بني أبيـه تنـوشـه	لله أرحــام هـنــاك تُـشـقَّـق[4]
صبــراً يقـاد إلى المنيــة متعبـاً	رسف المقيّـد وهـو عـانٍ مـوثَق

فقال رسول الله، لو سمعتُ شعرها هذا قبل قتله لمننت عليه[5].

---

(١) كانت قتيلة هذه تحت الحارث بن أبي أمية، فهي جدة للثريا بنت عبدالله بن الحارث التي يقول فيها عمر بن أبي ربيعة حين خطبها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف:

أيهـا المنـكـح الـثـريـا سُـهـيـلا	عــمـرك الله كـيـف يـلتـقـيـان
هِـي تـآمـيّـة إذا مـا اسـتـقـلّت	وسـهـيـل إذا اسـتـقـلّ يمـاني

(٢) الأثيل: موضع قرب المدينة ووادي الصفراء، مظنة: موضع إيقاع الظن.

(٣) الضنء: الأصل والولد، والمعرق: الكريم.

(٤) تنوشه: تتناوله. وتشقق: تقطع.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٢ والعمدة ١: ٣٠.

يقول المفضل الضبّي[1]: (ولم يبق أحد من أصحاب رسول الله إلا وقد قال الشعر وتمثّل به)، ويقول الشعبي[2]: (كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان علي أشعر منهما)، وفي سيرة ابن هشام والروض الأنف، وفي العمدة، وجمهرة أشعار العرب، وفي تفسير القرآن للألوسي شعر كثير منسوب للخلفاء الراشدين وغيرهم من أكابر الصحابة كحمزة وعبيدة بن الحارث وغيرهما من الأنصار والمهاجرين، وإن شكّ بعض الناس في تلك النسبة.

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: (لمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مرض المسلمون بها، فكان ممّن اشتد به مرضه أبو بكر، وبلال، وعامر بن فهيرة، فكان أبو بكر يقول في مرضه:

كل امرىء مصبحٌ في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بفخٍّ، وحولي أذخُر وجليل[3]
وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجنّة ... وهل تبدون لي شامة وطفيل[4]

وكان عامر بن فهيرة يقول:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إنّ الجبان حتفُه من فوقه
كل امرىء مجاهدٌ بطوقه ... كالثور، يَحْمي جلدَه بروْقه

فأُخبر رسولُ الله ﷺ بذلك، فقال: (اللهمّ طيِّب لنا المدينة كما طيبت لنا مكة، وبارك لنا في مُدِّها وصاعها)[5].

---

(١) الجمهرة ص ١٩.
(٢) تفسير الخازن ٣: ٣٧٤.
(٣) فخ: مكان أصبح الآن من مكة.
(٤) شامة: اسم موضع، طفيل: اسم موضع.
(٥) فتوح البلدان ص ٢٥.

وما كان أصحاب رسول الله متزمتين ولا متحرجين، مما يتعاطاه الناس من بليغ القول، وطيب الشعر، ولم يقطع الإسلام بينهم وبين آداب الجاهلية وأشعارها ما دامت في حدود الإسلام، وضمن مكارم الأخلاق، سئل الحسن البصري يوماً: (أكان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون؟ فقال: نعم، ويتقارضون من القريض، وهو الشعر)[1]، وقال أبو سلَمة: (لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الأشعار، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أُريد أحدهم على شيء من أمر دينه، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون)[2].

وكان ما ينزل بعائشة شيء إلا أنشدت فيه شعراً[3]، وكان ابن عباس يقول: (إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر فإنه ديوان العرب)[4].

واستمرت مجالس الشعر وإنشاده في المدينة في مجلس الخلفاء وغيرهم، وبينما حسان ينشد يوماً، إذ وقف عليه أعرابي، فقال له حسان: كيف تسمع يا أعرابي؟ قال: ما أسمع بأساً، قال حسان: أما تسمعون إلى الأعرابي؟ ما كنيتك أيها الرجل؟ قال: أبو مليكة. قال: ما كنت قطّ أهون عليّ منك حين اكتنيت بامرأة، فما اسمك؟ قال الحطيئة، فأطرق حسان، ثم قال له: امضِ بسلام[5]. وكان عمر يقول[6]: الشعرُ علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه.

وقدم بعض الشعراء عليه بشعرهم في بعض المناسبات واستمع إليهم ومنهم معن بن أوس المُزني الذي وفد عليه مستعيناً على بعض أمره، وخاطبه بقصيدته التي أولها:

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري ٢: ٣٣٩ طبع حيدر آباد ـ الهند.
(٢) المرجع السابق ١: ٢٨٥.
(٣) الاستيعاب ٤: ١٨٨٣.
(٤) شرح الحماسة للتبريزي ١: ٣.
(٥) الأغاني ٢: ١٤٢ ثقافة.
(٦) العمدة ١: ٢٨ سعادة.

تــأوّبــه طيفٌ بــذات الجــراثم   فنــام رفيقــاه، وليس بنــائم[1]

ولهذا الشاعر أيضاً مدائح في جماعة من الصحابة، منهم عبد الله بن جحش وعمر بن أبي سلمة المخزومي[2].

وأرسل أحدهم شكواه إلى عمر شعراً وقضى له، فعن ابن شبّة في تأديب عمر بن الخطاب الرعية في أمر دينهم، أن رجلاً من أشجع[3] يدعى (بقيلة) كان غازياً فبلغه أن جعدة بن عبد الله السُّلمي يحدّث النساء، وأن جواري يخرجن إلى سلع فيحدثهنّ، ثم يعقل الجارية ويقـول: قومي في العقال، فإنه لا يصبر على العقال إلا حَصان، فتقوم ساعة ثم تسقط، فربما تكشفت، فكتب الأشجعي إلى عمر.

ألا أبــلغ أبــا حــفص رســولاً   فـدى لك من أخي ثقـة إزاري
فمــا قلُصٌ تـقمْـنَ معـقّــلات   قـفــا سلع لـمختلف الـتجــار
قـلائص من بني سعـد بن بكـر   أو أسْلَم، أو جهينــة، أو غفـار
يـعـقّـلهـنّ جـعــدةُ مـن سُـليـم   سعيــداً يبتغي سقْط العــذاري
قــلائـصُـنــا، هــداك الله، إنّــا   شُـغلنــا عنـهـمُ زمنَ الـحصــار
يـعـقّــلهـنّ أبــيضُ شـيْـظمِــيٌّ   فبئس معقّــل الــذود الـطواري

فدعا عمر بجعدة فقال: أنت لعمري كما وصف، أبيض شيظميّ، وسأله فأقرّ، فضربه مائةً معقولاً، وغرّبه إلى الشام، فكُلِّم فيه، فأذِن له على أن لا يدخل المدينة، ثم أذِن له أن يجمّع، ثم أذِن له أن يدخل في الجمعة مرتين[4].

---

(١) الجراثم: اسم موضع. وقد عمِّر معن إلى أيام الفتنة بين ابن الزبير وابن الحكم، وكان شاعراً مجيداً فحلا من المخضرمين.

(٢) الأغاني ١٢: ٥٠.

(٣) كانت أشجع من القبائل التي سكنت المدينة في صدر الإسلام، وكانت منازلها في شعب جبل سلع الذي في شرقيه، هذا الذي قبل ثنية الوداع، أو في الشعب الذي بعدها شمالاً.

(٤) وفاء الوفاء ٢: ٧٦٣.

وحين هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر هجاءاً مقذعاً بقصيدته السينية التي منها:

دع المكـارم لا تـرحـل لبغيتهـا   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

حبسه عمر، لأنه نهش عرض مسلم معصوم الدم والعرض، ولم يجد الحُطيئة أمامه إلا الاعتذار شعراً، واستعطاف عمر على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة:

مـاذا تقـول لأفـراخ بـذي مَـرَخ   زُغْب الحواصل لا ماءٌ ولا شجر

ألقيتَ كـاسبَهُمْ في قعر مُـظلِمة   فـاغفِرْ عليـك سلامُ الله يـا عمـر

فعفا عنه، وأخذ عليه العهد بأن لا يتعرض بعدها بالهجاء لأحد، وأعطاه ما يصلح به حاله.

وكان عمر يسمع رثاء الشاعر متمّم بن نويرة في أخيه مالك وتدمع عيناه لذلك الرثاء. ومنه قوله[1]:

لعمري، وما دهري بتأبين مالك   ولا جـزع مما أصـاب فـأوجعـا

لقـد كفن المنهـال تحت ردائـه   فتى غير مبطان العشيّـات أروعا

لبيبـاً أعـان اللُّبَّ منـه سمـاحـةٌ   خصيباً إذا ما راكبُ الجذْب أوضعا

ومنهـــا:

أَبى الصبـرُ آياتٍ أراهـا، وإنّني   أرى كلَّ حبل بعد حبلك أقطعا

وإنّي متى ما أدع باسمك لا تُجبْ   وكنت حـريّاً أن تجيب وتَسمعـا

سقى الله أرضاً حلّها قبـرُ مالـك   ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا

فـوالله مـا أسقي البــلاد لحبِّهـا   ولكنني أسقي الحبيب المـودَّعـا

وإنما نهى عمر الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي

(١) تاريخ الأدب العربي ـ الأدب القديم ـ للدكتور عمر فروخ ص ٣٠٢ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٩.

قريش، وقال[1]: في ذلك شتم الحيّ بالميت وتجديد الضغائن، وقد هدم الله أمرَ الجاهلية بما جاء من الإسلام.

وفي عهده قدم المدينة ابن الزبعرى، وضرار بن الخطاب الفهري، فنزلا على أبي أحمد بن جحش الشاعر، وطلبا منه أن يدعو لهما حسان بن ثابت، فلما جاءه قال له: يا أبا الوليد، هذان أخواك ابن الزبعرى وضرار قد جاءا، يريدان أن يسمعاك وتسمعهما، ما قالا لك وقلت لهما، فقالا له: نعم يا أبا الوليد إن شعرك كان يحتمل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا، فقال حسان: أفتبدآن أم أبدأ؟ قالا: نبدأ نحن، فأنشداه حتى فار وصار كالمرجل غضباً، ولم ينتظرا ردَّه، بل استويا على راحلتيهما يريدان مكة، وكأنهما كانا يريان بذلك أنهما اشتفيا من حسان، رغم إسلامهما. فازداد غضب حسان وخرج إلى مجلس عمر ترتعش فرائصه، يكاد يتميز من الغيظ، وقصّ عليه قصتهما معه. فهدّأ عمر من غضبه، وقال له: لن يذهبا عنك بشيء إن شاء الله، وأرسل وراءهما من يردّهما ولو كانا في مكة، فأدركهما بالرَّوْحاء وردّهما إليه، فدعا لهما بحسان وعمر في جماعة من أصحاب رسول الله، فقال حسان: أنشدهما مما قلت لهما، فأنشدهما حتى فرغ، فقال له عمر: أفرغت؟ قال: نعم، فقال له: أنشداك في الخلاء وأنشدتهما في الملا، وقال لهما عمر: إن شئتما فأقيما، وإن شئتما فانصرفا. وقال لمن حضره: إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم، فأما إذ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به، فدوّنوا ذلك عندهم، قال خلّاد بن محمد: فأدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه[2].

ولعل هذا الشعر المدوّن من شعر الأنصار هو الذي عثر عليه حمّاد الراوية في إحدى ليالي تشطره فنظر فيه، فأعجبه وكان سَبب انصرافه إلى

---

(١) الأغاني ٤: ١٤٤.

(٢) المرجع السابق.

العلم والرواية والأدب وترك ما كان عليه.

وفي غزوة أُحد وقفت هند بنت عتبة على صخرة مشرفة ترفع صوتها بالشعر وتعيّر المسلمين بالهزيمة وباشتفائها من حمزة، وجاء عمر يستثير حسان للرد عليها فقال له: يا ابن الفريعة، لو سمعت ما تقول هند ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا، وتذكر ما صنعت بحمزة، قال له حسان: أسمعني بعض قولها أكفكموها، فأنشده عمر بعض ما قالت: فقال حسان يهجوها هجاءً فيه كثير من الإقذاع[1]:

أشِرتْ لكاعِ وكان عادتها	لؤماً إذا أشرت من الكفر
لعن الإلَهُ وزوجَها معها	هندَ الهنود طويلةَ البُظْر
أخرجْت مُرْقصة إلى أُحُد	في القوم، معنقة على بكر[2]؟
بكر ثفالٌ لا حراك به	لا عن معاتبة ولا زجر[3]
وعصاك استك تتقين بها	دق العجاية عاري الفهر[4]
قرحت عجيزتُها ومشرجُها	من دأبها نصّاً على القتر[5]
ظلت تداويها زميلتها	بالماء تنضحه، وبالسدر
أخرجت ثائرة مبادرة	بأبيك وابنك يوم ذي بدر؟
وبعمك المستوه في ودَعٍ	وأخيك، منعقرين في الجفر[6]
ونسيت فاحشةً أتيتِ بها	يا هندُ ويحك سبّة الذكر

---

(١) الديوان ص ١٣٢.

(٢) مرقصة: أي ترقص بكرها، أي تجعله يسرع. معنقة: من قولهم: أعنق، أي أسرع. البكر: الجمل القوي.

(٣) ثفال: بطيء.

(٤) العجاية: عصب مركب فيه فصوص من عظام كفصوص الخاتم تكون عند رسغ الدابة الفهر: حجر يدق به الجوز ونحوه.

(٥) قرحت: تجرحت. المشرج: عصية تحت الدبر. النص: زجر الناقة لتسرع.

(٦) الجفر: البئر.

فـرجـعـت صـاغـرة بـلا تِـرَة   منّـا ظفـرتِ بـهـا ولا نصـر
زعـم الـولائـد أنـهـا ولـدت   ولـداً صغيـراً كـان من عهـر

وأوصى عمر[1] أيضاً ابنه عبد الرحمن فقال: يا بني، انسب نفسك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسُن أدبك، فإن مَنْ لم يعرف نسبه لم يصل رحِمَه، ومَنْ لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً، ولم يقترف أدباً.

واتبع عثمان سُنّة عمر في التشديد على مَن يسلقون المسلمين بألسنتهم، فقد حبس الشاعر ضابىء بن الحارث البرجمي لهجائه جماعة من الأنصار وظل في حبسه حتى مات، قال ابن سلام[2]: (كان ضابىء بن الحارث رجلاً بذيّاً كثير الشر، وكان بالمدينة وكان صاحب صيد وصاحب خيل، فركب فرساً له يقال له قيّار، وكان ضعيف البصر ولقيّار يقول:

فمن يـكُ أمسى بـالمـدينـة رحله   فـإنّي وقيّـاراً بهـا لغـريب[3]
وما عاجلاتُ[4] الطيرِ تُدني من الفتَى   نجـاحـاً، ولا عن رَيثهنّ نحيب
ورُبَّ أمـورٍ لا تَضيـرك ضَيـرةً   وللقلب من مَخشـاتهـنّ وَجيـب
ولا خيـرَ فيمن لا يـوطِّن نفسـه   على نـائبات الـدهر حين تنـوب
وفي الشك تفريط وفي الحزم قوّةٌ   ويخطىء في الحَدْث الفتى ويصيب[5]

ثم إنه وطىء صبيّاً بدابته فقتله، فرفع إلى عثمان بن عفان، فاعتذر

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣٥.
(٢) طبقات فحول الشعراء ١: ١٧٢ ـ ١٧٥.
(٣) يقول: إني بها لغريب، وقياراً أيضاً ورواه ابن مالك في التوضيح بالرفع وأتى به شاهداً على جواز العطف بالرفع على اسم إنّ حسب رأي الكسائي والفراء، قبل أن تستكمل خبرها، قالوا ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.. الآية﴾ حيث عطف (الصابئون) بالرفع على محل: (الذين آمنوا) مثل استكمال الخبر وهو: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ (التصريح١: ٢٢٨).
(٤) عاجـلات الطير: هي التي تقدم للطيران ليزجر بها الإنسان إذا خرج، وإن أبطأت عليه وانتظرها فقد راثت.
(٥) الأبيات الأربعة الأخيرة من لسان العرب مادة (قير).

بضعف بصره، وقال: لم أره ولم أعمده، فحبسه عثمان ما حبسه، ثم تخلص. وكان استعار كلب صيد من قوم من بني نهشل، يقال له قرحان، فحبسه حولاً، ثم جاؤوا يطلبونه وألحوا عليه حتى أخذوه، فقال ضابىء:

تجشم دوني وفد قرحان خطّة ... تظل بها الوجناء وهي حسير[١]
فأردفتهم كلباً، فراحوا كأنما ... حباهم بتاج المرزبان أمير[٢]
فأمَّكمُ.. لا تتركوها وكلبكم ... فإن عقوق الأمهات كبير[٣]
إذا عثنتْ من آخر الليل دخنة ... يظل لها فوق الفراش هرير[٤]

فاستعدوا عليه عند عثمان، فقال: ويلك.. ما سمعت أحداً رمى امرأة من المسلمين بكلب غيرك، وإني لأراك لو كنت على عهد رسول الله ﷺ لأنزل الله فيك قرآناً، ولو كان أحد قبلي قطع لسان شاعر في هجاء لقطعت لسانك، فحبسه في السجن فعرض أهل السجن يوماً، فإذا هو قد أعدّ حديدة يريد أن يغتال عثمان بها، فأهانه وركسه في السجن، فقال:

لا يعطينْ بعدي امرؤ ضيمَ خطّة ... حذار لقاء الموت، والموتُ نائله[٥]
فلا تتبعنّي إنْ هلكتُ ملامة ... فليس بعار قتلُ مَنْ لا تقاتله[٦]
هممتُ، ولم أفعل، وكدتُ وليْتَني ... تركتُ على عثمان تبكي حلائله
وما الفتك ما آمرت فيه ولا الذي ... تُخبِّرَ من لاقيتَ أنك فاعله[٧]

---

(١) الخطة هنا: الطريق. الوجناء: الناقة التامة الخلق، الصلبة الشديدة. حسير: انقطع سيرها من الإعياء والكلال.
(٢) أردفته شيئاً: اتبعته.
(٣) أمكم: منصوب على الإغراء، أي الزموا أمكم.
(٤) عثنت: دخنت، والعثان: الدخان. والدخنة: بخور يدخن به البيت والثياب، يريد إذا استيقظ الناس في آخر الليل، وظهر الدخان في الحي. والإقذاع في الشطر الأخير.
(٥) ضيم خطة: أراد خطة ضيم، أي رضي بها وقبلها.
(٦) أي ليس بعار أن يقتلك من لا تملك أن تقاتله أو تقتله، كالسلطان الغالب.
(٧) آمرت فيه: شاورت فيه، وكان ضابىء شاور ابن عم له يقال له فراس.

وقــائلة: لا يبعــد الله ضــابئــاً إذا القِرنُ لم يوجد له من ينازله[1]
وقائلة: إن مات في السجن ضابىء لَنعمَ الفتى تخلو بـه وتداخله[2]
وقــائلة: لا يبعــد الله ضــابئــاً إذا احمرّ من حسّ الشتاء أصائله[3]

ولم يزل ضابىء في السجن حتى مات، فلما قتل عثمان وثب ابنه عمر عليه بعد أن قتل، فيقال: (إنه كسر صلبه، أو كسر ضلعاً له)، ولم يشتد عثمان مع هذا الشاعر إلا لعظم ما أتاه من إقذاع في هجائه مما لا يقبله الإسلام.

ولم يقبل عثمان أقل من ذلك، من الشاعر زياد بن لبيد البيـاضي الأنصاري [4]، لما في شعـره من تشهير بـرجل من المسلمـين، وذلك أن عبيد الله بن عمر حين قُتِل والده، غدا إلى ابنة أبي لؤلؤة فقتلها، كما قتل الهرمزان ورجلاً نصرانياً معه لميلهما مع أبي لؤلؤة، فلما أخبر بذلك عمر قبل وفاته أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده، فلما ولي عثمان الأمر من بعده عرضت عليه القضية، فأشـار بعضهم بقتل عبيـد الله وقال لـه عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك. فودى عثمان أولئك القتلى من ماله، وخلّى سبيل عبيد الله، فكان زياد بن لبيد يقول له كلما رآه:

ألا يـا عبيدَ الله مـا لكَ مهـربٌ ولا ملجأً من ابن أروى ولا خَفَرْ
أصبتَ دمــاً والله في غيـر حِلِّه حراماً، وقتلُ الهرمـزان له خـطرْ
على غير شيء غير أن قال قائل أتتهمـون الهـرمــزان على عُمَـرْ
مقــال سفيــهٌ والحــوادثُ جمّــةٌ: نعم، أتهمْه، قد أشار وقد أمَـرْ

---

(١) هذه القائلة هي أمه، تفخر بولدها إذا حمي القتال وتراجعت الأبطال.
(٢) هذه القائلة الثانية امرأته، تذكر حلاوة خلقه في الخلوة والمعاشرة.
(٣) وهذه القائلة أخته، تمجد كرمه وسخاءه، وحس الشتاء: برده وإضراره بالأنعام والكلأ.
(٤) البداية والنهاية ٧: ١٤٩ ـ مكتبة المعارف.

وكان سلاح العبد في جوف بيته يقلّبها، والأمر بالأمر يُعتبَرْ

فشكاه عبيد الله إلى عثمان فاستدعاه، ولما دخل عليه قال:

أبا عمرو، عبيدُ الله رهنٌ فلا تشككْ بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرْتَ الجُرْم عنه وأسباب الخطا فرسا رهانِ
أتعفو إن عفوتَ بغير حقٍّ فما لك بالذي يخلى يدان

فزجره عثمان ونهاه عن استعمال شعره في مثل هذا الغرض الذي يثير الضغائن ويسيء لغيره من المسلمين.

ويروى أن[1] عمر مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله، فقال له: أرغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان: دعني عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك، فما يغير عليّ ذلك، فقال عمر: صدقت. فما الذي أنكر عمر على حسان؟ لا بدّ أنه كان فيما سمعه منه شيء من التفاخر، فهمّ بكفه، وحينما ذكّره بمواقفه مع الرسول ﷺ غفر له هناته، أسوة برسوله الكريم الذي غفر لحسان خوضه في حديث الإفك، وقبل منه توبته واعتذاره، لما كان له من مواقف شعرية مشرفة في سبيل الإسلام. وإلا فإن عمر كان محباً للشعر كما أسلفنا. وقد كتب إلى أبي موسى الأشعري: مُرْ من قِبلك بتعلّم الشعر، فإنه يدل على معاني الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب[2].

وممن أثاب على الشعر علي بن أبي طالب، فإنه يروى[3] أن أعرابيًّا وقف عليه فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال له علي: خُطَّ حاجتك في الأرض، فإني أرى الضرّ عليك،

---

(١) العمدة ١: ٢٨ سعادة.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق ١: ٢٩.

فكتب الأعرابي على الأرض: (إني فقير)، فقال علي: يا قنبر، ادفع إليه حلّتي الفلانية، فلما أخذها مثُل بين يديه فقال:

كَسَوْتَني حلّة تبلى محاسنها — فسوف أكسوك من حسن الثنا حللاً
إن الثناء ليُحْيي ذكر صاحبه — كالغيث يُحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عُرف بدأتَ به — فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال علي: يا قنبر أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنزلوا الناس منازلهم.

ومرّ الزبير بن العوام بمجلس لأصحاب رسول الله ﷺ وحسان ينشدهم، وهم لا يستمعون إليه، فقال: ما لي أراكم لا تستمعون إلى شعر ابن الفريعة؟ لقد كان ينشد رسول الله فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه إذا أنشده.

من كل ما تقدم ندرك أن موقف الصحابة والخلفاء الراشدين كان هو نفسه موقف القرآن الكريم والحديث الشريف، لا يرفض الشعر وإنما يهذبه ويرتقي به في سبيل البناء.

٦ - إن بعض الشعراء لم يلائموا بين أدوات فنهم والمرحلة الإسلامية الجديدة، ولم تتعمق الفكرة الدينية في وجدانهم، فعاشوا في الواقع خارج حدود الفكرة وإن دانوا رسمياً بالإسلام وهم قوم مردوا على القيم الجاهلية وتغلغلت في نفوسهم واعتادوا التعبير عنها، فلم يكن من السهل عليهم التحوّل عن تلك القيم بسهولة، كان بعضهم ممّن يعبد الله على حرف، ولم يكلف نفسه أن يعايش روح الدعوة، وبقيت طبيعة الجاهلية تغالبه، وتجري على لسانه في أقرب فرصة تصادفه وتنفلت من بين شفاهه، كلما ظنّ أنه بمنأى عن عين الرقيب، وخير مثال لذلك الحطيئة، ولذلك نراه يصرخ مع المرتدين:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيا لَعبادِ الله، ما لأبي بكر؟
أيورثها بكراً إذا مات بعده ... وتلك لعمرُ الله قاصمةُ الظهر

وكذلك فعل الحطيئة مرة أخرى في هجاء الزبرقان، ومثله ما فعله البرجمي في عهد عثمان.

وأحسّ بعضهم بحلاوة الإيمان وبلاغة القرآن، وأدرك الفرق بين حياة جاهلية سابقة أضاعها في الطيش والسفه، وحياة إسلامية حاضرة وصلْته بالله، وكشفت له عن زيف ما كان فيه ونصاعة ما أقبل عليه، فاستغرق في ابتهاله إلى الله وزهد في عرض الدنيا، فقطع كل صلة تربطه بماضيه الوثني، وكان ممّا نبذه الشعر، فصمت، أو لم يقل منه سوى النزر اليسير كشاعر بني عامر لبيد.

وكان شعراء تركوا الشعر في الجاهلية فلما جاء الإسلام رجعوا إليه، ونشطوا فيه، فقد ذكروا ذلك عن النابغة الجعدي، قالوا[1]: أقام النابغة ثلاثين سنة لا يتكلم، ثم نبغ في الشعر في الإسلام، وهو السبب في تلقيبه بالنابغة.

وشعراء المدينة وحدهم هم الذين استطاعوا أن يحْملوا الفكرة الإسلامية ويندمجوا فيها، ويجندوا أنفسهم لها، ويطوعوا الشعر العربي لحمل ما تضمنته من مبادىء وأفكار، والتبشير بها في وجه الشرك والمشركين، ولذلك استطاعوا الاستمرار بقوة، وكوّنوا واجهة صلبة أمام القبيل الآخر الذي ظل يمثّل معالم الجاهلية.

وأخيراً نجد في صفوف الشعراء المشركين الذين كانوا الوجه الجاهلي للشعر العربي في صدر الإسلام، وعلى رأسهم شعراء مكة ومن والاهم من أعداء الإسلام.

---

(١) الأغاني ٥: ٥ ثقافة.

ومعنى هذا كله أن الإسلام لم يكن عامل تثبيط للحركة الشعرية ولا حرباً على فنون القول، بل ظل موكب الشعر ماضياً لتحقيق غاياته الجديدة التي رسمها الإسلام، ولم يضعف أو يسقط من القائمة إلا من كان واحداً من الأصناف التي ذكرنا، وهم المسؤولون في المكان الأول عن اتجاهاتهم في الطريق المعاكس للحياة، ولن تعاش الحياة بالرجوع إلى الخلف على كل حال.

٧ ـ إن النقاد الذين حكموا بضعف شعر هذه الفترة، واجهوه ـ فيما يبدو لي ـ بروح جاهلية وبحثوا فيه عمّا ألفوه من خصائص في الشعر الجاهلي، وتطلعوا إلى أن يجدوا فيه الهجاء الساخر المقذع، والغزل البعيد عن الحشمة، والفخر المتطاول الغلّاب، والمدح المبالغ الذي ليست فيه حدود بين الصدق والكذب، ونحو ذلك من الأمور، فلما لم يجدوا فيه ذلك حكموا بضعفه، وقالوا: إن صدر الإسلام كان عصر خمول للشعر، وما كان الشعر بضعيف ولا خامل، ولكن أولئك النقاد أخطؤوا الحكم حين أخطؤوا وسائله الصحيحة، وفسدت نتائجهم تبعاً لفساد المقدمات، وكان عليهم أن يقوّموا ذلك الشعر من خلال منظور إسلامي، وقيم إسلاميّة، ومن خلال الدعائم العامة للأعمال الأدبية الناجحة. وهي صدق الشعور، وصحة التفكير، وجمال التصوير، وقوة التأثير، وبراعة التعبير، وإنهم لو فعلوا ذلك لوجدوا أن الشعر كان مزدهراً ونشيطاً، وأنه كان نمطاً من الشعر فريداً في تاريخنا الأدبي، وفي اعتقادي أن هؤلاء لا يقلون خطأ عن أولئك الذين ذهبوا يبحثون في الأدب العربي القديم ـ ومنه أدب صدر الإسلام ـ عن المذاهب الكتابية والفنية التي فاضت بها الآداب الأجنبية في العصر الحديث، واجتهدوا مخلصين أو عابثين أن يجدوا في نصوصه أمثلة لما حفظوا من تلك القواعد والقوانين، فإن وجدوا شيئاً منها حمدوا لأنفسهم مغبّة هذا الكشف الخطير، وإن لم يظفروا فيه بشيء من ذلك اتهموه بأنه أدب متأخر فقير، ويتناسون أنه أدب قديم نشأ في بيئات طبيعية وعقلية واجتماعية تخالف هذه البيئات التي أنشأت الأدب الحديث، فليس من المعقول أن يتساوى النوعان، ويتناسون أن قوانين

النقد وأصوله لا تفرض على الأدب فرضاً، وإنما يجب أن تستنبط من نصوصه الممتازة، على أنها خواصّ وجدت فيها فأكسبتها القوة والجمال، وجعلتها قادرة على التأثير والخلود، ثم هم قبل ذلك وبعده يسلمون في بلاهة بالأستاذية لكل ما هو أجنبي وغريب.

- ٤ -

ونحن قد لا نستغرب هذا الحكم الجائر على شعر هذه الفترة ما دامت المقاييس غير إسلامية وغير نابعة من بيئة التعبير، فقد فعل المعاصرون شيئاً من ذلك أيضاً في الحكم على شعر عصر الدول المتتابعة، وحملوه من ألوان الضعف بحق وبغير حق ما الله به عليم، لأن هذا الشعر وقف أمام الصليبية الحاقدة وتغنى بانتصارات الإسلام في معاركه ضد النصرانية المعادية، ولو تريثنا قليلاً لوجدنا أن فيما قالوه كثيراً من القسوة والإجحاف الذي لا يخلو من تعمّد وتغرّض، إن كل ما كان يغيظهم أن يكون الشعر إسلامياً، وهنا نريد أن نسأل: ما المقصود بالشعر الإسلامي؟ ليس المقصود بالطبع أن ينظم الشعراء في الصلاة والزكاة والحج والصوم أو في مدح الرسول وسيرته العاطرة، ولا شيء غير ذلك، لا.. إن المقصود أن ينطلق الشاعر من تصورات إسلامية وفكر إسلامي متكامل ومبادىء إسلامية راشدة، وخير مثال على ذلك همزية حسان التي أوردناها في هذا الفصل، لم يمتهن فيها حسان كرامة الإنسان ولم يتوعد عدوه بأن يقطع آذانه، أو يصطلم آنافه، ولم يتهدده بعبودية كما كان يفعل هو وغيره في الجاهلية، لأن كل ذلك لا يتفق مع الإسلام.

وعلى النقيض مقطوعة البرجمي التي نهش فيها عرض امرأة مسلمة، فعرْض المسلم على المسلم حرام، وعلى هذا الأساس فهي مقطوعة غير إسلامية وإن كتبها مسلم في المدينة وفي صدر الإسلام، وهكذا...

نعم إن النقاد تناولوا شعر صدر الإسلام بمقاييس جاهلية فلم يجدوا فه

ما طلبوا، ووجدوها بعد ذلك في العصر الأموي، فأصبح في نظرهم صدر الإسلام يمثل ضعفاً بين قوتين، ولم يدروا أن المسلمين وقاهم الله بأبي بكر ردة العقيدة، فلم يرجعوا كفاراً ولم يسامحهم في عقال بعير كانوا يدفعونه لرسول الله ﷺ، ولكنهم أُصيبوا بردة اجتماعية في العصر الأموي، وحلا لبعضهم أن يغذيها حسب مصالحه، فانبعثت العصبيات من جديد، وغابت في خضم ذلك كثير من القيم الإسلامية إلا من رحم ربك، فظهر ابن أبي ربيعة في مكة، والأحْوص في المدينة وصفق الناس للأخطل في دمشق وذقنه تقطر خمراً وصليبه يتأرجح فوق صدره بين يدي الخليفة المسلم.

ـ ٥ ـ

في الحقيقة أنّ الشعر لم يضعف بمقاييسنا الإسلامية في هذه الفترة، بل كان مزدهراً ونشيطاً، والصحيح أن الإسلام لم يقف منه موقف العداء بل هذبه وشجعه وصحح مساراته، وتمثّل به رسول الأمة واستمع إليه وأثاب عليه، وسوّى بينه وبين الجهاد بالسيف، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده، فكيف يظن ظانٌّ بعد هذا كله أن الإسلام حارب الشعر وصرف الناس عنه ونظر إلى الشعراء نظرة ازدراء؟ إنه لن يقول ذلك إلا مخدوع لم يعطِ لنفسه فرصة التأكد مما قيل له، أو أولئك الذين صنعوا هذه الفرضية ليوهموا الناس أن الإسلام يبغيهم رهَقاً ويكلّفهم من أمرهم عسراً، ويسلك بهم ضد طبائعهم في الميل للفن، ويكتم فيهم هواجس الإبداع ومثارات الجمال والبوح.

إن الفن والإيمان (ليلتقيان في اللحظة التي تستغرق المؤمن وهو يذوب حبّاً وإعجاباً بروعة الخلق الإلهي وقدرته الفنانة في أقطار الملكوت)[1]، فالإنسان المسلم بطبيعته فنان، متفتّح المشاعر على قيم الكون والعالم والإنسان

(١) في النقد الإسلامي المعاصر ص ٣٩.

متفاعل بكل وجوده مع جوهر هذه القيم، لأن تصوره المنبثق من إسلامه للحياة والأشياء، يجعلان منه إنساناً حساساً، تتحرك بداخله شتى المعاني التي تتخذ من التعبير الفني وسيلة لإخراج التجارب الشعورية السامية المتناغمة مع الكون الواسع، والمنسجمة مع مبادئه الشريفة العالية، وهذا يعني أن يكون فناناً أصيلاً عميق التجربة قادراً على التعبير الملتزم بحدود السمو الأخلاقي المبدع، الذي يبني الحضارة ولا يهدمها، ويرتفع بالإنسانية ولا يخذلها، فالنزعة الأخلاقية من أهم ما يميز المسلم، وهي في حد ذاتها تعبير جمالي حي، لأنها تعني التعاطف الوجداني مع الآخرين ومع الأشياء والخلائق.

إن الفن الإسلامي في صدر الإسلام والعصور التي تلته، وفي عصرنا الحاضر يجب أن يكون فناً متميزاً، له ذاته المستقلة التي يعرف بها، كما يكون الإسلام نفسه متميزاً عن بقية الأديان، وبغير هذا سيظل المسلمون يعيشون في حياتهم انشطاراً نفسياً وحياتياً رهيباً، يبنون المساجد في أحيائهم على بعد أمتار من بيوتهم في الوقت الذي يقيمون في داخل نفوسهم الكنائس والبيع، ويحرقون البخور للأوثان، وينادون بالفضيلة ويطوفون بالبيت العتيق، في اللحظات التي يمارسون في داخلهم قدّاسات للرذيلة ويفتحون صدورهم للشيطان، ويلهجون بعقيدة التوحيد بكل ما فيها من صدق وطهر وحب وإخلاص، بينما تسيل أسنة أقلامهم في كل لحظة بالجاهلية العفنة بكل ما فيها من كذب وخبث وكراهية وخداع.

إن الأدب ذو مهمة وذو قيمة، وليس هو مجرد أُلهية ووسيلة لإزجاء أوقات الفراغ ولا يفسح الإسلام صدره إلا للأدب الذي يؤدي المهمة المنوطة به ويحقق القيمة التي يستمد منها مبرّر وجوده، وما عدا ذلك فهو لغو وسخف وضرب من التدمير والتخريب، وما كان الإسلام يوماً كذلك ولن يكون.

الفَصْلُ الثَّانِي

أثر الإسلام في الشعرْ

تمهيـــد

أولاً : في الأغراض

ثانياً : في المعاني

ثالثاً : في الألفاظ

رابعاً : في الأساليب



تمهيد:

- ١ -

كان الإسلام ـ كما رأينا ـ حريصاً على أن يكرّس جميع الجهود والطاقات لخدمة غاياته الكبرى، ويوجهها إلى تحقيق أهدافه السامية، ولذلك حمّل مسؤولية الدعوة جميع أبنائه، فكل واحد منهم مسؤول عن نجاحها وفشلها، وانتشارها وانكماشها، ومطالب أن يكون ترجماناً عملياً لها في أقواله وأفعاله وجميع شؤون حياته، فليس الإسلام مجرد سور تُقرأ، وأورادٍ تُتلى، واستغراقات صوفية تقصر أو تطول، وإنما هو إلى جانب ذلك تطبيق لشريعة الله في جميع مناحي الحياة، فكل مسلم قرآن سائر، وصورة كاملة للإسلام، ولذا كانت القدوة الصالحة من أهم وسائل التربية في هذا الدين، ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾[١]، وهكذا يتحد القول والفعل في الدعوة الإسلامية، وتلتحم البداية والغاية، وتتشابك الأسباب والنتائج، حتى ليصبح الفصل بينهما ضرباً من المستحيل، وقد نبّه الإسلام، إلى خطورة الكلمة وأهميتها، فليس من طبيعة المسلم أن يطلق الكلمات على عواهنها، دونما تقدير لمسؤوليتها وما عسى أن يترتب عليها، فبالكلمة يسعد الناس أو يشقون، وبالكلمة يتّضع الأفراد أو يرتفعون، قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله﴾[٢]، (ومن قال لصاحبه يوم

---

(١) الممتحنة: ٦.

(٢) لقمان: ٦.

الجمعة اسكت ـ والإمام يخطب ـ فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له)[1]، وفي حديث معاذ: (وإن أحدكم ليقول الكلمة لا يلقي لها بالاً فيهوي بها أربعين خريفاً في النار. قال معاذ: أو نؤاخذ على ما نقوله؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ؟ وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟)[2]. وقال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾[3]، والشعر كفن قولي هو مجموعة كلمات مسؤولة، يفسح له الإسلام في الحياة الاجتماعية ما استقام في نطاق الفضائل والأخلاق، ومناهج الدعوة، وسار في إطارها العام، ومثّل قيمها العالية، فإذا خرج عن ذلك رفضه وحدَّ من حرية قائليه، لأنه يتحول حينئذٍ إلى وسيلة هدم وأداة تقويض، (وإن من الشعر لحكمة)، فلا ينبغي أن يتجاوز هذه الحكمة، إلى ما تعودته الحياة الجاهلية من منافرات وما ألفته من عصبيات، وإنما يظل في نطاق من الحكمة التي تمكن له من دوره الإيجابي في تأصيل قيم الخير والحق والجمال. فهل استجاب الشعر في صدر الإسلام إلى هذا الاتجاه وسار في هذا النطاق؟

- ٢ -

هناك أمور هامة يجدر بنا أن نناقشها قبل أن نضع الإجابة لهذا السؤال، وقد أشرنا إلى بعض هذه الأمور في كلام سابق، فلا داعي هنا لإعادة الكلام عنها، تجنباً للتكرار، ونكتفي بمجرد ذكرها ثم نلمّ بما لم نُلِمّ به هناك، وإنما أردنا من ذكرها وضع تصور كامل للموضوع يساعد على معرفة مدى تأثير الإسلام في الشعر والشعراء.

١ ـ إن شعراء صدر الإسلام عرفوا في تاريخنا الأدبي باسم: (المخضرمين)، ولذا وجب علينا قبل الحديث عن شعرهم أن نعرف معنى

(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) فاطر: ١٠.

الخضرمة والمخضرم، والاستعمال الفني لهاتين الكلمتين.

من المعاني اللغوية للخضرمة: القطع، ومنه قولهم: (ناقة مخضرمَة: قُطِع طرفُ أذنها. والخضرمة: قطع إحدى الأذنين، وفي الحديث: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر على ناقة مخضرمة. وكان أهل الجاهلية يخضرِمون نَعَمهم فلما جاء الإسلام أمرهم النبي ﷺ أن يُخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم منه أهل الجاهلية، وأصل الخضرمة أن يُجْعل الشيء بين بين، وكانت خضرمة أهل الإسلام بائنة من خضرمة أهل الجاهلية)[1].

ومنها الخلط والاختلاط. قالوا: (المخضرم في نسبه: المختلط من أطرافه، وقيل: هو الذي ولدته السراري ـ أي أن أباه حرٌ وأمه سُريّة، فهو مختلط وهجين ـ قال الشاعر:

فقلت: أذاك السهمُ أهونُ وقعةً على الخَضْر، أم كفُّ الهجين المخضرَم

ولحم مخضرم: لا يدري أمن ذكر هو أم من أنثى. وطعام مخضرم: لا حلوٌ ولا مرٌّ وماء مُخَضرِم: بين الحلو والمالح)[2].

ومعنى المخضرم بالطبع مأخوذ من المعنيين السابقين لهذه المادة. فقيل: هو من أدرك الجاهلية والإسلام، لأنه أدرك الخضرمتين، أي النوعين من قطع آذان الأنعام، وقيل: من كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام. كما قالوا شاعر مخضرم، وقصدوا به من أدرك الجاهلية والإسلام، مثل لبيد وغيره ممّن أدركهما قال الشاعر:

إلى ابن حَصانٍ لم تُخضرَمْ جدودُه كثيرِ الثّنا والخِيم والفَرع والأَصْل

قال ابن بري: إنه مخضرِم بكسر الراء، لأن الجاهلية لمّا دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم، ـ فهو اسم فاعل ـ قال: وأما من قال: مخضرَم، بفتح

---

(١) اللسان، مادة (خضرم).

(٢) المرجع السابق.

الراء، فإنه يعني أنه قُطِع عن الكفر إلى الإسلام. قال ابن خالويه: خضرم: خلّط، ومنه المخضرِم ـ بالكسر ـ الذي أدرك الجاهلية والإسلام[1].

ويقول السيوطي: (المخضرمون من الشعراء: مَنْ قال الشعر في الجاهلية ثم أدرك الإسلام، فمنهم حسان بن ثابت، ولبيد بن ربيعة، ونابغة بني جعدة، وأبو زيد، وعمرو بن شاس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن معدي كرب، وكعب بن زهير، ومعن بن أوس)[2]، ويقول ابن قتيبة في تحديد الشاعر المخضرم: (وإنما يكون مخضرماً إذا أدرك الإسلام، وهو كبير، فلم يسلم إلا بعد رسول الله ﷺ)، وهذا التحديد مما اختصّ به ابن قتيبة، وليس بشيء، ولعله اختلط[3] عليه المخضرم من الشعراء والمخضرم من المحدّثين، فإن ما أورده يتفق مع اصطلاح أهل الحديث، يقول السيوطي: (المخضرم في اصطلاح أهل الحديث هو الذي أدرك الجاهلية وزمن النبي ﷺ)[4]. فبان أن التحديد الأول هو الصحيح.

غير أن بعض المحدَثين يزيد في الشاعر المخضرم شرطاً آخر، وهو أن يكون شعره متأثراً بالإسلام، فلا يجعلون شاعراً كلبيد والخنساء من المخضرمين، وربما كان[5] رأيهم هذا مبنياً على ما رأوه عند ابن سلام، حيث أدرج أسماء بعض المخضرمين في مراتب الشعراء الجاهليين، لأنه لم يجد في شعرهم الأثر البارز الذي يميزهم على شعراء الجاهلية، بينما أدرج آخرين منهم في الإسلاميين وقال: (ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام فنزلناهم منازلهم)[6].

---

(١) المرجع السابق بتصرف.

(٢) المزهر ١: ٢٩٦ دار إحياء الكتب العربية.

(٣) شعر المخضرمين ص ٥٥.

(٤) خزانة الأدب للبغدادي ١: ٢٤٥.

(٥) شعر المخضرمين ٥٦.

(٦) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٤.

ويرى بعضهم[1] أن مَن لم يعِش منهم في العصر الإسلامي مدة كافية ومات دون إسلام، لا يحسن إدخاله ضمن المخضرمين، وحريّ بـه أن يعدّ في الجاهليين، ومثّل لذلك بدريد بن الصمة، والأعشى، وأمية بن أبي الصلت، والأسود بن يعفر النهشلي.

وقد توسع صاحب الأغاني في معنى الخضرمة فأطلقها على كل من أدرك دولتين وشهد عصرين، وكان يقول عن شاعرين كرؤبة بن العجاج، وحماد عجرد، مخضرمين وذلك لإدراكهما دولتي بني أمية وبني العباس وهكذا.

والذي يبدو أن المخضرم عند الإطلاق ينصرف لمن كان في الجاهلية وأدرك الإسلام، فإذا أُريد غيره أُضيف إليه.

٢ ـ إن أكثر الدارسين ـ كما مر ـ مالوا إلى تصديق الحكم بضعف شعر هذه الفترة، وأرجعوا ذلك لعدة أسباب:

منها أن الإسلام حظر على أتباعه ممارسة أكثر الأشياء التي كانت شائعة بين الجاهليين، والتي من شأنها تنشيط الشعر، كشرب الخمر ومغازلة النساء، والفخر الكاذب والهجاء المقذع[2].

ومنها أن الشعراء المتكسبين بشعرهم فقدوا الجوائز السنية التي كانوا يَلقَوْنها من بعض الملوك والأمراء ورؤساء القبائل.

ومنها أن (الناحية الروحية والمعنوية من الإسلام لم تزل إذ ذاك في مستهلها ولم تكن قد نفذت بعد إلى قلوب المسلمين في شكل قوي ملهم يفجّر ينابيع الفن الرفيع)[3].

وقد أثبتنا فيما سبق أن هذا الرأي ليس صحيحاً على إطلاقه، وأن

---

(١) العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص ٤٦.

(٢) في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية للدكتور محمد طه الحاجري ص ٥٠ ط رويال ١٩٥٣.

(٣) دراسات في الأدب الإسلامي للأستاذ محمد أحمد خلف الله ص ٤٧ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ م.

الإسلام إنما عاق من الشعر ما يحمل في طواياه القيم الجاهلية ولا يتفق مع مبادئه، وقد أتاح للشعر مجالات جديدة رحبة، منها تمثيل روح الدين، والاشتراك في النقائض وتبني كل الأفكار الإسلامية الحيوية الرائدة، (فالإنسان المسلم يختلف عن الآخرين في كونه يعيش الحياة بقطاعيها: الباطني والخارجي بتركيز أشد، في الباطن يحرّك الإسلام كلَّ قوى الإنسان وفاعلياته وإمكاناته الذاتية: الحسية والعاطفية والخيالية والعقلية والانفعالية والروحية، ويسير بها صوب استجابة مكثفة مترعة إزاء كل ما يحركها ويدفعها إلى مزيد من الحياة، ومن ثم مزيد من المعطيات التعبيرية. وفي الخارج يدفع الإسلام الإنسان إلى أن ينمّي ويوسّع مُتَعَ واستجابةَ حواسه المختلفة عن طريق ربط هذه المتع والاستجابات ربطاً نفسياً وذهنياً فذّاً بتجربة الإيمان الكبرى، باعتبار أن هذه الطيبات جميعاً، وتلك الطاقات الجمالية الكونية التي لا بدء لها ولا انتهاء، أمور سخرها الله سبحانه لبني آدم)[1].

فإذا أصرّ هؤلاء مع هذا على وسم شعر هذه الفترة بالضعف لخلوّه مما اعتادوه في الشعر الجاهلي فلا بأس من ذلك، وكفاه ازدهاراً هذا التحوّل الفكري والموضوعي والأسلوبي الذي ضمنه له الإسلام، وسوف لن ننظر إلى هذا الشعر إلا بمقاييس إسلامية. ونحن واثقون أنه حينئذٍ سيقنعنا بكل ما فيه من مزايا، يشترك في بعضها مع الشعر الجاهلي، وينفرد ببعضها الآخر، وستزداد هذه الحقيقة وضوحاً كلما أوغلنا في متابعة عرض فقرات هذا الفصل.

٣ ـ إن كثيراً من شعر صدر الإسلام تعرض للطمس والضياع، وذلك بسبب الأحداث الكبرى التي صحبت هذه الفترة، من عداء عنيف بين المسلمين في المدينة والمشركين في مكة ومن والاها من الثقفيين والأعراب واليهود، استمر زهاء ثماني سنوات، وترك في النفوس كثيراً من الضغائن

---

(١) في النقد الإسلامي المعاصر للدكتور عماد الدين خليل ص ٣٠ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٢ م.

والأحقاد، ولم ينته إلا بفتح مكة ثم الطائف، ثم جاءت حروب الردّة، وذهبت معركة اليمامة بكثير من الحفّاظ والرواة، الأمر الذي خشي فيه فضلاء الصحابة على ضياع القرآن نفسه، فقامت حركة الجمع الأولى للقرآن، وإذا حصل هذا بالنسبة للقرآن فما عسى أن يكون الأمر بالنسبة للأشعار؟ ثم أطلّت الفتن برأسها واستفحل شرّها، فتخطفت ثلاثة من الخلفاء.

وخلال هذا أيضاً سيِّرت الجيوش إلى الفتوح في بلاد فارس والروم، وكان ضمنها شعراء ورواة. وهو باب واسع أيضاً لضياع الشعر.

وبجانب هذا كانت هناك مواقف متعمّدة لإضاعة جزء من هذا الشعر وإتلافه، لعدم انسجامه مع مبادىء الإسلام، إما لكونه مما يثير الضغائن ويشعل العداوات بين المسلمين، وإما لكونه ينشر الرذيلة ويحسن القبائح، وإما لكونه مما هوجم به الرسول وأصحابه وحوربت به الدعوة، كشعر مكة وأنصارها قبل الفتح، وليس في هذا الموقف أي غرابة، لأن كل أولئك ضد الدعوة الإسلامية ومبادئها، فليس من المعقول الإبقاء عليها، وليكون الأمر أكثر قبولاً عند المعترضين على هذه الحركة التطهيرية للشعر نذكرهم بما تفعله بعض الدول الآن من ثورات ثقافية جامحة لا تبقي ولا تذر، فعهدي ببعضهم لا يبيحون لأنفسهم في ذلك مثل هذا الاستغراب. والذي لا شك فيه أن شعر المدينة في هذه الفترة كان أقل تعرضاً للضياع لأنه كان من أول يوم سلاحاً للدعوة الجديدة ولسانها الناطق، ثم أن عمر[1] سمح للأنصار في آخر أيامه بجمعه فدونوه في كتاب، ويقول أبو الفرج[2]: إن حماد الراوية نقب ذات ليلة من ليالي صعلكته على رجل، فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه، فأُعجب به واستحلاه وتحفظه، ودفعه ما فيه إلى أن يترك ما كان عليه من التشطّر والتلصّص، وأن ينقطع إلى طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب. ولكن هذه المجموعة التي وقعت في يد حماد لم تصلنا،

(١) الأغاني ٤ : ١٤١ دار الكتب.

(٢) المرجع السابق ٦ : ٨٧ ثقافة ومصادر الشعر الجاهلي ص ١٥٧.

ولو بلغتنا لوصلنا للأنصار شعر كثير.

٤ ـ قامت حول هذا الشعر موجات كبيرة من التشكيك، حتى لا يكاد يسلم منه إلا النزر اليسير، وقالوا: إن أكثره ـ وهو شعر المدينة ومكة ـ إنما ورد في كتب السيرة والمغازي والتاريخ، وهي كتب لم تخلُ من تزيّد، من أجل الحبكة القصصية أو السرد التاريخي، ونحن لا نستطيع ـ كما قلنا في كلام سابق: أن ننفي الشك عن هذا الشعر، فنزعم صحته كله، فقد نبّه كثيرون إلى ذلك ولكننا نحذّر من مغبّة المبالغة في الأخذ بمبدأ التشكيك، وينبغي أن لا نبادر بالرفض وتوجيه الاتهام، فقد تكون مبادرتنا بالرفض أكثر سوءاً من مبادرتنا بالقبول، وللباحثين والعلماء بالشعر وسائل للتمحيص على كل حال.

٥ ـ إن شعر صدر الإسلام كان كله مرتبطاً بظهور الدعوة، ثم ما نجم عن تلك الدعوة من أحداث كبرى، كبدر، وأُحُد، والخندق، وفتح مكة، والردة، ومقتل عثمان.. إلخ، وحتى شعر المشركين في مكة ومَنْ ناصرها كان ردَّ فعل لهذه الدعوة وتلكم الأحداث.

وإذا كان الإسلام هيّأ للمدينة القيادة الدينية والسياسية في هذا العصر فإننا نزعم أنه هيأ لها قيادة ثالثة، وهي القيادة الشعرية أيضاً، يقول الدكتور شوقي ضيف[1]: (ولشعراء المدينة القِدح المعلَّى في هذا الميدان، فهم الذين وقفوا مع الرسول ﷺ منذ نزوله بين ظهرانيهم، ينافحُون عنه ويدافعون عن دعوته مصورين لهديه الكريم). وإذا كانت المدينة هي الوجه الإسلامي للشعر وكل الصيد في جوف الفرا ـ كما يقولون ـ فإنه يصح لنا أن نسأل عن أثر الإسلام في أغراض هذا الشعر وألفاظه وأساليبه ومعانيه، وهو ما عقد من أجله هذا الفصل.

---

(١) العصر الإسلامي ص ٦٨.

- ٣ -

أولاً: في الأغراض:

لا شك أن الأغراض الشعرية في صدر الإسلام تأثرت بالتغيير العام الذي أصاب الحياة العربية في المدينة، وكانت صدى لما ساد البيئة الجديدة من مُثلٍ إسلامية فإن الإسلام حظر أشياء، ودعا إلى أشياء أخرى وحثّ عليها.

اعتبر ذكر الفضل لذويه وشكر المحسنين، من المروءة، ولكنه حذّر من المدح الكاذب والإطراء الزائف، وندبنا إلى أن نحثو التراب في وجه هؤلاء المدّاحين.

جعل لأعراض الناس حُرْمة، فمن ولغ فيها استحق النار وقد يجلده الحاكم إلى ثمانين جلدة، ولكنه أهدر بعض الأعراض، فلا غيبة لفاسق، وثلاثة لا تحرم عليك أعراضهم: المجاهر بالفسق والإمام الجائر والمبتدع، ويأتي على رأس هؤلاء المهدرين جميعاً أولئك المشركون واليهود الذين وقفوا في وجه الدعوة يصدون عن دين الله، ويجبهون الرسول والجماعة الإسلامية بالسِّباب والبذاء، بل إنه في هذه الحالة الأخيرة جعل الهجاء عملاً إسلامياً رائعاً وجهاداً دينياً يوصل إلى الجنة.

حرّم اللطم والنواح وشق الجيوب على الميت، ولكنه جعل من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا تدمع عيناه في مواقف الحزن متحجّرَ العاطفة، إن العين تدمع والقلب يخشع وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون، واحملوا لآل جعفر طعاماً فإن لديهم ما يشغلهم، ومن حق المسلم على المسلم أن يعزيه، وكان الرسول ﷺ يستمع من حسان وغيره رثاء شهداء المعارك والغزوات.

ومنع الشعراء من التشبيب بامرأة بعينها لأن في ذلك جرأة على الفضيلة واعتداء على الأعراض، وقبل الرسول سماع غزل كعب بن زهير لأنه خلا من هذا المحذور، وذلك في قصيدته التي مطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول ... متيَّم إثرها لم يُفْدَ مكبول

وما سعادُ غداة البين إذ رحلوا إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول
هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طول
تُبدي عوارضَ ذي ظَلْم إذا ابتسمتْ كأنه منهل بالراح معلول
أكرِم بها خُلَّة لو أنها صدقت موعودها أو لوَ انّ النصح مقبول

وهكذا نجد الإسلام وجّه الأغراض الشعرية إلى مسارات جديدة، وهذّبها لتسهم في البناء العام للدولة الإسلامية الفتية. وإذا ما نظرنا إلى الأغراض الشعرية التي تناولها المدنيون في أشعارهم في صدر الإسلام وجدناها في عمومها على النحو التالي:

أ ـ أغراض أصابها شيء من الضمور والخمول كالغزل والحكم والنصائح.

ب ـ أغراض ظلت مزدهرة مع شيء من التعديل والتهذيب وهي: الهجاء ـ الفخر ـ المدح ـ الوصف ـ الرثاء.

ج ـ أغراض مستحدثة دعت إليها الظروف الجديدة وهي: الشعر الديني التاريخي ـ الشعر السياسي.

وقد كان معظم هذه الأغراض مرتبطاً بالأحداث الإسلامية الكبرى، وظلت ظاهرة التداخل بين الأغراض في القصيدة الواحدة التي لمسناها في الشعر الجاهلي ـ قائمة في الشعر الإسلامي، ولذلك لا يمكن دراسة هذا الشعر ومعالجة نماذجه بمنأى عن تلك الأحداث.

وشيء آخر أيضاً نحب أن ننبّه إليه، وهو أنه يمكن أن ينضوي كل شعر هذه الفترة الذي قاله المسلمون بالمدينة، تحت اسم: (الشعر الإسلامي)، لا لأنه قيل في زمن ساد فيه الإسلام، وإنما لأنه على مختلف أغراضه، يحمل القيم الإسلامية، وينبع من تصوّر إسلامي صادق للكون والحياة.

وشيء ثالث، وهو أن جزءاً كبيراً منه ينطوي تحت اسم فني آخر هو (فن النقائض)، فقد كان ظهور الإسلام بدءاً لصراع بين حياتين في أطوار الحياة العربية، جعل الشعراء ينقسمون إزاءه إلى فريقين - كما قلنا -: محافظين على الرسوم البدوية الجاهلية، وكان يمثلهم شعراء مكة ومَنْ والاهم، ومجددين بالأصول الإسلامية الفاضلة، وكان يمثلهم شعراء المدينة. وهو الصراع الذي هيأ لنهضة شعرية قوية[1] كانت منها ملاحاة هي هذه النقائض الإسلامية العديدة، وكان فرسانها من قريش هم: عبد الله بن الزبعرى - ضرار بن الخطاب - هبيرة بن أبي وهب - أبو سفيان بن الحارث - الحارث بن هشام - أبو عَزّة الجمحي - أبو أسامة معاوية بن زهير - أبو بكر شداد بن الأسود - مسافع بن عبد مناف - عمرو بن العاص - الأسود بن عبد المطلب - مقْيس بن صبابة - هند بنت عتبة - صفية بنت مسافر - قتيلة بنت النضر.

ومن أنصارهم الثقفيين: أمية بن أبي الصلت - أبو محجن الثقفي - كنانة بن عبد يا ليل.

ومن اليهود: كعب بن الأشرف: سماك اليهودي - جبل بن جوّال الثعلبي - مرحب اليهودي - أوس بن دُنيّ القرظي.

وكان أبطالها من المسلمين في المدينة: حسان بن ثابت - كعب بن مالك - عبد الله بن رواحة. وهؤلاء من الأنصار، ولهم اليد الطولى في مصارعة أعداء الإسلام: من القرشيين وغيرهم.

وكان في المدينة أيضاً شعراء من المهاجرين اشترك بعضهم في هذه المناقضات على قلة، ولم يتسنّ لأكثرهم الاشتراك فيها، ولكنهم اشتركوا في النهضة الشعرية العامة، وهم: عبد الله بن جحش - أبو أحمد عبد بن جحش - عثمان بن مظعون - عبد الله بن الحارث السهمي - عبد الله بن حذافة - هند بنت أثاثة - صفية بنت عبد المطلب - نُعْم بنت سعيد.

---

(١) تاريخ النقائض ص ١٢٩.

ولا شك أن غزوة (بدر الكبرى) كانت أكبر معركة في تاريخ الإسلام، فيها انتكست راية الكفر، وعلا شأن المسلمين، ورغم أنفُ قريش وتمرغت كبرياؤها الزائفة في الوحل، فراح منهم سبعون في القتلى وسبعون في الأسرى، وعلموا أن لا طاقة لهم بمحمد وصحبه إلا بقدر ما يضمنون من سلامة وما يحققون من تعويق مؤقت. وقام شعراؤهم يبكون قتلاهم وينالون من المسلمين، فنهض شعراء المدينة يردون عليهم ويقابلون هجاءهم بمثله، وفي الوقت نفسه كان شعراء المسلمين يتغنون بانتصاراتهم في هذا اليوم فيلقَوْن الرد من الشعراء المشركين. يقول حمزة بن عبد المطلب، وكان من أبطال هذه المعركة[1]:

ألم تر أمراً كان من عجَب الدهر ... وللحَيْنِ أسبابٌ مبيّنة الأمر

وما ذاك إلا أن قوماً أفادهمْ ... فحانوا: تواصٍ بالعقوق وبالكفر[2]

عشيةَ راحوا نحو بدر بجمعهمْ ... فكانوا رهوناً للركيَّة من بدر[3]

وكنا طلبنا العيرَ لم نبغ غيرها ... فساروا إلينا فالتقينا على قدْر

فلما التقينا لم تكن مثنويّةٌ ... لنا غير طعنٍ بالمثقّفة السُّمْر[4]

وضربٍ ببيض يختلي الهام حدُّها ... مشهَّرةٍ الألوان بينةِ الأُثْر[5]

ونحن تركنا عتبة الغيِّ ثاوياً ... وشيبة في القتلى تجرجَمُ في الجَفْر[6]

وعمرو ثوى فيمن ثوى من حُماتهم ... فشُقّتْ جيوب النائحات على عمرو[7]

جيوب نساء من لؤي بن غالب ... كِرامٍ، تفرَّعْنَ الذوائبَ من فهر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٨.

(٢) أفادهم: أهلكهم، ويقال: فاد الرجلُ: أي مات. وتواصٍ هو فاعل أفاد. أي أن الذي أهلكهم التواصي بالعقوق والكفر.

(٣) الركية: البئر غير المطوية.

(٤) مثنوية: رجوع وانصراف.

(٥) يختلي: يقطع. الأثر - بضم الهمزة - : وشي السيف وفرنده.

(٦) تجرجم: تسقط. الجفر: البئر.

(٧) عمرو: هو أبو جهل عمرو بن هشام.

أولئك قوم قُتِّلوا في ضلالهمْ وخلّوْا لواءً غير محتضَرِ النصر
لواء ضلالٍ قاد إبليسُ أهله فخاس بهم، إنّ الخبيث إلى غدر[1]
وقال لهم إذ عاين الأمرَ واضحاً برئتُ إليكم ما بي اليوم من صَبْر
فإني أرى ما لا ترون وإنني أخاف عقاب الله، والله ذو قسر
فقدّمهم للحَيْن حتى تورّطوا وكان بما لم يَخبُر القومُ ذا خُبْر
فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعُنا ثلاثُ مئينٍ كالمسدَّمة الزُّهر[2]
وفينا جنود الله حين يُمِدّنا بهم في مقام ثَمَّ مستوضَحِ الذِّكر
فشدَّ بهم جبريلُ تحت لوائنا لدى مأزق فيه مناياهُم تجري

فأجابه الحارث بن هشام:

ألا يا لقومي للصبابة والهجر وللحُزن مني، والحرارة في الصدر
وللدمع من عينيَّ جَوْداً كأنه فريدُ هوًى من سلك ناظمه يجري[3]
على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى رهينَ مقامٍ للركيّة من بدر
فلا تبعُدن يا عمرو من ذي قرابةٍ ومن ذي نِدام، كان ذا خُلُق غَمْر
فإن يكُ قوم صادفوا منك دولة فلا بدّ للأيام من دول الدهر
فقد كنتَ في صَرْف الزمان الذي مضى تريهمْ هواناً منك ذا سبُل وَعر
فإلا أمت يا عمرو أتركْك ثائراً ولا أُبق بُقيا في إخاء ولا صهر[4]
وأقطعُ ظهراً من رجال بمعشرٍ كرامٍ عليهم مثل ما قطعوا ظهري
أغرّهمُ ما جمّعوا من وشيظةٍ ونحن الصميم في القبائل من فهر[5]
فيال لؤي ذبِّبوا عن حريمكم وآلهةٍ لا تتركوها لذي الفخر

(١) خاس: غدر.
(٢) المسدمة: الفحول من الإبل. والزهر: البيض.
(٣) الجود ـ فتح الجيم ـ: الكثير.
(٤) ثائر: ذو ثأر.
(٥) الوشيظة: الأتباع، من ليس من خالص القوم. والصميم: الخالصون في أوليائهم.

تـوارثها آبـاؤكم وورثتُم أواسيهـا ... والبيـتَ ذا السقْف والسِّتـر[١]

فمـا لِحَليمٍ قـد أراد هــلاككم ... فـلا تعذروه آل غـالب من عذر

وجــدّوا لمن عـاديتم وتــوازروا ... وكونوا جميعاً في التأسّي وفي الصبر

لـعلكـم أن تثـأروا بـأخيـكـمُ ... ولا شيء إن لم تثأروا بذوي عمرو

بمـطّردات في الأكـف كـأنهـا ... وميضٌ تُطيـر الهـام بينـةِ الأُثـر

كـأن مـدَبَّ الـذّرِّ فـوق متـونهـا ... إذا جرِّدت يوماً لأعدائها الخُزر[٢]

ويلاحظ خلو النصين من المقدمات الشعرية المعروفة، وأن الأول مبدوء بأداة استفهام، والثاني بأداة استفتاح، ويظهر الأثر الإسلامي في النص الأول من البيت العاشر. وفي البيت العاشر والحادي عشر من النص الثاني دفاع عن آلهة الشرك.

وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر[٣]:

عجبتُ لفخر الأوس والحيْنُ دائرٌ ... عليهم غداً، والدهـر فيه بصـائر

وفخر بني النجار إنْ كان معشر ... أصيبــوا ببـدر كلُّهم ثَمَّ صــابـر

فإن تكُ قتلَى غودرتْ من رجالنا ... فــإنّـا رجــال بعــدهم سنغــادر

وتَرْدَى بنا الجُرْد العناجيج وسْطكمْ ... بني الأوس، حتى يشفي النفسَ ثائر[٤]

ووسط بني النجار سوف نكـرُّها ... لهـا بـالقنـا والـدارعين زوافـر[٥]

فنترك صرعَى تعصِب الطيرُ حولهمْ ... وليس لهم إلا الأمـانيَّ ناصـر[٦]

وتبكيهمُ من أهـل يثـرب نســوة ... لهنّ بهـا ليلٌ عن النـوم سـاهـر

---

(١) أواسي: جمع آسية، وهي ما أسس عليه البناء.

(٢) الذر: صغار النمل، والخزر: جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخر عينه كبراً وعجباً.

(٣)السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٣.

(٤) الجرد: الخيل العتاق القصيرات الشعر. والعناجيج: جمع عنجوج، وهو الطويل السريع. والثائر: الطالب بثأره.

(٥) زوافر: جمع زافرة، وهي حاملة الثقل.

(٦) تعصب: تجتمع عصائب عصائب.

وذلـك أنّـا لا تـزال سيـوفنـا ... بهنّ دمٌ ممّن يحـاربن، مائـر[1]

فإن تظفـروا في يوم بـدرٍ فإنمـا ... بأحمد أمسى جَدُّكم وهو ظـاهر

وبـالنفَـر الأخيـارِ هم أوليـاؤه ... يحامون في اللأواء، والموت حاضر

يعـدّ أبـو بكـر، وحمـزة، فيهم ... ويدعى عليٌّ وسط ما أنت ذاكر

ويُدعى أبو حفصٍ وعثمان منهم ... وسعدٌ إذا ما كان في الحرب حاضر

أولئك لا من نتَّجت في ديارهـا ... بنو الأوس والنجار حين تفاخر[2]

ولكنْ أبـوهم من لؤيّ بن غالب ... إذا عُدَّت الأنساب: كعب وعامر

هم الطاعنون الخيل في كل معرك ... غـداة الهيـاج الأطيبـون الأكـاثـر

فأجابه كعب بن مالك قائلاً[3]:

عـجبتُ لأمـر الله، والله قـادر ... على مـا أراد، ليس لله قـاهـر

قضى يوم بدر أن نـلاقيَ معشراً ... بغَوْا، وسبيلُ البغي بالناس جائر

وقد حشدوا واستنفروا من يليهمُ ... من الناس حتى جمعُهمْ متكاثـر

وسـارت إلينا لا تحـاول غيـرنـا ... بـأجمعهـا كعبٌ جميعـاً وعـامـر

وفينـا رسولُ الله، والأوس حـوله ... لـه معقِل منهم عـزيـز ونـاصـر

وجمـعُ بني النجار تحت لـوائـه ... يمشُّون في الماذيِّ والنقعُ ثائر[4]

فلمـا لقينـاهمْ وكـلٌّ مجـاهـد ... لأصحابه مستبسـلُ النفس صابـر

شهـدنـا بـأن الله لا ربّ غيـره ... وأن رســول الله بـالحق ظـاهـر

وقـد عُرِّيت بيضٌ خفـاف كأنهـا ... مقابيس يُزهيهـا لعينيكَ شـاهر[5]

بهن أبـدْنـا جمعـهم فـتبـددوا ... وكان يلاقي الحَيْنَ من هو فاجر

---

(١) مائر: سائل.

(٢) نتجت: ولدت.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٤.

(٤) الماذي: الدروع البيض اللينة.

(٥) يزهيها: يستخفها ويحركها.

فكُبَّ أبـو جهل صـريعاً لـوجهه وعتبـة قـد غـادرنـه وهـو عـاثـر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغى وما منهمُ إلا بذي العرش كافـر
فـأمسوا وقـودَ النار في مستقـرها وكـلُّ كفـور في جهنم صـائـر
تلظَّى عليهمْ وهي قد شبَّ حمْيُها بـزُبر الحـديد والحجـارة ساجـر
وكان رسولُ الله قـد قال: أقبِلوا فولّوْا، وقالوا: إنمـا أنت ساحـر
لأمـرٍ أراد الله أن يَـهلِكـوا بـه ولـيس لأمـر حَمَّـه الله زاجـر

ويلاحظ أن النصين بدآ بالفعل (عجبت)، وأن نظرة شاعر قريش إلى انتصار المسلمين في بدر كان على أساس قبليّ، أي أنه انتصـار للأوس والخزرج على قريش، فلذلك توعدهم وهددهم، ثم عزا انتصارهم لرجال من قريش حاربوا معهم، وهم المهاجرون، كأنما هو يريد أن يشكك في قدرة الأنصار الحربية، وقد كان كعب لبقاً في ردّ هذه التهمة الأخيرة، فلم ينفِ بطولة المهاجرين، وإنما وجه نظر الشاعر القرشي إلى السر الحقيقي للنصر، وهو وجود الرسول ﷺ بينهم، وعرض القضية بمنطق إسلامي رصين.

ومن النقائض التي وردت في غزوة أُحُد قول هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم[1]:

ما بالُ همٍّ عميـدٍ بات يـطرقني بالوُدِّ من هندَ إذ تعدو عواديها[2]
بـاتت تعـاتبني هنـد وتعـذُلني والحربُ قد شُغلت عني مواليها
مهلاً فلا تعذُليني، إنّ من خلقي ما قد علمتِ، وما أن لستُ أخفيها
مُسـاعِفٌ لبني كعب بمـا كلِفـوا حمّـال عبء، وأثقالٌ أُعـانيها[3]
وقد حمَلتُ سلاحي فوق مُشتَرَفٍ ساطٍ سَبوحٍ إذا تجري يباريها[4]

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٢٩.
(٢) العميد: المؤلم الموجع. العوادي الشواغل.
(٣) مساعف: مطيع مُواتٍ. كلفوا: أحبوا.
(٤) مشترف ـ بفتح الراء ـ فرس يستشرفه الناس أي ينظرون إليه لحسنه. أما بكسر الراء فبمعنى =

كأنه إذ جرى عَيـر بفـدفـدة مكـدَّمٌ لاحقٌ بالعُـون يحميهـا[1]

من آل أعـوج يرتـاح النِديُّ لـه كجذْع شَعْراء مستعْلٍ مراقيها[2]

أعـددتُـه ورِقـاقَ الحـدِّ منتخَـلا ومـارِنـاً لخـطوب قـد أُلاقيهـا[3]

هذا وبيضاءَ مثـل النِّهْي محكمةً نيـطت عليَّ فما تبـدو مساويهـا

سقنا كنانة من أطراف ذي يَمنٍ عُرضُ البلاد على ما كان يزجيها

قـالت كنانـة: أنَّى تذهبـون بنا؟ قلنا: النُّخَيل، فأمّوها ومن فيها[4]

نحن الفوارس يوم الجرِّ من أُحد هابت معَدٌّ، فقلنا نحن نأتيها[5]

هابوا ضِراباً وطعناً صادقاً خذِمـاً مما يرون، وقد ضُمَّت قواصيها[6]

ثُمّتَ رحنـا كـأنـا عـارضٌ بـرِد وقـام هامُ بني النجـار يبكيها[7]

كـأن هـامهمُ عنـد الـوغى فلَقٌ من قَيْض رُبْدٍ نفتْه عن أداحيها[8]

أو حنظلٌ ذعذعَتْه الريح في غصن بـالٍ تعـاورَه منهـا سـوافيهـا[9]

= مُشرف. الساطي: البعيد الخطو إذا مشى. السبوح: الذي يسبح في جريه كأنـه يعوم. يباريها: يعارضها. وأعاد الضمير على الخيل وإنْ لم يتقدم لها ذكر، لأن الكلام يدل عليها.

(١) العير: الحمار الوحشي. الفدفدة: الفلاة. المكدّم: المعضض، أي عضته أتانُه. العون: جمع عانة، وهي حُمُر الوحش.

(٢) أعوج: اسم فرس مشهور في العرب. الجذع: الفرع. شعـراء: نخلة كثيرة الأغصـان. مراقيها: معاليها.

(٣) رقاق الحد: يريد سيفاً. منتخلاً: متخيراً. المارن: الرمح اللين عند الهز.

(٤) النخيل: أراد المدينة، وهي أيضاً اسم لعين قرب المدينة، ولا تزال الفواكه تصل منها إلى المدينة اليوم.

(٥) الجر: أصل الجبل.

(٦) الخذم: الذي يقطع اللحم سريعاً. قواصيها: ما تفرق منها وبعد.

(٧) العارض: السحاب البرد: الذي فيه برد. الهام: جمع هامة، وهي الطائر الذي تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل.

(٨) الهام: جمع هامة، وهي الرأس. الفلق: جمع فلقة: وهي القطعة من الشيء. القيض: قشر البيض الأعلى. الربد: النعام، لأن ألوانها بين البياض والسواد. الأداحي: جمع أدحى، وهو الموضع الذي تبيض فيه النعام.

(٩) ذعذعته: حركته.

قد نبذل المال سحّاً لا حساب له ... ونطعن الخيل شَـزْراً في مآقيها[1]

وليلةٍ يصطلي بالفرث جازرُها ... يختص بـالنَّقَرى المثرين داعيها

وليلةٍ من جمادى ذات أنديـة ... جَرْباً جماديةٍ قد بتُّ أسريهـا[2]

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ... من القريس، ولا تسري أفاعيها[3]

أوقدتُ فيها لذي الضراء جاحمةً ... كالبرق ذاكيةَ الأركان أحميها[4]

أورثني ذاكُم عمرو ووالـدُه ... من قبله كان بالمَثْنى يغاليها[5]

كـانوا يبارون أنواءَ النجوم فما ... دنت عن السُّوْرة العلْيا مساعيها[6]

فأجابه حسان فقال[7]:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكمْ ... إلى الرسول، فجند الله مخزيهـا

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً ... فـالنار مـوعدهـا، والقتلُ لاقيهـا

جمعتمـوها أحـابيشـاً بـلا حسب ... أئمـة الكفـر غــرّتكم طـواغيهـا

ألا اعتبـرتُمْ بخيـل الله إذ قتلتْ ... أهـل القليب ومن ألقينه فيهـا

كمـا من أسير فككنـاه بلا ثمن ... وجــزٍّ نـاصيـة كنـا مـواليهـا

وقال كعب بن مالك في إجلاء بني النضير، وقتل كعب بن الأشرف اليهودي[8]:

لقـد جُـزِيَتْ بغَـدْرتهـا الحبــور ... كذاك الدهر ذو صَرْفٍ يـدور[9]

---

(١) الشزر: الطعن عن يمين وشمال.

(٢) أندية: جمع ندى. جربا: شديدة البرد مؤلمة. قالوا: والأصل أن شهر جمادى نال اسمه من أحد شهور البرد التي يتجمد فيها الماء.

(٣) القريس: البرد مع الصقيع.

(٤)) لذى الضراء: ذي الحاجة والعوز.

(٥)) المثنى: مرة بعد مرة.

(٦)) دنت: قصرت. السورة: الرفعة والمنزلة.

(٧) المرجع السابق ٢: ١٣٢ والديوان ص ٢٥٩.

(٨) المرجع السابق ٢: ١٩٩.

(٩) الحبور: جمع حبر، كالأحبار، وهم علماء اليهود.

وذلك أنهم كفروا بربٍّ عزيز، أمره أمر كبير
وقد أُوتوا معاً فهْماً وعلماً وجاءهمُ من الله النذير
نذيرٌ صادقٌ أدَّى كتاباً وآياتٍ مبيَّنةً تنير
فقالوا: ما أتيتَ بأمر صدق وأنت بمنكَرٍ منَّا جدير
فقال: بلى، لقد أديتُ حقاً يصدِّقني به الفَهِم الخبير
فلما أُشْرِبوا غدراً وكفراً وحاد بهم عن الحق النفور
أرى الله النبيَّ برأي صدق وكان الله يحكم لا يجور
فأيّده وسلّطه عليهم وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهمُ كعب صريعاً فذلّتْ بعد مصرعه النضير
على الكفين ثَمَّ، وقد علتْه بأيدينا مشهَّرةٌ ذكور[1]
بأمر محمد إذ دسّ ليلاً إلى كعب أخا كعب يسير
فماكَرهُ، فأنزله بمكر ومحمودٌ أخو ثقة جسور
فتلك بنو النضير بدار سوء أبارهمُ بما اجترموا المبير
غداة أتاهم في الزحف رهوا رسولُ الله، وهو بهم بصير
وغسانُ الحماةُ موازروه على الأعداء وهو لهم وزير
فقال: السلْمَ ويحكمُ، فصدُّوا وحالف أمرَهمْ كذب وزور
فذاقوا غبّ أمرهِمُ وبالاً لكل ثلاثة منهم بعير
وأجلوا عامدين لقينقاع وغودر منهمُ نخل ودور[2]

فأجابه سماك اليهودي[3]:

أرقتُ وضافني همٌّ كبير بليل غيره ليلٌ قصير[4]

(١) مشهرة ذكور: سيوف مسلولة من أغمادها، قوية قاطعة.
(٢) عامدين: قاصدين.
(٣) المرجع السابق ٢ : ٢٠٠.
(٤) ضافني: نزل بي.

أرى الأحبار تنكره جميعاً		وكلهمُ له علم، خبير

وكانوا الدارسين لكل علم		به التوراة تنطق والزبور

قتلتم سيد الأحبار كعباً		وقدْماً كان يأمن من يجير

تدلّى نحو محمود أخيه		ومحمودٌ سريرته الفجور

فغادره كأن دماً نجيعاً		يسيل على مدارعه: عبير

فقد وأبيكم وأبي جميعاً		أُصيبت إذ أُصيب به النضير

فإن نسلمْ لكم نترك رجالاً		بكعب حولهم طير تدور

كأنهمُ عتائرُ يومِ عيد		تُذبَّح، وهي ليس لها نكير[1]

بِبيض لا تُليق لهن عظماً		صوافي الحد أكثرها ذكور[2]

كما لاقيتمُ من بأس صخر		بأُحْدٍ حيث ليس لكم نصير

ولعل روح النقائض بارزة بشكل أوضح في النصين السابقين، فسماك يوافق كعباً على إصابة النضير بموت ابن الأشرف، وينقض معناه المتعلق بقاتله: (ومحمود أخو ثقة جسور)، (محمود سريرته الفجور)، ثم يتوعد بأخذ الثأر، وأن الدولة ستكون لهم بعد خذلانهم، كما كانت لقريش على المسلمين في أُحُد بعد انكسارهم في بدر، علاوة على ما بين القصيدتين من الاشتراك في الوزن والقافية والروي.

وفي موقعة الخندق قيل أيضاً كثيرٌ من النقائض، لأنها كانت من المواقع الفاصلة قال ضرار بن الخطاب[3]:

ومشفقةٌ تظن بنا الظنونا		وقد قدنا عَرَنْدَسة طَحونا[4]

كأن زُهاءَها أُحُد إذا ما		بدت أركانه للناظرينا[5]

(١) العتائر: جمع عتيرة، وهي الذبيحة.

(٢) لا تليق: لا تبقي.

(٣) المرجع السابق ٢: ٢٥٤.

(٤) العرندسة: الشديدة القوة، يريد الكتيبة.

(٥) زهاءها: تقدير عددها.

تـرى الأبـدان فيهـا مسبغـاتٍ   على الأبطال، واليلَبَ الحصينا[1]

وجُـرْداً كـالقـداح مسـوَّمـات   تؤم بهـا الغـواةَ الخـاطبينـا[2]

كـأنـهـمُ إذا صـالـوا وصـلنـا   ببـاب الخنـدقين مُصـافحـونـا

أنـاس لا نـرى فيهـمْ رشيـداً   وقـد قـالـوا: ألسنـا راشـدينـا؟

فـأحجـرنـاهم شهـراً كـريتـا   وكنـا فـوقهـم كـالقـاهـرينـا[3]

نـراوحـهـم ونـغـدو كـلَّ يـوم   عليهم في السـلاح مـدجَّجينـا

بـأيـدينـا صـوارم مـرهفـاتٌ   نقـدُّ بهـا المفـارق والشؤونـا[4]

كـأن وميضَـهـنّ مـعـرَّيـاتٍ   إذا لاحت بـأيـدي مصـلتينـا

وميضُ عقيقـةٍ لـمعـتْ بليـل   نـرى فيهـا العقـائق مستبينـا[5]

فـلولا خنـدق كـانـوا لـديْـه   لـدمّـرنـا عـليهـم أجمـعينـا

ولـكن حـال دونـهـم وكـانـوا   بـه مـن خـوفنـا متعـوِّذينـا

فـإن نـرحـل فـإنـا قـد تـركنـا   لـدى أبيـاتكم سعـداً رهينـا[6]

إذا جَنَّ الـظلام سمعت نَـوْحَـى   على سعـد، يـرجِّعن الحنينـا

وسـوف نـزوركمْ عمـا قـريب   كمـا زرنـاكم متـوازرينـا[7]

بجمـع من كنـانـة غيـرُ عـزل   كأُسْد الغـاب قد حمت العـرينا

فأجابه كعب بن مالك[8]:

وسـائلةٌ تسـائـل مـا لقِينـا   ولـو شهـدت رأتنـا صابـرينا

---

(١) الأبدان: هي هنا بمعنى الدروع. اليلب: الترسة أو الدرق.

(٢) الجرد: الخيل العتاق. القداح: السهام، المسومات: الغالية الأسوام.

(٣) أحجرناهم: حصرناهم.

(٤) الشؤون: مجمع العظام وأعلى الرأس.

(٥) العقيقة: السحابة التي تشق عن البرق.

(٦) سعد: هو سعد بن معاذ.

(٧) متوازرين: متعاونين.

(٨) المرجع السابق ٢: ٢٥٦.

صبرنا لا نرى لله عدلا ... على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبي وزيرَ صدق ... به نعلو البرية أجمعينا
نقاتل معشراً ظلموا وعقُّوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا[1]
نعاجلهمْ إذا نهضوا إلينا ... بضرب يُعجِل المتسرعينا
ترانا في فضافض سابغاتٍ ... كغُدران الملا متسربلينا[2]
وفي أيماننا بيض خفاف ... بها نشفي مِراح الشاغبينا[3]
بباب الخندقين كأن أُسْداً ... شوابكهن يحمين العرينا[4]
فوارسنا إذا بكروا وراحوا ... على الأعداء شُوساً مُعْلَمينا[5]
لننصر أحمداً والله حتى ... نكون عبادَ صدقٍ مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزابٌ أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأن الله مولى المؤمنينا
فإما تقتلوا سعداً سفاها ... فإن الله خيرُ القادرينا
سيدخله جِناناً طيباتٍ ... تكون مُقامة للصالحينا
كما قد ردّكم فَلّاً شريدا ... بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثَمَّ خيرا ... وكدتم أن تكونوا دامرينا[6]
بريح عاصفٍ هبّت عليكم ... فكنتم تحتها متكمِّهينا[7]

* * *

(١) المرصدين: جمع مرصد، وهو المعد للأمر عدته.
(٢) الملا: المتسع من الأرض.
(٣) المراح: بكسر الميم: النشاط.
(٤) الشوابك: التي يتشبث بها فلا يفلت.
(٥) الشوس: جمع أشوس، وهو الذي ينظر نظر المتكبر بمؤخر عينه. المعلمين: جمع معلم، وهو: الذي أعلم نفسه بعلامة الحرب ليشتهر بها.
(٦) دامرين: هالكين.
(٧) المتكمه: الأعمى الذي لا يبصر.

هذه خمس قصائد للشعر المدني في صدر الإسلام ونقائضها، ربما تبادر إلى الذهن أن في إيرادها كاملة شيئاً من الإطالة، ولكن ما فعلته كان متعمداً، قصدت منه إلى إثبات ما ذكرته آنفاً من أن هذا الشعر يدور داخل إطار مثلث متساوي الأضلاع هو النقائض، والشعر الديني، والارتباط بكبريات الأحداث، وهو تصوّر أحسب أنه لن يتم إلا من خلال ما أوردته من نماذج، فكل الأغراض الشعرية التي نهدف إلى بيان أثر الإسلام فيها، هي داخلة ضمن هذا الإطار، وهذا الوضع في حد ذاته يعدّ أول أثر نضع عليه أيدينا في هذا الصدد.

أما ظاهرة تداخل الأغراض المتمثلة في النماذج السابقة، فإنها ـ كما قلنا ـ تعتبر استمراراً لما كان سائداً في العصر الجاهلي، فبنية القصيدة المدنية في صدر الإسلام من هذه الناحية إذن لم تختلف كثيراً عمّا كانت عليه في العصر الجاهلي، غير أن المقدمات لم تعد شيئاً مهمّاً في القصيدة، بل إن أكثر قصائدهم أصبحت ترد خالية منها، وحتى حسان الذي عرف شعره الجاهلي بالتفنّن في هذه المقدمات وبخاصة المقدمة الطللية، فإنه قلّما يقدم لقصائده الإسلامية، وصار في أكثرها يهجم على الغرض دون مقدمات، ومما قدم له نقيضته البائية التي ردّ بها على بائية ابن الزبعرى في غزوة الخندق، ولعله فعل ذلك مجاراة لابن الزبعرى الذي بدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال فقال[1]:

حيِّى الديارَ محا معارفَ رسمها ... طولُ البِلى وتراوحُ الأحقاب
فكأنما كتب اليهود رسومَها ... إلا الكنيف ومعقد الأطناب[2]
قَفْراً كأنك لم تكن تلهو بها ... في نعمة بأوانس أتراب
فاترك تذكُّر ما مضى من عيشة ... ومحلّة خَلِق المقامِ يباب

(١) المرجع السابق ٢: ٢٥٧.

(٢) الكنيف: الحظيرة التي تصنع للإبل. الأطناب: الحبال التي تشد بها الأخبية. ومعقدها: الأوتاد التي تربط بها.

واذكر بلاء معاشرٍ واشكرهمُ ساروا بأجمعهم من الأنصاب[1]

فيقول حسان[2]:

هل رسمُ دارسةِ المقام يبابِ متكلِّمٌ لمحاورٍ بجواب

قَفرٌ عفارِهَمُ السحابِ رسومه وهبوبُ كل مُطِلّة مِربـاب[3]

ولقد رأيت بها الحلول يَزينهمْ بِيضُ الوجوه ثواقبُ الأحساب[4]

فدعِ الديار وذكْرَ كلِّ خريدة بيضاء آنسة الحديث كَعاب

واشك الهموم إلى الإلّه وما ترى من معشر ظلموا الرسول غِضاب

وكذلك فعل حسان في بائيته الأخرى التي قالها في يوم بدر، حيث بدأها بمقدمة طللية من ثلاثة أبيات أيضاً ثم تخلّص إلى موضوعه بكلمة (دع):

عرفت ديارَ زينب بالكثيب كخطِّ الوحي في الرّق القشيب[5]

تعاورُها الرياحُ وكلُّ جَوْن من الوسميّ منهمرٍ سكوب

فأمسى رسمها خَلَقاً، وأمست يباباً بعد ساكنها الحبيب

فدع عنك التذكُّر كلَّ يوم ورُدَّ حرارة الصدرِ الكئيب

وخبِّر بالذي لا عيب فيه بصدق، غير أخبار الكذوب

بما صنع المليك غداة بدر لنا في المشركين من النصيب

وربما كان لطبيعة موضوع الشعر المدني الإسلامي، من جهة: وتشجيع الإسلام الرسمي له من جهة أخرى أثَر في قدرة هذا الشعر على تحدي كثير

---

(١) الأنصاب: هي الحجارة التي يعلم بها الحرم، أو هي الحجارة التي كانوا يذبحون لها ويعظمونها.

(٢) المرجع السابق: ٢٥٨ وديوان حسان ص ١١.

(٣) رِهَم: جمع رِهْمة، وهي المطر. المطلة: المشرفة، والمرباب: الدائمة الثابتة.

(٤) الحلول: البيوت المجتمعة. ثواقب: مشرقة، ومنه: (النجم الثاقب).

(٥) الديوان ص ١٢ وحسان بن ثابت للدكتور درويش ص ٣٣٩.

من الأسس التي قامت عليها القصيدة الجاهلية[1]، التي منها شيوع المقدمات والانتقال منها إلى موضوعات معينة، ولذا رأينا كعب بن زهير في (بانت سعاد) يلتزم بهذه المقدمة ونحتل من قصيدته أبياتاً عديدة، لأنه من بيئة لم تتشرب روح الإسلام بعد، ولم يتأثر شعراؤها بطبيعة الموضوعات الشعرية الإسلامية الجديدة السائدة بالمدينة.

* * *

هذه هي الملاحظات الإجمالية حول أثر الإسلام في أغـراض الشعر المدني في صدر الإسلام، وإذا كان لا بدّ من تحديد بعض الملاحظات حول كل غرض بصفة مستقلة، فإن أول مـا يبدهنـا، ضمور شعـر النصائـح والحكم، لأن الناس في المجتمع الإسلامي لم يعودوا يتلقون الحكمة من كاهن أو شاعر، ولم يعد في إمكانهم أن يوازُوا بين أي مصدر للحكمة أو النصيحة مهما علا شأنه وجلّ قدره وبين الوحي المتنزّل من عند الله، والحديث الصادر عن رسول الله، ليس لأن الإسلام حرّم على أتباعه تلقّي النصيحة أو أخذ الحكمة من غير القرآن والسنّة، فالحكمة ضالّة المؤمن، أنّى وجدها التقطها، والدين النصيحة، وإنما لأن الوحي وكلام الرسول ﷺ استغرقـا منهم كل المشاعر وذهبا بهم كل مذهب، فلم يعودوا يأخذون إلا منهما، أو بالحكم والنصائح التي تنتهج منهجهما وتؤكد على المحتوى الذي تضمناه، ولذا نلاحظ أن ما جاء في هذه الفترة من حِكَم شعرية كان لا يتجاوز ذلك المنهج ولا يبتعد عنه، وإنما هو يدور في فلكه ويحتذيه في المعنى تارة، وفي اللفظ والمعنى تارة أخرى ومن ذلك قول حسان:

وأجعل مالي دون عرضي وقايـة ... وأحجبـه كي لا يـطيب لآكـل
وأيّ جـديـد ليس يـدركـه البِلى ... وأيّ نعيم ليس يـومـاً بـزائـل

فإنك في البيت الأول إزاء دعوة للكرم وبذل المال، وفي البيت الثاني

---

(١) عن مقال بعنوان (القصيدة العربية وتطورها) للأستاذ فؤاد ترزي ـ مجلة الأبحاث البيروتية ـ الجامعة الأمريكية. السنة ١٢ جـ١ ص ٩٤ آذار ١٩٥٩ م.

إزاء معاني الفناء والنهنهة من شره الإنسان واغتراره بالعافية والنِعَمْ (كلُّ مَنْ عليها فانٍ)، ولا نجد في شعرهم مثل قول الجاهلي:

وما أنا إلا من غزيّة إن غــوت غويت، وإن ترشـد غزيـة أرشد

ومن قول حسان الجاري مجرى المثل قوله في بني عبد المدان:

لا بأس بالقوم من طول ومن قصَر جسم البغـال وأحلام العصـافيـر
لا ينفع الطولُ من نُوكِ القلوب ولا يَهدي الإلّه سبيل المعشر البـور

ومن حكمه أيضـاً:

ربَّ حلم أضــاعـه عــدم المـا ل، وجهـلٍ غـطى عليـه النعيم
مـا أُبـالي أنَبَّ بـالـحَـزْنِ تيس أم لحــاني بــظهــر غيب لئيم

وقول ابن رواحة يخاطب نفسه يوم مؤته:

هــل أنـت إلا إصبــع دميـتِ وفـي سـبـيــل الله مــا لقيــت؟

وقولــــه:

فلم أرَ كــالإســلام عــزّاً لأهله ولا مثل أضياف الأراشيّ معشرا[1]

وقوله في فتح مكة:

ضـربَـاً يُـزيـل الهــام عن مقيله ويــذهــل الخليــل عـن خليـله

وقول كعب بن مالك يوم أُحد:

ولكن ببــدر ســائلوا من لقيتـمُ من الناس، والأنباء بالغيب تنفع

وقولــــه:

---

(١) الأراشي: هو مالك بن التيهان، وإراشة من قبيلة بلي، وهو حليف للأوس، وأحد نقبائهم ليلة العقبة. وأضيافه هم: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر.

ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا | على الله إن الأمر لله أجمع

أما بالنسبة للغزل فقد أشرنا إليه في كلام سابق. والواقع أن حسان انفرد به عن صاحبيه (كعب بن مالك وابن رواحة). فلو قرأت شعرهما الإسلامي كله لما وجدت فيه شيئاً من الغزل، كأنهما كانا يربآن بأنفسهما عن أن تنسب إلى النزوات والصبوات، ورغم انفراد حسان بالغزل فإنه تحاشى ذكر ما يتنافى مع الروح الإسلامية، فلم يتعرض لما يكون بينه وبين صاحبته، ولم يصف محاسن جسمها بشكل مكشوف كما كان يفعل هو وغيره من شعراء الجاهلية، والشعراء خارج المدينة في هذه الفترة. وهو في عمومه إما استعادة لذكريات قديمة، وإما غزل صناعي درج عليه، ومن أمثلة ذلك مطلع قصيدة له في يوم أُحد، يقول فيه[1]:

أشاقك من أم الوليد ربوع | بلاقع ما من أهلهنّ جميع[2]
عفاهنّ صيفيٌّ الرياح وواكفٌ | من الدلو رجافُ السحاب هَموع[3]
فلم يبق إلا موقدُ النارِ حوله | رواكدُ أمثالُ الحمام وَقوع[4]
فدع ذكر دارٍ بدّدت بين أهلها | نوىً فرّقت بين الجميع قَطوع

ومن أمثلته عنده أيضاً ما ذكرناه في الحديث عن مقدمة القصيدة المدنية قبل قليل، وما ذكرناه في قصيدته إلى الرسول ﷺ يوم حنين عند تقسيم الغنائم، ومثله أيضاً هذه المقدمة في غزوة الطائف:

أهاجك بالبيداء رسمُ المنازل | نعم قد عفاها كلُّ أسْحمَ هاطل
وجرّتْ عليها الرامساتُ ذيولَها | فلم يبق منها غيرُ أشعثَ ماثل[5]

---

(١) الديوان ص١٥٠.
(٢) جميع: مجتمعون.
(٣) واكف: مطَرها طلّ. الدلو: برج من بروج السماء.
(٤) الرواكد: الأثافي.
(٥) الرامسات: الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار. أي تدفنها. الأشعث الماثل: يقصد موقد النار أو حوض الماء المتهدم.

ديـار التي راق الـفؤادَ دلالُـهـا وعــزّ علينـا أن تجــود بنـائــل
لها عينُ كحلاء المدامعِ مـطفل تُراعي نَعاماً يرتعي بالخمائـل[1]

ومما يدل على ضمور الغزل في الشعر المدني حتى عند حسان الذي عُرِف بالتفنّن فيه جاهلياً وخصّه بقصائد مستقلة: اضطرارُ حسان إلى السطو على بيت لابن الخطيم في هذه القصيدة، وهو ما يعرف عند النقاد بالنسخ. قال ابن الخطيم:

ديار التي كادت ونحن على منى تُحِـلّ بنـا لـولا نجـاءُ الـركـائب

ويقول حســـان:

ديار التي كادت ونحن على منى تحـل بنا لـولا نجـاءُ الـرواحـل

ولا يمكن أن يكون هذا من توارد الخواطر لأن قول ابن الخطيم من جهة سابق تاريخياً، ومن جهة أخرى يجوز لكل واحد أن ينساه غير حسان الذي طالما دخل مع ابن الخطيم في مناقضات.

أما الأغراض التي استمر ازدهارها فهي:

أ ـ الفخــر:

وقد دعا إلى استمراره ما كان بين المسلمين والمشركين من حروب لا تنقطع، وما صحب ذلك من حرب شعرية ومناقضات ملأت سماع الدنيا، وقد كان أثر الإسلام فيه واضحاً، فلم يعد ابن رواحة يفخـر بأحسـابه وأنسابه، ويتعالى على الناس بقومه الخزرج بل هو يفتخر بوجود رسول الله بينهم وباعتناقهم دين الله ودفاعهم عن حياض الإسلام، ومن ذلك قوله[2]:

وفينــا رســولُ الله يتلو كتــابــه إذا انشقّ معروف من الفخر ساطع

---

(١) كحلاء المدامع: الظبية. مُطفل: ذات ولد.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧: ٣٩٢ مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ.

أرانا الهدي بعد العمى فقلوبنا ... به موقناتٌ أنَّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
وأعلم علماً ليس بالظن أنني ... إلى الله محشور هناك وراجع
فسرنا إليهم جهرة في رحالهم ... جميعاً، علينا البيضُ، لا نتخشع

وقوله في سرية مؤتة[1]:

جلبنا الخيلَ من أجإٍ وفَرْع ... تغُرُّ من الحشيش لها العكوم[2]
حذوناها من الصُّوَّان سِبْتا ... أزَلَّ كأن صفحتَه أدِيم[3]
أقامت ليلتين على مَعانٍ ... فأعقب بعد فترته جُموم[4]
فرحنا والجيادُ مسوَّمات ... تنفَّس في مناخرها السَّموم[5]
فلا وأبي، مآبَ لنأتينْها ... وإن كانت بها عربٌ وروم[6]
فعبَّأنا أعنَّتها فجاءت ... عوابسَ والغبار لها بَريم[7]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣٧٥.

(٢) جلبنا الخيل: زجرناها وصحنا بها من خلفها لتسرع، أجأ: أحد جبلي طيء والآخر سلمى. والفرع: قيل: هو أطول جبل في أجأ. وقد يكون المقصود وادي الفرع المعروف بهذا الاسم إلى الآن في الطريق بين المدينة ومكة. وتغر: مضارع غر: أي رعى. يقال: غرّ إبله أي رعاها. والعكوم: جمع عِكْم بكسر العين. وهو المقدار المعلوم من الطعام. فالمعنى: نطعم هذه الخيل من الحشيش كميات معلومة.

(٣) حذوناها سبتاً: ألبسناها نعلاً مدبوغاً وأملس. الصوان: نوع من الحجارة مفردها صوانة. الأزل: الأملس. وصفحة الشي: جانبه. والأديم: الجلد.

(٤) معان: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز، وهي بفتح الميم. وقد أقام بها جيش المسلمين الذاهب إلى مؤتة ليلتين يفكرون في أمرهم لمّا رأوا من كثرة عدد الروم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدّنا بالرجال، وإما أن يامرنا بأمره فنمضي له. والفترة: الضعف. والجموم: اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة.

(٥) مسومات: مرسلات. والسموم: الريح الحارة. وهي من رياح شمال الجزيرة العربية إلى الآن.

(٦) مآب: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، نزل بها هرقل لمواجهة المسلمين في هذه المعركة بمائة ألف من الروم وانضم إليهم مائة ألف من عرب لخم وجذام وبهراء وبلي، كان عليهم مالك بن زاقلة من إراشة أحد فروع بلي.

(٧) عبأنا الأعنة: جهزناها. البريم: كل ما فيه لونان مختلطان، فتكون الخيل هنا وما علاها من =

بـــذي لجب كـــأن البَيْض فيـــه إذا بـــرزت قـــوانسُهـــا: النجـوم
فـــراضيـــةُ المـعيـشـــة طلّقتهـــا أسـنّتُهـــا، فـتَـنـكـــح أو تئيـم

والذي يلفت النظر في هذه الأبيات هو ورود القَسَم بالأب في البيت الخامس، وهو أمر لا يقبله الإسلام، فمن كـان حالفـاً فليحلف بالله أو ليصمت، ولعلهم تجاوزوا عنه في الشعر إذا قُصِد منه مجرد التوكيد دون أن تكون له أية دلالة عقائدية، ولعلّ الرسول ﷺ كان سيرشد ابن رواحة إلى ترك مثل هذا في شعره لو قُدِّرت له الحياة ورجع إلى المدينة سالماً، فكثيراً ما كان يفعل ذلك مع شعراء الدعوة. كما كان في الوقت نفسه قد يتغاضى عن بعض الهنات منهم في فخرهم وهجائهم الذي وظفه للدفاع عن الإسلام، إذا لم تصطدم بالمبادىء الأساسية للدعوة، ولهذا كان من الطبيعي أن لا تختفي أغلب السمات الجاهلية في الشعر الإسلامي عند شعراء المدينـة، وظل رنين ذلك الفخر يتردد في شعر حسان بالذات، بل إنه ضم إلى ذلك أمجاداً أخرى حققها قومه بالإسلام، وخرج بفخره إلى آفاق أوسع وأرحب ولعلّ خير ما يصلح للتمثيل في هذا الباب قصيدته اللامية وهي[1]:

لك الخيرُ غضِّي اللومَ عني فإنني أحِبّ من الأخلاق ما كان أجملا
ذريني وعلمي بـــالأمـور وشيمتي فما طائري يوماً عليكِ بأخيلا[2]
فإن كنتِ لا مني، ولا من خليقتي فمنك الذي أمسى عن الخير أعزلا
ألم تعلمي أني أرى البخل سبة وأبغض ذا اللونين، والـمتـنقـــلا
إذا انصرفت نفسي عن الشيء مرة فلست إليـه آخـر الـدهـر مقبـلا
وإني إذا مـا الهمّ ضاف قـرَيْتـه زَماعاً، ومرقالَ العشياتِ، عيْهلا[3]

= الغبار: بريماً.

(١) الديوان ص ٢٠٦.

(٢) الأخيل: طائر مشؤوم. وبعضهم يسميه الشقراق.

(٣) الزماع: المضاء في الأمر. مرقال العشيات: الناقة المسرعة. العيهل: الناقة النجيبة الشديدة. أراد أنه يرتحل على ناقته ليفرج همه.

ململَمــةً، خـطّارة، لـو حملتُهــا   على السيف لم تعدِل عن السيف معدِلاً[1]
إذا انبعثت من مبركٍ غادرت به   تـوائمَ أمثـالَ الـزبـائب ذُبّــلا[2]
فـإن بركتْ خـوَّت على ثَفِناتِهـا   كأن على حيزومها حرفَ أعْبلا[3]
مـروعة، لـو خلفها صـرَّ جُندُب   رأيت لها من رَوعة القلب أفكلا[4]
وإنّــا لقـوم مــا نســوِّد غــادرا   ولا ناكلاً عنـد الحمالـةِ زُمَّلا[5]
ولا مـانعـاً للمـال فيمـا ينــوبـه   ولا عاجزاً في الحرب جِبْساً مغفَّلا[6]
نســوِّد منّـا كــلّ أشيبَ بـارعٍ   أغـرَّ، تـراه بــالجـلال مكلَّلا[7]
إذا ما انتدى أجْنَى الندى وابتنى العلا   وأُلفِيَ ذا طَـوْل على من تـطوّلا
فلستَ بـلاقٍ ناشئاً من شبـابنـا   وإن كان أندى مِن سوانا، وأحولا[8]
نطيع فِعال الشيخ منّا، إذا سما   لأمر، ولا نعيا، إذا الأمر أعضلا
لــه أُرْبـةٌ في حــزمـه وفِعــالـه   وإن كان منّا حازمَ الرأي حُوّلا[9]
ومــا ذاك إلا أننــا جَعلت لنــا   أكـابِـرُنــا، في أول الخيـر أوّلا

ويبلغ به الفخر مداه، فيأتي فيه بما لم يستطعه في جاهليته فيقول:

فنحن الذرى من نسل آدم، والعُرَى   تربَّع فينا المجد حتى تـأثلا[10]

---

(١) الململمة: المجموع بعضها إلى بعض. الخطارة: التي تخطر بذنبها في سيرها نشاطاً. لم تعدل عن السيف: جريئة لا تهاب السيف.
(٢) التوائم: المقصود بها البعر. الزبائب: الزبيب.
(٣) خوت: تجافت. ثفناتها: ما يقع على الأرض من أعضائها حين بروكها. حيزومها: صدرها. الأعبل: الغليظ.
(٤) الأفكل: الرعدة.
(٥) الحمالة: تحمل الديات.
(٦) الجبس: الثقيل الذي لا يجيب إلى خير.
(٧) المكلل: المتوج.
(٨) الأحول: ذو الحيلة، وهي الحذق والفطنة.
(٩) الأربة: الدهاء، والبصر في الأمور. الحول: الحسن التصرف في الأمور.
(١٠) العرى: جمع عروة، وهي أصل الشجرة الباقي.

بنَى العز بيتاً، فـاستقرّت عمـادُه ... علينـا، فأعيـا الناسَ أن يتَحـوّلا

وإنك لن تلقَى من الناس معشرا ... أعـزَّ من الأنصـار عـزّاً وأفضـلا

وأكثـرَ أن تلقى، إذا مـا أتيتهمْ ... لهم سيداً ضَخْم الدّسيعةِ جَحْفلا(١)

وأشيب ميمـونَ النقيبـة يُـبتـغى ... به الخطرُ الأعلى، وطفلاً مؤمَّلا

وأمـرد مرتـاحـاً، إذا مـا نـدَبْته ... تحمّـل مـا حمّلتـه، فتـربَّـلا(٢)

وعِـدّاً خـطيبـاً لا يـطاق جـوابُـه ... وذا أُرْبـة في شعـره مـتنخَّـلا(٣)

وأصيدَ نهّاضاً إلى السيف صارما ... إذا ما دعا داعٍ إلى الموت أرقلا(٤)

وأغـيـدَ مختـالاً، يجـرّ إزاره ... كثيرَ الندى، طَلْق اليدين معذَّلا(٥)

لنـا حَـرَّة مـأطـورةٌ بجبـالهـا ... بنى المجدُ فيها بيتَه، فتأهّـلا(٦)

بها النخلُ والآطام تجري خلالها ... جداولُ، قد تعلو رَقاقاً وجَرْولا(٧)

إذا جـدول منهـا تصـرّم مـاؤه ... وصلنـا إليـه بـالنـواضـح جـدولا

على كل مفهاق، خسيفٍ غُروبُها ... تفرغ في حوض من الصخر أنْجَلا(٨)

لـه غَلَلٌ في ظـل كـل حـديقـة ... يعارض يَعبوباً من الماء سَلْسَلا(٩)

إذا جئتَهـا ألفيتَ في حَجَـراتهـا ... عناجيجَ قُبّاً، والسَّوامَ المؤبَّلا(١٠)

---

(١) ضخم الدسيعة: ضخم المائدة الكريمة. الجحفل: السيد العظيم القدر.

(٢) تربل: عظم.

(٣) العد: الماء الدائم الذي لا ينقطع، شبّه تدفق الخطيب في كلامه بتدفق هذا الماء. أربة الشعر: شدته وإحكامه.

(٤) الأصيد: الذي يرفع رأسه كبراً.

(٥) المعذل: الذي يلومونه لكثرة كرمه.

(٦) مأطورة: محاطة. تأهل: اتخذ أهلاً.

(٧) الرقاق: الأرض الصلبة المستوية. الجرول: الموضع في الجبل الكثير الحجارة.

(٨) المفهاق: البئر الكثيرة الماء. الخسيف: البئر التي تحفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها. الأنجل: من النجل، وهو السعة.

(٩) الغلل: الماء الذي يجري بين الشجر. اليعبوب: النهر. السلسل: الماضي في جريه.

(١٠) حجراتها: نواحيها، مفردها حَجرة. العناجيج: جمع عنجوج، وهو الفرس الجواد. القب: الضامرة البطون، واحده: أقب. السوام: الإبل الراعية. المؤبل: المقتني.

جعلنا لها أسيافنا ورماحنا ... من الجيش والأعراب، كهفاً ومعقلا
إذا جمعوا جمعاً سمَوْنا إليهمُ ... بهندية تُسقَى الذُّعافَ المثمَّلا[1]
نصرنا بها خير البرية كلِّها ... إماماً، ووقّرنا الكتابَ المنزَّلا
نصرنا، وآوينا، وقوَّمَ ضربُنا ... له بالسيوف مَيْلَ من كان أميلا
وإنك لن تلقى لنا من معنِّف ... ولا عائب، إلا لئيماً مضلَّلا
وإلا امرأ قد ناله من سيوفنا ... ذُبابٌ فأمسى مائلَ الشّق أعزلا[2]
فمن يأتنا أو يلقنا عن جناية ... يجدْ عندنا مثوى كريماً، وموئلا
نجير، فلا يخشى البوادرَ جارنا ... ولاقى الغنى في دورنا، فتموّلا

وليست هذه هي القصيدة الوحيدة التي يفخر فيها حسان بقومه وآبائه في ظل الإسلام، بل له قصائد أخرى كذلك ومنها ميميته التي مطلعها:

أولئك قومي فإن تسألي ... كرامٌ إذا الضيف يوماً ألم
عظام القدور لأيسارهم ... يَكبون فيها المُسِنّ السَّنِم

فقد جمع فيها بين الفخر بماضي آبائه وأجداده وكيف وصلوا المدينة وتأثلوا فيها، وبين حاضرهم الإسلامي الشامخ الذي بدأ بهجرة الرسول ﷺ إليهم، وكأن حسان يفخر بالإسلام على العرب، ويفخر بالماضي على المهاجرين، فقد كان لا يستريح كثيراً لرؤية من زحموا ـ في نظره ـ قومه في الثروات، وكان هذا الشعور يغلبه أحياناً على شعره، ويظهر في سقطات لسانه، حتى أن الرسول ﷺ غاضبه حين قال:

أمسى الخلابيسُ قد عزّوا وقد كثروا ... وابنُ الفُريعة أمسى بيضةَ البلد

ولم يرضَ عنه إلا بعد توسّط قومه له عنده وإعلان توبته وتأويلِ ما قال. ونراه في آخر القصيدة اللاميّة السابقة يقول:

---

(١) الذعاف: السم القاتل. المثمل: الذي قُوّي بمادة تزيد فعله.
(٢) الذباب: الشؤم، والشر الدائم. وحد السيف.

نجيـر فلا يخشى البـوادرَ جارُنـا   ولاقى الغنَى في دورنـا، فتموَّلا

ويقول في آخر هذه الميمية:

فمـا إن من النـاس إلا لنـا   عليـه وإنْ خاس فضـل النعم

ويلاحظ أن هذه القصيدة من أربعة وثلاثين بيتاً، خصّ الماضي منها بعشرين بيتاً فقال[1]:

أولئـك قـومي فـإنْ تسـألي   كـرام إذا الضيف يـومـاً ألم
عـظام القـدور لأيسـارهـمْ   يَكبُّـون فيهـا المُسِنَّ السَّنِم[2]
يـواسـون مـولاهُم في الغنى   ويـحـمـون جـارهـمُ إن ظُـلـم
وكـانـوا مـلوكـاً بـأرضيـهـمُ   يبـادون غَضْباً بـأمـرٍ غَشِم[3]
ملوكاً على الناس لم يملكـوا   من الدهر يـومـاً كحِلِّ القسم[4]
فـأنبـوا بـعـادٍ وأشـيـاعـهـا   ثمـودَ، وبعضِ بقـايـا إرَم[5]
بيثـرب قـد شيَّـدوا في النخيـ   ـل حصـوناً، ودَجَّن فيهـا النَّعَم
نـواضـحُ قـد علمتْهـا اليهـو   د، عُـلَّ إليـك وقـولاً هَلُم[6]
وفيمـا اشتهوا من عصير القـطا   ف، وعيش رخي على غيرهم[7]
فسـاروا إليـهـم بـأثـقـالـهـم   على كـل فحل هِجانٍ قَـطِم[8]
جيـادُ الخيـول بـأجنـابـهـمْ   وقـد جـلّلوهـا ثـخـانَ الأدَم

---

(١) الديوان ص ٢٢١.

(٢) الأيسر: جمع يَسَرٍ، كسبب، وهم القوم المجتمعون على الميسر.

(٣) يبادون: يكاشفون. الغضب: الأسد الغضوب. غشم: ظالم.

(٤) كحلّ القسم: يريد أنهم ملكوا الناس وحل لهم ذلك لأنهم وفوا بحق الملك، كما يحل المرء من القسم حين يفي به.

(٥) أنبوا: أخبروا.

(٦) عل إليك: من العلل، وهو السقية الثانية. أو من قولهم للإبل: عل عل أي انزجري.

(٧) القطاف: ما يقطف من عنب وغيره. وعصيره: الخمرة.

(٨) هجان: أبيض. قطم: هائج.

فلما أناخوا بجنبي صرار وشدوا السروج بليِّ الحُزُم[1]

فما راعهم غيرُ مَعْجِ الخيو ل، والزحفُ من خلفهم قد دَهِم[2]

فطاروا شِلالاً وقد أُفزعوا وطرنا إليهم كأسْد الأجم[3]

على كل سَلهبةٍ في الصِّيا ن، لا تستكين لطول السَّأم[4]

وكلِّ كُمَيْت مُطارِ الفؤا د، أمينِ الفصوص كمثل الزُّلَم[5]

عليها فوارس قد عاودوا قراعَ الكماة وضربَ البُهَم

ليوث إذا غضبوا في الحرو ب، لا ينكلون، ولكن قُدُم

فأبنا بسادتهم والنسا ء قسراً، وأموالهم تُقتسَم

ورثنا مساكنهم بعدهم وكنّا ملوكاً بها لم نَرِم[6]

وجعل الأربعة عشر بيتاً الباقية للحديث عن الحاضر فقال:

فلما أتانا رسول المليـ ـك بالنور والحق بعد الظُّلَم

ركنّا إليه ولم نعصه غداة أتانا منَ أرض الحرم

وقلنا: صدقتَ رسولَ المليـ ـك، هلمّ إلينا، وفينا أقِم

فنشهد أنك عبد المليـ ـك، أرسِلت نوراً بدين قيم[7]

فنادِ بما كنتَ أخفيته نداءاً جهاراً، ولا تكتتم

فإنّا وأولادَنا جُنّةٌ تقيك، وفي مالنا فاحتكم

فنحن ولاتك إذ كذبو ك، فناد نداءاً، ولا تحتشم[8]

---

(١) صرار: موضع بالمدينة، واسم أطم من آطامها.

(٢) معج الخيول: سرعتها في ذهابها ومجيئها.

(٣) شلالاً: متفرقين.

(٤) السلهبة: الفرس العظيمة الطويلة. الصيان: الحفظ.

(٥) مطار الفؤاد: ذكي نشيط. أمين الفصوص: قوي المفاصل. الزلم: القدح.

(٦) لم نرم: لم نتحول.

(٧) دين قيم: مستقيم لا اعوجاج فيه.

(٨) ولا تحتشم: هذا اللفظ في غاية الرداءة، وغير متناسب مع مقام الرسول ﷺ، ومعنى الشطر =

فطار الغواة بأشياعهم ... إليه، يظنون أن يُخترَم

فقمنا بأسيافنا دونه ... نجالد عنه بغاةَ الأمم

بكل صقيل له ميعة ... رقيقِ الذُّباب، غموسٍ خَذِم[1]

إذا ما يصادف صمَّ العظا ... م، لم ينبُ عنها، ولم ينثلم

فذلك ما أورثتنا القرو ... ن، مجداً تليداً وعزّاً أشم[2]

إذا مرّ قَرن كفى نسلُه ... وخلّف قَرن إذا ما انقصم

فما إن من الناس إلا لنا ... عليه - وإن خاس - فضلُ النِّعم[3]

هكذا كان حسان مطبوعاً على المفاخرة بالآباء والأجداد، لا يستطيع من هذا الطبع فكاكاً، في الوقت الذي نجد فيه صاحبيه الأنصاريين الخزرجيين يتخلصان من هذا الطابع الجاهلي، ويستمدان كل فخرهما من الإسلام، إلا شيئاً قليلاً هادئاً ورد في شعر كعب بن مالك، وذلك كقوله في أُحد[4]:

إنكِ عمْرَ أبيكِ الكريـ ... ـم أن تسألي عنك من يجتدينا[5]

فإن تسألي ثَمّ لا تُكْذَبي ... يخبرْكِ من قد سألت اليقينا

بأنا ليالي ذاتِ العظا ... م، كُنّا ثِمالاً لمن يعترينا[6]

تلوذ البُجود بأَذْرائنا ... من الضُّر في أزمات السنينا[7]

بجدوى فضولِ أولي وُجْدنا ... وبالصبر والبذل في المعدمينا[8]

= الثاني في هذا البيت تكرار لما ورد في البيت السابق لما قبله.

(١) الميعة: صفاء يشبه الماء. غموس: موغل في المطعون. خذم: قاطع.

(٢) القرون: جمع قَرن، وهو سيد القوم، والوقت من الزمان.

(٣) خاس: غدر.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٥٨.

(٥) عمر أبيك: يجوز فيه الرفع والنصب. وإن أدخلتَ عليه اللام فقلت: لعمر أبيك وجب رفعه.

(٦) ليالي ذات العظام: ليالي الجوع التي تجمع فيها العظام فتطبخ، ليستخرج ودكها فيؤتدم به. الثمال: الغياث. يعترينا: يزورنا.

(٧) البجود: جمع بُجد، وهو جماعة الناس. الأذراء: الأكناف، واحده ذرْي.

(٨) الجدوى: العطية. الوجد - بضم الواو -: سعة المال.

وأبقت لنا جلماتُ الحرو ب، ممّن نوازي لدنْ أن بُرينا[1]
معاطنَ تهوي إليها الحقو ق، يحسبها من رآها الفَتينا[2]
نُخيِّس فيها عتاقَ الجما ل، صُحْماً دواجنَ حُمْراً وَجُونا[3]
ودُفّاع رَجْلٍ كموج الفرا ت، يَقدُم جأواءَ جُولاً طحونا[4]
ترى لونها مثل لون النجو م، رجراجةً تُبرِق الناظرينا[5]
فإن كنت عن شأننا جاهلاً فَسَلْ عنه ذا العلم ممّن يلينا
بنا كيف نفعل إن قلّصتْ عواناً ضَروساً عضوضاً جونا[6]
ألسْنا نشدّ عليها العصا ب، حتى تدُر وحتى تلينا[7]
ويومٌ له وهَجٌ دائم شديدُ التهاوُل حامي الأرينا[8]
طويلٌ شديدُ أوار القتا ل، تنفي قواحزُه المقرفينا[9]
تخالُ الكماةَ بأعراضه ثمالاً على لذةٍ منزفينا[10]
تعاورُ أيمانُهم بينهم كؤوسَ المنايا بحدِّ الظُّبينا[11]

---

(١) جلمات الحروب: من الجلْم، وهو القطع. نوازي: نساوي. برينا: مسهل برئنا، أي خلقنا.
(٢) المعاطن: مواضع الإبل حول الماء، وأراد بها هنا الإبل نفسها. الفتين: فعيل بمعنى مفعول، أي المحروقة، والمقصود: الحرار.
(٣) نخيس: نذلل. الصحم: السود.
(٤) الدفاع: ما يدفع به السيل، شبه كثرة الرَّجْل به. والرجل: الرجالة. جأواء: كتيبة جمع لونها بين السواد والحمرة لكثرة ما فيها من سلاح. والجول: الكتيبة الضخمة.
(٥) الرجراجة: التي يموج بعضها في بعض. تبرق: تحير وتبهت.
(٦) قلصت: ارتفعت وانقبضت. والمقصود: اشتدت. العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة. الضروس: الشديدة. العضوض: كثرة العض. الحجون: المعوجة الأسنان.
(٧) العصاب: ما يعصب الضرع.
(٨) الوهج: الحرب. التهاول: الهول والشدة. الأرين: جمع إرة، وهي: مستوقد النار، عومل معاملة سنة، فجاء ملحقاً بجمع المذكر السالم.
(٩) القواحز: من القحز، وهو القلق وعدم التثبت. المقرفون: اللئام.
(١٠) أعراضه: نواحيه. ثمالاً: سكارى. منزفين: ذهبت الخمر بعقولهم.
(١١) الظبين: جمع ظبة.

شهدنا ككُنا أُولي بأسه   وتحت العَماية والمعلِمينا[1]
بخُرْس الحسِيس حسانٍ رِواءٍ   وبُصْرية قد أجِمْن الجفونا[2]
فما ينفللن وما ينحنين   وما ينتهين إذا ما نُهينا
كبرق الخريف بأيدي الكما   ة، يفجِّعن بالظل هاماً سُكونا[3]
وعلّمنا الضربَ آباؤنا   وسوف نعلّم أيضاً بنينا
جلادَ الكماة وبذلَ التلا   د، عن جُلّ أحسابنا ما بقينا
إذا مرّ قرن كفى نسلُه   وأورثه بعده آخرينا[4]
نشِبّ وتَهلِك آباؤنا   وبينا نربِّي بنيناً فَنِينا
سألت بك ابن الزبعرى فلم   أُنبَّأْك في القوم إلا هجينا
خبيثاً تطيف بك المُنْدِيات   مقيماً على اللؤم حيناً فحينا[5]
تبجست تهجو رسول المليـ   ـك، قاتلك الله جِلفاً لعينا[6]
تقول الخنا ثم ترمي به   نقيَّ الثياب تقيّاً أمينا

فنجد كعباً يتحدث عن الكرم والشجاعة ويشير إلى آبائه وأجداده، وأنهم علّموهم الضرب والقتال، الذي سوف يعلمونه لأبنائهم، واختار لهذه المعاني الجاهلية ألفاظاً من القاموس الجاهلي أيضاً. ولولا الأبيات الأربعة الأخيرة لما استطعنا معرفة أن النص إسلامي، ومع ذلك فإن كعباً لا يصل إلى مغالاة حسان الذي لا يتورع عن ذكر فضل قومه على الإسلام وإيوائهم الرسول وصحبه، ولا يترك ذلك إلا حين تهدأ نفسه ويغلبه شعوره الديني،

---

(١) ككنا: هكذا وجدتها في سيرة ابن هشام، ولم يتعرض السقا وزملاؤه إلى شرحها بينما شرحا من البيت كلمتي (العماية والمعلمينا)، ولعلها: فكنا.

(٢) الخرس: السيوف. رواء: مرتوية بالدم. بصرية: سيوف منسوبة إلى بصرى مدينة بالشام. أجمن: مللن وكرهن. الجفون: الأغماد.

(٣) بالظل: ظلال السيوف. السكون: المقيم الثابت.

(٤) القرن: الأمة من الناس.

(٥) المنديات: المخزيات التي يندى منها الجبين.

(٦) تبجست: نطقت وأكثرت. كما يتبجس الماء، إذا تفجر وسال. الجلف: الجافي.

ففي هذه الحالة الشعورية فقط يعترف بفضل الإسلام على قومه وإكرام الله لهم بهذا الدين ولكنه حتى في هذه الحالة لا ينسى ماضيه، وذلك كقوله[1]:

وكنّا ملوكَ الناس قبل محمد ... فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل[2]
وأكرمنا الله الذي ليس غيرَه ... إلّه بأيام مضت ما لها شكل
بنصر الإلّه للنبيٍّ ودينه ... وأكرمنَا باسمٍ مضى ماله مثل
أولئك قومي خيرُ قومٍ بأسرهمْ ... وليس على معروفهم أبداً قُفْل
يَرُبّون بالمعروف معروفَ من مضى ... فما عُدّ من خير فقومي له أهل[3]
إذا اختُبِطوا لم يُفحشوا في نديِّهمْ ... وليس على سُؤَّالهم عندهمْ بخل[4]
وحاملُهم وافٍ بكل حِمالةٍ ... تحمَّل، لا غُرْم عليه ولا خَذْل[5]
وجارهُم فيهمْ بعلياءَ بيتُه ... له ما ثوى فينا الكرامةُ والبذل
وقائلهم بالحق أوّلُ قائل ... فحكمهمُ عدل، وقولهمُ فصل
إذا حاربوا أو سالموا لم يشبَّهوا ... فحربهمُ خوف، وسلمهمُ سهل
ومنّا أمينُ المسلمين حياتَه ... ومن غسّلته من جنابته الرُّسل[6]

والذي لا شك فيه أن الإسلام كان نعمة على الأنصار، وأن الله نصر الإسلام بالأنصار، وقد أوضح الرسول ﷺ ذلك في كلمته إلى الأنصار بعد نوزيع الغنائم في حُنَين، والدارس لشعر حسان في الواقع يجده لم يغادر هذا الإطار، كما رأينا في النص السابق، وكما نرى في النص التالي[7]:

---

(١) الديوان ص ١٩١.
(٢) كان لنا الفضل: أراد أنهم آووا النبي ونصروه.
(٣) يربون: ينمون. من مضى: الأسلاف.
(٤) اختبطوا: قُصِدوا.
(٥) الحمالة: ما يتحمله الإنسان من غرم في الدية.
(٦) أمين المسلمين: سعد بن معاذ الأوسي. ومن غسلته.. إلخ: غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر، قتل يوم أحد.
(٧) الديوان ص ٢٣٣.

الله أكــرمـنــا بـنـصــر نـبـيــه ... وبـنــا أقــام دعــائـمَ الإســلام

وبـنــا أعــزّ نـبـيّــه وكـتــابــه ... وأعــزّنــا بــالضــرب والإقــدام

في كـل معتـرك تُـطِيـر سيـوفُنـا ... فيه الجماجمَ عن فِـراخ الْهام[1]

يـنـتــابنـا جبــريــلُ في أبيــاتنــا ... بفــرائض الإســلام، والأحكــام

يتلو علينا النـورَ فيهــا محكمـاً ... قِسْمـاً لعمرك ليس كـالأقسام[2]

فنكــون أوّلَ مستحـلٍّ حـلالــه ... ومحــرّمٍ لله كـــلَّ حــرام

نحن الخيـارُ من البـريـة كلِّهـا ... ونــظامُهـا، وزمــامُ كـلِّ زمــام

الخــائضـو غمــراتِ كـلِّ منيــة ... والـضــامنــون حــوادثَ الأيــام

والمُبـرِمون قـوى الأمور بعزمهم ... والنــاقضـون مــرائرَ الأقــوام[3]

ســائل أبـا كرِب، وسـائـل تُبَّعـاً ... عنّــا، وأهـل العِتْـر والأزلام[4]

واسأل ذوي الألباب عن سرواتهم ... يــوم العُهَيْن فحـاجــرٍ فـرُؤام[5]

إنّــا لنمـنــع من أردنــا مـنعــه ... ونجــود بـالمعــروف للمُعتـام[6]

وتـردّ عـاديـةَ الخميس سيـوفُنــا ... ونقيم رأس الأصيـد القَمقـام[7]

مـا زال وقـعُ سيـوفنـا ورمــاحنـا ... في كـــل يــومِ تجــالُـدٍ وتَــرام

حتى تركنا الأرض سهلاً حَزْنُهـا ... مــنـظومــةً من خـيلنــا بــنـظام

ونجـا أراهطُ أَبْعطوا، ولـو أنَّهمْ ... ثبتوا، لما رجعـوا إذنْ بسلام[8]

فلئن فخرتُ بهم لَمِثلُ قـديمهم ... فخَــرَ اللبيبُ بـه على الأقــوام

---

(١) فراخ الهام: أراد الأدمغة. والهام: الرؤوس.

(٢) النور: أراد به القرآن.

(٣) المرائر: الحبال الشديد فتلها.

(٤) العتر: الذبيحة التي كانوا يذبحونها لأصنامهم: الأزلام: قداح كانوا يقسمون بها للذبيحة.

(٥) السروات: الأشراف. العُهين، وحاجر، ورؤام: أسماء لبعض الأيام، كما هو واضح من البيت، ولكن أسماءها لم ترد ضمن أيام يثرب.

(٦) المعتام: المختار.

(٧) الأصيد: أراد به الملك. أو العظيم. القمقام: السيد الكثير الخير.

(٨) أبعطوا: تباعدوا، وتجاوزوا القدر.

فالفخر إذن لم يذبل في صدر الإسلام على يد شعراء المدينة بل ظل قوياً مزدهراً، وإنما دخله شيء من التعديل والتهذيب، وشمله شيء من التوجيه، وهيأ الإسلام لحسان بالذات مَعيناً آخر يغترِف منه باقتدار، فأدار فخره الإسلامي على محاور ثلاثة هي نفسه وقومه والإسلام.

ب ـ الهجاء:

صحيح أن القرآن قال: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا يسخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ، ولا تَلْمِزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوقُ بعد الإيمان، ومَنْ لم يتُبْ فأولئك هم الظالمون ﴾[1] وقال: ﴿ ويلٌ لكل هُمَزَة لُمَزَة ﴾، وصحيح أن الرسول ﷺ حرّم أعراض المسلمين كما حرّم أموالهم ودماءهم، ولكن القرآن نفسه هو الذي شنّع على أعدائه من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب المناوئين للإسلام، والرسول نفسه هو الذي قال: (لا غيبة لفاسق)، وقال: (ثلاثة لا تحرم عليك أعراضهم المجاهر بالفسق والإمام الجائر والمبتدع)، وهو نفسه الذي حرّض شعراء المدينة على هجاء أعداء الإسلام من القرشيين وغيرهم، ولم يحظر عليهم النيل من العورات والأنساب، بل وجّه حسان إلى أبي بكر ليدلّه على بعض تلك الهنات ويستفيد منها في شعره الهجائي ضد أعداء الله، وكأنما هو بذلك يجيز لأتباعه في الظروف غير العادية أن يقابلوا الأعداء بما يتناسب معهم في معارك الكلام دون تحرّج ولا تأثّم.

ولعلّ أهم ما ينبغي ملاحظته في هجاء هؤلاء الشعراء أنه لم يكن صادراً عن نفوس مريضة أو حاقدة الطويّة، ولم يكن للحصول على كسب مالي كما كان يفعل الحطيئة، وإنما كان دفاعاً عن دين الله وذبّاً عن حِياض رسول الله.

والملاحظة الثانية أنه كان ضمن الإطار الثلاثي الذي أشرنا إليه، وقد

(١) الحجرات: ١١.

عرضنا نماذج له في أوائل هذا الفصل ضمن حديثنا عن النقائض، وكان منهجهم في الهجاء في أغلب حالاته إسلامياً، فإن القرآن نفسه اشتمل على صور للمناقضة عجيبة أخّاذة، ربما كانت المصدر الذي استمدّ منه روّاد المناقضات في صدر الإسلام وعهد بني أمية ما جعلهم يرتقون بهذا الفن، ويصلون به المستوى الذي وصل إليه من النضج والاكتمال، فقد اعتمد القرآن في نقض دعاوى خصومه وعقائدهم على طريقة التكذيب القائمة على أدلة واقعية، كقوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناءُ الله وأحباؤه، قل فلِمَ يعذِّبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممّن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذّب مَنْ يشاء، ولله مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾[1]، وقد يعتمد في نقضه على الانفعالات والعواطف فيستخدم التهويل والتخويف، وذلك كقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرضُ وتخِرُّ الجبال هدّاً، أنْ دعَوا للرحمن ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، إنْ كلُّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[2].

والملاحظة الثالثة أن الهجاء جاء ممتزجاً بالفخر، وقد كانت مناقضاتهم كذلك في الجاهلية، لأنهم لم يكونوا يطلبون الهجاء لذاته أو لفساد في طبائعهم، بل كانوا يتخذون منه سيلة للدفاع عن غرض نبيل، كانوا قبل إسلامهم يهجون أعداء قومهم، وصاروا بعد الإسلام يستعملون الهجاء للنيل من أعداء الله.

والملاحظة الرابعة أن شعرهم الهجائي كثر كثرة غريبة، وربما كان ذلك راجعاً إلى أن الرسول ﷺ جعله ضرباً من الجهاد، فكان لا بدّ أن يرافق الأحداث، ولقد كانت الأحداث الإسلامية كثيرة وسريعة، والاحتكاك بأعداء

(١) المائدة ١٨.

(٢) مريم ٨٨ ـ ٩٥.

الإسلام متواصلاً لا يخمد له أوار، وبجولة سريعة في ديوان شاعر كحسان نجد أن الهجاء ورد في سبعة عشر موضعاً من شعره الجاهلي، بينما بلغ في شعره الإسلامي تسعاً ومائة قطعة، وذلك يؤكد مدى ما كان يحتله شعر الهجاء من مكانة في أشعارهم في صدر الإسلام، لأنه ـ كما قلنا ـ كان سلاحاً هاماً من أسلحة الدفاع، ووسيلة بارزة من وسائل الدعاية والإعلام.

والملاحظة الخامسة أن هجاءهم الجاهلي كان مجالاً للتعفّف والملامة والعتب، إبقاءاً على المودّة ورعاية لحقوق النسب والقرابة، لأنه كان موجهاً ضد أبناء العمومة داخل المدينة في حروب الأوس والخزرج، بينما لم تكن تجمعهم بمن هجوهم في الإسلام قرابة نسب ولا قرابة عقيدة، وكما كان المسلم يقتل من أجل دينه أباه أو أخاه أو ابنه، كان شعراؤهم يشتدون في هجاء أعداء الإسلام، ويعنّفون، فلا يخالط شعرهم عتب، ولا يمازجه لين أو رفق، وكان أكثرهم حدّة في ذلك حسان، لأن الشعر كان مُتَنَفسَهُ الأوحد للاشتفاء من الكفر والكافرين، بينما كان صاحباه كعب وابن رواحة بطلين قادرين على حمل السلاح وخوض المعارك والاشتفاء عن طريق المشاركة في الحروب، فشعرهما على هذا الأساس وإن كان حادّاً عنيفاً لم يصل إلى درجة الإقذاع والإفحاش ولم يذكر فيه ما يستحْيا منه، في الوقت الذي لم يبالِ فيه حسان بذلك، فورد في شعره من ذلك كثير، مما اضطُر معه ابن هشام في كثير من المواضع إلى أن يقول: إنه ترك بعض شعره لما فيه من إقذاع، ومن ذلك قصيدته في أُحُد التي ناقض بها ابن الزبعرى فقال[1]:

ذهبتْ بابن الزبعرى وقعة ... كان منّا الفضلُ فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكمُ ... وكذاك الحرب أحياناً دُول
إذ شددنا شدةً صادقة ... فأجأناكم إلى سفح الجبل[2]

---

(١) الديوان ص ١٧٦.
(٢) أجأناكم: ألجأناكم.

إذ تُـولُّـون عـلى أعـقـابـكـم   هرباً في الشِّعب أشباهَ الرَّسَل[١]
نضـع الخـطّيَّ فـي أكتـافكم   حيث نهـوى علـلًا بعـد نهـل
فـسـدَحْنـا فـي مـقـام واحـد   منكمُ سبعين، غيـر المنتحَـل[٢]
وأسـرْنـا مـنـكـم أعـدادهـم   فـانصرفتم مثـلَ إفـلات الحَجَـل
تَخـرج الأضيـاحُ من أستـاهكم   كسُـلاح النِّيب يأكلن العَصَـل[٣]
لم يفـوتـونـا بشيء سـاعـةً   غيـر أن ولَّـوْا بجهـل، وفشـل
ضـاق عنّـا الشِّعبُ إذ نَجـزعـه   ومـلأنا الفُـرْط منهم والرِّجَـل[٤]
بـرجـال لـسـتـمُ أمثـالـهـم   أُيِّـدوا جـبريـلَ نصـراً، فنـزل[٥]

ويختمها بقولـــه:

نحن لا أنـتم بني أستـاهـهـا   نحضُر البأس، إذا البأسُ نزل[٦]

ومن إفحاشه في هجاء بني المغيرة من مخزوم[٧]:

قـد حان قـولُ قصيـدة مشهـورة   شنعـاء أُرصِـدهـا لقـوم رضّـع
يَغلي بها صدري وأُحسِن حَوْكها   وإخـالهـا ستقـال إن لم تُقـطع
ذهبت قـريش بـالعـلاء، وأنتمُ   تمشون مشي المومساتِ الخُرَّع[٨]

---

(١) الرسل: القِطَع من الإبل ترسل إلى الماء خمساً خمساً.
(٢) سدحنا: صرعنا. غير المنتحل: أي لا ننتحل قول الباطل، ولكن نقول الحق.
(٣) الأضياح: مفرده ضَيْحٌ، وهو اللبن الرقيق الممزوج بالماء. النيب: جمع ناب وهي الناقة المسنة. وسُلاحها: ما تلقيه من أدبارها من بعر. العصل: نبات تأكله الإبل فتخرجه أحمر. وقيل: هو الحمض.
(٤) الشعب: الطريق النافذ بين جبلين. نجزعه: نقطعه. الفرط: نشوز الأرض وآكامه. الرجل: مجاري الماء، واحده رجله، يريد: ملأنا ذلك من قتلاكم.
(٥) أيِّدوا جبريل: أي أُيِّدوا بجبريل، نصب بنزع الخافض.
(٦) يقول: نحن أصبر منكم في البأس، فلستم لنا أشباهاً.
(٧) الديوان ١٥٦.
(٨) الخرع: جمع خريع، وهي التي تتثنى في مشيتها.

فدعو التخاجؤ، وامنعوا أستاهكمْ   وامشوا بمَدْرجة الطريق المَهْيع[1]
أنتم بقيةُ قوم لوط، فاعلموا   وإلى خِناثكمُ يُشار بإصبع[2]
وإذا قريش حُصِّلت أنسابُها   فبآل شجْع فافخروا في المجمع
خُرْقٌ معازيلٌ إذا جدّ الوغى   بُطُنٌ إذا ما جارُهُمْ لم يشبع[3]

ومنه هجاؤه لعمرو بن العاص السهمي[4]:

لاطت قريشُ حياض المجد فافترطتْ   سَهمٌ، فأصبح منه حوضُها صَفِرا[5]
وأوردوا وحياضُ المجد طامية   فدلّ حوضَهمُ الورّادُ فانهدرا[6]
والله ما في قريش كلِّها نفرٌ   أكثرُ شيْخاً جباناً فاحشاً غُمُرا[7]
أذَبَّ أصلع سِفسيراً له ذأب   كالقرديَعجُم وسط المجلس الحُمُرا[8]
هُذْرٌ مشائيمُ محرومٌ ثَويُّهمُ   إذا تروّح منهم زُوِّدَ القَمَرا[9]
أما ابن نابغةَ العبدُ الهجينُ فقد   أُنحي عليه لساناً صارماً ذكَرا[10]
ما بال أمِّك زاغت عند ذي شرَفٍ   إلى جذيمة، لما عفَّت الأثرا[11]
ظلت ثلاثاً، وملحانٌ معانقُها   عند الحَجون، فما ملَّا، وما فترا[12]

---

(١) التخاجؤ: ورم في العجز. مدرجة الطريق: معظمه. المهيع: الواضح الواسع.
(٢) الخناث: من التخنث، وهو التثني والتكسر.
(٣) الخرق: جمع أخرق، وهو الأحمق. المعازيل: جمع معزال، وهو الضعيف.
(٤) الديوان ص ١٢٩.
(٥) لاطت: أصلحت وطينت. افترطت: فرطت وغفلت. صفراً: فارغاً.
(٦) انهدر: انهدم.
(٧) الغمر: الذي لا غناء ولا رأي عنده.
(٨) الأذبّ: الهزيل، الشاحب اللون. السفسير: التابع والخادم. الذأب: سلاطة اللسان. يعجم: من قولهم(عجم العود) أي عضه ليمتحنه. الحمر: التمر الهندي.
(٩) الهذر: الذين يختلطون في كلامهم. ثويهم: ضيفهم. زود القمر: أراد أنهم بخلاء، يتركونه يرحل بلا زاد.
(١٠) أنحي عليه لساناً: أسبه.
(١١) زاغت: مالت عن القصد. جذيمة: هو المصطلق بن سعد من خزاعة. عفت الأثر: غطت أثر قدميها.
(١٢) ملحان: عبد لخزاعة. الحجون: جبل بمكة.

يا آل سهم، فإني قد نصحتُ لكم ... لا أبعثنّ على الأحيـاء من قُبِـرا
ألا تـرون بأنّي قـد ظُلمت، إذا ... كان الزبعرى لنعلَيْ ثابتٍ خطرا
كم من كريم يعضّ الكلبُ مئزره ... ثم يفـر إذا ألقمتَـه الحـجـرا
قَولي لكم، آلَ شجْعٍ، سُمُّ مُطرِقةٍ ... صَمّاءَ تطحَرُ عن أنيابها القِذَرا[1]
لولا النبيُّ، وقولُ الحق مَغضبـةٌ ... لمـا تـركت لكم أنثى ولا ذكَـرا

ومما يلاحظ أن حسـان في هجائـه لقريش استـطاع أن يَبرّ بـوعده لرسول الله ﷺ، فيستله منهم استلال الشعرة من العجين، حيث وجه في أغلب الأحيان هجاءه إلى الأمهات لا إلى الآباء، ويزداد هذا الاتجاه قوة عنده إذا كان المهجوّون ذوي قرابة وثيقة بنسب الرسول ﷺ.

ج ـ الرثاء:

لقد لاحظنا قلّة الرثاء عند شعراء المدينة في العصر الجاهلي، رغم أن الحروب المستمرة بينهم، كانت تطيح برجالاتهم وتحصد كثيراً من أبطالهم، فتهيء لهم موضوعاته، وتفجّر في داخلهم كـوامـن الحزن والوفـاء لأولئك الأبطال، وأبدينا استغرابنا لهذه الظاهرة، فهل استمر موقفهم من هذا الغرض في صدر الإسلام على هذا المنوال؟

يبدو أن العاطفة الدينية رقّقت من مشاعرهم كثيراً، كما أن تكالب العرب عليهم وهم حاملوا لواء الدعوة جعلهم أكثر إحساساً بمصابهم في أبطال الإسلام والذائدين عن حِياضه، كما أن الذاكرة التاريخية كانت أكثر احتفاظاً بتراثهم الإسلامي، فنحن نجد لحسان وحده ـ فضلاً عن غيره ـ ثمانياً وعشرين قطعة من الرثاء، ولا يكاد يُستشْهَد أحد من كبار الصحابة، ولا تكاد تمرّ معركة إلا وتُخلِّف وراءها عديداً من قصائد الرثاء الموجع، ينظمها الرجال والنساء. ومعنى هذا أن الرثاء من الأغراض التي ازدهرت لديهم في

(١) المطرقة: الحية، تطحر: تقذف، وتدفع. وأراد بالقذر: السم.

صدر الإسلام وزادت كمّاً وكيفاً، بعد أن كانوا في جاهليتهم مُقلِّين إلى حدٍّ كبير.

وأُولى الملاحظات التي يمكن تسجيلها في هذا الصدد أن هذا الرثاء كان يمتزج في الغالب بالهجاء، وهو أمر مخالف لما اعتاده العرب في إفراد الرثاء، وربما كان ذلك راجعاً إلى أن أكثر من رثوهم لم يموتوا حتف أنفهم، وإنما هم ممن استُشهِدوا في سبيل الله، فكان من الطبيعي أن يتعرضوا لقاتليهم بالهجاء.

وثاني الملاحظات أن بعض الشعراء أُفحموا إزاء وفاة رسول الله ﷺ، وكانت المصيبة فيه أجل من طاقاتهم الفنية فلم يشتركوا في رثائه، أو اكتفوا فيه بمقطعات صغيرة كانت أقل مما يجب في هذا المصاب، فشاعر مثل كعب بن مالك لم نقف له على رثاء للرسول، مع أنه رثى غيره من شهداء الإسلام، وحتى حسان الذي خصّه بأربع مراثٍ يذكر أن نفسه تتحير في ذلك فلا يعرف بماذا يتكلم، وتحسُّ بالعجز فلا تدري ما تقول:

ظلِلتُ بها أبكي الرسول، فأسعدت عيون، ومثلاها من الجفن تُسعِد
تذكَّرُ آلاء الرسول، وما أرى لها مُحصياً نفسي، فنفسي تَبَلَّد[1]

ولا غرابة في ذلك فإن بعضهم استولى عليه حبه للرسول حتى كان يستبعد عليه الموت ولا يطيق مجرد تصوّر وقوعه، وأُصيب كثير منهم بالذهول، لعظم المفاجأة بموته، وسَلَّ عمر بن الخطاب سيفه يهدد بتقطيع أيدي وأرجل رجال يقولون: إن محمداً قد مات، ولم يهدأ روعه حتى جاء أبو بكر وذكّره بقوله تعالى: ﴿ وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل، أفئن مات أو قتِل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيَجزي الله الشاكرين ﴾[2].

(١) تبلد: تتحير.
(٢) آل عمران ١٤٤.

والملاحظة الثالثة أن مراثيهم كلها كانت وثيقة الصلة بالدعوة ودفاعاً عنها وعن رجالاتها، فقد استطاعت الدعوة بقوتها وتغلغلها في أعماق الشعراء المسلمين أن تعبىء كل الطاقات القولية والفعلية لصالحها.

ومن مراثيهم في يوم بدر قول كعب بن مالك يرثي عبيدة بن الحارث بن المطلب[1]:

أيا عينُ جودي ولا تَبْخلي ... بدمعك حقّاً ولا تَنْزُرِي
على سيّد هدَّنا هُلْكُه ... كريمِ المشاهد والعُنْصر
جريءِ المقدّم، شاكي السلا ... ح، كريم الثَّنا، طيِّب المَكْسَر[2]
عبيدة أمسى ولا نَرتَجيه ... ه لعُرفٍ عَرانا ولا مُنكر
وقد كان يحمي غداة القتا ... ل، حاميةَ الجيش بالمِبْتَرَ[3]

كما رثته أيضاً هند بنت أثاثة بمقطوعة سبق ذكرها في الباب الثالث.

ومن مراثيهم في يوم أُحد قصيدة حسان يبكي حمزة بن عبد المطلب[4]:

أتعرِف الدار عفا رسمَها ... بعدك صوبُ المُسبِل الهاطل[5]
بين السَّراديح فأُدمانةٍ ... فمدفعِ الرَّوحاء في حائل[6]
ساءلتُها عن ذاك فاستعْجَمَتْ ... لم تدرِ ما مَرجوعةُ السائل؟
دع عنك داراً قد عفا رسمُها ... وابْكِ على حمزةَ ذي النائل
المالىء الشِّيزَى إذا أعصفَتْ ... غبراءُ في ذي الشَّبَم الماحل[7]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٤.
(٢) طيب المكسر: أي أنه إذا فتش عن أصله وجد خالصاً.
(٣) المبتر: السيف. وهو اسم آلة من البتر.
(٤) المرجع السابق ٢: ١٥٥. والديوان ص ١٩٢.
(٥) الصوب: المطر. المسبل: المنصبّ.
(٦) السراديح: جمع سرداح، وهو الوادي، وكل مكان متسع. وأدمانة، والروحاء وحائل: أسماء أماكن.
(٧) الشبم: البرد، وأراد العام البارد الماحل.

والتــاركِ القِــرْنَ لــدى لِبْـدِه ... يعثر في ذي الخُرُص الـذابل[1]

والــلابِس الخيــلَ إذا أحجَمـت ... كــالليث في غـابتـه البـاســل

أبيضَ في الــذروة مــن هــاشم ... لم يَمْـرِدون الحق بـالبـاطـل[2]

مــالَ شـهيــداً بـين أرمــاحـكمْ ... شُلّتْ يـدا وحشيٍّ من قـاتـل[3]

أيّ امــرىء غــودر فــي ألّــةٍ ... مَـطرورةٍ، مـارنــةِ العـامــل[4]

أظــلمـتِ الأرضُ لــفـقـدانـه ... واسـودّ نـور القمـر النـاصـل[5]

صــلى عـليــه اللهُ فــي جـنــة ... عــاليــة، مُكـرَمـةِ الـداخـل

كنــا نــرى حمــزة حِـرْزاً لنــا ... من كــل أمـر نــابنــا نــازل

وكــان فــي الإســلام ذا تُـدْرَإٍ ... لم يكُ بالـواني، ولا الخاذل[6]

لا تفــرحي يــا هنــد واستحلبي ... دمعـاً، واذري عبرة الشاكـل[7]

وابـكي عـلى عتبــة، إذ قَــطّه ... بالسيف تحت الرَّهَج الجائل[8]

إذ خَـرَّ فـي مـشـيـخــة منـكـمُ ... من كـل عاتٍ قلبُـه، جاهـل[9]

أرداهــمْ حــمــزة فــي أســرة ... يمشــون تحت الحلَق الذائل[10]

غــداة جــبــريــلُ وزيــرٌ لــه ... نعم وزيـرُ الفـارس الحــامل[11]

---

(١) اللبد: اللباد الذي يوضع تحت سرج الفرس. ذو الخرص: الرمح.

(٢) أبيض: أراد نقي العرض. يمري: يدفع حقاً بباطل.

(٣) وحشي: قاتل حمزة.

(٤) الألة: الحربة. المطرورة: المسنونة. المارنة: اللينة الهزة. العامل: صدر الرمح.

(٥) الناصل: الخارج من السحاب.

(٦) ندرإ: قوة.

(٧) هند: هي بنت عتبة بن ربيعة، قتل حمزة أباها يوم بدر، فدفعت بوحشي إلى قتل حمزة فقتله في أحد.

(٨) قطه: قطعه. الرهج: الغبار. الجائل: المتحرك.

(٩) المشيخة: أراد بهم من قتل يوم بدر من سراة القرشيين.

(١٠) الحلق الذائل: الدروع الطويلة الذيل.

(١١) الحامل: الذي يحمل عن الناس كل شيء.

ورثى حسان أيضاً قتلى يوم الرجيع وفيهم خُبيب بن عدي الأوسي، ثم خصّ خبيباً بأربع قطع أخرى منها[1]:

ما بال عينك لا تَرْقا مدامعُها ... سحّاً على الصدر مثل اللؤلؤ القلق[2]

على خبيبٍ فتى الفتيان قد علموا ... لا فشِلٍ حين تلقاه ولا نـزِق[3]

فاذهب خبيبُ جزاك الله طيبةً ... وجنةَ الخلد عند الحور في الرُّفُق[4]

ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم ... حين الملائكة الأبرار في الأفق

فيم قتلتم شهيدَ الله في رجل ... طاغٍ قدَ اوْعث في البلدان والرُّفَق[5]

وقال في رثائه للرسول ﷺ[6]:

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد ... مُنير وقد تعفو الرسومُ وتهمَد

ولا تنمحي الآياتُ من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يَصْعَد

وواضحُ آياتٍ وباقي معالمٍ ... ورَبْعٌ له فيه مُصلًّى ومسجد

بها حُجراتٌ كان ينزل وسْطها ... من الله نور يستضاء، ويوقَد

معالم لم تُطمَسْ على العهد آيُها ... أتاها البِلى، فالآيُ منها تجدَّد

عرفتُ بها رسمَ الرسول وعهدَه ... وقبراً به واراه في التُّرب مُلحِد

ظلِلت بها أبكي الرسول فأسْعدت ... عيونٌ ومثلاها من الجَفْن تُسْعد

تذكّرُ آلاءَ الرسول وما أرى ... لها مُحْصياً نفسي، فنفسيَ تَبْلد

مفجّعةٌ قد شفّها فقْدُ أحمدٍ ... فظلت لِآلاءِ الرسول تُعدِّد

وما بلغتْ من كل أمر عشيرةٌ ... ولكنَّ نفسي بعض ما فيه تحمَد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٧٧.
(٢) القلق: المتحرك الساقط.
(٣) الفشل: الجبان الضعيف القوة. والنزق: السيء الخلق.
(٤) الرفق: جمع رفيق.
(٥) أوعث: اشتد فساده. والرفق ـ بفتح الفاء ـ: جمع رفقة.
(٦) الديوان ٥٤.

أطالت وقوفاً تذرف العينُ جُهْدَها ... على طلل القبر الذي فيه أحمد

فبوركتَ يا قبرَ الرسول وبوركتْ ... بلادٌ ثوى فيها الرشيدُ المسَدَّد

وبورك لحدٌ منك ضَمِّن طيباً ... عليه بناءٌ من صفيح، مُنضَّد

تُهيل عليه التُّربَ أيدٍ وأعيُنٌ ... عليه، وقد غارت بذلك أسعَد

لقد غيبوا حِلْماً وعلْماً ورحمةً ... عشيةَ علَّوْه الثَّرى، لا يُوسَّد

وراحوا بحُزْن ليس فيهم نبيُّهمْ ... وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعضُد

يُبكُّون من تبكيه السموات يومَه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكْمَد

وهل عدلت يوماً رزيةُ هالك ... رزيةَ يوم مات فيه محمّد

تقطَّع فيه منزلُ الوحي عنهم ... وقد كان ذا نُورٍ يغور ويُنجد

يدلُّ على الرحمن من يقتدي به ... ويُنقذ من هول الخزايا ويُرْشِد

إمام لهم يهديهمُ الحق جاهداً ... معلّمُ صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفوٌّ عن الزلّات، يقبل عذْرَهم ... وإن يحسنوا، فالله بالخير أجود

وإن ناب أمر لم يقوموا بحمده ... فمن عنده تيسير ما يتشدّد

فبينا همُ في نعمة الله بينهم ... دليل به نهجُ الطريقةُ يقصَد

عزيز عليه أنْ يحيدوا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوفٌ عليهم، لا يُثنِّي جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهِد

فبينا هم في ذلك النور، إذ غدت ... إلى نورهم سهمٌ من الموت مُقصِد

فأصبح محموداً إلى الله راجعاً ... يبكّيه جَفن المرسلاتِ ويحمد

وأمست بلادُ الحرْمِ وحشا بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحي تعهد

قفاراً سوى معمورةِ اللحد ضافَها ... فقيدٌ يبكّيه بلاطٌ وغرقد[1]

ومسجدُه فالموحشات لفقده ... خلاءٌ له فيه مقام ومقعد

وبالجمرة الكبرى له ثَمّ أوحشت ... ديار وعرْصاتٌ ورَبْع ومولد

---

(١) ضافها: نزل بها.

فبكّي رســول الله يـا عينُ عَبــرة ... ولا أعرفنك الـدهر دمعُـك يجمُد
فجـودي عليه بـالدمـوع وأعـولى ... لفقد الذي لا مثله الدهرَ يـوجد
ومـا فقَد المـاضون مثـلَ محمد ... ولا مثلُه حتى القيـامـة يُـفْقَـد
أعـفُّ وأوفى ذمــةً بـعــد ذمــة ... وأقــربُ منه نــائــلاً لا يُنكَّــد
وأبــذل منــه للطريـف وتــالــدٍ ... إذا ضَنّ معطاء بما كان يُتلِد[1]
وأكرمُ حيّاً في البيوت إذا انتمى ... وأكــرمُ جَــدّاً أبــطحيّــاً يســوَّد
وأمنعُ ذرواتٍ، وأثبتُ في العلى ... دعــائم عـزٍ شــاهقـات تشيَّــد
وأثبتُ فـرعاً في الفـروع ومَنبِتـاً ... وَعُوداً غداة المزن فالعُود أغْيد[2]
رَبَــاه وليـداً، فــاستتمّ تمــامــه ... على أكرم الخيرات ربٌّ ممجـد
تنـاهت وصـاة المسلمين بكفّــه ... فلا العلم محبوس ولا الرأي يُفند
أقــول ولا يُلفَى لقـولي عــائبٌ ... من الناس إلا عازب العقل مُبْعَد
وليس هـوائي نـازعـاً عن ثنـائـه ... لعلي بـه في جنـة الخلد أخْلُد
مع المصطفى أرجو بذاك جِوارَه ... وفي نيل ذاك اليومِ أسعى وأجهد

وقال يرثي عمر بن الخطاب[3]:

وفــجّــعــنــا فـيــروزُ لا درّ دَرُّه ... بــأبيض يتلو المحكمــات منيب
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدا ... أخي ثقـة في النـائبـات نجيب
متى ما يقل لا يكذبِ القولَ فعلُه ... سريعٍ إلى الخيرات غيرِ قطوب

ولم نجد في ديوانه غير هذه الأبيات الثلاثة في رثاء عمر، وهو الخليفة الذي شغل الدنيا، وهو أمر مستغرب، ولا يستبعد أن تكون هذه الأبيات

---

(١) يتلد: يتخذ من مال.
(٢) أغيد: ناعم متين.
(٣) أبو لؤلؤة فيروز: غلام المغيرة بن شعبة، فارسي من نهاوند، قتل عمر بن الخطاب في درهمين وضعا عليه كل يوم، وكان صانعاً يحذق حرفاً عديدة، وقد يكون قتله بدافع من شعوبيته.

بقية لقصيدة ضاع جُلّ أبياتها، ولم نجد لكعب بن مالك رثاء لعمر أيضاً، كما لم نجد لكلا الشاعرين رثاء لأبي بكر، في الوقت الذي نجد لهما فيه رثاء لعثمان بن عفان. ولعل لحادثة الإفك بالنسبة لحسان دخلا في علاقته بأبي بكر، وربما للسبب نفسه لا نجد له في حروب الردّة. غير أربعة أبيات هي[1]:

ما البكرُ إلا كالفصيل وقد ترى   أن الفصيل عليه ليس بِعار[2]

إنا وما حج الحجيج لبيته   ركبانُ مكة معشرُ الأنصار

نَفري جماجمكمْ بكل مهنّد   ضرْبَ القُدار مباديَ الأيسار[3]

حتى تكنوه بفحل هنيدة   يحمي الطَّروقةَ بازلٍ هدّار[4]

على أن هناك احتمالاً لتفسير آخر ربما وضع الإجابة لموقف الشاعرين معاً في عدم رثائهما له، وهو أن خلافة أبي بكر لم تطل، ولم تمضِ عليها المدة الكافية الكفيلة بنسيان حادثة السقيفة التي خرج منها الأنصار محكومين، قد امتلأت نفوسهم بالإحساس بضياع حقهم في الحكم، مما جعل بعضهم يمسك عن البيعة، وبخاصة الخزرج الذين كان رئيسهم سعد بن عبادة يتطلع للحكم والخلافة، ومات ولم يبايع أبا بكر، ولا ننسى أن كعباً وحساناً إنما كانا من هؤلاء الخزرج.

* * *

ولكي تكتمل في أذهاننا ما كانت عليه صورة الرثاء في هذا العصر: (رثاء أبطال المعارك ـ رثاء نبي الأمة ـ رثاء الخلفاء) نورد قصيدة كعب في رثاء عثمان رضي الله عنه[5]:

---

(١) الديوان ص ١٢٠.

(٢) البكر: الفتي من الإبل. الفصيل: ولد الناقة. ليس بعار: يرد على من كان يلقب أبا بكر بأبي الفصيل استهزاء.

(٣) القدار: الجزار. مبادىء الأيسار: عظام الجزر التي كانوا يقامرون عليها.

(٤) الهنيدة: اسم للمائة من الإبل. الطروقة: الناقة.

(٥) الأغاني ١٦: ١٦٦ ـ ١٦٧.

مـن مُبـلغ الأنصـار عنـي آيـة ... رسـلاً تقصّ عليهم التّبيـانـا

أن قـد فعلتم فعلة مـذكـورة ... كست الفُضوحَ وأبدت الشنآنا

بقعـودكم في داركم، وأميـرُكم ... يُغشَى ضـواحي داره النيـرانـا

بينـا يُـرجِّي دفعكم عن داره ... ملئت حـريقاً كـابياً ودخـاناً

حتى إذا خلصـوا إلى أبـوابـه ... دخلوا عليه صائماً عطشـاناً

يُغْلون قلّتـه السيـوفَ وأنتمُ ... متلبثـون مكـانكم رضـوانـاً

الله يـعلم أنـني لـم أرضَـهُ ... لكم صنيعـاً يوم ذاك وشـانـا

يا لهف نفسي إذ يقول: ألا أرى ... نفـراً من الأنصار لي أعـوانا

والله لـو شهد ابن قيس ثـابت ... ومعاشر كـانـوا لـه إخـوانـا[1]

وأبـو دجانـة، وابن أقـرم ثـابت ... وأخـو المشاهد من بني عجلانا[2]

ورفاعة العمريُّ وابن مُعاذِهم ... وأخو معاويَ لم يخف خذلانا[3]

قـوم يـرون الحقَّ نصر أميـرهمْ ... ويـرون طاعـة أمره إيمـانـا

إن يُتركوا فوضى يروا في دينهم ... أمـراً يضيِّق عنهم البلدانـا

فَـليُعـلِينَّ الله كـعـبَ وليِّـه ... ولـيـجـعـلنّ عـدوه الـذلانـا

إنـي رأيـت محـمـداً اختـاره ... صهـراً، وكـان يعـدُّه خُلصـانـا

محضَ الضرائب، ماجداً أعراقُه ... من خيـر خِنْدِفَ منصبـاً ومكانا

عـرَفتُ لـه عُلْيـا معـدّ كلُّهـا ... بعـد النبي الملكَ والسلطانـا

من معشـر لا يغْـدرون بجارهم ... كـانـوا بمكـة يـرتعـون زمـانـا

يعطون سـائلهم ويأمن جـارهم ... فيهم، ويُـردون الكمـاة طعـانـا

---

(١) أبو قيس ثابت: هو ثابت بن قيس بن شماس.

(٢) أبو دجانة: هو سماك بن خرشة. وابن أقرم: هو ثابت بن أقرم البلوي. أخو المشاهد... إلخ: هو معن بن عدي بن الجد، عقبي.

(٣) رفاعة العمري: هو رفاعة بن عبد المنذر العمري. ابن معاذ: سعد بن معاذ. أخو معاوية: هو المنذر بن عمرو الساعدي، عقبي بدري.

فلو انّكم مــع نصــركم لنبيّكم   يــوم اللقــاء نصــرتم عثمــانــا
أنــسيتمُ عــهــد النـبي إلـيكـمُ   ولقــد ألظَّ ووكّـد الأيمــانــا(١)

ولعلّ قصيدة كعب هذه تجلّي كثيراً من جوانب مـوقف الأنصار أو بعضهم على الأقل من الخلافة والخلفاء، ورغم عثمانية هذا الشاعر وعثمانية حسان وغيرهما من بعض الأنصار فإن الأمويين بعد معاوية لم يرعوا لهم هذه اليد، ولم تشفع لهم عندهم في موقعة الحرّة، وأوقع بهم جند يزيد بن معاوية الأموي شرّ وقعة، ونثر دماءهم فوق الحرار، ولطخ أحياءهم بالصغار.

د ـ المــــدح:

لاحظنا قلّة المدح بين أغراض الشعر اليثربي في العصر الجاهلي، وذلك لأنفة فيهم، ولعزوفهم عن التبعية والتكسّب بالشعر، وما وجدناه من شعر قليل يمثل هذا الغرض كان لردّ يد أو اعتراف بجميل، كمدح ابن الخطيم لخِداش، أو لنيل رضا ملك من أجل الوصول إلى استرداد حريـة بعض رجالهم، كمدح حسان للنعمان بن المنذر، أو لتأكيد الفخر وتـوثيق عُرى القرابة مع اعتبار طلب الشهرة وبُعْد الصيت، كمدح حسان للغساسنة، وفيما عدا ذلك لم يؤثر عنهم مديح، ومع هذه الأسباب الثلاثة فإن المدح عندهم لم يتجاوز العشرات القليلة من الأبيات.

أما في صدر الإسلام فإن شعراء المدينة وقفوا أنفسهم للدفـاع عن الدعوة وصاحبها والرد على الشعراء المعادين، وكان لا بد أن تتضمن هذه الحركة الدفاعية شيئاً من المدح لصاحب الرسالة وأصحابه الميامـين وذوي البلاء الحسن من القادة والأبطال، ولكن مع ذلك ظلت نسبة المـدح في شعرهم قليلة، علماً بأن في جوانب شخصية الرسول ﷺ ومواقف الصحابة الكبرى ما كان كفيلاً بإثراء هذا الغرض بفيض من القصائد لا ينضب،

---

(١) ألظ: ألح.

وتذهب بنا الغرابة إلى أقصاها إذا علمنا أن مديح حسان للرسول لم يتجاوز خمسة وأربعين بيتاً، كان الصحابة شركاءه في عشرين منها، وأن مديح كعب لم يتجاوز عشرة أبيات. وربما كانت هذه القلة امتداداً لإقلالهم فيه، في الشعر الجاهلي، فهم لم يخبروه ولم يتمرسوا بأساليبه، ولم يعرفوا مصادره وموارده، فلما امتلأت نفوسهم بحب رسول الله وحاولوا مدحه خانتهم الملكة وغلبهم الطبع، فلم يحققوا منه شيئاً ذا بال. يضاف إلى ذلك شدّة انبهارهم بشخصية الرسول وإحساسهم بأنهم لن يبلغوا في تعداد محاسنه وصفاته شيئاً، ولن يوفوه حقه مهما أُوتوا من بيان، وقد مدحه ربه ببضع آيات في القرآن جمعت فأوعت وتعلق بتلاوتها الناس، فما عسى أن يحققه شعرهم إزاء القرآن. كما يضاف إلى ذلك أن الشعراء تعودوا أن يضيفوا من عندهم صفات يسبغونها على الممدوح وإن لم تكن فيه، وهذا لا يجيزه الإسلام، كما أنهم ربما كانوا يخشون الوقوع في الإثم بالسكوت عن بعض الصفات أو اختراع صفات من تصوراتهم أو تفسير بعض الصفات الأخرى حسب أفهامهم، ومن جهة أخرى نهى الرسول ﷺ عن المبالغة في المدح وقال لأصحابه: (لا تطروني كما أطرت بنو إسرائيل أنبياءها). وإذا اعتبرنا المدح تعبيراً عن الحب الصادق، فإن الإسلام أناط الحب الحقيقي بالاتباع والتفاني في الدعوة، وقد كان شعراء المدينة كغيرهم من المسلمين من هذه الناحية في أعلى ذروات الحب، اتباعاً وتأييداً وتفدية وجهاداً في سبيل الله، وكأنهم أحسّوا بالفعل أنهم بذلك أعلنوا عمّا في نفوسهم من الاعتراف بقدره، والإشادة بذكره، فاستغنوا به عمّا سواه، وأصبح الكلام إلى جانبه لغواً والقول نافلة.

ومما مدح به حسان الرسول ﷺ قوله[1]:

أغرُّ، عليه للنبوّة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد[2]

وضمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذّن أشهد

(1) الديوان ص ٤٧.

(2) الأغر: كريم الأفعال واضحها.

وشـقّ لــه من اسـمــه لـيـجـلّه فذو العرش محمود، وهذا محمد
نبيٌّ أتــانـا بعــد يـأس وفتــرة من الرسل والأوثانُ في الأرض تُعبَد
فـأمسى سراجـاً مستنيراً وهـاديـاً يلوح كمـا لاح الصقيلُ المهنَّـد
وأنــذَرنــا نــاراً، وبشّــر جنــةً وعلَّمنـا الإسـلامَ، فـاللهَ نَحمـد
وأنتَ إلَــهَ الخلق ربي وخـالقي بذلك ما عمرتُ في الناس أشهد
تعاليتَ ربَّ الناس عن قول من دعا سـواك إلَهاً، أنتَ أعلى وأمجَـد
لـك الخلقُ والنعماءُ والأمـر كلُّه فـإيـاك نستهـدي، وإيـاك نعبــد

وقال يمدح سعد بن زيد الأنصاري[١]:

إذا أردت الــسـيــد الأشـدّا من الــرجــال فعليــك سعــداً
سعـد بن زيـد، فـاتخـذه جنـداً لــيس بــخــوّار يــهــدّ هَــدّا[٢]
ليس يرى من ضرب كبشٍ بُدّا

وقال يمدح عبد الله بن العباس[٣]:

إذا قـال لم يترك مقـالاً لقـائـل بملتقـطات لا ترى بينهـا فصـلا
كفى وشفى ما في النفوسِ ، فلم يدَع لذي إربةٍ في القول جدّاً ولا هَزلا[٤]
سمـوتَ إلى العَلْيـا بغيـر مشقـة فنلتَ ذُراها لا دِنيّـاً، ولا وَغْلا[٥]

ويمدح ابن رواحة الرسول وآله فيقول[٦]:

يـا هاشم الخيـر إن الله فضَّلكم على البرية فضـلاً ما لـه غِيَر[٧]

(١) الديوان ص ٨٤.
(٢) جنداً: ناصراً. خوار: ضعيف.
(٣) الديوان ص ٢١٢.
(٤) الإربة: الحاجة.
(٥) الوغل: النذل، الساقط.
(٦) سيرة ابن هشام ٢: ٣٧٤.
(٧) الغير: التغيير، والتغير.

إني تفرستُ فيك الخير أعرِفُه — فراسةً خالفتْهم في الذي نظروا[1]
ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضهمُ — في جُلّ أمرك ما آووا وما نصروا
فثبّت الله ما آتاك من حسَنٍ — تثبيت موسى، ونصراً كالذي نصروا
أنت الرسول فمن يُحرَمْ نوافلَه — والوجهَ منه فقد أزرى به القدر

هـ ـ الوصف:

الوصف من الأغراض التي لم يتأثر كمُّها بالإسلام، سواء في ذلك وصف المحسوسات أم وصف الأحوال النفسية، إلا ما كان من تقلّص وصف الخمرة بعد تحريمها، وقد شدّت الأحداث الإسلامية الكبرى أذهان شعراء المدينة إليها، فانصبّ شعرهم الوصفي عليها، ولم تُبقِ لهم مجالاً للتعلّق بالأشياء الأخرى، كوصف الرحلة ووصف الناقة والمشاهد الطبيعية. ولا يوجد في شعرهم قصائد مستقلة للوصف وإنما هو يأتي خلال الفخر وفي سياق الهجاء والوعيد.

ومن أمثلة ذلك قول حسان[2]:

غداةَ كأن جمعهمُ حِراء — بدت أركانه جُنْحَ المغيبِ
فلاقيناهمُ منّا بجمع — كأُسْد الغاب من مُرْد وشيب
أمامَ محمد قد آزروه — على الأعداء في رَهَج الحروب
بأيديهم صوارم مرهَفاتٌ — وكلُّ مجرَّبٍ خاظي الكعوب[3]
فغادرنا أبا جهل صريعاً — وعتبةَ قد تركنا بالجَبُوب[4]
وشَيْبةَ قد تركنا في رجال — ذوي حسب إذا نُسِبوا حسيب

(١) الذي نظروا: قال ابن هشام: يعني المشركين، وهذه الأبيات في قصيدة له.
(٢) الديوان ص ١٣.
(٣) خاظي: صلب.
(٤) الجبوب: الأرض الغليظة.

يــنــاديــهـــم رســـولُ الله لـــمـــا قــذفنـاهم كبـاكبَ في القليب[1]
ألم تجـدوا حـديثي كـان حقـاً وأمـــر الله يــأخـــذ بـــالـــقـــلوب

وقال كعب بن مالك في الرد على هبيرة بن أبي وهب يوم أُحُد[2]:

ألا هـل أتى غسان عنّـا ودونهم من الأرض خَرْق سَيْرُه مُتنعْنِع[3]
صَحـارٍ وأعـلامٌ كـأن قَتـامهـا من البعـد نقـعٌ هـامـد متقـطـع
تظل بها البُـزل العراميسُ رُزَّحـاً ويخلو به غيث السنين فيُمرع[4]
به جيَفُ الحسرى يلوح صَليبُهـا كما لاح كَتّان التِّجار الموضَّع[5]
بــه العِينُ والآرام يمشين خلفـه وبَيْضُ نعـامٍ قَيْضُـه يَـتقـلَّع[6]

* * *

وهناك **أغراض أخرى جانبية تقليدية** عرفت أيضاً في المدينة وإن لم تزدهر الإزدهار الكافي الذي يكفل لها الانتشار والاستمرار، لأنهم كانوا في الغالب يتناولونها نثراً.

١ ـ ومنها **الاعتذار**، وذلك كاعتذار حسان للسيدة عائشـة رضي الله عنها، لأنه كان قد تورط في حديث الإفك ثم نزلت براءة عائشة من فوق سبع سموات، وتنزلت الآيات بذم كلٍ من اشترك في ذلك الحديث وفي مقدمتهم من تولى كِبْرَه منهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول: ﴿والذي تولى كِبْره منهم له عذاب أليم﴾، ثم قبلت توبة حسان فقال معتذراً[7]:

---

(١) الكباكب: جمع كبكبة وهي الجماعة.
(٢) سيرة ابن هشام ٢: ١٣٢.
(٣) الخرق: الفلاة الواسعة. ومتنعنع: مضطرب.
(٤) البزل: الإبل القوية. العراميس: الشديدة. الرزح: المعيية.
(٥) الصليب: الودك. الموضع: المبسوط المنقوش.
(٦) القيض: قشر البيض الأعلى. يتقلع: يتشقق.
(٧) الديوان ص ١٨٨.

حَصان، رَزان، ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصبح غَرْثَى من لحوم الغوافل[1]

حليلةُ خيرِ الناس ديناً ومنصِباً ... نبيِّ الهدى، والمكرُمات الفواضل

عقيلة حيٍّ من لؤي بن غالب ... كرامِ المساعي، مجدُها غيرُ زائل[2]

مهذبةٌ قد طيبَ الله خِيمَها ... وطهَّرها من كل سوءٍ وباطل

فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتمُ ... فلا رفعَتْ سوطي إليَّ أناملي

وإن الذي قد قيل ليس بلائط ... بها الدهرَ بل قولُ امرىء بيَ ماحل[3]

فكيف ووُدِّي ما حييتُ ونُصرتي ... لآل نبي الله زيْنِ المحافل

له رَتَبٌ عالٍ على الناس كلِّهم ... تقاصَرُ عنه سورةُ المتطاول[4]

رأيتكِ وليغفر لكِ الله حرَّةً ... من المحصَناتِ غيرَ ذات غوائل[5]

ولما بلغ عائشة قوله: (وتصبح غرثى من لحوم الغوافل) قالت: لكنك يا حسان ما تصبح غرثان من لحومهن. أما تنصله في البيتين: الخامس والسادس مما اقترفه من الخوض في حديث الإفك فهو على حد قول كعب بن زهير للرسول ﷺ:

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت في الأقاويل

وهو الظالع في سبّ رسول الله وهجائه، ولكن العفو عند رسول الله وعند نسائه أمهات المؤمنين مأمول، يقول كعب:

نُبئتُ أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١) الحصان: العفيفة. الرزان: ذات الثبات والوقار والعفاف. تزن: تتهم. غرثى: جائعة. الغوافل: جمع غافلة، أي أنها لا ترتع في أعراض الناس.

(٢) العقيلة: السيدة الكريمة.

(٣) لائط: لاصق. الماحل. من قولهم: محل به إلى الأمير، إذا سعى به وكاده. يقول: إنهم قالوا عنه شيئاً لم يقله، وإنه مجرد سعاية.

(٤) الرتب بفتح الراء: ما أشرف من الأرض، استعاره للمجد والشرف. سورة: وثبة.

(٥) الغوائل: جمع غائلة، وهي الفساد والشر.

وقد جعل ابن رشيق قبول مثل هذا الاعتذار والكذب بالشعر من فضائل الشعر على النثر، فالرؤساء والملوك يقبلونه مع تأكدهم من كذب قائليه. وعندي أن الأمر ليس كذلك. فالكذب ممقوت في الشعر والنثر، وقبول الرسول عذر كعب وصفح عائشة عن حسان ونحو ذلك لم يكن لتغاضيهما عمّا ورد في شعرهما من كذب، وإنما للثقة في صدق التوبة، وللعفو عند المقدرة. وهو موقف يصدق على الشعر والنثر جميعاً.

٢ ـ ومن تلك الأغراض **العتاب**، ومن أمثلته عندهم عتاب حسان للرسول ﷺ في سبي هوازن وقد ذكرناه في كلام سابق.

* * *

وأما الأغراض التي جدّت والتي لا عَهْدَ للعرب بها فهي كما قلنا:

١ ـ الشعر الديني:

وهو غير مرادف للشعر الإسلامي، وإنما هو جزء منه، ومعنى هذا أننا نقصد منه ذلك الشعر الذي يدور حول الموضوعات الدينية مباشرة كالوثنية والتوحيد وأركان الإسلام وأركان الإيمان، والإحسان ونحو ذلك من الموضوعات، فالعلاقة بين الشعر الديني والشعر الإسلامي إذن هي العلاقة بين الخاص والعام، ومن موضوعاته الحديث عن الوحدانية ونبذ الشرك، ومثاله شعر بُجير بن زهير بن أبي سلمى الذي سكن المدينة بعد إسلامه، وردّ على أخيه كعب الذي لحاه على اعتناقه الإسلام فقال[1]:

فمن مُبلِغ كعباً، فهل لك في التي ... تلوم عليها، باطلاً، وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من النار إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء دينه ... ودين أبي سلمى عليَّ مُحرَّم

(١) ديوان كعب بن زهير طبعة الدار ص ٤.

ومن موضوعاته أيضاً الدعوة إلى النصرة والجهاد في سبيل الله، وذلك كقول عبد الله بن رواحة[1]:

خلو - بني الكفار - عن سبيله
خلو فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تُتلَى على رسوله
بأن خير القتل في سبيله
يا رب إني مؤمن بقيلِه
نحن قتلناكمْ على تأويله
كما قتلناكمْ على تنزيله
ضرباً يزيل الهامَ عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ومنه الاستغفار والرجعى إلى الله والإيمان برسوله، وذلك كقول عمرو بن الجموح الخزرجي[2]:

أتوب إلى الله سبحانه ... وأستغفر الله من ناره
وأُثني عليه بآلائه ... بإعلان قلبي وأسراره

ويقول حسان[3]:

وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق لو نفع البلاء
شهدت به وقومي صدقوه ... فقلتم ما نجيب وما نشاء

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٥٥.
(٢) الإصابة ٢: ٥٢٣.
(٣) الديوان ص ٩.

وقولـه[1]:

شهـدت بـإذن الله أن محمـداً ... رسول الذي فوق السموات من عل
وأن أبـا يحيى، ويحيى كليهمـا ... لـه عمـل في دينـه متقبـل[2]
وأن التي بالجزع من بطن نخلة ... ومن دانها فَلٌّ من الخير مَعْزِل[3]
وأن الذي عادى اليهودُ ابن مَريمٍ ... رسولٌ أتى من عند ذي العرش مُرسَل
وأن أخـا الأحقاف إذ يعـذلـونـه ... يقـوم بـدين الله فيهم فيعـدِل[4]

فقال له النبي ﷺ: أنا أشهد معك. ومن العجيب أن يتعرض حسان للعزّى ولا يتعرض لمناة معبود اليثربيين.

وأخيراً فهذه عثامة زوجة أبي الدرداء تتحفنا بصورة مشرقة للمـرأة المسلمة ترينا بوضوح ذلك التغيير الكبير الذي طرأ على المجتمع، وتقفنا على القيم الجديدة التي سادت فيه. لقد دخل عليها ابنها بلال فجراً وكان بصرها قد كفّ، فقالت. أصليتم؟ فقال: نعم، فتحسرت على تأخيرها الصـلاة وقالت تعنّف نفسها[5]:

عـثـامَ مـا لـكِ لاهـيـةْ ... حـلّت بـدارك داهـيـةْ
ابـكـي الـصـلاة لـوقـتـهـا ... إن كـنـت يـومـاً بـاكـيـة
وابـكـي الـقُـران إذ تُـلـي ... قـد كـنـتِ يـومـاً تـالـيـة
فـالـيـوم لا تـتـلـيـنـه ... إلا وعـنـدك تـالـيـة
لـهـفـي عـلـيـك صـبـابـة ... مـا عشـت طـول حـيـاتـيـة

(١) الديوان ص ١٨٦.

(٢) يحيى: هو النبي يحيى، وأبوه هو النبي زكريا عليهما السلام.

(٣) نخلة: بين مكة والطائف، وكان بها العزى. دانها: دان بها وعبدها. فل من الخير: خال من الخير.

(٤) أخا الأحقاف: هو نبي الله هود.

(٥) من بحث بعنوان (شعر الدعوة في العصر النبوي) للدكتور عبدالله التركي ـ بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين ـ جامعة الملك عبد العزيز جـ ٣: ١٠٥٨ سنة ١٣٩٤ هـ.

٢ ـ الشعر السياسي:

وكما كانت المدينة رائدة في الشعر الديني بين العرب جميعاً كانت أيضاً الرائدة في هذا اللون من الشعر، وقد كان الإسلام ديناً ودولة، وفي المدينة وضعت أسس الدولة الإسلامية على يد الرسول ﷺ، وتعلم العرب الاجتماع على أساس العقيدة والمبدأ لا على أساس النسب والقرابة، وكان اللسان الناطق بحال هذه الدولة الذي أخذ الإذن من رئيس الدولة بالنطق، وامتزجت بدعوته عواطفهم، هم شعراء المدينة، فعلى هذا الأساس يعدّ شعرهم الذي كانوا يدافعون فيه عن الإسلام منضوياً تحت اسم الشعر السياسي، وإن عبّر في الوقت نفسه عن أغراض أخرى، ومن خير ما يمثّل ذلك ما حصل من شعر بين حسان والزبرقان بن بدر حين قدم وفد بني تميم على الرسول ﷺ فقد جاء هذا الوفد وفاخر الرسول بخطيبه، فندب لهم الرسول ثابت بن قيس الأنصاري للرد عليهم فأفحم خطيبهم كما مرّ، وقام شاعرهم الزبرقان فقال[١]:

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا	منا الملوك، وفينا تُنصَبُ البِيع[٢]
وكم قسرنا من الأحياء كلهمُ	عند النِّهاب، وفضلُ العز يُتَّبع
ونحن يُطعِم عند القحط مُطعِمُنا	من الشِّواء إذا لم يؤنَس القَزَع[٣]
بما نرى النـاسَ تأتينا سُراتُهم	من كل أرض هُوِيّاً ثم تَصْطنِع[٤]
فننحرُ الكُومَ عُبْطاً في أُرومتنا	للنازلين، إذا ما أُنزِلوا شبعوا[٥]
فلا ترانا إلى حيٍّ نفاخرهم	إلا استفادوا فكانوا الرأسَ يُقْتَطع
فمن يفاخِرُنا في ذاك نَعرِفه	فيَرْجع القومُ والأخبارُ تُستَمع

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٥٦٣ والطبري ٣: ١١٦.

(٢) البيع: جمع بيعة وهو موضع الصلاة والعبادة.

(٣) القزع: السحاب الرقيق.

(٤) هوياً: سريعاً.

(٥) الكوم: جمع كوماء، وهي الناقة العظيمة السنام. عبط: من غير علة.

إنــا أبينا ولا يــأبَى لنا أحــدُ إنّـا كذلـك عنـد الفخـر نـرتفـع

فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: قم يا حسان، فأجِب الرجل فيما قال، فقام حسان، فقال[1]:

إن الـذوائب من فهـر وإخـوتهم قـد بينـوا سُنّـة للنـاس تُتَّبـع[2]
يَرْضى بهم كلُّ من كانت سريرتُه تقوى الإلّه وكـلَّ الخير يَصطنِع
قـومٌ إذا حاربـوا ضرّوا عـدوَّهمُ أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيـةٌ تلك منهم غيـرُ محـدَثـةٍ إن الخلائق فاعلم شـرُّها البـدع
إن كان في الناس سبّاقون بعدهمُ فكـل سبق لأدنى سبقهم تَبَـع
لا يرفع النـاسُ ما أوهت أكفُّهمُ عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن سابق الناس يوماً فاز سبقُهمُ أو وازنوا أهل مجد بالندى مَتَعوا[3]
أعفّـةٌ ذُكِرتْ في الـوحْي عِفّتُهمْ لا يَـطبَعـون ولا يُـرديهمُ طمـع
لا يبخلون على جـار بفضـلهمُ ولا يمَسُّهم من مَـطمـع طبَـع
إذا نَصبْنــا لحيّ لم نـدِبَّ لهمْ كما يدِبُّ إلى الوحشيةِ الذَّرَع[4]
نسمـو إذا الحربُ نالتْنا مخـالبُها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا[5]
لا يفخـرون إذا نـالــوا عـدوَّهمُ وإن أُصيبـوا فلا خُـورٌ ولا هُلُع
كأنهم في الوغى والموتُ مُكتنِع أسد بحَلْيَةَ في أرساغها فَـدَع[6]
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ولا يكن همُّك الأمرَ الذي مَنَعوا[7]

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٥٦٤، والطبري ٣: ١١٧.
(٢) الذوائب: السادة. وأصله من ذوائب المرأة، وهي غدائرها التي تعلو الرأس.
(٣) متعوا: زادوا، يقال: متع النهار، إذا ارتفعت شمسه.
(٤) نصبنا: أظهرنا العداوة ولم نسرها. والذرع: ولد البقرة الوحشية.
(٥) الزعانف: أطراف الناس وأتباعهم. خشعوا: تذللوا.
(٦) مكتنع: دان. وحلية: مأسدة باليمن.
(٧) عفوا: من غير مشقة.

فإن في حربهم فاتركْ عـداوتَهمْ — شرّاً يخاضُ عليه السُّمُّ والسَّلَع[1]
أكـرِم بقـومٍ رسـولُ الله شيعتُهمُ — إذا تفـاوتت الأهـواء والـشِّيـع
أهدَى لهم مِـدْحتي قلبٌ يؤازره — فيمـا أحِبُّ لسانٌ حـائـك صَنَـع
فـإنهم أفضـل الأحيـاء كـلهمُ — إن جَدّ بالناس جِدُّ القول أو شمَعوا[2]

ثم عاود الزبرقان القول بالغاً باللجاج مداه فقال[3]:

أتينـاك كيما يعلم النـاس فضلَنا — إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كـل موطن — وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنـا نـذود المعْلِمين إذا انتخَـوا — ونضـرب رأس الأصيد المتفـاقم
وأنّ لنـا المربـاعَ في كل غـارةٍ — نُغيـر بنجـد أو بـأرض الأعـاجم

فانبرى له حسان مرة أخرى قائلاً[4]:

هل المجد إلا السؤددُ العَودُ والندى — وجـاهُ الملوكِ واحتمـالُ العـظائم
نَصـرْنـا وآوينـا النبيَّ محمـداً — على أنف راضٍ من معدّ وراغم
بـحيٍّ حـريـدٍ، أصلُه وثَـراؤه — بجـابية الجَـوْلان وسط الأعـاجم
نصـرناه لمـا حـلّ وسْط ديـارنـا — بـأسيـافنـا من كـل بـاغٍ وظـالم
جعلنـا بنِينـا دونـه وبنـاتِـنـا — وطبْنـا لـه نفسـاً بفيء المغـانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا — على دينـه بالمـرهَفات الصـوارم
ونحن ولدْنا من قـريش عظيمهـا — ولدنا نبيَّ الخير من آل هاشم[5]

---

(١) السلع: نبات مسموم.
(٢) شمعوا: هزلوا. وأصل الشمع: الطرب واللهو.
(٣) سيرة ابن هشام ٢: ٥٦٤، وقيل: إنه قال هذه الأبيات ابتداءاً، وإن الأبيات الأولى لقيس ابن عاصم.
(٤) المرجع السابق.
(٥) يشير بهذا البيت إلى أن أم عبد المطلب جد النبي ﷺ أنصارية خزرجية من بني النجار وهي سلمى بنت عمرو.

بني دارم، لا تفخروا، إن فخركمْ يعود وبالاً عند ذكر المكارم
هُبِلتمْ علينا تفخرون وأنتمُ لنا خوَلٌ ما بين ضئر وخادم[1]
فإن كنتمُ جئتمْ لِحقن دمائكمْ وأموالِكم أن تُقسَموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نِدّاً وأسلِموا ولا تلبَسوا زيّاً كزِيِّ الأعاجم

وفي إطار الصراع بين اليهود والدولة المسلمة أو الجماعة الإسلامية نجد كعب بن الأشرف اليهودي يتحدى مشاعر المسلمين رغم مواطنته اليثربية، ويرثي أصحاب القليب من قتلى بدر محرضاً ضد المسلمين، بالرغم من المعاهدة السلمية التي عقدها الرسول ﷺ بينه وبين اليهود عقب وصوله إلى المدينة كما قدمنا، يقول كعب[2]:

طحنتْ رحى بدرٍ لمَهْلِك أهله ولمثلِ بدر تَستهلُّ وتَدمع
قُتِلتْ سراةُ الناس حول حياضهمْ لا تَبعَدوا إن الملوك تُصرَّع
كم قد أُصيبَ به مِنَ أبيضَ ماجدٍ ذي بهجةٍ يأوي إليه الضُّيَّع[3]
طَلْقِ اليدين إذا الكواكبُ أخلفتْ حمّالِ أثقالٍ يسود ويَرْبَع[4]
ويقول أقوامٌ أَسَرُّ بسخطهمْ: إن ابن الأشرف ظل كعباً يَجْزَع
صدقوا فليت الأرضَ ساعةَ قُتِّلوا ظلت تسوخُ بأهلها وتُصدَّع
صار الذي أثرَ الحديثَ بطعنه أو عاش أعمى مُرْعَشاً لا يَسمع
نُبئت أن بني المغيرة كلهمْ خَشعوا لقتل أبي الحكيم وجُدِّعوا[5]
وابنا ربيعة عنده ومُنبِّهٌ ما نال مثل المُهلكين، وتُبَّع

---

(١) هبلتم: فقدتم، وثكلتم. والظئر: التي ترضع ولد غيرها وقد تأخذ على ذلك أجراً وأصله: الناقة تعطف على ولد غيرها.
(٢) المرجع السابق ٢: ٥٢.
(٣) الضيع: جمع ضائع وهو الفقير.
(٤) طلق اليدين: كثير المعروف.
(٥) التجديع: قطع الأنف.

نُبئتُ أن الحـارث بن هشـامِهمْ　　في الناس يَبني الصالحات ويجمع
ليـزورَ يثـربَ بـالجمـوع وإنمـا　　يَحْمَى على الحسَب الكريمُ الأروع

وقد أثارت هذه القصيدة الشعراء المسلمين فردّ عليها حسان وكذلك أجابته إحدى النساء المسلمات وهي ميمونة بنت عبد الله المريدية البلوية فقالت[1]:

تحنَّنَ هـذا العبـد كـلّ تحنُّنٍ　　يُبكِّي على قَتْلَى وليس بناصب
بكتْ عينُ من يبكي لبدر وأهله　　وعُلَّت بمثليهـا لؤيّ بن غـالب
فليت الـذين ضُـرِّجـوا بـدمـائهمْ　　يَرى ما بهم من كان بين الأخاشب
فيعلم حقـاً عن يقين ويُبصِـروا　　مَجرَّهم فوق اللِّحى والحـواجب

فرد عليها كعب أيضاً فقال[2]:

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا　　عن القول يأتي منه غير مُقارِب
أتشتُمني أن كنت أبكي بعبـرة　　لقـوم أتـاني ودّهم غيـر كـاذب
فـإني لبـاكٍ مـا بقيتُ وذاكـرٌ　　مآثر قـوم مَجدُهم بـالجباجب[3]
لعمري لقد كـانت مُريْـدُ بمعزِل　　عن الشر فاحتالت وجوهَ الثعالب
فحق مُـريْـدُ أن تُجَـدّ أنـوفُهم　　بشتـمهـمُ حيٍّ لـؤيّ بن غـالـب
وهبت نصيبي من مُـرَيْد لجَعْـدرٍ　　وفـاءً وبيتُ الله بين الأخـاشب

وإذا غادرنا عهد الرسول إلى عهد الخلفاء نجد نموذجاً للشعر السياسي بعد مقتل عثمان، حيث بدأ انقسام الناس إلى عثمانية وغير عثمانية، يقول الوليد بن عقبة أخو عثمان من الرضاع يستحث الناس على أخذ الثأر لعثمان[4]:

---

(١) المرجع السابق ٢: ٥٣ وقال: إن بعضهم أنكرها وأنكر معها نقيضتها المنسوبة لابن الأشرف.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الجباجب: منازل مكة.
(٤) الأغاني ٥: ١١٠ ثقافة.

ألا مَنْ لليـل لا تغـور كـواكبـهْ إذا لاح نجم لاح نجم يـراقبـهْ

بني هاشم رُدّوا سلاحَ ابن أختكمْ ولا تَنْهبـوه، لا تحـلّ منـاهبُـهْ

بني هـاشم لا تَعْجَلوا بـإقـادةٍ سـواءٌ علينـا، قـاتلوه، وسـالبـهْ

فقد يُجبَر العظمُ الكسير وينبري لـذي الحقِّ يومـاً حقُّه فيـطالبـهْ

وإنـا وإيـاكم ومـا كـان منكمُ كصدْع الصفا لا يرأبُ الصَّدع شاعبُه

بني هـاشم كيف التعـاقـد بيننا وعنـد عليٍّ سيفُـه وحـرائبـه[1]

لعمركَ ما أنسى ابن أروَى وقتلَه وهل يَنسيَنَّ الماءَ ما عاش شاربُهْ

همُ قتلوه كي يكـونـوا مكـانـه كما غدرَتْ يوماً بكسرى مرازبُـه

وإني لمجتـابٌ إليكم بجحفـلٍ يُصِمُّ السميعَ جَـرْسُـه وجـلائبُـه

فأجابه الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب، وقيل: أبوه العباس بن عتبة، فقال:

فـلا تسـألـونـا بـالسـلاح فـإنـه أُضِيع وألقاه لدى الرَّوْع صـاحبُه

وشبّهتَـه كسرى، وقـد كان مثلُه شبيهـاً بكسرى هـدْيُه وعصـائبُـه

- ٤ -

ثانياً: في المعاني:

إن المعاني التي يلمّ بها الشعراء تكون عادة مرتبطة بالقيم السائدة في المجتمع، وثيقة الصلة بالمثل المخالطة لروح الأمة، فلا يمكن أن يفخر شاعر ـ مثلاً ـ بالعلم في بيئة لا تقدِّر العلم ولا تقيم لأهله وزناً، أو أن يهجو رجلاً بالميسر وشرب الخمر في قوم لا يرون في ذلك بأساً ولا يحطّ في نظرهم من أقدار الناس، ومن هنا كانت المعاني الشعرية خير جسر يعبر منه إلى دواخل قائليه أولاً ودواخل المجتمع الذي يقدرهم ويرضى عنهم ويحلهم من نفسه المكان الأوفى، فهل كان المجتمع الإسلامي وعلى رأسه قائده الأعـظم محمد ﷺ

---

(١) حرائب: جمع حريبة، وهي مال الرجل الذي يعيش به، وقيل: ما يسلب من المال.

راضياً عن شعرائه في المدينة؟ إنه في الواقع لم يكن راضياً عنهم فقط، بل كان يشجعهم ويشد من أزرهم، وكان يدفعهم للوقوف بشعرهم في وجه أعدائه، وينتدبهم للرد على شعراء الوفود، وهذا يعني أن معاني هذا الشعر كانت منسجمة تماماً مع قيم المجتمع المسلم، وتسير على وفاقه، وأنها برئت في عمومها من بقايا الجاهلية أو كادت، وتأثرت أيما تأثر بمنهج الإسلام. ولم تبق بعض أصداء الجاهلية إلا عند حسان، ولكن بعد صقلها وتقليم بعض عرامتها، فلم يعودوا في الفخر مثلاً يفخرون بإعلاء كلمة القبيلة أو رفع شأنها أو كسب المغنم، بل بنيل الشهادة في سبيل الله وتأييد الملائكة لهم في القتال وانتصار جند الله يقول كعب:

ويوم بدر لقيناكم لنا مَدَد ... فيه مع النصر ميكالٌ وجبريل
إن تقتلونا فدين الله فطرتنا ... والقتل في الحق عند الله تفضيل

ويقول حسان:

وإلا فاصبروا لجِلادِ يوم ... يُعزّ الله فيه مَنْ يشاء
وجبريل أمين الله فينا ... وروحُ القدسِ ليس له كفاء

ويقول:

وغدَوْا علينا قادرين بأيْدهمْ ... رُدُّوا بغيظهمُ على الأعقاب
بهبوب مُعْصِفةٍ تُفرِّق جمعَهمْ ... وجنودِ ربك سيِّد الأرباب
وكفى الإلٓهُ المؤمنين قتالَهمْ ... وأثابهمْ في الأجر خير ثواب

ولا يكتفي ابن رواحة بذلك بل يطلب الشهادة ويسألها من الله فيقول:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فَرْغٍ تقذف الزَّبدا[1]
أو طعنةً بيدَيْ حرّانَ مجهزةً ... بحربةٍ تُنْفِذُ الأحشاءَ والكبِدا

---

(١) ذات فرغ.. إلخ: أي ذات جرح واسع يتدفق دمه وتطفو رغوته.

حتى يقالَ إذا مرُّوا على جدَثي   أرشده الله من غازٍ وقد رَشدا

ويفخرون بذودهم المشركين عن الكفر وبإعانة الله للمسلمين وحفظه وهدايته لهم، كما يفخرون أيضاً بإيوائهم الرسول والذود عنه باللسان والسنان، والإيمان بما جاء به من عقيدة الإسلام، يقول كعب:

يذودوننا عن ديننا ونذودهمْ   عن الكفر، والرحمنُ راءٍ وسامع
إذا غايظونا في مقام أعاننا   على غيظهم نصرٌ من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله   علينا، ومن لم يحفظِ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختاره لنا   ولله فوق الصانعين صنائع

ويقول:

يذود ويحمي عن ذمار محمد   ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمرٍ يريبه   يجود بنفسٍ دون نفس محمد

ويقول حسان:

وقال الله قد أرسلت عبداً   يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به وقومي صدَّقوه   وقلتم: لا نقوم ولا نشاء

إلى أن يقول:

فإن أبي ووالده وعرضي   لعرض محمد منكم وقاء

وقال يفتخر بقومه الأنصار:

أعطَوْا رسولَ الهدى والبرِّ طاعتَهم   فما ونَى نصرُهم عنه وما نزعوا
أكرِم بقوم رسولُ الله شِيعتُهم   إذا تفرقتِ الأهواءُ والشيع

وقال:

وفوا يوم بدر للرسول، وفوقهمْ   ظلالُ المنايا، والسيوفُ اللوامع

دعــا فـأجــابـوه بحق، وكلّهمْ مطيع لـه في كل أمرٍ، وسامـع

وقال في يوم أُحـــد:

وقد ضاربت فيه بنو الأوس كلُّهمْ وكـــان لهم ذكـر هنـــاك، رفيـع
وحامى بنو النجـار فيه وضـاربوا وما كان منهم في اللقـاء جزوع
أمـام رسـول الله لا يخـــذلـونـــه لهم نـــاصـــر من ربهم وشفيـــع
وفَوْا إذ كفرتم يـا سَخينَ بربكم ولا يستـوي عبد عصَى ومـطيـع

ويمزجون هذا الفخر أحياناً ببعض المآثر التي كانت لهم في الجاهلية، لأنهم من جهة كانوا يواجهون شعراء يفعلون ذلك، ومن جهة أخرى كان هذا النوع من الفخر بالنسبة لحسان هو مدار شعره وجمّاعه وسرّ شاعريته وارتفاع شأنه في دنيا البيان، يقول حسان:

أتـــانـا رســـول الله لـمـا تجهّمتْ له الأرضُ يرميه بها كلُّ مُوفِق[١]
تُـطرِّده أفـنـاء قيس وخِـنْـدِف كتائبُ إن لم تغدُ للروع تَـطرُق
فكنا له من سـائر النـاس معقِلاً أشمَّ، منيعـاً ذا شمـاريـخ شُهَّق
مُكلَّلةٍ بـالـمشـرفيِّ وبـالقـنـا بها كل أظْمى ذي غرارين أزرق[٢]
تـذود بها عن أرضهـا خـزرجيّةٌ كـأُسْد كَـراءٍ، أو كجِنَّة نَمْنَق[٣]
تـؤازرهـا أوسيّـةٌ مـالـكـيـةٌ رقاقُ السيوفِ، كالعقائق، ذُلَّق[٤]

ويقول في مؤازرة قومه الإسلام في بدر:

فـلاقيـنـاهـمُ منّـا بـجـمـع كـأُسْدِ الغاب من مُرْدٍ وشيب

(١) الموفق: من قولهم: أوفق السهم إذا وضع الفوق في الوتر ليرمي.
(٢) الأظمى: الأسر، وهو الرمح.
(٣) كراء، ونمنق: موضعان.
(٤) العقائق: جمع عقيقة، وعقيقة البرق: بريقه. الذلق: السريعة السلة.

أمــام مــحــمــد قــد آزروه   على الأعداء في رَهَج الحـروب

وتستمع إلى رنين الفخر الجاهلي يتردد في شعر حسان كثيراً ويحتل في بعض قصائده حيزاً كبيراً، ولكنه على كل حال فخر لا يتنافى مع الإسلام ولا يصطدم بمبادئه، وفي لاميته التي مطلعها:

لكِ الخير غضِّي اللوم عني، فإنني   أُحب من الأخلاق ما كان أجملا

يمثل ذلك الفخر واحداً وثلاثين بيتاً، ومنه قوله:

وإنّــا لقـوم مــا نســوِّد غــادراً   ولا نـاكلا عنـد الحمـالـة زُمَّـلا
ولا مـانعـاً للمـال فيمـا ينـوبـه   ولا ناكلا في الحرب جِبْساً مغفّلا
نســوِّد منّـا كــلَّ أشيب بــارعٍ   أغــرَّ تــراه بــالـجــلال مكـلّلا

ومن المعاني التقليدية التي افتخروا بها: الشجاعة والكرم والصبر في الحروب والثبات عند الشدائد وإيواء الجار إلى غير ذلك من الصفات العربية، ولا غرو فقد جاء الإسلام ليتمّم مكارم الأخلاق، ويقول كعب:

ولكن ببــدر ســائلوا من لقيتـمُ   من الناس، والأنباءُ بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلُها   سوانا، لقد أجْلوا بليل فـأقشعوا
إذا جـاء منّا راكب كـان قولـه: أعِدّوا لما يرجى ابن حرب ويجمع
فمهمـا يهمّ الناس ممـا يكيـدنـا   فنحن له من سائر الناس أوسـع
فلو غيـرنا كـانت جميعـاً تكيـده   البـرية قـد أعطَوْا يـداً وتـوزعـوا
نجــالــد لا نبقي علينــا قـبيـلةً   من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا[١]

ويقول في معركة أُحُــد:

ألا أبلغـا فهراً على نـأي دارها   وعندهمُ من علمنا اليـوم مَصْدق

---

(١) يفظعوا: يفزعوا.

بأنا غداة السفح من بطن يثرب   صبرنا وراياتُ المنية تخفق
صبرنا لهم والصبرُ منّا سجيّة   إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق[1]

وفخروا أيضاً بشعرهم وقوافيهم وألسنتهم الحداد، يقول حسان:

لكل أناس مِيسمٌ يعرفونه   ومِيسمنا فينا القوافي الأوابدُ
متى ما نسِمْ لا ينكر الناس وسْمَنا   ونعرِفْ به المجهول ممن نكايد
تلوح به تعشو عليه وُسُومُنا   كما لاح في سُمْر المِتان الموارد[2]
فيشفِين من لا يستطاع شفاؤه   ويَبْقَيْن ما تبقَى الجبال الخوالد
ويُشقين من يغتالنا بعداوة   ويُسْعِدن في الدنيا بنا من نساعد
إذا ما كسرنا رُمْح راية شاعر   يَجيش بنا ما عندنا فنعاود

وقال يهدد ضرار بن الخطاب ويمنّ عليه بالكف عنه كرامة لأبي وهب المخزومي:

فلولا أبو وهب لمرت قصائد   على شرف البلقاء يَهْوِين حُسَّرا
فإنا ومَنْ يُهدي القصائد نحونا   كمستبضِع تمراً إلى أهل خيبرا

وهو الذي يقول أيضاً:

قد رامني الشعراء فانقلبوا   مني بأفوقَ ساقط النَّصْل[3]
ويصُدُّ عني المفحَمون كما   صدّ البكارةُ عن حَرَى الفحل[4]
يخشَوْن من حسان ذا بَرَدٍ   هزمَ العشية صادِقَ الوَبْل[5]

---

(١) الأبرام: اللئام. نرتق: نسد ونصلح.
(٢) المتان: ظهور الأرض وجوانبها المشرقة. الموارد: الطرق.
(٣) الأفوق: السهم المنكسر ـ يقول: انقلبوا عني خائبين، فلم يظفروا مني بشيء.
(٤) المفحمون: الذين لا يقولون الشعر. حرى الفحل: ناحيته. والبكارة: جمع بكر، وهو الفتى من الإبل، كالغلام من الناس.
(٥) ذا برد: السحاب الممطر برداً. الهزم: المصوت.

ويقـــول:

أهـدَى لهم مِـدَحي قلبٌ يؤازره فيمـا يُحِبُّ لسانٌ حـائـك صَنَـعُ

ويقـــول:

لســـاني صــارم لا عيـب فيــه وبـحــري لا تـكــدِّره الـدلاء

* * *

ومن الجديد في مديحهم أنه لم يكن موجهاً لملك أو كبير، ولا كان دافعه الحصول على عطاء أو اتقاء لشر، بل كان موجهاً إلى شخص الرسول الكريم بدافع الإيمان به وبما جاء به من عند الله. فلذلك كان مدحاً صادقاً لا زيف فيه، واعتمد تبعاً لذلك على بعض المعاني الجديدة، كامتداحه ﷺ بالرسالة، وأنه الهادي والبشير، والمنقذ الذي ألّف الله به بين قلوب المسلمين وضمن لهم به سعادة الدارين، وأن رسالته موصولة بالسماء متنزلة عليه من عند الله، يقول كعب:

لمَّ الإلّـه بـه شعثـاً ورمَّ بـه أمـور أمتـه والأمـر منـتـشـر

ونلاحظ أن كلمة الأمة بات معناها واضحاً في الأذهان وأخذت طريقها إلى الاستعمال.

ويقول أيضاً:

فينـا الـرسـول شهـابٌ ثم يتبعـه نور مضيء له فضل على الشهب
بـدا لنـا فـاتبعنـاه نصـدّقـه وكـذبـوه فكنـا أسعـد العـرب

يقـول:

أطعنـاه لم نعـدِلْـه فينـا بغيـره شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديـا

ويقـــول:

وفينـا رسـول الله نـتْبـع أمـره إذا قـال فينـا القـول لا نتطلع

تدلّى عليه الـروح من عند ربـه ينـزّل من جـوٍّ السمـاء ويـرفـع

وقال حســـان:

أغـرّ عـليـه لـلنـبـوّة خـاتـم من الله مشـهـود يلوح ويـشهـد
وضمَّ الإله اسمَ النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد

وقال أيضــاً:

أعني الـرسـول فـإنّ الله فضله على البـرية بـالتقـوى وبـالجـود

وقـــال:

وشقَّ لـه من اسمـه كي يُجلَّه فذو العرش محمود، وهذا محمد
نبي أتـانـا بعـد يـأس وفتـرة من الرسل، والأوثانُ في الأرض تُعبد
وأنـذرنـا نـاراً وبـشّـر جـنـةً وعلّمنـا الإسـلام: فـالله نَحمـد

ويقول ابن رواحــة:

وفينـا رســول الله يتلو كـتـابـه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانـا الهدى بعـد العمَى فقلوبنا بـه موقنـاتٌ، أن ما قـال واقـع
يبيت يجـافي جنْبَـه عن فـراشـه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
وأعلم علمـاً ليس بـالـظن أنني إلى الله محشـور هنـاك وراجـع

وجعل كعب بعض شعره للحديث عن صدق نذارة الرسول وإثبات معجزاته ومقارنتها ببعض معجزات الأنبياء قبله، يقول:

نــذيـر صــادق أدّى كـتـابـاً وآيـاتٍ مـبـيـنـةً تـنـيـر

ويقـــول:

وإن تَكُ نمل البرِّ بالوهم كلَّمتْ سليمان ذا الملك الذي ليس بالعمِي

فهـذا نبيُّ الله أحمـدُ سبَّحـتْ   صغـارُ الحصَى في كفه بـالترنُّم

وفي هذا الصدد أيضاً يقول:

فـإن يَكُ مـوسى كلَّم الله جهـرةً   على جبل الطور المنيف المعظم

فقـد كلم اللهُ الـنبـيَّ محـمــداً   على الموضع الأعلى الرفيع المسوّم

ومن المعاني التقليدية في ذلك الامتداح بالشجاعة، والوفاء، والعزيمة والمضاء، والجود والعفة والصدق، والشـرف والنسب، وما إلى ذلـك من الفضائل النفسية، يقول حسان:

مستشعري حَلَق الماذيِّ يَقْـدُمُهمْ   جَلْد النَّحيزة ماضٍ غيرُ رعديد[1]

ثم يقول فيه ﷺ:

ماضٍ على الهول، ركّابٌ لما قَطَعوا   إذا الكماةُ تحامَوْا في الصناديـد

وافٍ، وماضٍ، شهابٌ يستضاء به   بـدر أنار على كـل الأماجيـد[2]

ويلاحظ أن هذا البيت الأخير يلتقي مع بيت كعب بن زهير:

إن الـرسـول لَنـورٌ يستضـاء بـه   مهنـد مـن سيـوف الله مـسلول

وهو وإن زاد عليه بالوصف بالوفاء فإن كعباً أربى عليه بوصفه بأنه مهند من سيوف الله مسلول، وبذلك لخص ما جاء به الرسول ﷺ في أمرين، هما: العقيدة والقوة.

* * *

فإذا وصلنا إلى الهجاء، وهو يشمل حيّزاً كبيراً من شعرهم بما فيه فنّ

---

(١) مستشعري: لابس شعاراً، وهو ما يلامس الجلد من الثياب. الماذي: الحديد من درع ومغفر وسلاح. جلد النخيرة: قوي الطبيعة.

(٢) الأماجيد: الأشراف.

النقائض وجدنا أن هجاءهم لم يكن لمأرب شخصي كما كان الحال في العصر الجاهلي، وكما كان الحال عند معاصريهم في البيئة الرعوية كالأعشى والحطيئة، بل كان من أجل الدعوة الإسلامية، ولئن كان هجاؤهم في العصر الجاهلي أقرب إلى التعفّف والعتب والملاينة عدا بعض ما كان عند حسان، لأنه كان في الغالب بين بني العمومة (الأوس والخزرج)، فإنه في صدر الإسلام كان قاسياً جارحاً لا يبقي على حرمة، ولا يذر مجالاً للصفاء أو الود، وزاد فيه حسان إفحاشاً على إفحاش، لم يتورع فيه عن ذكر السوءات والتعرّض للأمهات، ولا غرابة في ذلك فقد كانت النقائض بينهم وبين الشعراء المشركين حرباً حقيقية يستعمل فيها الطرفان كل سلاح ممكن، دون رحمة أو هوادة، ومع ذلك فقد كانت بعض معانيه متأثرة بالإسلام، ومن ذلك التعيير بالكفر والخيانة يقول حسان لأبي سفيان بن الحارث:

ولستَ بذي دين ولا ذي أمانةٍ ... ولستَ بحرٍّ من لؤي ولا كعْب

وقال:

شهدت به وقومي صدَّقوه ... فقلتم: لا نقومُ ولا نشاء

ويقول في الرد على عمرو بن العاص:

زعم ابن نابغةَ اللئيم بأننا ... لا نجعل الأحساب دون محمد
أموالنا ونفوسنا من دونه ... من يصطنع خيراً يُثَبْ ويُحمَّد
فتيان صدق كالليوث مساعرٌ ... من يَلْقهم يوم الهِياج يُعرِّد
قوم ابن نابغةَ اللئام أذِلّةٌ ... لا يُقبلون على صفير المُرْعِد[1]
وبَنى لهمْ بيتاً أبوك مُقصِّراً ... كفراً ولؤماً بئس بيتُ المَحتِد

وقال كعب:

---

(١) صفير المرعد: أي أنهم لجبنهم يفرون من صفير الصافر. ونابغة: أم عمرو بن العاص.

فكُبّ أبو جهل صريعاً لوجهه وعتبةُ قد غادرنه وهو عاثر
وشيبةَ والتيْميِّ غادرن في الوغى وما منهمُ إلا بذي العرش كافر
فأمسَوْا وقودَ النار في مستقرها وكل كفور في جهنم صائر

ولم يكن شعراء المشركين يحسّون بشدة هذا الهجاء إلا بعد أن أسلموا، فعن محمد بن سيرين قال: فكان يهجوهم من الأنصار حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم، بالوقائع والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر، قال: فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول قول ابن رواحة[1]. وفي الحقيقة ليس ابن رواحة من هجاهم وحده بذلك كما رأينا ولكنه كان منهجه المفضل في هجائهم، ومن ذلك قوله:

عصيتم رسول الله، أُفٍّ لدينكمْ وأمرِكمُ السيِّ الذي كان غاوياً

ويقول أيضاً:

يا ربِّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا، ولا صلّينا
إن الكفار قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبَيْنا

ويقول:

نَزوعُ قريشَ الكفر حتى نَعُلَّها بخاطمةٍ فوق الأنوف بميسم[2]
ويندم قومٌ لم يطيعوا محمداً على أمرهم وأيّ حين تَندُّم
فأبلغ أبا سفيان إما لقيتَه لئن أنت لم تُخلص سجوداً وتسلم
فأبشِر بخزي في الحياة معجّل وسربال قارٍ خالداً في جهنم

أما بقية معانيهم الهجائية فهي تقليدية، وتكون عادةً عكس صفات

---

(١) الأغاني ٤: ١٣٨ دار الكتب.

(٢) نزوع: نسوقهم كما تساق الإبل. ونعلها: نستذلهم ونعيد عليهم الكرة.

المديح. وذلك أنكى الهجاء كما يقول قدامة بن جعفر، فقد هجوا المشركين بضِعَة النسب، وانحطاط الخلق ولؤم الطبع، وكذلك العجب والتكبّر المقرون بالهزيمة في الحروب والفرار في المواقف والمشاهد، ومن ذلك قول كعب يهجو قريشاً:

لعمر أبيكما يا ابنَيْ لؤي ... على زهو لديكم وانتخاءِ
لما حامت فوارسكمْ ببدر ... ولا صبروا به عند اللقاءِ

وقوله يعيّر بني جعفر في حادثة بئر معونة:

تركتم جاركم لبني سُليم ... مخافة حربهم عجزاً وهوناً[1]
فلو حبلاً تناول من عُقيل ... لمدَّ بحبلها حبلاً متيناً
أو القُرَطاء ما إن أسلموه ... وقِدْماً ما وفَوْا إذ لا تَفونا[2]

وقال في هجاء ابن الزبعرى:

سألت بك ابن الزبعرى فلم ... أنبَّأْكَ في القوم إلا هجيناً
خبيثاً تطيف بك المنْديات ... مقيماً على اللؤم حيناً فحينا

وقال في قريش:

عمدنا إلى أهل اللواء ومن يَطِرْ ... يذكر اللواء فهو في الحمد أسرع
فحانوا وقد أعطَوْا يداً وتخاذلوا ... أبى الله إلا أمرَهُ وهو أصنع

وقال حسان يهجو أبا سفيان بن الحارث:

ألا أبلِغ أبا سفيان عنّا ... فأنت مجوف نخب هواء

---

(١) الهون: هو الهوان. والهون لغة الحجازيين.

(٢) القرطاء: بطون من العرب من بني الكلاب وهم: قراط بضم القاف. وقريط بالتصغير. وقريط، بفتح القاف. ويسمون القروط أيضاً.

بــأن سيـوفنــا تــركتــك عبــداً وعبــدُ الـدار ســادتُهــا الإمــاء

وقال يهجو الحارث بن هشام المخزومي الذي فــرّ مـن وجه المسلمين يوم بدر:

تـرك الأحبّـة أن يقــاتـل دونهمْ ونجــا بــرأس طِمِــرَّةٍ ولجــام
مـلأتْ به الفَـرْجين فارمـدّت به وثــوَى أحبّتــهُ بــشــر مُـقــام

إلى أن يقـــول:

فسلحْتَ إنـك من معاشـرَ خانـةٍ سُلْحٍ، إذا حضـر القتال، لئـام
فدع المكارم، إن قـومك أُسـرَةٌ من وُلْـدِ شَجْعٍ غيـرُ جدٍّ كِـرام
ومــرنّـح فيــه الأسنــةُ شــرَّعــا كـالجَفـر غيـرِ مقـابَـل الأعمـام

ويقول له في قصيدة أخرى:

والقوم خلفَك قـد تركتَ قتـالهمْ تـرجو النَّجـاءَ فليس حين ذَهابِ
هلاَّ عطفتَ على ابن أمِّك إذ ثوى قعْص الأسنَّةِ ضائـع الأسلاب[1]

ويكرّ عليه كرّة أخرى فينال منه في نفسه وفي نسبه قائلاً:

يـا حار إن كنتَ أمـرأً متـوسِّعـا فافْدِ الألَى ينْصِفن آلَ جَنـاب[2]
أخواتُ أمّك قـد علمتَ مكانَهـا والـحقُّ يـفهـمُــه ذوو الألــبــاب
إن الفرافصةَ بن الأحْوصِ عنده شجنٌ لأمِّك من بنات عُقـاب[3]
أجمعتَ أنّك أنت الأَمُ من مَشَى في فُحْش مُـومسة وزهـو غُراب
وكــذاك ورّثــك الأوائــل أنـهمْ ذهبـوا، وصرت بخزيةٍ وعـذاب
فـورثتَ والـدّك الخيـانـةَ والخنـا واللؤمَ عنــد تقـايُس الأحســاب

---

(١) القعص: أن يضرب الرجل بالسلاح فيموت مكانه.

(٢) ينصفن: يخدمن. جناب: هو جناب بن عبدالله الكلبي.

(٣) يريد أن بنات عقاب كن إما للفرافصة بن الأحوص الكلبي.

وأبـان لؤمُـك أن أمـك لم تكن   إلا لشـرٍّ مقـارفِ الأعـراب[1]

وقد كان حسان أفحش هجّائي عصره على الإطلاق، تخشى بوادر لسانه وتتقى عداوته، ومن ذلك هجاؤه في بني المغيرة من مخزوم:

ذهبت قـريش بـالعـلاء وأنتـمُ   تمشون مشْيَ المومسات الخُرَّع[2]
فدعوا التخاجُؤَ وامنعوا أستاهَكمْ   وامشوا بمَدْرجة الطريق المَهْيَع[3]
أنتم بقيـة قـومِ لـوطٍ فـاعلمـوا   وإلى خنـائِكم يُشـار بـإصبـع
وإذا قـريشٌ حُصِّلتْ أنسـابُهـا   فبآل شَجْعٍ فافخروا في المجمع[4]

* * *

ولم يأتوا في الوصف بموضوعات جديدة، بل اقتصروا على وصف المعارك وأدوات الحرب وكل ما يتصل بها من وصف الخيل والإبل، كما وصف حسان في لاميته المدينة وما فيها من جداول ومياه وخصب ونخيل وآطام فقال:

لنـا حـرّة مـأطـورة بجبـالهـا   بنى المجـد فيهـا بيتـه فتأهـلا

وقد أوردناها قبل قليل. كما وصف شعره في كثير من المناسبات، ومن ذلك ما قاله في تهديد أمية بن خلف:

سـأنشـر إن بقيتُ لكم كـلامـاً   ينشَّـرُ في المجـامـع من عكـاظ
قـوافٍ كـالسِّـلام إذا استمـرت   من الصم المعَجْـرَفة الغـلاظ[5]
تـزورك إن شتـوت بكـل أرض   وتَـرْضخُ في محلِّك بـالمَقاظ[6]

(١) المقرف: من كانت أمه عربية لا أبوه.
(٢) الخرع: المتثنيات اللاتي لا يرودن يد لامس.
(٣) التخاجؤ: التبختر مع إبراز العجز. مدرجة الطريق: معظمه المطروق.
(٤) شجع: بطن من كنانة.
(٥) السلام: الحجارة. استمرت: أحكمت وقويت. المعجرفة: الغليظة.
(٦) ترضخ: تدق وتكسر. المقاظ: موضع النزول صيفاً.

بنيتُ عليكَ أبياتاً صلاباً كأسْرِ الوَسْق قُعِّصَ بالشِّظاظ
مُجلَّلةً تُعمِّمه شَناراً مُضرَّمةً تأجَّجَ كالشُّواظ

وإن كان من جديد فهو وصفهم بعض الأحوال النفسية وخروجهم بذلك من نطاق الاقتصار على وصف المحسوسات، يقول حسان:

وقومٍ من البغضاء زُورٍ كأنما بأجوافهمْ مما تُجنُّ لنا الجَمْرُ
يَجيش بما فيها لنا الغَلْيُ مثلما تجيش بما فيها من اللهب القِدْر
تَصدُّ إذا ما واجهتْني خدودُهمْ لدى مَحْفِل عني كأنهم صُعْر
تُشيح إذا يُثنَى بخيرٍ لديهمُ رؤوسُهمُ عني وما بهمُ وَقْر
وإن سمِعوا سوءاً بدا في وجوههمْ لما سمعوا مما يقال لنا البِشر

وكذلك وصْفُهم طلعة الرسول ﷺ وإشراقة وجهه الكريم، وذلك كقول حسان:

وأحسن منك لم ترَ قطُّ عيني وأجمل منك لم تلدِ النساء
خُلقتَ مبرَّأً من كل عيب كأنك قد خُلقتَ كما تشاء

وقال ابن رواحة:

أنت الرسول فمن يُحرَمْ نوافلَه والوجهَ منه فقد أزرى به القدَر

وقال حسان أيضاً:

مبارك كضياء البدر صورتُه ما قال كان قضاءً غير مردود

* * *

ونلاحظ بالنسبة للرثاء خلوه في الغالب من الحكمة ووقفات التأمل، والكلام في فلسفة الحياة والموت والبقاء والفناء، وما يتصل بذلك من الحديث عن غِيَر الزمان ونُوبه، وكل ما له علاقة بالقدر وعجز الإنسان واستسلامه له، علماً بأن مثل هذه الأفكار مما شحذه الإسلام في الأذهان، بالإضافة إلى

أن الحكمة مما ورد في مراثي القدماء كقول لبيد:

بَلينا وما تَبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبالُ بعدنا، والمصانع

وكقول حسان في بكاء فراق صاحبته سعدى:

ليس لي منها مؤاسٍ، ولا ... بدّ مما يجلب الجالب
فابكِ ما شئت على ما انقضى ... كلُّ وصلٍ منقضٍ ذاهب

ولعل تتابع الأحداث، وما ذكرناه من انصراف الناس إلى تلقّي التوجيه والحكمة من القرآن وأقوال الرسول، كل ذلك مما قلّل الحكمة في شعرهم بعامة.

ومن الملاحظ أيضاً أن بعض معانيهم كانت متشابهة، يقول كعب في رثاء عثمان:

يا لهف نفسي إذ يقول: ألا أرى ... نفراً من الأنصار لي أعوانا

ويقول حسان في ذلك:

لهفان يدعو غائباً أنصاره ... يا ويحكم يا معشر الأنصار

ويقول كعب أيضاً:

محضَ الضرائب ما جداً أعراقُه ... من خير خِندِف منصباً ومكانا
عرفتْ له عُلْيا معد كلّها ... بعد النبي الملك والسلطانا

ويقول حسان:

غدروا بأبيض كالهلال مبرّإٍ ... خلَصتْ مضاربُه بزَنْدٍ وار
من خير خِندِف كلّها بعد الذي ... نصر الإلّه به على الكفار

ويقول كعب أيضاً:

أنسيتُمُ عهد النبي إليكمُ ولقد ألَظَّ ووكَّد الأيمانا.؟

ويقول حسان:

ونسوا وصاة محمد في صهره وتبدلوا بالعزّ دار بوار

وكما قال بعض القدماء في الفرق بين المديح والرثاء: إنك بينما تقول في المديح: أنت، تقول في الرثاء: كان. فإن هؤلاء الشعراء كانوا يعدّدون خصال المرثي ويسجلون مناقبه، وكأنهم ينقلون تلك المناقب من عالم الأحياء إلى عالم الأموات. وكل ما أشرنا إليه من معانٍ جديدة أو تقليدية في مديحهم يمكننا أن نقوله بالنسبة لرثائهم، يقول كعب:

أيا عينُ بكّي بدمع ذَرَى لخيرِ البَرِيَة والمصطفى
وبكّي الرسول وحق البكا ءُ عليه لدى الحرب عند اللقا
على خير مَنْ حملت ناقة وأتقَى البَرِية عند التُقى

ويقول حسان في رثاء جعفر بن أبي طالب شهيد مؤتة:

ولقد بكيت وعزّ مهلِكُ جعفر حِبِّ النبي على البرية كلِّها
ولقد جزعتُ وقلتُ حين نُعيت لي: من لِلجلاد لدى العُقاب وظِلِّها؟
بالبيض حين تسَلُّ من أغمادها يوماً، وإنهالِ الرماحِ وعَلِّها

كما كان يظهر في رثائهم أثر فقد المرثي في الناس والمجتمع، وفي العالمين، بل ويشركون العوالم الطبيعية في الرزء والمصاب، يقول كعب:

ألا انعَ النبي إلى العالمينا جميعاً ولا سيما المسلمينا
ألا انعَ النبي لأصاحبه وأصحاب أصحابه التابعينا
ألا انعَ النبي إلى من هدى من الجن ليلة إذ تسمعونا

ويقول في رثاء جعفر:

فتغير القمر المنير لفقدِه والشمس قد كُسِفت وكادت تأفل

ويقول حسان:

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يُفقَد

كما تحدثوا عن الجنة واليوم الآخر وحسن المآل، يقول حسان:

يا رب فاجمعنا معاً ونبيَّنا ... في جنة تَثني عيونَ الحسَّد

في جنة الفردوس، واكتبها لنا ... يا ذا الجلال وذا العلا والسؤدد

ومع هذا فقد كان رثاؤهم أقل في القيمة الفنية من رثاء معاصريهم، فلم يبلغوا فيه مبلغ النابغة الجعدي المعروف بالإقلال في الرثاء بله الشاعرة السُّلَمية الخنساء، ولا مبلغ الشاعرة المكية قتيلة بنت النضر في مقطوعتها القافية التي أوردناها في الفصل السابق.

* * *

وبعد هذه الجولة في معاني الشعر المدني في صدر الإسلام ملتصقة بالأغراض نؤثر أن نسجل بعض الملاحظات العامة على هذه المعاني فنقول:

١ - يلاحظ أنهم لم يخصّوا المعاني الدينية بقصائد مستقلة، وإنما كانت ترد خلال القصائد، وأنهم يكادون يمرون عليها مروراً عابراً في بيت أو عدة أبيات ثم ينتقلون إلى المعاني التقليدية، رغم أن أكثر القصائد دافعها الأساسي الدفاع عن الدين نفسه، كأنهم تركوا عرض قضايا الدين وطرح أفكاره للقرآن والحديث، لأنهم أحسوا إزاءهما بالعجز والقصور، وإذا بدا هذا الأمر مقنعاً إلى حدٍّ ما بالنسبة للشعراء المسلمين فإن الغرابة تبقى قائمة بالنسبة للشعراء اليهود، فإننا لم نجد في شعرهم أي أثر للدين أو أي رد ديني على المسلمين، أو حديث عمّا يقبلون من الإسلام وما ينكرون، مع أنه أُثِر عن أحبارهم كثرة جدلهم للرسول ﷺ، كما صوّر ذلك القرآن الكريم، فهل تعمد الشعراء ترك ذلك للأحبار، وجعلوا همهم الحرب بطريقة أخرى؟ أو أن ما ورد في شعرهم من أفكار دينية تم

إتلافه لما فيه من إساءة للدين الإسلامي والمسلمين؟ وفي الحقيقة نحن لا نستطيع أن نجزم بشيء في الموضوع، غير أن مؤرّخي الأدب يذكرون أن الشعر المعادي للدعوة والذي فيه نيل من شخصية الرسول ﷺ تمّ إتلافه بالفعل، بل إن عملية تطهير التراث شملت حتى شعر المسلمين، فقد كان ابن هشام يذكر أنه حذف بعض الأبيات من شعر حسان لما فيه من إقذاع، وهي عملية كانت ضرورية - في نظري - وكذلك يفعل الحازمون.

٢ - أنها كانت تعتمد في الغالب على الإيجاز، بمعنى أن الشاعر لم يكن يلح على الفكرة، ولا يقلّبها على كل وجوهها، ولا يحاول أن يعتصرها اعتصاراً لا يغادر طرفاً منها، وإنما كان كسلفه في العصر الجاهلي يمر بالفكرة في سرعة بداهة، ويكشف عنها في لماحية خفيفة، ويترك للسامع أن يخلق بقدرته وذكائه الأطياف والأشباح من وراء الشخوص والأحداث.

٣ - أنها كانت واضحة بعيدة عن الغموض والالتواء، نابعة من البيئة الجغرافية والسياسية والدينية والبشرية، فهي من هذه الناحية ممثلة لعقول قائليها، معبّرة عن محصولهم الثقافي العام.

٤ - أنها كانت موسومة بالحسيّة متعلقة بمشاهداتهم ومسموعاتهم وما يقع تحت حواسهم إلا ما كان من لمحات سريعة مما تحدّث عنه القرآن من غيبيات.

٥ - أن بعضها جديد مستفاد من الحياة الإسلامية الجديدة، متأثر بالحديث أو القرآن، وبعضها تقليدي عرفه الجاهليون، ولكنه مهذب بروح الإسلام، سمح الدين باستمراره، فهو على هذا النحو إسلامي «إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»، وقليل منها ما كان تأثره بالإسلام ضعيفاً ولا سيما في مبدأ الدعوة وعند حسان بالذات، وليس هذا بغريب، لصعوبة أن يتخلص الإنسان - مهما حرص واشتدت به الرغبة - بين عشية وضحاها، من ماضيه ومُثله وقيمه الفنية.

٦ ـ أنها متصفة بالصراحة والصدق، فلا كذب فيها ولا مبالغة، وحتى حسان المعروف في جاهليته بالمبالغة، لم نعد نجد في شعره أيّ أثر للادّعاء والمبالغة.

٧ ـ أن فيها حرارة وحيوية، لأنها ممزوجة بعواطف قائليها، نابعة من وجداناتهم.

٨ ـ أن كل قصيدة أو مقطوعة من شعرهم تُعين عصرها من خلال معانيها المتأثرة بالإسلام. بل إن تلك المعاني قد يكون قرآنياً خالصاً، ومن ذلك قول كعب:

عجبتُ لأمر الله والله قادر ... على ما أراد ليس لله قاهر

فقد قال تعالى: ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من والٍ﴾[1] وقول كعب أيضاً:

لأمرٍ أراد الله أن يهلكوا به ... وليس لأمرٍ حمَّه الله زاجر

فقد قال تعالى: ﴿ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين﴾[2].

أما قوله:

فأمسوا وقود النار في مستقرها ... وكل كفور في جهنم صائر

فمتأثر بقوله تعالى: ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾[3].

ويقول حسان:

فاذهب خبيبُ جزاك الله طيبةً ... وجنّةَ الخلدِ عند الحُور في الرُّفُقِ

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) الأنعام: ١٤٧.

(٣) الملك: ٦.

أخذه من قوله تعالى: ﴿ وحُورٌ عِينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون ﴾[1].

ويقـــول:

مـاذا تقولـون إن قال النبيُّ لكمْ   حين الملائكةُ الأبـرارُ في الأفُق

من قوله تعالى: ﴿ والمَلَكُ على أرجائها، ويحملُ عرشَ ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾[2].

ويقـــول:

مصـــدِّقــاً للنبيين الأُلَى سلفــوا   وأَبذلُ الناس للمعـروف للجادي

من قوله تعالى: ﴿ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾[3].

ويقـــول:

عزيزٌ عليه أن يجوروا على الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عـطوف عليهم لا يُثنِّي جناحـه   إلى كنفٍ يحنـــو عليهم ويَمْهِـد

من قوله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتم حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ﴾[4].

ويقـــول:

رؤوفٌ على الأدنى غليظ على العدا   أخي ثقـة في النـائبــات نجيب

من قوله تعالى: ﴿ أشدّاء على الكفارِ رُحماءُ بينهم ﴾[5]، وقوله: ﴿ أذلّةٌ على

---

(١) الواقعة: ٢٢.
(٢) الحاقة: ١٧.
(٣) المائدة: ٤٨.
(٤) التوبة: ١٢٨.
(٥) الفتح: ٢٩.

المؤمنين أعزةٍ على الكافرين ﴾[1].

ويقـــول:

أتـهجــوه ولـسـت لــه بـكـفـء فشـــرّكمــا لخيــركمــا الفــداء

من قوله تعالى: ﴿ وإنّا وإياكم لعلَى هدى أو في ضلالٍ مبين ﴾[2].

ويقـــول:

ورثـنــا مـســاكـنـهـم بـعــدهــم وكـنّــا مـلوكـاً بـهــا لـم نَــرِم

من قــولـه تعــالى: ﴿ وأورثكمْ أرضَهم وديــارهم وأمــوالَهم وأرضــاً لم تطؤوها ﴾[3].

ويقـــول:

فــأنــزل ربـي للنبـي جُـنــودَه وأيّـده بـالنصـر في كـل مشهـد

من قوله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدُّكم بألفٍ من الملائكة مُردِفين ﴾[4].

ويقـــول:

وقتلاكُم في النار أفضـلُ رزقهمْ حميم معـاً في جوفهـا وضَـريـع

من قوله تعالى: ﴿ ليس لهم طعام إلاّ من ضريع، لا يُسمن ولا يُغني من جـوع ﴾[5]، وقـولـه: ﴿ لهم شـراب من حميم وعـذاب أليم بمـا كـانـوا يكفرون ﴾[6].

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) سبأ: ٢٤.

(٣) الأحزاب: ٢٧.

(٤) الأنفال: ٩.

(٥) الغاشية: ٦.

(٦) الأنعام: ٧٠.

ونظم حسان أيضاً معاني بعض الحديث النبوي، كقول الرسول ﷺ لأصحاب القليب في بدر حين وقف يحدّثهم ويقررهم، يقول حسان:

ينـاديهـم رسـولُ الله لـمّـا قـذفنـاهم كبـاكبَ في القليب
ألم تجـدوا حـديثي كـان حقـاً وأمـرُ الله يـأخـذ بـالـقـلوب

- ٥ -

ثالثاً: في الألفاظ:

إذا تتبعنا شعر المدينة في هذه الفترة وجدناه زاخـراً بألفـاظ العصر الإسلامي ومصطلحاته، سواء منها ما ابتدعته الحياة الجديدة أم ما وجدته مستعملاً فحملته معنىً جديداً ذا صبغة إسلامية، والواقع أن هذه الظاهرة لم تكن قاصرة على الشعر وحده، وإنما شملت ضروب التعبير الأخرى كالخطابة والكتابة، وقد عقد السيوطي[1] في كتابه المزهر فصلاً بعنوان (معرفة الألفاظ الإسلامية) رأينا إيرادها مع شيء من التصرف على النحو التالي:

أ ـ ألفاظ اختفت:

١ ـ المرباع: وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

٢ ـ النشيطة: ما كان يأخذه الرئيس أيضاً من الغنيمة قبل أن يصير إلى بيضة البلد.

٣ ـ الفضول: هو عبارة عن البقايا التي تبقى من الغنيمة، فلا تستقيم قسمته على الجيش لقلته وكثرة الجيش. فتؤخذ أيضاً.

٤ ـ اِنْعَمْ صباحاً، وانعم ظلاماً، وأبيتَ اللعن، وقولهم للمولك: ربِّي. فقد كان هذا اللفظ مما يخاطبونهم به، قال الشاعر:

---

(١) المزهر ١: ٩٤ ـ ٣٠١.

وأسلمْنَ فيها ربُّ كندة وابنَـه   وربُّ معـد بين خَبْتٍ وعَرْعَـر

وقد وجد الرسول ﷺ أهل المدينة يسمّون رقيقهم عبيداً لهم، وينادي الرقيق سيده بيا ربي، فنهاهم عن ذلك لما فيه من الشرك اللفظي.

ففي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا يقلْ أحدكم: أطعِم ربك، وضِّئي ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي.

٥ ـ صَرورة: وهو من لم يحج، أو من ترك النكاح تبتلاً، أو الذي يُحدِث حَدَثاً ويلجأ إلى الحرم.

٦ ـ النوافج: وهي الإبل تساق في الصداق، يأخذها وليّ أمر الفتاة، فلذلك كانت العرب في الجاهلية تقول للرجل إذا ولدت له بنت: هنيئاً لك النافجة، أي المعظمة لما لِك، المكثرة له.

٧ ـ حِجْراً محجوراً: وكان لها عندهم استعمالان: الحِرْمان، فإذا سئل أحدهم فمنع قال: حجراً محجوراً، فيعلم قصده. والمعنى الثاني هو الاستعاذة، فإذا كان الإنسان مسافراً ورأى مَنْ يخافه قال: حجر محجوراً، أي حرام عليك التعرّض لي، وعلى هذا فسروا قوله تعالى: ﴿ يوم يرون الملائكة لا بُشرَى يومئذ للمجرمين، ويقولون حجراً محجوراً ﴾[1]، يقول المجرمون ذلك كما كانوا يقولونه في الدنيا.

ب ـ ألفاظ استُحدِثت أو ضُمّنت معنىً جديداً:

١ ـ المؤمن: عرفت العرب المؤمن من الأمان والإيمان، وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً.

٢ ـ الإسلام والمسلم: عرفوا منه إسلام الشيء، وهو الإعارة والتسليف، ثم

---

(١) الفرقان: ٢٢.

جاء في الشرع من أوصافه ما جاء.

٣ ـ الكفر: عرفوا منه الغطاء والستر، وفي الإسلام هو جحد وحدانية الله.

٤ ـ المنافق: الأصل فيه نافقاء اليربوع، وفي الإسلام هو من يبطن الكفر ويُظهر الإسلام أو من يُبطن خلاف ما يُظهره مطلقاً.

٥ ـ الفسق: عرفوا منه خروج الرطبة من قشرها، فقالوا: فسقَتِ الرطبة. وجاء الشرع بأن الفسق: هو الإفحاش في الخروج عن طاعة الله، قال ابن الأعرابي: لم يسمع قطُّ في كلام الجاهلية ولا في شعرهم كلمة فاسق.

٦ ـ الصلاة: عرفوها بمعنى الدعاء. وهي في الشرع العبادة المعروفة ذات الأقوال والأفعال، المبدوءة بالتكبير والمنتهية بالسلام.

٧ ـ السجود: عرفوه بمعنى الطأطأة والانحناء، وهو في الشرع الهيئة المعروفة.

٨ ـ الصيام: عندهم هو الإمساك. ثم زادت الشريعة النيّة، وحظرت الأكل والشرب والمباشرة وغيرها من شرائع الصوم.

٩ ـ الزكاة: عندهم هي الزيادة والنماء. وزاد فيها الشرع ما هو معروف، وعلى هذا سائر أبواب الفقه، ولذلك نراهم في الكتب الفقهية يأتون لكل لفظ بمعنيين: لغوي وشرعي.

١٠ ـ مخضرم: سبق أن شرحنا معناها القديم والمستحدث في الإسلام.

١١ ـ شهرُ محرّم: قال ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم»[١]، وكانت العرب تسميه مع الشهر الذي بعده: (الصَّفَرين)، وكانت مرة تحرّمه ومرة تقاتل فيه، وتحرّم صفر الثاني مكانه، أي أنهم كانوا يسمون: صفر الأول وصفر الثاني، وربيع الأول وربيع الثاني، وجمادى الأولى وجمادي الثانية فلما جاء الإسلام أبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء: ﴿ إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفر يضِلّ به الذين كفروا يُحلّونه

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود.

عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيُحِلوا ما حرّم الله ﴾[1].

١٢ ـ الجاهلية: قال ابن خالويه: هو اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة.

١٣ ـ الضّراج: هو بيت في السماء بإزاء الكعبة. ولم يعرف معناه إلا من الحديث.

١٤ ـ التَّفَث في المناسك: ما كان من نحو قصّ الأظفار والشارب ونحوهما، قال أبو عبيدة: ولم يجيء فيه شعر يحتج به. ولكنه في الإسلام عرف بهذا المعنى.

وقد ذكرنا في الباب الثالث من هذا البحث جملة من التعبيرات التي هي من وضع الرسول ﷺ كقوله: «لا يلدغ المؤمن من جُحْر مرتين»، «وقد حمي الوطيس» ونحو ذلك.

* * *

وفي الحقيقة يطول بنا المقام لو ذهبنا نحصي كل الألفاظ الإسلامية، وقد يكون الأجدى من ذلك تلمس بعض ما ورد منها في الشعر المدني لمعرفة مدى تأثير الإسلام فيه من الناحية اللفظية، وأول ما يواجهنا في ذلك استعمال لفظ (رسول الله)، والإسلام والمسلمين، والمشرك والكافر، والجنة والنار، والمهاجرين والأنصار، والقرآن، والتبيان، يقول ابن رواحة في رثاء حمزة:

أُصيب المسلمون به جميعاً ... هناك وقد أُصيب به الرسول
أبا يعْلَى لك الأركانُ هُدَّت ... وأنت الماجد البَرُّ الوصول[2]
عليك سلام ربك في جنان ... مخالطها نعيم لا يزول

---

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) أبو يعلى: كنية حمزة.

ألا يـا هـاشم الأخيـار صبـراً فكـل فِعـالكم حسن جميـل
رسـول الله مـصـطـبـر كـريـم بـأمـر الله يـنـطق إذ يـقـول

ويقـــول:

فلم أرَ كـالإسـلام عـزّاً لأهله ولا مثل أضياف الأراشيِّ معشراً

ويقـــول:

وفينـا رسـولُ الله يتلو كـتـابـه إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطع

ويقـــول:

يبيت يجـافي جَنْبَـه عن فـراشـه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وكان أول من رمى بسهم في الإسلام سعد بن أبي وقاص في سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ في السنة الأولى للهجرة، وفي ذلك يقول سعد:

ألا هـلَ أتَـى رسـول الله أنِّـي حميتُ صحـابتي بصـدور نَبْلي
فـمـا يـعـتـدّ رامٍ فـي مـعـدٍّ بسهـم يـا رسـولَ الله قبـلي(١)

ويقول كعـــب:

مـن مُبلِغ الأنصـار عـني آيـة رسـلاً تقصّ عليكم التبيـانـا

ويقـــول:

قـوم لأصلهمُ الـسيـادة كـلّهـا قـدْمـاً وفـرعهمُ النبيُّ المرسـل

ويقـــول:

يـذودوننـا عن ديننـا ونـذودهمْ عن الكفر، والرحمنُ راءٍ وسامع

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٢٠١ طبع مكتبة المتنبي بغداد عن طبعة مصر ١٩٣٨ م.

ويقول حسان:

وإنك لن تلقى من الناس معشراً   أعزَّ من الأنصار عزّاً وأفضلا

ويقول:

وبنو أبيه ورهْطُه في مَعْرَك   نصرَ الإلّه به ذوي الإسلام

ويقول:

إني رأيت أمين الله مضطهَداً   عثمانَ رهناً لدى الأجداث والكفَن

ويقول:

وأنذرنا ناراً، وبشّر جنةً   وعلمنا الإسلامَ، فالله نَحمد
وأنت إلّه الخلق ربِّي وخالقي   بذلك ما عمرتُ في الناس أشهد
تعاليت ربَّ الناس عن قول من دعا   سواك إلّهاً، أنتَ أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كلُّه   فإياك نستهدي وإياك نعبد

وكذلك ألفاظ التوحيد والتقوى ومنابذة الشرك، كقول أبي قيس بن صرمة:

نعادي الذي عادى من الناس كلهم   جميعاً وإن كان الحبيب المواتيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره   وأن كتاب الله أصبح هاديا

وقول أبي الدرداء:

يريد المرء أن يؤتَى مناه   ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء: فائدتي ومالي   وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن بعض ما ورد في أشعارهم كان تعبيراً قرآنياً أو نبوياً خالصاً، وذلك كقول حسان هنا: (إياك نعبد) وقوله: (فترة من الرسل) في قوله:

نبي أتـانـا بعـد يـأس وفتـرة   من الرسل، والأوثانُ في الأرض تعبد

و(جنود ربك) في قوله:

بهبـوب مُعصفـةٍ تُفـرِّق جمعَهم   وجنـودِ ربـك سيـد الأربـاب

وكذلك ما جاء في الشطر الأول في قوله:

وكفى الإلَـه المؤمنيـن قتـالَـهم   وأثـابهم في الأجـر خيـر ثـواب

قال تعالى: ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾.

يقول حسان أيضاً:

وتبَّ ابنـا ربيعـة إذ أطـاعـا   أبـا جهـل، لأمهمـا الهبـول

قال تعالى: ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتب ﴾.

ويقـــول:

فتشهـد أنـك عبـد المليـ   ـك أُرسِلتَ نـوراً بـدينٍ قِـيَم

قال تعالى: ﴿ ديناً قَيِّماً ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾.

ويقـــول:

وطوفتُ بالبيت العتيق، وسامحتْ   طـريقَ كَداءٍ في لُحـوبٍ سوائـر

قال تعالى: ﴿ ولْيطّوّفوا بالبيت العتيق ﴾.

ويقـــول:

وأعـطوا بأيـديهم صَغاراً وتـابعوا   فـأَوْلَى لكم أَوْلى حداةَ الـزوامل

قال تعالى: ﴿ عن يدٍ وهم صاغرون ﴾. وقال: ﴿ أَوْلَى لك فأَولى ﴾.

ويقول ابن رواحة:

فأبشِر بخزي في الحياة معجَّل   وسربالِ قارٍ خالداً في جهنم

قال تعالى: ﴿في نار جهنم خالدين فيها﴾. وقال في وصف أهل النار ﴿سرابيلهم من قطران﴾.

ويقول:

شهدت بأن وعد الله حق   وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء ثافٍ   وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكةُ الآله   ملائكة شداد مسومين

قال تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾، ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾... إلخ.

ويقول حسان:

فقال: ألا فاستمتعوا في دياركمْ   فقد جاءكم ذكر لكم ومواعد

ثلاثة أيام من الدهر لم يكن   لهنّ بتصديق الذي قال رائد

قال تعالى: ﴿فقال تمتعوا في داركم ثلاثةَ أيام، ذلك وعدٌ غير مكذوب﴾.

ويقول:

فدلّاهمُ في الغيِّ حتى تهافتوا   وكان مضلًّا أمره غير مرشد

قال تعالى: ﴿فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدتْ لهما سوآتهما﴾.

ويقول:

دلّاهمُ بغرور ثم أسلمهم   إن الخبيث لمن والاه غرّار

وقال:

إني لكم جار، فأوردهم   شر الموارد فيه الخزيُ والعار

قال تعالى: ﴿فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدَت لهما سَوْآتهما وطفِقا

يَخْصِفان عليهما من وَرَق الجنة ﴾، وقال: ﴿ وإذ زيَّن لهمُ الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم، فلما تراءتِ الفئتان نكصَ على عقبيه ﴾.

وهكذا يتبين لنا أن ألفاظ الشعر المدني تأثرت تأثراً كبيراً بالإسلام، بل ربما كانت أكثر جوانب الشعر تأثراً، ولم يقتصر الأمر عند ازديان الشعر بألفاظ القرآن واتّشاحه بكلمات الحديث، بل مكّن ذلك أيضاً لبعض الخصائص الفنية التي عرف بها الشعر المدني في جاهليته أيضاً كالبُعد عن الغرابة والاستكراه وتنافر الحروف والكلمات، واختيار الألفاظ السهلة الواضحة، وحتى ما كان من خشونة في بعض أشعار حسان، كاد يختفي من شعره تماماً، وهو ما جعل بعضهم يتهم شعر حسان باللين والضعف في الإسلام.

- ٦ -

رابعاً - في الأساليب:

وكما تأثر اللفظ تأثر التركيب أو طريقة التعبير، فابتعدت عن التعقيد أيضاً، وخلت من ضعف التأليف والمخالفات النحوية، إلا ما جاء بعضه في شعر حسان، كقوله يرثي المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، مجير الرسول في مكة:

فلو كان مجدٌ يُخلدُ اليوم واحداً   من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مُطعماً

حيث أعاد الضمير في الفاعل (مجده) على المفعول (مطعماً) مع تأخره في اللفظ والرتبة، وهو على وروده قليل في شعره

وجاء في القرآن الكريم والحديث النبوي تقديم ما حقه التأخير، لأغراض بلاغية كالاهتمام والتخصيص ونحوهما، وكذلك ورد في شعرهم، ومنه قول كعب:

عبيدة أمسى ولا نرتجيه   لعُرفٍ عرانا ولا منكر

وقولـــه:

وهــامَ بني ربيعــة ســائلوهــا ففي أسـيـافـنـا مـنـهـا فـلـول

فتقديم عبيدة وهام، أفادا الاهتمام بهما.

وقال أيضاً:

لأمــر أراد الله أن يـهلكــوا بــه وليس لأمــر حـمَّــه الله زاجــر

ويقول حسان:

لـك الخلق والنعماء والأمرُ كلُّه فـإياك نستهــدي وإيـاك نعبــد

فما تحته خط إنما قُدِّم للتخصيص.

* * *

وكان للأسلوب القرآني أيضاً تأثير على تصويرهم الشعري، ومن ذلك تشبيه حسان، المتعرّض له، فيما يصيبه ويصيب قومه من شر شعره، بأشقى ثمود، إذ أصابهم ما أصابهم بتعرضه لناقة صالح في قوله:

يكــون إذا بث الهجـاء لقــومـه ولاح شهابٌ من سنا الحرب واقد
كـأشقى ثمود إذ تعـاطى لحَيْنـه عَضيلةَ أمِّ السَّقْبِ، والسَّقبُ وارد[1]

قال تعالى: ﴿كذبتْ ثمودُ بطغواها، إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله: نـاقةَ الله وسقيـاهـا، فكـذّبـوه فعقـروهـا، فـدمـدمَ عليهم ربهم بـذنبهم فسوّاها﴾[2]، وتشبيهه للقوم بالخشب الجوفاء في قوله:

لا عيب في القوم من طول ومن عظم جسم البغـال وأحلام العصـافيـر
كـأنهم خَشَب جُــوفٌ أســافلُه مثقّـب فيــه أرواح الأعــاصيــر

(١) العضيلة: كل عصبة معها لحم غليظ.

(٢) الشمس: ١٤.

قال تعالى: ﴿ وإذا رأيتهم تُعجِبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمعْ لِقولهم كأنهم خُشُبٌ مسنّدة ﴾[1].

وقد كان شعراء المدينة في جاهليتهم وإسلامهم ذوي خيال واسع رشيق، واستعملوا من وسائله ـ كما أشرنا إلى ذلك في الجزء الخاص بالعصر الجاهلي ـ التشبيه والاستعارة والكناية والصورة الكاملة، ودللنا على بلوغهم في ذلك شأواً كبيراً مكّن لهم في دنيا الشعر، وجعل بعض الشعراء يتأثرون خطاهم ويأخذون عنهم، كما جعل النقاد يشهدون لهم بالسبق والتفوّق في كثير من الأحيان، فهل سلبهم الإسلام هذه القدرة الفنية وكلت فيهم حاسة الجمال، أو أنه تركها طليقة فاعلة؟.

الواقع أنه زادها صقلاً وشحذاً وملأها إحساساً صادقاً بالجمال والقيم الفنية العالية، وأتاح لهم من مساربه ومجاليه ما لم يكن لهم على بال، فساروا على طريق الفن يبدعون كثيراً من الصور الجميلة الرائعة، ويؤكدون استمرارهم الفني، وقد حظي شعرهم الإسلامي ـ رغم اتجاه الكثيرين إلى اتهامه ـ: بمن عرفوا مكانته الفنية من النقاد وقدروه حق قدره، واحتذاه كثير من الشعراء، واتخذ منه علماء العربية أيضاً مادة لعلومهم المختلفة.

ومن الصور الكاملة التي قدمها حسان بأصباغ مستمدة من الواقع، ذلك الشريط التاريخي الذي عرض فيه قدوم الأوس والخزرج من اليمن إلى المدينة حيث يقول:

وكــانــوا مـلوكـاً بــأرضـيــهـمُ ... يـبــادون غَضْـبـاً بـأمـرٍ غَشِمْ
فــأُنبُــوا بـعــادٍ وأشــيــاعـهــا ... ثــمــودَ وبــعض بــقــايــا إرَم
بيثــربَ قــد شيّــدوا في النخيـ ... ـل حصـونـاً ودَجَّن فيهــا النَّعم
فـســاروا إلـيـهـم بــأثـقــالـهـم ... على كــل فحـل هجــانٍ قَـطِم

---

(١) المنافقون: ٤.

ويستطيع من يتابع قراءة بقية أبيات القصيدة أن يتصور حياة أهل يثرب وكيف سار إليهم عرب الجنوب، ونزلوا عليهم مغيرين وما آل إليه أمرهم بعد ذلك من عزٍّ وتمكين.

وكما أجاد حسان عرض الواقع التاريخي للمدينة أجاد أيضاً عرض صور بيئتها الجغرافية في لاميته التي مطلعها:

لكِ الخير غضّي اللؤم عنّي فإنني أُحِبُّ من الأخلاق ما كان أجملا

التي أوردناها في كلام سابق.

ومن صوره المتحركة ما تخيله من إغارة المسلمين على مكة بقوله:

عـدمنـا خيلنـا إن لم تـروهـا تثيـر النقـع مـوعـدُهـا كَـداء
يـبـاريـن الأسنـة مُصْعـداتٍ على أكتـافهـا الأسـلُ الـظِّمـاء

وقوله في وصف الفرس:

جـرداء تمزع في الغبـار كـأنهـا سرحانُ غابٍ في ظِلال غمام[1]
تـذَرُ العنـاجيـجَ الجيـادَ بقفـرةٍ مَـرَّ الدَّمـوكِ بمُحْصَدٍ ورِجـام[2]

وكذلك وصفه جيش المسلمين والمشركين ببدر:

غـداة كـأن جـمـعَـهـمُ حِـراء بـدت أركـانـه جُنـحَ المغيب
فـلاقـيـنـاهـمُ منا بـجـمـع كـأسـد الغـاب من مُـرْدٍ وشيب
بـأيـديهم صـوارم مـرهفـاتٌ وكـل مجـرَّب خـاظِي الكعـوب

ومن الأخيلة الناجحة المعتمدة على التشبيه قول كعب:

---

(١) تمزع: تثب.
(٢) الدموك: البكرة. المحصد: الحبل الشديد الفتل. الرجام: حجر يربط بالدلو لتنحدر سريعاً إلى البئر.

وقد عُرِيتْ بيضٌ خفافٌ كأنها   مقابيس يُزْهيها لعينيك شاهر

وقوله:

ودفّاع رَجْلٍ كموج الفُرا   ت يقدم جأواء جُولاً طحونا

وقوله:

وأغرّ أزرق في القناة كأنه   في طخْية الظلماء ضوء شهاب

- ٧ -

فشعر المدينة على هذا النحو لم ينزل في هذا العصر عن مستواه الفني الذي كان له في العصر الجاهلي، ولم يصب بالفتور، كما يحلو لبعضهم أن يصمه، وينسب إليه، مُرجِعاً ذلك إلى الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام، بل الصحيح أن الإسلام هيأ للشعر ظروفاً أكثر مساعدة على العطاء، ومنحه آفاقاً أرحب للتحرّك والإبداع، وقد استطاع الشعراء في الغالب أن يستغلوا هذه الفرصة السانحة، وسخروا كل قدراتهم الفنية، واستوعبوا الساحة الشعرية في الجزيرة العربية كلها، واستقطبوا كل الآفاق القريبة والبعيدة، فالشعر العربي في كل البيئات غدا تابعاً للحركة الشعرية في المدينة وأئمتها البارزين: حسان وكعب وابن رواحة، فهو إما شعر مناهض مناقض، وإما شعر مؤيد مظاهر، وشمل التجديد في المدينة جميع مناحي الشعر كما رأينا، وأثّر الإسلام بالفعل في أغراضه وألفاظه وأساليبه ومعانيه، تأثيراً بعيداً، وإن الإنسان ليعجب من أولئك الذين حاولوا وكْدهم أن يطمسوا هذه الحقيقة وجهدوا أنفسهم أن يقلّلوا من قيمة هذا التأثير ويحصروه في حدود ضيقة، فقد زعم نفر من المستشرقين أن الإسلام انتشر بين العرب انتشاراً جغرافياً سياسياً وأن انتصاره كان حربياً محضاً، ولكن الإسلام الثقافي لم يجد طريقه إلى قلوب المسلمين إلا في العصر العباسي[1]، وحرصوا على إبراز معالم الجاهلية

(١) تاريخ الأدب العربي للدكتور فروخ ١: ٢٥٧ نقلاً عن مصدر أوروبي.

وبقاياها في هذا الشعر، فلما أعياهم ذلك ولم يثقوا في تحقيق النتائج التي أرادوا، عمدوا إلى فِرية أخرى هي ادّعاء ضعف هذا الشعر إذا ما قيس بالشعر الجاهلي، ليقيموا حرباً دائمة بين الفن والإسلام وقد حاولت في الفصول السابقة أن أكشف بُطلان هذا الادّعاء وأُبيِّن مواطن الخطل فيه، معتمداً على ما أوردته من نماذج وأمثلة وأدلة، مبتعداً عن التأثر بأيّ أحكام مسبقة أو عواطف أصيلة أو طارئة، لثقتي أن ما في الحقيقة من قوة كافٍ لأن يجعلها قادرة على الإقناع والمجابهة، ولا يسعني إلا أن أقول فيهم ما قال شاعر الإسلام الإمام البوصيري:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

* * *

الفَصل الثالِث

أشهرَ شعرَاء المدينة في صَدْر الإسْلام

أ ـ كعب بن مالك . .
ب ـ عبد الله بن رواحة . .
حـ ـ حسان بن ثابت . .



احتلت المدينة في صدر الإسلام القيادة الشعرية في الجزيرة العربية بعامة، لأن الشعراء في خارجها كانوا - كما قلنا - بين مؤيد سائرٍ على نهجهم الإسلامي، صائد في شباكهم، ومتقفٍّ آثارهم، أو مناهض لأفكارهم معارضٍ لدعوتهم، لكنه مستقطب إلى شعرهم بشكل من الأشكال، ولهذا فإن دراسة أي شاعر من شعراء المدينة في صدر الإسلام، تعتبر دراسة للعصر نفسه، ورغم أنه كان يعيش بداخل المدينة شعراء من الأنصار وآخرون من المهاجرين يمثلون وجهة النظر الإسلامية، وشعراء من اليهود معادون لها مناوئون لصاحبها، فإن الذي أكسبها مجدها الشعري وحقق لها مركز القيادة بين البيئات الأخرى، هو شعر الأنصار، وعلى وجه التحديد هو شعر شعرائها الثلاثة: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان. ولأجل هذا سنقصُر حديثنا في هذا الفصل عليهم.

كعب بن مالك

أ ـ نسبــه:

هــو كعب بن مالــك بن عمــرو ـ وكنيتــه أبــو كعب ـ بن القــين، بن ســواد، بن غَنَم، بن كعب، بن سلِمة، بن سعــد، بن عليّ، بن أســد، بن ساردة، بن يزيد، بن جُشم، بن الخزرج، بن حارثة، بن ثعلبة (العنقاء)، بن عمرو (مزيقيا)، بن عامر (ماء السماء)، بن حارثة (الغطريف)، بن امرىء القيس (البطريق)، بن ثعلبة، بن مازن، بن الأزد، بن الغوث[1]، بن نبت، بن مالك، بن زيد، بن كهلان، بن سبأ، بن يشجب، بن يعرب، بن قحطان.

فبينه وبين جده الخزرج بن حارثة ثلاثة عشر أباً على ما ذكر أبو الفرج وابن الأثير، وأربعة عشر على ما ذكره ابن عبد البر وابن حجر. وهي سلسلة أطول من سلسلة آباء أحيحة، وابن الأسلت، وابن الخطيم، وحسان، الذين درسنا حياتهم في العصر الجاهلي.

ب ـ أسرته:

هم من بني سواد بن غَنَم، وهؤلاء أحد فروع أربعة من بني سَلِمة

---

(١) الأغاني ١٦ : ١٦٤ ثقافة. وإلى الخزرج من الاستيعاب أيضاً (٣: ٢٨٦) غير أنه ذكر بين القين وسواد، أبا آخر فقال: القين بن كعب بن سواد. وإلى ساردة من الإصابــة (٣: ٣٠٢) وذكر أيضاً كعباً هذا. ولكن ابن الأثير في أسد الغاب (٤ : ٢٤٧) لم يذكره.

الخزرجيين، ومنازل بني سلِمة بصفة عامة كانت منتشرة بين حرّة الوبرة غرباً وجبل سلع شرقاً، إلا أن بني سواد قوم كعب، كانوا بجوار مسجد القبلتين اليوم، ومن آطامهم (الأغلب)، ولكن شاعرنا لم ينسب إلى جده الأدنى سواد، فلم يقل له: كعب السوادي ـ مثلاً ـ ولكنه نسب إلى جده الأعلى سلِمة فقيل، كعب السَّلِمي وإلى هذا الجد كانت تنسب جميع بطون بني سلِمة، إلا أن نسب كعب إلى الأنصار أشهر وأسير، فأكثر المراجع تقول عنه: كعب بن مالك الأنصاري.

وكان بنو سلِمة في الجاهلية اتجهوا إلى الوحدة فيما بين فروعهم، وأمّروا عليهم رجلاً منهم هو أمّة بن حرام، وقد ذكرنا هذا الخبر في الباب الأول من هذا البحث، كما ذكرنا أنهم كانوا ذوي فاعلية في حروب الأوس والخزرج، ولرؤسائهم كلمة مسموعة فيها وأمْر مطاع، ففي أحد انتصارات الخزرج على الأوس راح الخزرج يحرقون نخيل الأوس، ولكن أحد رؤساء الخزرج وهو عمرو بن الجموح السَّلِمي حمى نخيل بني عبد الأشهل، وهي اليد التي حفظها له رئيسهم سعد بن معاذ حين انتصر على الأوس في بعاث حيث حمى نخيل بني سلِمة وردّ قومه عنهم.

وقد كان مالك والد كعب من هؤلاء الرجال الذين خاضوا تلك الحروب واشتركوا فيها بالسلاح والشعر، ومن ذلك ما ذكره أبو الفرج فيما حدث بينه وبين رجل أوسي من بني ظفر قوم ابن الخطيم، يدعى بَرْذَع بن عديّ، وذلك أن[1] رجلاً من طيء قدم يثرب بإبل له يبيعها، فنزل في جوار برذَع، فباع إبله وقبض أثمانها جميعاً ما عدا جملاً واحداً كان اشتراه مالك بن عمرو لاستعماله ناضحاً، فإن مالكاً مَطله حقه ولم يسلمه الثمن، فشكا الطائي إلى صاحبه برذع، فذهب معه إلى منزل مالك ليطلب منه أن يوفّيه حقه أو يرد إليه جمله، فلم يجداه في منزله، ونظر فإذا الجمل بارك بالفِناء، فأخذه وقال للطائي: انطلق بجملك، ثم خرجا مسرعين إلى منازل بني ظفر،

---

(١) الأغاني ١٦ : ١٧٢.

وارتحل الطائي إلى بلاده، فلما عاد مالك إلى منزله وعلم بما حدث، غضب لذلك غضباً شديداً، ولكن نزوع بني سلمة بعامة إلى السلم كبح من جماح غضبه، وكره أن تنشب حرب بينه وبين قوم برذع، واكتفى بتسفيه برذع في مجالس يثرب والتشنيع عليه بما فعل، وأنه لم يتركه لجبن أو خوف ولكن كراهية منه للحروب، فغاظ ذلك برذعاً فقال[1]:

أمِنْ شحطِ دارٍ من لُبابة تجزعُ ... وصَرْفُ النَّوى ممّا يُشِتُّ ويجمع
وليس بهـا إلا ثـلاثٌ كـأنّهـا ... مُسفَّعةٌ أو قد علاهنّ أبْـدَعُ[2]
قد اقتربت لو كان في قُرْب دارها ... جِـذاءٌ ولكن قد تَضـرُّ وتَنفـع[3]
وكـان لهـا بـالمنحَنَى وجُنـوبِـه ... مَصيف ومشتى قبل ذاك ومَرْبَـع
أتـانيْ وعيـدُ الخـزرجيّ كـأنني ... ذليـلٌ له عنـد اليهـوديّ مُضْـرَع
مـتى تلقـني لا تَلقَ نُهْزَة واحـدٍ ... وتعلَمْ بـأني في الهـزاهـز أرْوع
معي سَمحةٌ صَفراءُ من فرع نَبْعةٍ ... ولَيْنٌ إذا مَسَّ الضَّـريبةَ يَقْـطع
ومُـطَّرِدٌ لَـدْنٌ إذا هُـزَّ مَتْنُـه ... مَتين كخُرْص الذابلات وأهْزَع[4]
فـلا وإلَهِي لا يقول مجـاوري: ... ألا إنّني قـد خانني اليـوم بَرْذَع
وأحفظ جاري أن أُخاتـل عِرْسَـه ... ومـولايَ بـالنَّكـراءِ لا أتـطلّع
وأجعـل مالي دون عـرضيَ إنّـه ... على الوَجْد والإعدام عِرضٌ ممنَّع[5]
وأصبِـر نفسي في الكـريهـة إنـه ... لـذي كلّ جنبٍ مستقِرٌّ ومَصْرَع
وإنّي بحمـد الله لا ثوبَ فـاجـرٍ ... لبِستُ ولا من خِـزيـةٍ أتـقنّـع

---

(١) المرجع السابق ١٦ : ١٧٣.
(٢) المسفعة: التي لفحتها السموم فغيرت لون وجهها. الأبدع: السقاء والزق.
(٣) الجذاء: الاعطاء.
(٤) الخرص: الحلقة تطيف بأسفل السنان. الذابلات: الرماح. الأهزع: آخر سهم في الكنانة، وهو خير السهام تدخره للشدة.
(٥) الوجد: الغني.

فأجابه مالك بن عمرو بقوله[1]:

هل للفؤاد لدى شَنْباءَ تنويلُ ... أم لا نوالَ فإعراضٌ وتَحميلُ

إن النساء كأشجار نبتْنَ معاً ... منهنَّ مرٌّ، وبعض المرِّ مأكولُ

إن النساء ولو صُوِّرن من ذهبٍ ... فيهن من هفوات الجهل تخييل

إنّك إن تَنْه إحداهنَّ عن خُلق ... فإنّه واجب لا بدّ مفعول

ونعجةٍ من نعاج الرمل خاذلةٍ ... كأنْ مَآقِيهَا بالحبر مَكحول[2]

ودّعتها في مُقامي ثم قلت لها: ... حيّاكِ ربّك إني عنك مشغول

وليلة من جُمادى قد سَربْتُ بها ... والزِّقُّ بيني وبين الروح معدول

ومُرْجَحنٍّ على عمْدٍ دلفتُ بِه ... كأنّه رجل في الصَّفِّ مقتول

ولا أهابُ إذا ما الحَرْبُ حرَّشها الأ ... بطال، واضطربت فيها البهاليل

أمضي أمامهمُ والموتُ مكتَنِعٌ ... قُدْماً إذا ما كبا فيها التنابيل[3]

عليَّ فضفاضةٌ كالنِّهْيِ سابغةٌ ... وصارمٌ مثلُ لون الملح مصقول

ولَدْنةٌ في يدي سمراءُ ثَعْلَبُها ... بعاملٍ كشهابِ النار موصول[4]

إنِّي من الخزرج الغُرِّ الذين همُ ... أهلُ المكارم لا يُلفَى لهم جِيل

في الحربِ أنهلَ منهمْ للعدوّ إذا ... شُبَّتْ، وأعظمَ نيلاً إن همُ سِيلوا

أشبهتُ من والدي عِزاً ومكرمةً ... وبَرذَعٌ مدغمٌ في الأوس مجهول

نُبِّئتُه يدَّعي عزّاً ويوعدني ... فَرْكاً، وعندي له بالسيف تَنكيل[5]

ولم يقف الخلاف بينهما عند هذا الحد، لأن برذع فيما يبدو أحس أنه ظلم من مالك في جاره وفي تسليط لسانه فيه، ولا بدّ من الاشتفاء منه،

---

(١) المرجع السابق ١٦: ١٧٤ والأبيات الثلاثة الأولى مما تغنى فيها المغنون.
(٢) خاذلة: مقيمة على ولدها.
(٣) مكتنع: دان مقترب.
(٤) الثعلب: طرف الرمح.
(٥) الفرك: البغض.

وصادف أن خرج مالك لبعض حاجته ولقيه برذع في رجلين من بني ظفَر، فهاجموه ليضربوه أو ليوقعوا به، ولكن مالكاً سبقهم إلى مكان مشرف من الحرة كثيرة الحجارة، وتبادل معهم الشتائم والرمي بالحجارة، وحين خشي أن يغلبوه على أمره عمد إلى حيلة للتخلّص من بين أيديهم، فجعل يلتفت إلى الطريق التي جاء منها كأنه يستبطىء ناساً، وانطلت الحيلة على برذع وصاحبيه، وظنوا أنه ينتظر ناساً كانوا معه، فانصرفوا عنه، فقال مالك في ذلك[1]:

لعمرُ أبيها لا تقول حَليلتي ... ألا فَرَّ عنّي مالكُ بن أبي كعْبِ

أقاتل حَتى لا أرى لي مقاتلاً ... وأنجو إذا غُمَّ الجبان من الكرْب

أبَى ليَ أن أُعطي الصَّغار ظُلامةً ... جدودي وآبائي الكرامُ أُولو الشَّغْبِ

هُمُ يضرِبون الكبْشَ يبْرق بَيْضُه ... ترى حوله الأبطال في حَلَقٍ شُهْب

وهمْ أورثوني مجدهمْ وفعالهمْ ... فأقسم لا يُزري بهم أبداً عَقْبي

وأرْعى لجاري ما حييتُ ذمامه ... وأعرف ما حقُّ الرفيقِ على الصَّحْب

ولا أُسمِع النَّدمانَ شيئاً يَريبُه ... إذا الكأس دارتْ بالمُدام على الشَّرْبِ

إذا ما اعترى بعضُ الندامى لحاجةٍ ... نقول له: أهلاً وسهلاً، وفي الرُّحْب

إذا أنفذوا الزّقّ الرَّويَّ وصُرِّعوا ... نشاوى فلم أقطَعْ بقولي لهم: حَسْبي[2]

بعثتُ إلى حانوتها فاستبَأْتُها ... بغيرِ مِكاس في السُّوام، ولا غَصْب[3]

وقلت: اشربوا رِيّاً هنيئاً فإنّها ... كماء القَليب في اليسارة والقُرْبِ

يُطاف عليهم بالسَّديفِ وعندهم ... قيانٌ يُلهِّينَ المزاهرَ بالضَّرْب[4]

فإن يصْبروا لي الدهرَ اصْبِرْهمْ بها ... ويَرْحُبْ لهم باعي، ويَغزُرْ لهم شِرْبي

(١) المرجع السابق ١٦: ١٧٥ وينسب بعضهم هذه البائية لرجل من مراد يدعى أبي كعب، ولكن أبا الفرج يؤكد أنها لمالك بن عمرو الخزرجي.

(٢) أي لم أقطع عليهم نشوتهم بقولي لهم: كفاني ذلك.

(٣) استبأتها: اشتريتها.

(٤) السديف: شحم السنام.

وكان أبي في المحْلِ يُطعِمُ ضَيفه ويُروي نداماه، ويَصبِرُ في الحرب
ويَمنع مَولاه، ويُدرِك تَبْلَه ولوكان ذاك التَّبْلُ في مطلبٍ صَعْب[1]
إذا ما منعتُ المالَ منكم لِثروةٍ فلا يُهْنِني مالي، ولا يَنْمِ لي كَسْبي

أما أمه فهي ليلى[2] بنت زيد بن ثعلبة من بني سلِمة أيضاً.

وكان له عمّ يدعَى قيس بن أبي كعب، أدرك الإسلام، وذكره ابن الكلبي[3] ضمن من شهد بدراً من الأنصار. كما ذكروا أنه شهدها معه ابنه سهل الذي استشهد يوم أُحُد.

وتزوج كعب بأكثر من واحدة وهنّ: عميرة[4] بنت جبير، بن صخر، بن أمية، بن خنساء، بن عبيد، بن عديّ، بن غنم، بن كعب، بن سلِمة، فهي من بني سلِمة، وقد أدركت الإسلام وكانت ممّن بايعن الرسول ﷺ، وصلّت إلى القبلتين، وهي من رواة الحديث، وكانت تكنى بأمّ معبد، فقد أنجبت لكعب أربعة أبناء وهم: معبد، وعبد الله، ووهب، وفضالة، وبنتين هما: خولة وسعاد.

وتزوج أيضاً امرأة من اليمن تدعى صفية، أنجبت له بنتاً هي كبشة، التي تزوجها ثابت بن أبي قتادة الأنصاري.

وتزوج أيضاً بخِيرة، وأولدها بعض الأولاد، ولكن المراجع لم تذكر أسماءهم. فقد روى ابن الأثير حديثاً رواه رجل من ولد كعب بن مالك عن أبيه عن جدته خيرة امرأة كعب بن مالك، ويرجح بعضهم أن يكون ولداه عبيد الله ومحمد منها.

وكانت له كذلك أم ولد، ولدت له عبد الرحمن في عهد النبي ﷺ،

---

(١) التبل: الثأر.
(٢) أسد الغابة ٤: ٢٤٧.
(٣) الإصابة ٣: ٢٥٨.
(٤) المرجع السابق ـ كتاب النساء ـ ترجمة عميرة بنت جبير.

وقد توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك.

فهؤلاء أربع، غير أن بعضهم أوصلهنّ إلى ست.

ومجموع أبنائه كما رأينا سبعة، أكبرهم عبد الله، وبه كناه رسول الله ﷺ بعد أن كانت كنيته في الجاهلية أبا بشير، وأصغرهم معبد، ولكنه تكنى بعد ذلك بأبي عبد الرحمن أيضاً، وهو أحد أبنائه كما تقدم. أما مجموع بناته فثلاث فقط.

وكان كعب كما ذكر ابن حجر ـ وحيد أبيه[1]، غير أن ابن حبان ذكر أن له أخوين هما: سهل، وله صحبة، وسراقة، ولم يجر له ذكر في الصحابة.

وروى كعب عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة تناقلها أبناؤه وأبناء أبنائه، ولم يقتصر اهتمام أبنائه وأحفاده على رواية الحديث عنه، بل ورثوا منه الشعر أيضاً، فابنه عبد الرحمن: شاعر، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن: شاعر ، ومعن بن عمر بن عبد الله بن كعب: شاعر. والزبير بن خارجة بن عبد الله بن كعب: شاعر. وعبد الرحمن بن عبدُالله بن كعب أبو الخطاب: شاعر. ومعن بن وهب بن كعب: شاعر، قال أبو الفرج: وكلهم مُجيد مقدَّم.

فأُسرته زاكية الأصول والفروع، ذكية الفؤاد، حيّة الضمير، موصولة بالمجد بمفهومه الجاهلي والإسلامي، وقد نشأ في كنف والد مرموق المكانة في قومه، يكره الجهل ويمقت الاميّة، ولذلك علم ولده كعباً القراءة والكتابة وشؤون الحساب، وكانت ترد على كعب بعد ذلك الكتب من الملوك كما في قصة توبته، وقد اختاره الرسول ﷺ لهذه الخاصيّة فيه، ليضع علامات حدود حرم المدينة بريداً في بريد. وهذه المكانة لأُسرته ولقومه بني سلِمة مكنت له في الخزرج ويثرب جميعاً، وأتاحت له فرصة الفخر في شعره حين واجه شعراء المشركين.

---

(١) المرجع السابق.

ج ـ عصـــره:

من المؤكد أن كعباً من المخضرمين الذين عاشـوا أكثر حيـاتهم في الإسلام، ولم تحدد المراجع تاريخ ميلاده، ولكنها تعرضت لوفاته مع اختلاف يسير، فقد روى الواقدي أنه مات زمن معاوية سنة ٥٠ للهجرة، وبهذا قال أغلب المؤرخين[١]، ويرى بعضهم أنه توفي سنة ٥١ هـ. والخطب على كل حال هيِّن بين الرأيين. وانفرد البغدادي بأنه توفي سنة ٥٣ هـ فقال: (توفي كعب بن مالك في مدة معاوية سنة خمسين، وقيل: سنة ثلاث وخمسين)[٢]. وقد خطّأ ابن كثير كلام الكلبي الذي زعم أنه توفي قبل سنة ٤١ هـ وردّ عليه بقوله: غلط الكلبي في قوله إنه شهد بدراً وفي قوله أنه توفي قبل إحدى وأربعين، فإن الواقدي ـ وهو أعلم منه قال: توفي سنة خمسين)[٣].

ولم يختلف أحد ممّن أرّخ لكعب في أن سنّه حين وفاته كانت سبعة وسبعـين عامـاً[٤]، إلا ما جـاء من كـلام أبي الفـرج: (وعُمِّـر كعب بن مالك)[٥]، فإنه يوحى بأنه توفي عن سن أكبر مما ذكر، فإن العرب لا تسمي الرجل معمَّراً إلا إذا كان عمره بيِّن الطول، ولهذا لم يشتمل كتاب (المعمَّرون) للسجستاني على من هم في مثل سن كعب التي نصّوا عليها، ولكن إجماع المؤرخين ونصهم الصريح على أن عمره سبع وسبعون أقوى بلا شك من إيحاء أبي الفرج، فلا مناص من قبول رأيهم، وعليه يكون كعب عاش خمسين أو ثلاثاً وخمسين سنة في الإسلام، وأربعاً وعشرين أو سبعاً وعشرين سنة في الجاهلية. أي أن مولده كان ما بين ٢٥، ٢٧ ق هـ. (٥٩٦، ٥٩٨ م)،

---

(١) الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة للعامري اليمني.

(٢) البدر المنير في صحابة البشير النذير ـ للسندي ص ١٥٢.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٤٨ السعادة بمصر ١٩٣٠ م.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ١: ٢٤٨ تحقيق الدكتور محمد حميد الله ـ دار المعـارف بمصـر ١٩٥٩ م.

(٥) الأغاني ١٦: ١٦٤.

ومعنى هذا أنه أدرك الشاعرين الكبيرين: قيس بن الخطيم، وأبي قيس بن الأسلت، وأنه شهد حرب (بعاث) آخر حروب الأوس والخزرج ولم يشترك فيها لصغر سنه. ومعناه أيضاً أنه كان من شباب الأنصار المسارعين إلى الإسلام.

وقد كان ممّن شهد بيعة العقبة الثانية ضمن هؤلاء الأنصار الاثنين والسبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ على النصرة والمؤازرة وحمايته مما يحمون منه أهلهم وولدهم، وقد كان كعب شديد الاعتزاز باشتراكه في هذه البيعة الكبرى التي تعتبر بحق من المواقف الحاسمة في تاريخ المسلمين، لا تقل في ذلك قيمةً عن معركة بدر، وعبر كعب عن ذلك في حديث التوبة حين قال: (ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها)[1].

فعصره إذن هو عصر الدعوة الإسلامية بكل ما فيها من تغيير للواقع الجاهلي واصطدام بالشرك والوثنية، وبكل ما فيها من صراع وترقّب، وحروب وغزوات وما فيها من نصر وهزيمة وهدم وتشييد، وبجميع ما رافق ذلك من شظف وخصاصة أعقبتهما حياة موسرة حملت بين يديها إلى المدينة وسكانها مفاتيح خزائن الفرس والروم.

رأى كعب المحاربين من إخوانه الأوس يجوسون بيوتهم في حرب بعاث يحرّقون ويدمّرون ويقتلون، لم توقفهم في بني سلِمة غير كلمة سيد الأوس سعد بن معاذ لما لهم عليه من يد.

ورأى جيوش قريش تحصد المسلمين في أُحُد، وتضيّق الخناق على المدينة في الخندق.

ورأى الفتح والنصر، ثم رأى جيوش المسلمين تنطلق من بلده عاصمة الدولة الإسلامية لتفتح البلاد شرقاً وشمالاً وجنوباً، والأموال تجبى لها من كل مكان.

---

(١) صحيح البخاري: باب غزوة تبوك.

ولم يكن يقف من تلك الأحداث موقف المتفرج، بل كان له في كل حدث موقف، وفي كل واقعة مشاركات مشهورةً، فعاش بذلك داخل عصره كأعمق ما يكون عيش أو تقوم حياة.

د ـ شاعريته:

قال معاوية يوماً[1] لجلسائه: أخبروني بأشجع بيت وصَفَ به رجلٌ قومه، فقال له: رَوْح بن زنباع: قول كعب بن مالك:

نَصِل السيوف إذا قَصُرْنَ بخطونا   يـومـاً، ونُلحِقهـا إذا لم تلحق

فقال له معاوية: صدقت.

وقد كان لخلفـاء بني أمية الكبـار ـ ومنهم معاويـة ـ اهتمام بـالشعر ومدارسته مما ولّد لديهم ذوْقاً فنيًّا عالياً يعطي لنظراتهم الأدبية أهمية خاصة، ويجعل للاستدلال بأقوالهم قيمة في الحكم على شاعرية الشعراء، ولا يعيب هذا الحكم الذي أرسله معاوية حول هذا البيت غير إرساله من غير دليل، وقد سبق لنا مناقشته في الباب الثاني، وبغض النظر عن موافقة معاوية في استعمال اسم التفضيل في حكمه هذا فإن الذي لا شك فيه أن هذا البيت وأمثاله من شعر كعب ذو قيمة فنية عالية، ولم يختلف من ترجموا لكعب أنه من الشعراء المجوّدين المطبوعين في عامة شعره، مع الاعتراف بأن في بعض أشعاره ليناً ظاهراً.

ومن جيد شعره فائيته التي نظمها بعد الفراغ من حُنين والمسير إلى الطائف والتي مطلعها:

قضينـا من تهـامـة كـل ريْبٍ   وخيبـر ثم أغمـدنـا السيـوفـا[2]

---

(١) الأغاني ١٦: ١٧١.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢١ والريب: الحاجة.

نُخيرّها، ولو نطقت لقالت   قواطعهنّ دوساً أو ثقيفاً

وقد بلغ من تأثير هذا الشعر أن قبيلة دوس حين سمعته أسرعت إلى الإسلام خوفاً وفرَقاً، وقال بعضهم لبعض: خذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف[1].

وتماثلها في الجودة لاميته التي بكى فيها أصحاب مؤتة والتي مطلعها:

نام العيون ودمع عَينك يَهْمُلُ   سحّاً كما وكف الطباب المخضل[2]
في ليلة وردت عليّ همومُها   طوراً أحِنُّ، وتارةً أتململ

وهو تصوير رائع لمعاناة الهم والألم والقلق، وما أجمل المقابلة بين نوم العيون وتتابع الدمع من عينيه.؟

وحين ألقى نونيته في رثاء عثمان[3] على الأنصار بمسجد رسول الله ﷺ يلومهم على عدم مناصرته والوقوف بجانبه، لم يسعهم بعد سماعها غير البكاء والمسارعة إلى الاستغفار مما نسبه إليهم من ذنب في تخلفهم عن مناصرة عثمان.

وكان شعره يرضي الرسول ﷺ وينال إعجابه، ولذلك كان يدخره للمواطن الحازبة ويعده ضمن أسلحة الدعوة، وحين أخبر ﷺ بهجاء أبي سفيان بن الحارث له وقام كعب يستأذنه في الرد عليه: (أأنت الذي تقول: همّت؟ قال: نعم يا رسول الله، أنا الذي أقول:

همّت سَخينةُ أن تغالب ربَّها   ولَيُغلَبَنَّ مُغالبُ الغلّاب

فقال: أما إن الله لم ينس ذلك لك[4].

---

(١) الإصابة ٣: ٣٠٢.
(٢) الطباب: السحاب.
(٣) الأغاني ١٦: ١٦٧.
(٤) المرجع السابق ص ١٦٩ وسخينة: لقب قريش، لأنها كانت تعاب بأكل السخينة، وهي طعام =

وقال له في مناسبة أخرى: (إنك لحسن الشعر)[1].

وكانت عائشة تحفظ شعره وترويه، وتقول: (الشعر منه حسن، ومنه قبيح، خذ الحسن، ودع القبيح، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك).

وكانت لكعب بديهة حاضرة تجلت في أكثر من موقف، حيث كان يرتجل بعض شعره ارتجالاً، ففي أحد الأسفار رجز راجز من قريش برسول الله ﷺ فقال:

لم يَغْذُها مُدٌّ ولا نَصيفُ ... ولا تُمَيْراتٌ، ولا تعجيفُ
لكنْ غذاها اللبَنُ الحريفُ ... والمخض والقارِصُ والصَّريفُ

فأحفظ ذلك الأنصار - كما قال أبو الفرج[2] - حيث ذكر المد والتمر، كناية عنهم فلجؤوا إلى كعب وقالوا له: انزل فرد عليه، فنزل فقال:

لم يَغذُها مُدٌّ ولا نصيفُ ... لكن غذاها الحنْظَلُ النّقيفُ[3]
ومَذْقَةٌ كطُرَّة الخَنيفِ ... يَنبتُ بين الزُّرب والكنيفِ[4]

ثم أنهى الرسول هذا الحوار الذي كاد يتحول إلى شجار فقال: ارْكَبَا.

وفي يوم خيبر خرج مَرْحبُ اليهودي من حصنه للمبارزة مرتجزاً يقول:

قد علمت خيبرُ أنّي مَرْحَبُ ... شاكي السلاح بطلٌ مُجرِّبُ

= يتخذ من الدقيق، دون العصيدة في الرقة وفوق الحسا، كانوا يأكلونها في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال.

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) النقيف: المشقوق.

(٤) الخنيف: أراد الكتان. والمذقة: الشربة من اللبن الممزوج بالماء، شبهها بحاشية ردىء الكتان، لتغير لونها وذهابها بالمزج.

أطعنُ أحيـانـاً، وحينـاً أضـرِبُ إذا الـليـوثُ أقبـلتْ تُـحـزِّبُ
أن حماي لَلْحِمى لا يُقرَبُ

فأجابه كعبُ في الحال:

قـد علمت خيبـرُ أنـي كعبُ وأنّـنـي متـى تُشبّ الـحـربُ
ماضٍ على الهول، جريء صُلْبٌ معي حسامٌ، كـالعقيق، عَضْبُ
بكفِّ مـاض لـيس فيـه عَـتْب تـدكُّكمُ، حتى يـذلَّ الـصَّعْبُ

وسماه ابن كثير في (النهاية والبداية): شاعر الإسلام، وقال عنه ابن سلام: (وكعب بن مالك شاعر مُجيد)[1].

ورغم أن كعباً يعد في الشعراء المخضرمين، فإن المراجع لم تحتفظ لنا بشيء من شعره الجاهلي، فشعره الذي بين أيدينا هو شعره الإسلامي، والفضل في حفظه يرجع إلى كتب السيرة، التي وجدت فيه وفي شعر صاحبيه: حسان وابن رواحة، ما يساعد على سرد أحداثها، وقد قيض الله لشعر كعب في العصر الحديث أحد الباحثين الأفاضل هو الدكتور سامي مكي العاني، فقام بجمعه وإخراجه في ديوان مستقل ضم خمسمائة وأربعة وثمانين بيتاً.

ولا غرابة أن يكون معظم شعره ـ والحالة هذه ـ ردًّا على هجاء شعراء قريش ودحضاً لمزاعم أعداء الإسلام وامتداحاً للرسول ﷺ، ورثاءاً لشهداء الدعوة، وقد كان الرسول يشجعه على ذلك ويعطي لشعره قيمة دفاعية كبرى، قال أبو الفرج: (عن ابن سيرين قال: وقف رسول الله ﷺ بباب كعب بن مالك، فخرج فقال له رسول الله ﷺ: أنشِد، فأنشده، ثم قال: إيه، فأنشده، ثم قال: إيه، فأنشده، ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ: لَهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل)[2]، ولكي يحسن القيام بتمثيل روح الدعوة-

(١) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢٠.
(٢) الأغاني ١٦: ١٧٠.

كان الرسول يتعهد شعره ويرشده إلى التخلص من بعض الهنات الجاهلية، فقد خرج عليه ذات مرة وهو ينشد في المسجد، فلما رآه صمت وانقبض، فقال الرسول: ما كنتم فيه؟ فقال كعب: كنت أُنشد، فقال الرسول: أَنشِد. فأنشَد حتى أتى على قوله:

مَقالتنا عن جِذْمنا كُلُّ فَخْمةٍ مُـذَرَّبـةٍ فيها القوانسُ تَلمعُ

فقال رسول الله ﷺ: لا تقلْ: مقالتنا عن جذمنا، ولكن قل: مقالتُنا عن ديننا.

وفي الواقع لم يكن الرسول يكتفي بالتوجيه الفكري لشعراء الدعوة، بل كان يعبئهم نفسياً كما يعبىء الجيش، ويستثير فيهم وجدانهم الديني، لينْبروا في عرامة وحماسة للذب عن الإسلام، ومن ذلك ما قدمناه قبل قليل، ومنه أيضاً أنه لما انهزم المشركون يوم الأحزاب، قال الرسول ﷺ: (إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم، ولكنكم تغزونهم، وتسمعون منهم أذى، ويهجونكم، فمن يحمي أعراض المسلمين؟) فقام عبدالله بن رواحة، ثم كعب[1].

وقد قام كعب بالمهمة التي انتدبه لها خليله ونبيه الكريم في الرد على أعداء الإسلام، وقابلهم هجاء بهجاء دون إفحاش أو إقذاع، فكان بذلك من فرسان النقائض الإسلامية المرموقين، وإذا كانت هذه النقائض تشغل الجزء الأكبر من شعره الذي وصل إلينا، فإن ذلك لا يعني أنه لم يطرق أيّ موضوعات شعرية مستقلة، فقد رثى عثمان وأنحى باللائمة على قومه لتقصيرهم في مناصرته وهو خليفة المسلمين، بعد أن أعطَوْا المواثيق على أنفسهم في نصرة الإسلام، ورثى قبله شهداء المعارك الإسلامية الخالدة، وافتخر كعب أيضاً بالأحساب والأنساب وبنصرة الرسول الكريم وبالإسلام، وإلى جانب هذا كان له شعر تاريخي، وأسلوبه في هذا النوع أقرب ما يكون

(١) المرجع السابق.

إلى النثر، ويتمثل ذلك بصفة واضحة في عينيته التي تحدث فيها عن بيعة العقبة الكبرى وأورد فيها أسماء النقباء الاثني عشر فقال:

أبـلغ أبيّـاً أنـه قـال رأيـه وحان غداةَ الشِّعب، والحَيْنُ واقع
أبَى الله ما منَّتْك نفْسُك إنه بمرصاد أمرِ الله، راءٍ وسامع
وأبلغ أبا سفيان، أنْ قد بدا لنا بأحمد نور من هدى الله ساطع

إلخ....

ومن شعره التاريخي قوله في رثاء عثمان:

فكفَّ يـديـه ثم أغلق بـابـه وأيقن أن الله ليس بغـافـل
وقال لمن في داره: لا تقاتلوا عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل

ومنه قوله في غزوة بدر:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحـابيشُ منهم حـاسرٌ ومُقنّع
ثـلاثـة آلافٍ ونحن نـصيـةٌ ثـلاث مئين إن كثرنـا وأربع

وكان لكعب أيضاً باع في الوصف، ومن وصفه الجيد قوله يصف السيوف:

وقد عُرِّيت بِيضٌ خفافٌ كأنها مقابيس، يُزهيها لعينيك شاهر

وقوله:

ونُعـدّ لـلأعـداء كـل مقلّص وردٍ، ومحجول القوائم، أبْلق(١)
تَـردْى بفرسـان كـأنّ كمـاتَهم عند الهِياج، أسودُ طَلٍّ مُلْثَقِ(٢)

---

(١) المقلص: الضامر الطويل القوائم. ورد: يضرب لونه إلى الحمرة المائلة للصفرة. الأبلق: في قوائمه سواد وبياض.

(٢) تردي: تسرع. الطل: الندى في المطر الخفيف. ملثق: الذي يسبب زلقاً وطيناً.

صُدْقٍ، يعاطون الكماةَ حتوفهمْ تحت العماية بالوشيج المزهقِ

وقوله:

وكهل طمرّةٍ خفق حشاها تذفّ ذفيفَ صفراء الجراد

فهو يشبه الفرس الضامرة الخفيفة الخافقة الحشا بالجرادة الصفراء التي ألقت بيضها فأصبحت سريعة الطيران.

وله أيضاً شعر عاطفي يتسم بالرقة والجمال نحسب أن أكثره ضاع، ولم يبق منه غير هذه النثارات المبثوثة في بعض قصائده ومن ذلك قوله:

فلولا ابنة العبسي لم تَلْق ناقتي كلالاً، ولم توضِع إلى غير موضع
فتلك التي إن تُمْس بالجرف دارها وأُمْسِ بخُزْبَى، تُمْسِ ذِكْرتُهامعي[1]

ولكنه لم يكن بالعاشق المتهالك الذي يترك لهواه العنان، بل كان يجعل من عقله على قلبه حاكماً ورقيباً، ويظهر ذلك في قوله:

ولمّا رأيت الودّ ليس بنافعي لديه، ولا راثٍ لحالة مُوجَع
زجرتُ الهوى، إني امرؤ لا يقودني هواي، ولا رأيِي إلى غير مَطمع

ورغم أن أكثر قصائده وصلتنا بدون مقدمات، فإن بعضها الآخر اشتمل على مقدمات غزلية رقيقة، وذلك كهذا المطلع الذي بدأ به رثاءه لحمزة:

طرقت همومك، فالرقاد مسهّدُ وجزِعتَ أن سُلخ الشباب الأغيد
ودعَتْ فؤادَك للهوى ضمْريةٌ فهواك غوري، وصحبك منجد
فدع التماديَ في الغوايةَ سادراً قد كنت في طلب الغوايةِ تُفنِدُ[2]

---

(١) الجرف: موضع شمالي المدينة بثلاثة أميال، ليس بعيداً من خزبى مساكن قوم الشاعر. وخزبى: موضع في منازل بني سلمة تلقاء مسجد القبلتين.

(٢) تفند: تطلب الباطل. والفند: الكذب.

ولقد أَنى لك أن تناهى طائعاً أو تستفيق إذا نهاك المرشد[١]

وعرف كعب بصدق العاطفة في كل ما كتب من شعر إسلامي، فقد كان مؤمناً قويّ الإيمان، دافع عن دينه بشعره كما دافع عنه بسيفه، وخاض من دونه الحرب الكلامية بنفس الروح والحماسة التي خاض بها المعارك والوقائع.

وكما كان كعب يرتجل الشعر في بعض المواقف، كان أيضاً يعمد في بعض الأحيان إلى كتابة شعره، قال ابن حبيب: ومن شعراء المدينة الذين كانوا يكتبون، كعب بن مالك، وقد كتب شعراً في يوم أحد، ذكر فيه أسماء النقباء، وأرسله إلى أبي سفيان، وأبيّ بن خلف ردًّا على كتابهما إلى الأنصار بشأن الرسول[٢].

وإذا نظرنا إلى ألفاظ هذا الشاعر وعباراته، وجدناها بعيدة عن الحشو والتطويل[٣] ليس فيها أي مخالفات لغوية أو ضرورات نحوية، ولذلك وجد اللغويون في شعره ما يساعدهم على الاستدلال في تقرير بعض قضاياهم اللغوية رغم قلة كلفه بالغريب من الألفاظ، والذي يقرأ لسان العرب أو تاج العروس، وهما من المعجمات الأساسية في لغتنا يجد فيهما لكعب ما لا يقل عن ثلاثين بيتاً من الشعر، وكذلك فعل المبرد في الكامل، وابن دريد في جمهرة اللغة، وابن فارس في مقاييس اللغة، وابن جني في المنصف، وابن سيده في المحكم، والجواليقي في المعرب، والزمخشري في الفائق وغيرهم.

وكغيره من شعراء المدينة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام حفِل شعره بكثير من أسماء الأماكن، ولذلك نجد شعره أيضاً ضمن كتب الأماكن

---

(١) أنى: حان. تناهى: تنتهي.

(٢) كعب بن مالك الأنصاري للدكتور سامي مكي العاني ص ١٣٦ سلسلة أعلام المسلمين - دار القلم - بيروت ١٩٧٩ م.

(٣) جاء التطويل في بعض شعره بقلة، كقوله:

نجالد لا تبقى علينا قبيلةٌ من الناس إلا أن يهابوا، ويفظُعوا

والمواضع والبلدان، كمعجم البلدان لياقوت، ومعجم ما استعجم للبكري، ووفاء الوفاء للسمهودي، والمغانم المطابة للفيروزأبادي. وحفلت كتب التاريخ أيضاً بشعره لارتباطه كما قلنا بالأحداث والوقائع الإسلامية.

والملاحظ أنهم جميعاً لم يهتموا برواية شعره الجاهلي، رغم أن من ترجموا له أشاروا إلى أنه كان معروفاً في جاهليته بالشعر، وأن شهرته تجاوزت يثرب ووصلت إلى مكة وغيرها من حواضر الجزيرة العربية، يقول كعب في حديث بيعته: (فدخلنا المسجد فإذا العباس رضي الله عنه جالس، ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين؟ قال: نعم، هذا البَراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. . قال كعب: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: (الشاعر؟ قلت: نعم) إلى آخر القصة. وقال عنه البغدادي: (وكان مجوِّداً مطبوعاً، فقد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر وعرف به)[1].

وربما يكون عدم ذكرهم لشعره الجاهلي راجعاً لعدم نضج ذلك الشعر، أو لعدم ارتباطه بحروب الأوس والخزرج، لأن عمره الجاهلي كان قصيراً لم يُتح له ما أتاح لابن رواحة أو حسان، وقد يكون ضاع لأسباب أخرى. وعلى كل حال لا يغض هذا الإهمال لشعره الجاهلي، من مكانته الشعرية في شيء، فهو من فحول شعراء الإسلام، ومن شعراء الدعوة المحمدية، قال عنه أبو الفرج: كعب بن مالك من شعراء أصحاب رسول الله المعدودين. وقال عنه ابن كثير: شاعر الإسلام.

هـ ـ ملامح شخصيته:

كان رضي الله عنه رَبْعةً في الرجال ضخم الكراديس، إذا رآه الرجل من بعيد ظنه رسولَ الله ﷺ، ومما يدلنا على هذا ما ورد عن حفيدته عمرة

---

(١) الخزانة ١: ٢٠٠.

بنت عبدالله بن كعب عن أبيها عن أبيه، أنه لما انكشف الناس يوم أُحُد، كان كعب أول من عرف رسول الله ﷺ، فبشر به المسلمين حيّاً سليماً، بعد أن عرف عينيه تحت المغفر، فأخذ ينادي: يا معشر الأنصار، أبشروا، فهذا رسول الله ﷺ، قال: فأشار إليَّ رسول الله ﷺ: أن اصمت. ثم دعاه فلبس لأمته، وألبس كعباً لأمته ـ وكانت صفراء ـ وقاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً، حتى جرح أحد عشر أو سبعة عشر جرحاً[1]، فحجمُ لأمته ولأمة رسول الله متقاربان أو متماثلان، وكان يكفي لشخصيهما تغيير اللأمات ليختلط أمرهما على الناس.

وكان سوي الخلق متكامل القوى، إلا أنه في آخر عمره عمي وذهب بصره[2] في عهد معاوية.

هذا ما أمكننا الحصول عليه من صفاته الجسمية، أما عن أخلاقه فإنه كان رجلاً كريم النفس صادق القول والفعل، ولذلك لم يحاول تقديم المعاذير لرسول الله ﷺ حين تخلف عن غزوة تبوك، بل انتظر حكم الله فيه، ونزل القرآن يمتدحه مع زميليه على ذلك الصدق، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[3].

نشأ كعب وحيد أبويه، وكان أبوه ذا مال، فقد رأينا أنه كان يشتري الإبل لتحويلها إلى نواضح تسقي نخيله، وأورث ذلك المال لابنه كعب، مما وفر له طفولة سعيدة وقدْراً من المال معروفاً في قومه، يسد حاجته، ويجعله محط أنظار المستدينين، ففي صحيح مسلم عن كعب، أنه كان له مال على (عبدالله بن أبي حَدْرِدٍ الأسلمي، فلقيه فلزمه، فتكلما، حتى ارتفعت أصواتهما، فمرّ بهما رسول الله ﷺ، فقال: يا كعب، فأشار بيده، كأنه يقول: النصف. فأخذ نصفاً مما عليه وترك نصفاً. ولهذا اليسار المشهود أيضاً كان

---

(١) أسد الغابة ٤: ٢٤٧ وشرح نهج البلاغة: ٤٤٨ والاستيعاب ٣: ٢٨٨.
(٢) الاستيعاب ٣: ٢٨٨.
(٣) التوبة: ١١٩.

ممن اختارهم الرسول لتحمّل إيواء المهاجرين بالمدينة حين نزلوا فيها فآخى بينه وبين طلحة بن عبيد الله، ولهذا أيضاً رأى بعد نزول توبته أنّ خير ما يكفرّ به عن ذنبه أنْ يخرج من ماله ويحرم نفسه من وسائل النعيم واليسار، لولا أنّ الرسول أمره أنْ يمسك عليه بعض ماله.

وربما كان لمعرفته القراءة والكتابة أثر في مسارعته إلى الإسلام رغم أنه كان في الخامسة والعشرين أو جاوزها بقليل، لاحتمال أنه كان على صلة بالكتب المقدسة ومعرفة بما فيها من أخبار السماء، فما إن أخذت الدعوة تتسرب إلى المدينة حتى أسلم كعب وغدا من القارئين والمتفقهين في الدين والمصلين الذين حضروا صلاة الجمعة وراء أسعد بن زرارة في وقت لم يكن في المدينة أكثر من أربعين رجلاً من المسلمين، قال عبد الرحمن بن كعب: كنت قائد أبي حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع الأذان بها صلّى على أبي أمامة (أسعد بن زرارة) قال: فقلت: يا أبت مالك إذا سمعت الأذان بالجمعة صليت على أبي أمامة؟ قال: فقال: أيْ بُنيَّ، كان أول من جمّع بنا بالمدينة في هزم النبيت من حرة بني بياضة، يقال له نقيع الخضمات، قلت له: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً.

وكان شجاع السيف واللسان، فأما اللسان فقد كان ثالث ثلاثة من الشعراء الذين وقفوا شعرهم على مناصرة الإسلام، وشهد له الرسول بأن كلامه على المشركين أشد وقعاً على نفوسهم من وقع النبال، وأما السيف فقد شهد له الرسول أيضاً بذلك فقال له: (أنت تحسن صناعة الحرب)، وحضر معه جميع الغزوات ما عدا بدراً وتبوك ورأينا كيف ثبت في أحد حين انكشف الناس، وتبادل اللأمة مع الرسول ليجعل من نفسه هدفاً لسهام المشركين ويضللهم عن رسول الله فلا يصلون إليه. ويذكر الواقدي: أن الحارث بن أبي ضرار ـ وهو مشرك ـ قد أقسم بعيد غزوة بني المصطلق وعند رجوع الرسول ﷺ إلى المدينة: لا يرجع حتى يقتل بعض أصحاب النبي ﷺ، فنزل نبي الله، وأمر الناس أن يضعوا رؤوسهم، وقال: لا تحلوا عقدة، ففعلوا،

وجعل حرساً من وراء الناس، وأمرّ عليهم حارثة بن النعمان فأمر حارثة أصحابه أن يناموا، وقال: إني سأكفيكم الحرس، فإن رأيت شيئاً آذنتكم. فبينما هو يقرأ وأصحابه نيام، إذ دنا منه الحارث فقاموا إليه فلم يدركوه، وقالوا: يا حارثة، غفلت عن الرجل حتى رمى. قال: لا، ولكني أردت أن يشعرني سهماً ثم أوذنكم. وذكر كعب بن مالك قرب الحارث وغرة أصحاب نبي الله ﷺ فامتنع منه النوم، فأتى رسول الله ﷺ فقام على رأسه بالسيف حتى أصبح، فلما استيقظ رسول الله فقام، فإذا هو بكعب قائماً على رأسه بالسيف، قال: مالك يا كعب؟ قال: ذكرت الحارث بن أبي ضرار وقربه منا، وغرتك يا نبي الله، وغرة أصحابك، فامتنع مني النوم، فقمت إليك أحرسك، فقال له نبي الله معروفاً[1]، وما دفع كعباً إلى ذلك غير شجاعته وحبه للرسول ﷺ.

أما غيابه عن بدر فإنه يشترك فيه مع عديد من الصحابة، لا لبخل بحياتهم أو تقاعس عن القتال، وإنما لظنهم أن الرسول لم يخرج للقتال، بل خرج يريد عير قريش، وهي مهمة لا تستدعي كثرة في المقاتلين ولا تتطلب كثير عناء، حتى جمع الله بين الرسول وبين أعدائه على غير ميعاد.

وأما تخلفه عن غزوة تبوك فإن له قصةً مشهورة، نزلت فيها آيات من القرآن تسمت بسببها سورة براءة بسورة التوبة، وقصها كعب نفسه، وكانت هذه الغزوة في السنة التاسعة من الهجرة في صيف شديد الحر، فتّ في عضد الناس، وقالوا: لا تنفروا في الحر، وتردد كعب في الخروج، ثم ندم واشتدت حسرته حين رأى معظم المتخلفين من المنافقين المطعون في دينهم، وذهب به الحزن كل مذهب، فلما عاد الرسول جاءه المخلّفون بالمعاذير الكاذبة المختلفة، يؤكدونها بالأيمان الفاجرة التي كشفها الله بقوله: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهمْ لتُعرضوا عنهم فأعرِضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنمُ جزاءً بما كانوا يكسبون، يحلفون لكم لتَرْضوا عنهم فإن ترضوا عنهم

---

(١) أي أنه شكره وحمد له هذا الموقف.

فإن الله لا يرضَى عن القوم الفاسقين﴾[1].

ولم يفعل ذلك ثلاثة من الأصحاب هم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي، وصدَقوا رسول الله ﷺ فأوكل أمرهم إلى الله، وعاشوا في رعب وفزع وخوف من سخط الله وأمر بأن لا يُكلَّمُوا، وأن يعتزلوا نساءهم، وظلوا على تلك الحال خمسين ليلة ثم شملتهم رحمة الله، ونزلت توبتهم في القرآن: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رحُبت وضاقت عليهم أنفسُهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[2]، وكان فرح كعب وزميليه بهذه التوبة فوق كل تصور، وبلغ من سرور كعب أن خرَّ لله ساجداً، ونزع ثوبيه فكسا بهما البشير، وأراد أن يتصدق بكل ماله لولا أن الرسول أمره بإبقاء بعضه، فاستجاب لأمره.

ولمكانة كعب الخاصة في الجانب الإعلامي للدعوة الإسلامية تعرض لإغراء ملك غسان باللحاق به بعد تعرضه للمقاطعة الاجتماعية، فقد وصله منه خطاب هذا نصه: (أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نُواسِكْ)[3]، ولكنه رغم اعتزازه باتصال نسبه ونسب الأوس والخزرج جميعاً بالغساسنة في أشعاره، كقوله:

وغسان أصلي وهم معقلي ... فنعم الأرومة والمعقل

فإن إيمانه غلب على العلاقة النسبية، فلم يرد على ذلك الخطاب، وأسرع إلى

(١) التوبة ١١٩.

(٢) التوبة: ٩٥.

(٣) صحيح البخاري ـ باب غزوة تبوك ـ حديث كعب.

تنُّور بيته فرماه فيه، وصرف الرسول الغسانيّ وظل ينتظر أمر الله فيه.

وأهم أمر كعب المسلمين جميعاً في المدينة، حتى أن أم سلمة زوج النبي ﷺ سألت الرسول أن يخبر كعباً بتوبة الله عليه فور نزول آيات التوبة، وكانت نزلت سَحَراً، وقالت له: يا نبيَّ الله، ألا نبشر كعباً؟ قال: إذن يحطمكم الناس ويمنعوكم النوم. وتسابق عمر وأبو بكر في حمل البشارة إليه، فرقى أبو بكر جبل سلع وصاح يبشره ويعلن الخبر في الناس: قد تاب الله على كعب بن مالك. وقيل: إن الذي حمل إليه البشارة إنما هو طلحة بن عبيد الله، كما ذكرنا في كلام سابق.

وكان كعب في عامة حياته مقرباً من الرسول ﷺ ومحلاً لثقته، فكان يسند إليه بعض المهام فيقوم بها أحسن قيام، ومن ذلك أنه ولاه في السنة التاسعة للهجرة صدقات أسلم وغفار، وقيل: جهينة أيضاً، كما بعثه ينادي في الناس بمنى في حجة الوداع: إن أيام منى أيامُ أكل وشرب وذكر لله، لينتهي الناس عن صيامهم. وأرسله لوضع حدود حرم المدينة ـ كما ذكرنا في كلام سابق ـ قال كعب: حرّم رسول الله ﷺ الشجر بالمدينة بريداً في بريد، وأرسلني فأعلمت على الحرم على شرف ذات الجيش، وعلى مشيرف، وعلى أشراف المجتهر، وعلى تيم[١].

وتمكن كعب بحكم هذا القرب من رسول الله، أن يروي عنه عدداً غير قليل من الأحاديث بلغ ثمانين حديثاً[٢]، وروى عنه جماعة منهم: أبناؤه جميعاً، وابن عباس، وجابر، وأبو أمامة الباهلي، وعمر بن الحكيم، وعمر بن كثير بن أفلح[٣] وغيرهم، كما جاءت أحاديثه في البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وكان ذا مكانة في قومه الخزرج ولذلك كان ضمن من حضروا السقيفة

---

(١) كلها أسماء أماكن بظاهر المدينة.
(٢) الأعلام للزركلي ـ ترجمة كعب بن مالك.
(٣) الإصابة ـ ترجمة كعب.

للتداول في أمر الخلافة، قال أبو ذؤيب[1] الهذلي: فجئت السقيفة، فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار، وفيهم سعد بن عبادة، وفيهم شعراؤهم: حسان وكعب.

وعرف كعب بعثمانيته ـ كما قلنا ـ حرّض الناس على مناصرة عثمان، وشهر سلاحه مع المدافعين عنه من المهاجرين والأنصار، وكان عدتهم سبعمائة، ولو تركهم عثمان لمنعوه[2]، إلا أنه كان مسالماً آثر أن يفدي أرواح المسلمين بنفسه، فقتل صابراً محتسباً، ولم يغمد كعب سيفه إلا بعد أن ناشدهم عثمان أن يغمدوا سيوفهم وقال لهم: أعزِمُ على كل من رأى لي عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده، ويُلقي سلاحه، ورأى كعب أن نصر عثمان في تلك الفتنة نصر لله، وخاطب قومه الأنصار: يا معشر الأنصار انصروا الله مرتين[3]، وكان ممن حضر دفنه وشيع جنازته، على قلة من حضر ذلك خوف الثائرين وصانعي الفتنة.

وقد كان عثمان ولاه صدقات مزينة اقتداء بتولية رسول الله له على صدقات جهينة وأسلم وغفار، فقام عليها أحسن قيام.

وفي خلافة علي رضي الله عنه لا نجد لكعب ذكراً هامّاً، وبخاصة في الحرب بينه وبين معاوية، إلا ما ذكره أبو الفرج من اعتزاله لعلي وقعوده المتعمد عنه، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك، فذكر أنه دخل مع عليّ في نقاش وجدال في أمر عثمان، وكان معه في ذلك حسان والنعمان بن بشير، وأنهم خرجوا من عنده مغاضبين إلى معاوية في الشام فأكرمهم وأحسن وفادتهم، يقول أبو الفرج[4]: (لما بويع علي بن أبي طالب عليه السلام بلغه عن حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، والنعمان بن بشير ـ وكانوا عثمانية ـ

(١) كعب بن مالك للدكتور العاني ص ٦٨.

(٢) البداية والنهاية ٧: ١٨١.

(٣) الاستيعاب ٣: ٢٩٠.

(٤) الأغاني ١٦: ١٧٠ ـ ١٧١ وقال ابن حجر في الإصابة: إن سند هذا الخبر شامي ضعيف.

أنهم يقدمون بني أمية على بني هاشم، ويقولون: الشام خير من المدينة، واتصل بهم أن ذلك قد بلغه، فدخلوا عليه فقال له كعب بن مالك: يا أمير المؤمنين، أخبرْنا عن عثمان، أَقُتل ظالماً فنقولَ بقولك؟ أو قُتل مظلوماً فتقول بقولنا؟ أم نكلك إلى الشبهة فيه؟ فالعجب من يقيننا وشكك، وقد زعمت العرب أن عندك علْمَ ما اختلفنا فيه، فهاته نعرفه، ثم قال:

وكفّ يديه ثم أغلق بابه وأيقن أنّ الله ليس بغافل
وقال لمن في داره: لا تقاتلوا عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل
فكيف رأيت الله صبّ عليهم الـ ـعداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر عنهمُ وولّى كإدبار النعام الجوافل

فقال لهم عليّ عليه السلام: لكم عندي ثلاثة أشياء: استأثر عثمان فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، وعند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة، فقالوا: لا ترضى ذلك العربُ، ولا تَعْذِرنا به، فقال: أتردّون عليّ بين ظهراني المسلمين بلا بينة صادقة ولا حجة واضحة؟ اخرجوا عني فلا تجاوروني في بلد أنا فيه أبداً، فخرجوا من يومهم، فساروا حتى أتوا معاوية، فقال لهم: لكم الكفاية والولاية، فأعطى حسان ألف دينار، وكعباً ألف دينار، وولىّ النعمان حمص، ثم نقله إلى الكوفة بعد). ثم عاد حسان وكعب إلى المدينة بعد انتقال علي منها، وبقي النعمان خارجها في معترك الأحداث.

و ـ نماذج من شعره:

سبق أنْ أوردنا لكعب بعض النماذج في الفصل السابق، ورغبة في الوصول إلى تصور أفضل لشاعريته، نورد هنا بعضاً من شعره في الأغراض المختلفة، ومن ذلك ما وصف به موقعة بدر غير ما تقدم[1]:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٥.

ألا هل أتى غسانَ في نأي دارِها وأخبرُ شيء بالأمور عليمُها
بأنْ قد رمتْنا عن قِسيٍّ عداوةٍ مَعَدٌّ معاً: جُهّالُها وحليمُها
لأنّا عبَدْنا اللهَ لم نرجُ غيره رجاءَ الجِنان، إذ أتانا زعيمُها[1]
نبيٌّ له في قومه إرثُ عزّةٍ أُسود لقاءٍ لا يُرجَّى كليمُها[2]
ضربناهمُ حتى هوى في مَكَرِّنا لمنخر سوءٍ من لؤيٍّ عظيمُها
فولّوا، ودسناهمْ ببيضٍ صوارمٍ سواءٌ علينا حِلْفُها وصَميمُها

ويلاحظ في هذه القصيدة وغيرها تعلق كعب بالقرابة النسبية بين قومه وبين الغساسنة، وقال في بدر أيضاً[3]:

لعمرُ أبيكما يا ابْنَيْ لؤيٍّ على زهو لديكم وانتخاءِ[4]
لما حامت فوارسكمُ ببدْرٍ ولا صبروا به عندَ اللِّقاء[5]
ورَدْناه بنور الله يجلو دُجَى الظّلماءِ عنّا والغطاءِ
رسولُ الله يقدُمنا بأمرٍ منَ أمر الله أحْكم بالقضاءِ
فما ظفرت فوارسكمُ ببدرٍ وما رجعوا إليكم بالسَّواء
فلا تعجلْ أبا سفيان وارقبْ جيادَ الخيل تطلع من كَداءِ
بنصر الله روحُ القدس فيها وميكالٌ، فيا طيبَ الملاء[6]

وكان أحياناً يطيل النفس الشعري إلى أن يبلغ بالقصيدة قرابة الخمسين بيتاً، وذلك مثل عينيته التي قالها عقب يوم أُحد ردًّا على شعراء المشركين، ونلاحظ فيها ذكره لغسان أيضاً وهي[7]:

(١) الزعيم: الرئيس والضامن، ويريد به الرسول ﷺ.
(٢) كليمها: جريحها.
(٣) المرجع السابق.
(٤) الانتخاء: الإعجاب والتكبر.
(٥) حامت: من الحماية وهي الامتناع.
(٦) الملاء: أراد الملأ، وهم أشراف القوم وسادتهم.
(٧) المرجع السابق ٢: ١٣٢.

ألا هل أتى غسّانَ عنا ودونهمْ   من الأرض خَرْقٌ سيرهُ مُتَنعنِع[1]
صَحــارٍ وأعـلامٌ كــأن قتـامَهــا   من البُعـدِ نَقْـع هـامـدٌ متقــطِّعُ
تـظلُّ به البُـزْلُ العراميس رُزَّحـاً   ويخلو به غيثُ السّنين فيُمْرِع[2]
به جِيَفُ الحَسْرىَ يَلُوح صَليبُهـا   كما لاح كتّانُ التِّجار المَوضَّع[3]
بــه العِينُ والآرامُ يمشين خِلفةً   وبَيْضُ نَعــامٍ قَيْضُــه يـتقـلّع[4]
مَجـالدُنـا عن ديننـا كـلَّ فخمـةٍ   مُـدَرَّبةٍ، فيهـا القوانس تلمـع[5]
وكل صَموتٍ في الصُّوان، كأنّها   إذا لُبستْ، نِهْيٌ من الماء مُترَع[6]
ولكن ببــدرٍ سـائلوا: من لقيتمُ   من النَّاس؟ والأنباءُ بالغيب تنفع
وإنّا بأرض الخوفِ، لو كان أهلُها   سوانا، لقد اجلَوْا بلَيْل فأقشَعُوا[7]
إذا جاء منا راكبٌ كـان قولُـه: أعِدُّوا لما يُزجي ابنُ حرْبٍ ويَجْمع
فمهمـا يُهِمّ الناسَ ممّـا يَكيـدنـا   فنحن له من سائر الناس أوسـع
فلو غيرُنا كانت جميعاً تَكيدُه الْـ   ـبريّةُ، قـد أعطَوْا يـداً وتوزّعـوا
نجــالــدُ لا تبقَى علينــا قـبيـلةٌ   من الناس إلا أن يهابوا، ويَفظُعوا[8]
ولمّا ابتنوا بالعُرْضِ قال سَراتُنـا   علامَ إذا لم نمنع العُرضَ نَزْرع[9]

---

(١) متنعنع: مضطرب.
(٢) العراميس: الشديدة. الرّزّح: المعيبة.
(٣) الصليب: الودك. الموضّع: المبسوط المنقوش.
(٤) القيض: قشر البيض. يتقلع: يتشقق. والشطر الأول من هذا البيت بلفظه في معلقة زهير:
بهـا الـعـين والآرام يمـشـين خـلفـة   وأطـلاؤهـا يـنـهـضـن من كـل مجـثـم
(٥) الفخمة: الكتيبة.
(٦) الصموت: الدرع أحكم نسجها، وتقارب حلقها، فلا يسمع لها صوت، والصوان: كل ما يصان فيه الشيء، درعاً كان أو ثوباً أو غيرهما. والتصوير بالنّهي وهو الغدير من الصور المتداولة في شعر اليثربيين الجاهليين كما تقدم.
(٧) اقشعوا: فروا وزالوا.
(٨) يفظعوا: يفزعوا، وهو نوع من التطويل اضطرته إليه القافية.
(٩) العرض: جمعه أعراض، وأعراض المدينة: قراها التي في أوديتها.

وفينـا رسـولُ الله نتبَـعُ أمـره إذا قـال فينا القـول لا نتطلَّع[1]
تدَلَّى عليه الـروحُ من عند ربِّـه يُنزَّل من جوِّ السماءِ ويُرفَـع [2]
نُشـاورِه فيمـا نُـريـد، وقَصْـرُنـا إذا ما اشتهى أنا نُطيع ونَسْمَعُ[3]
وقـال رسولُ الله لمّـا بدَوْا لنـا: ذَرُوا عنكمُ هول المنيّات، واطمعوا
وكونوا كمن يَشْري الحياة تقرُّبـاً إلى مَلِك يُحْيـا لـديـه ويُـرْجَـع
ولكن خـذوا أسيـافكم وتـوكلّوا على الله، إن الأمـرَ لله أجمـع
فصِـرْنا إليهم جهـرةً في رحالهمْ ضُحيّاً ، علينا البِيضُ، لا نتخشّع
بملمـومـةٍ فيـهـا السَّنَـوَّر والقنـا إذا ضـربوا أقـدامَها لا تَـورّع[4]
فجئنا إلى موجٍ من البحر وسْطَه أحـابيشُ، منهم حـاسـرٌ ومُقنَّـع
ثـلاثــة آلافٍ، ونـحن نَـصِيَّـةٌ ثَلاثُ مئينٍ، إن كَثُرنـا وأربع[5]
نُغـاورهم، تجـري المنيـةُ بيننـا نُشارعهم حوضَ المنايا، ونَشْرع[6]
تهـادَى قسِيُّ النَّبـع فينـا وفيهمُ ومـا هو إلا اليثـربيُّ المقَـطَّع[7]
ومَنْجـوفـةٌ حـرميّةٌ صـاعـديّـةٌ يُذرُّ عليها السُّمّ ساعةَ تُصْنَـع[8]
تَصـوبُ بأبـدان الرجـال، وتـارةً تمرُّ بأعـراضِ البِصار تَقَعْقـع[9]
وخيـلٌ تـراهـا بـالفضـاء كـأنهـا جَـرادُ صَبـاً في قَـرّةٍ يَتـربّع[10]

(١) لا نتطلع: لا ننظر إليه إجلالاً وهيبة له.
(٢) الروح: جبريل.
(٣) قصرنا: غايتنا.
(٤) السنوّر: السلاح. لا توّرع: لا تكف.
(٥) نصية: الخيار من القوم.
(٦) نغاورهم: نداولهم. نشارعهم: نشاربهم. نشرع: نشرب.
(٧) اليثربي: الأوتار، منسوبة إلى يثرب.
(٨) المنجوفة: السهام. الحرمية: نسبة إلى أهل الحرم. والصاعدية: نسبة إلى صاعد، وهو صانع معروف.
(٩) تصوب: تقع. والبصار: حجار لينه. تقعقع: تصوت.
(١٠) الصبا: ريح شرقية. القرة: البرد. يتربع: يجيء ويذهب.

فلمّا تلاقينا ودارتْ بنا الرَّحى ... وليس لأمرٍ حمَّه الله مَدْفع
ضربناهمُ حتى تَركنا سراتَهمْ ... كأنهمُ بالقاع خُشْبٌ مُصرَّع
لدنْ غدوةً حتى استفقنا عشيّةً ... كأنَّ ذكانا حَرُّ نارٍ تَلفّع[1]
وراحوا سراعاً موجِفين، كأنّهمْ ... جَهامٌ هراقتْ ماءَه الريحُ مُقلع[2]
ورحنا وأُخرانا بِطاءٌ كأنّنا ... أسودٌ على لحمٍ ببيشةَ ظُلّع
فنِلنا ونال القومُ منا ورُبَما ... فَعلنا، ولكن ما لدى الله أوسع
ودارتْ رحانا، واستدارت رحاهمُ ... وقد جُعلوا كلٌّ من الشَّرْ يَشْبَع
ونحن أناسٌ لا نرى القتل سُبَّةً ... على كلِّ مَنْ يَحْمي الذِّمار، ويَمنع[3]
جِلادٌ على رَيْب الحوادث لا نَرى ... على هالكٍ عيناً لنا الدَّهرَ تدمع
بنو الحرب، لا نَعيا بشيءٍ نقوله ... ولا نحن مما جرّت الحربُ نجزَعُ
بنو الحربِ، إنْ نَظْفَرْ فلسنا بفُحَّشٍ ... ولا نحن من أظفارها نتوجّع
وكنا شهاباً يتّقي الناسُ حَرَّه ... ويَفْرُجُ عنه من يَليه ويَسْفع[4]
فخَرْتَ عليَّ ابنَ الزِّبعرى، وقد سرى ... لكم طلبٌ من آخر الليل مُتْبِع
فسلْ عنك في عُلْيا مَعدٍّ وغيرها ... مِنْ الناسِ مَنْ أَخزى مقاماً وأشنع
ومن هو لم تَتْرك له الحربُ مَفْخراً ... ومن خدُّه يومَ الكريهةِ أضرَع[5]
شَدَدْنا بحولِ الله والنّصْرِ شَدَّةً ... عليكم، وأطرافُ الأسنَّةِ شُرَّع
تكُرُّ القنا فيكمْ كأن فُروغَها ... عَزالى مَزادٍ ماؤها يتهزَّع[6]
عمَدْنا إلى أهل اللواء، ومن يَطِرْ ... بذكْرِ اللِّواءِ، فهو في الحمد أسْرَع
فخانوا وقد أَعْطَوْا يداً، وتخاذلوا ... أبَى اللهُ، إلاّ أمْرَه وهو أصْنَع

(١) ذكانا: التهابنا في الحرب. تلفع: يشتمل حرها على من دنا منها.
(٢) موجفين: مسرعين. والجهام: السحاب الرقيق الذي ليس فيه ماء.
(٣) الشطر الأول يلتقي مع شطر في اللامية المنسوبة للسموأل.
(٤) الشهاب: القطعة من النار. يسفع: يحرق ويغير.
(٥) أضرع: ذليل.
(٦) الفروغ: الطعنات المتسعة. عزالى: جمع عزلاء، وهي فم المزادة. ويتهزّع: يتقطع.

ومن الغريب أن يذكر ابن إسحاق أن القصيدة كانت رداً على هبيرة بن أبي وهب مع أن اسمه لم يرد فيها، وإنما الذي ورد هو اسم ابن الزبعرى.

وقال كعب أيضاً يبكي حمزة بن عبد المطلب:

نَشْجتَ، وهل لك من مَنْشجِ ... وكنتَ متى تذَّكِرْ تَلْجُجِ
تَذكُّرَ قومٍ أتاني لهمْ ... أحاديثُ في الزمن الأعوج
فقلبُك مِن ذكرِهمْ خافِقٌ ... من الشَّوْق والحَزَنِ المُنْضِج
وقتلاهمُ في جِنان النَّعيم ... كرامُ المداخلِ والمَخْرج
بما صَبَروا تحت ظلّ اللواءِ ... لواء الرسول بذي الأضْوُجِ[1]
غداةَ أجابتْ بأسيافها ... جميعاً بَنُو الأوسِ والخزرج
وأشياعُ أحمدَ إذ شايعوا ... على الحق ذي النُّور والمنهج
فما برِحوا يَضْربون الكماةَ ... ويَمْضون في القَسْطل المُرْهج[2]
كذلك حتى دَعاهمْ مليكٌ ... إلى جَنَّةٍ دَوْحةِ المَوْلج
فكلّهمُ مات حُرَّ البَلاء ... على ملّةِ الله لم يَحْرَج[3]
كحمزةَ لمَّا وَفى صادقاً ... بذي هَبَّةٍ صارمٍ سَلْجَج[4]
فلاقاه عبدُ بني نوفلٍ ... يُبَرْبِر كالجمل الأدعج[5]
فأوجره حَرْبَةً كالشِّهاب ... تَلهَّبُ في اللَّهب المُوهَج[6]
لنعمان أوفى بميثاقه ... وحنظلة الخير لم يُحْنَجَ[7]

(١) الأضوج: بضم الواو: جمع ضوج، وهو جانب الوادي. وبفتح الواو: اسم مكان.
(٢) القسطل: الغبار. المرهج: الذي علا في الجو.
(٣) حر البلاء: خالص الاختار.
(٤) ذي هبة: السيف. وهبة السيف: وقوعه بالعظم. سلجج: مرهف.
(٥) عبد بني نوفل: هو وحشي قاتل حمزة. يبربر: يصيح. والجمل الأدعج: الأسود.
(٦) أوجزه: طعنه في صدره.
(٧) لم يحنج: لم يصرف عن وجهه الذي أراده من الحق.

عن الحق حتى غـدت روحُـه إلى منـزل فـاخـرِ الـزِّبْـرِج[1]
أولئـك لا مَنْ ثـوىَ مِنْـكـمُ من النـار في الـدَّرْك المُـرْتَـح

وقال ردًّا على عمرو بن العاص في أُحُد[2]:

ألا أبلغـا فهراً على نـأي دارِها وعندهمُ مِنْ علْمنا اليـومَ مَصْدَقُ
بأنّا غداةَ السَّفْح من بَطْن يثرب صبَـرْنَـا، ورايـاتُ المنيَّـةِ تَخْفِق
على عـادة تلكمْ جريْنـا بصبْرِنـا وقِدْماً لدى الغايات نجري فنَسْبق
لنـا حَـوْمـةٌ لا تُستـطاع يَقـودُهـا نبيٌّ أتَى بـالحقِّ عَفٌّ مُصَدَّق[3]
ألا هل أتَى أفناءَ فهر بن مالـك مقـطَّعُ أطرافٍ، وهـامٌ مفَلَّق[4]

وقال في الرد على قصيدة أخرى له أيضاً[5]:

أبلغْ قريشاً وخيـرُ القول أصـدَقُه والصّدقُ عند ذوي الألباب مقبول
أنْ قـد قتلنـا بقتلانا سَراتَكـمُ أهلَ اللِّواء، ففيما يَكْثُر القِيلُ[6]
ويـوم بـدرٍ لقينـاكمْ، لنا مـدَدٌ فيـه مع النصـر ميكالٌ وجبـريـل
إن تقتلونـا فـدينُ الحق فِـطرتُنـا والقتلُ في الحق عند الله تفضيل
وإن تروْا أمرَنـا في رأيكم سَفَهاً فأيّ من خالف الإسـلام تضليل
فلا تَمنَّوْا لِقاحَ الحرب، واقتعِدوا إن أخا الحرب أصْدَى اللّون مشغول[7]
إنّ لكم عنـدنا ضـرباً تَـراحُ لـه عُرْج الضِّباع، له خَذْمٌ رعابيل[8]

---

(١) الزبرج: الوشي.
(٢) المرجع السابق ٢: ١٤٤.
(٣) حومة: جُمّة.
(٤) أفناء القبائل: المختلط منها. الهام: مفرده هامة، وهي الرأس.
(٥) المرجع السابق ٢: ١٤٧.
(٦) ففيما: كان المفروض حذف الألف من ما الاستفهامية كالمشهور (ففيم).
(٧) أصدى اللون: لونه بين السواد والحمرة.
(٨) تراح: تفرح وتهتز. الرعابيل: المنقطعة.

إنّا بنو الحرب، نَمْريها، ونَنْتُجُها   وعندنا لذوي الأضغان تنكيل[1]

إن ينْجُ منها ابنُ حربٍ بعدما بلغتْ   منه التّراقي، وأمر الله مفعول

فقد أفادت له حِلْماً وموعظةً   لمن يكون له لبٌّ ومعقول

ولو هبَطتُمْ ببطنِ السّيْل كافحكمْ   ضَرْبٌ بشاكلةِ البطحاء ترعيل[2]

تلقاكمُ عُصبٌ حَول النبيِّ لهم   مما يعدّون للهيجا سرابيل

من جِذْم غسان مسترخٍ حمائلُهمْ   لا جُبَناءُ، ولا مِيلٌ، معازيل

يَمشُون تحت عَماياتِ القتال، كما   تمشي المصاعبةُ الأُدْمُ المراسيل[3]

أو مثل مَشْي أسُود الظِّلِّ ألْثَقها   يومُ رَذاذٍ من الجَوْزاءِ، مَشمول

في كل سابغةٍ كالنِّهْي، مُحكَمةٍ   قيامها فَلَجٌ كالسْيفِ، بُهْلول[4]

تردُّ حدَّ قِرام النَّبلِ خاسِئةً   ويَرْجع السيفُ عنها، وهو مَفلُول

ولو قَذَفتم بسَلْع عن ظهوركُمُ   وللحياة ودَفْع الموتِ تأجيل

ما زال في القَوْم وتْرٌ منكمُ أبداً   تعفو السِّلام عليه، وهْوَ مَطْلول[5]

عَبْد وحُرٌّ كريمٌ موثِقٌ قَنَصاً   شطْرَ المدينة مأسُورٌ ومَقتْول[6]

كنا نؤمِّل أخراكم فأعَجْلَكمْ   منّا فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ

إذا جَنَى فيهمُ الجاني فقد عَلِموا   حَقًّا بأنَّ الذي قد جَرَّ مَحْمول

ما نحنُ لا نحن من إثمٍ مجاهرةً   ولا مَلُومٌ، ولا في الغُرْم مَخذول

وقال[7] يجيب ابن الزبعرى في يوم الخندق كما أجابه حسان أيضاً:

أبقَى لنا حدَثُ الحروب بقيَّةً   من خيْرِ نِحْلة ربِّنا الوهّابِ

---

(١) نمريها: نستدرها. ننتجها: من النتاج. التنكيل: الزجر المؤلم.

(٢) بشاكلة: بطرف. الترعيل: الضرب السريع.

(٣) عمايات القتال: ظلماته. الأدم: البيض.

(٤) قيامها: القائم بأمرها، ومعظمها. والفلج: النهر. والمشمول: الذي هبت فيه ريح الشمال.

(٥) يعفو: يدرس ويتغير. والسلام: الحجارة. مطلول: لم يؤخذ بثأره.

(٦) القنص: الصيد. وشطر المدينة: نحوها.

(٧) المرجع السابق ٢: ٢٥٩.

بَيضـاءَ مُشرِفـة الـذُّرى ومَعـاطنـاً ... حُمَّ الجُـذوع غزيرة الأحلاب[١]

كـاللوُّب يُبـذَل جَمُّهـا وحَفيلُهـا ... للْجـارِ وابنِ العَمِّ والمنتـابِ[٢]

ونـزائعاً مثـل السِّـراح نمَى بهـا ... عَلَفُ الشّعير، وجِزَّةُ المِقضابِ[٣]

عريَ الشَّوىَ منها وأرْدَفَ نحْضَها ... جُـرْدُ المتـونِ وسـائـرُ الآراب[٤]

قُوداً تَراحُ إلى الصّياح إذا غدَتْ ... فعـل الضِّـراءِ تَـراحُ للكَـلاَّبِ[٥]

وتَحـوُط سـائمـة الـدِّيـار وتـارةً ... تُردي العِدا، وتؤوب بالأسلاب[٦]

حُوشُ الوُحوش، مُطارةً عند الوغى ... عُبْسُ اللّقـاء، مُبينةُ الأنجـاب[٧]

عُلِفتْ على دَعـةٍ فصارتْ بُـدَّنـاً ... دُخْسَ البَضيع، خَفيفةَ الأقصاب[٨]

يَغدُون بالزَّغْف المضاعف شَكَّـة ... وبُمتْرَصاتٍ في الثِّقافِ صِياب[٩]

وصـوارمُ نُـزَعَ الصَّيـاقـلُ غُلْبَهـا ... وبكـلِّ أروعَ ماجدِ الأنسـاب[١٠]

يصـلُ اليمينَ بمـارنٍ متقـاربٍ ... وُكلِتْ وقيـعتُـه إلى خَبّـاب[١١]

---

(١) الذرى: الأعالي، ويعني بها الآطام. والمعاطن: مبارك الإبل حول الماء. والمقصود: منابت النخل عند الماء، يشبهها بمعاطن الإبل. حم: سود. ويريد بالجذوع: أعناقها. الأحلاب: ما يحلب منها.

(٢) اللوب: جمع لوبة، وهي الحرة. جمها: ما اجتمع من لبنها. المنتاب: القاصد الزائر.

(٣) النزائع: الخيل العربية التي حملت من أرضها إلى أرض أخرى. السراح: الذئاب واحده سرحان. جزة المقضاب: ما يجز لها من النبات فتطعمه. والمقضاب: من القضب، وهو القطع.

(٤) الشوى: القوائم. النحض: اللحم. جرد المتون: ملس الظهر. الآراب: جمع إرب، وهو كل عضو مستقل بنفسه.

(٥) قود: طوال، مفرده: أقود، وقوداء. تراح: تنشط. الضراء: الكلاب الضارية، الكلاب: صاحب الكلب.

(٦) السائمة: الماشية المرسلة في المرعى.

(٧) الحوش: النافرة. مطارة: مستخفة. الانجاب: الكرَمُ والعَتَق.

(٨) البدن: السمان. دخس: كثيرة اللحم. البضيع: اللحم. الأقصـاب: الأمعاء واحـدها: قصب.

(٩) الزغف: الدروع اللينة. المترصات: الشديدات. صياب: صائبة.

(١٠) غلبها: خشونتها وما عليها من الصدأ.

(١١) المارن: الرمح اللين. وقيعته: صنعته وطريقته وتحديده. وخباب: اسم الصحـابي الجليل المعروف، وقد كان قيناً ماهراً.

وأغــرّ أزرق في القنـاة كـأنّـه — في طُخْيةِ الظَّلماءِ ضوء شهاب[1]
وكتيبــةٍ يَنْفي القِــرانَ قَتيـرُهــا — وتَـرُدُّ حـدَّ قَــواحـذَ النُّشَــابِ[2]
جــأوا مُلَمْلَمـة كـأنّ رمــاحهــا — في كلِّ مَجْمعةٍ ضَريمةُ غاب[3]
يــأوي إلى ظـلِّ اللواء، كـأنّـه — في صَعْدةِ الخَطِّيِّ، فَيْءُ عُقاب[4]
أعْيَتْ أبـا كـربٍ، وأعيت تُبَّعـاً — وأبَتْ بسـالتُها على الأعـراب[5]
ومــواعظ من ربِّنا نُهْـدَى بهـا — بلسـان أزْهَـرَ طيِّب الأثـواب[6]
عُـرِضَتْ علينا، فـاشتهينا ذكْـرَها — من بعدما عُرِضتْ على الأحزاب
لكما يراهـا المجرمـون بزَعْمهمْ — حرَجاً، ويَفهمها ذَوُو الألباب[7]
جـاءت سخينةُ كي تغـالبَ ربَّها — فـلَيـغْـلَبَـنَّ مُـغــالـبُ الـغَــلّاب

ولكعب قصائد أخرى في الخندق أيضاً.

وقال في يوم ذي قَرَدٍ للفوارس[8]:

أتـحسـبُ أولادُ اللّقيـطة أنّنـا — على الخَيْل لسنا مثْلهمْ في الفوارس
وإنّـا أناسٌ لا نـرى القتل سُبّـةً — ولا نَنْثني عند الرماح المداعس[9]
وإنا لنَقْرِي الضيفَ من قَمَع الذُّرا — ونضرِب رأسَ الأبْلخ المتشاوسِ[10]

(١) المقصود من الأغر الأزرق: السنان. الطخية: شديدة السواد.
(٢) القران: تقارن النبل واجتماعه. القتير: مسامير حلق الدروع، ويريد الدروع. قواحذ النشاب: النشاب التي تصيب الأفخاذ.
(٣) جأوا: الكتيبة الكبيرة. والضريمة: اللهب المتوقد.
(٤) الصعدة: القناة المستوية. الفيء: الظل.
(٥) أبو كرب وتبع: ملكان من اليمن، كما هو ظاهر البيت، والواقع أن الذي غزا المدينة في العصر الجاهلي هو تبع أبو كرب.
(٦) الأزهر: الأبيض.
(٧) حرجاً: حراماً.
(٨) المرجع السابق ٢: ٢٨٧.
(٩) المداعس: المطاعن، يقال: دعسه بالرمح إذا طعنه.
(١٠) القمع: مفرده قمعة، وهي أعلى سنام البعير، والذُّرا: الأسنمة. والأبلخ: المتكبر. المتشاوس: الذي ينظر بمؤخر عينه نظر المتكبر.

نَـردُّ كمـاةَ المُعْلَمين إذا انتخَـوْا بضربٍ يُسليَّ نخوةَ المتقاعس[١]
بكلِّ فتىً حامي الحقيقـة ماجـدٍ كريمٍ كسِرحان الغَضاةِ مُخالس[٢]
يـذودون عن أحسابهمْ وتـلادهمْ بِبِيضٍ تَقدُّ الهامَ تحت القوانس
فسـائل بني بـدْرٍ إذا مـا لقيتَهمْ ولا تكتمُوا أخبارَكمْ في المجالس
إذا ما خرجتُمْ فاصدُقوا مَنْ لقيتمُ بما فعلَ الإخوانُ يومَ التمارُسِ[٣]
وقولوا: زَلَلْنا عن مخالب خـادرٍ به وَحَرٌ في الصَّدْرِ ما لم يمارسِ[٤]

وقال في يوم خيبر[٥]:

ونحن ورَدْنـا خيبـراً وفُـروضَـه لكلِّ فتىً عاري الأشاجعِ مِذْوَدِ[٦]
جوادٍ لدى الغاياتِ لا واهنِ القُوَى جريءٍ على الأعداء في كل مَشْهد
عظيمِ رمادِ القِدرِ في كل شَتْوةٍ ضَرُوبٍ بنصلِ المَشْـرَفيِّ المُهَنَّد
يَرى القتلَ مدحاً إنْ أصاب شهادةً من الله يرجوهـا، وفوزاً بـأحمد
يـذودُ ويَحمي عن ذمـارِ محمّـدٍ ويـدفَـعُ عنـه بـاللِّسـان وبـاليـد
و ينصـرُه من كـل أمْـرٍ يَـريبـه يجـود بنفْسٍ دون نفْس محمّدِ
يصـدِّق بالأنبـاء بالغيب مُخلِصـاً يريد بـذاك الفوزَ والعـزَّ في غد

وقال في بكاء قتلى مؤتة[٧]:

نـام العيونُ ودمـعُ عينكَ يَهْمُـلُ سحًّا كما وكَفَ الطِّبَابُ المُخْضل[٨]
في ليلةٍ وَردتْ عليَّ همـومُهـا طـوراً أحِـنُّ، وتـارةً أتمـلْمَـل

(١) انتخوا: تكبّروا. المتقاعس: الذي لا يلين ولا ينقاد.
(٢) الغضاة: شجرة وجمعها غضىً، ويقال: إن أخبث الذئاب ذئاب الغضى.
(٣) التمارس: المضاربة في الحرب.
(٤) الأسد الخادر: الملازم لأجمته. والوحر: الحقد.
(٥) المرجع السابق ٢: ٣٤٩.
(٦) الفروض: المواضع التي يشرب منها من الأنهار. مذود: مانع.
(٧) المرجع السابق ٢: ٣٨٥.
(٨) الطباب: جمع طبابة، وهو سير بين خرزتين في المزادة، فإذا كان غير محكم وكف منه الماء.

واعتــادني حُزنٌ، فبِتُّ كـأنني ... ببنـات نَعْشٍ والسِّماكِ، مُـوكَّـل
وكـأنما بين الجـوانـح والحشَى ... ممّـا تـأوّبني شهـابٌ مُـدْخَـل[1]
وجْـداً على النَّفَر الـذين تتابعـوا ... يـومـاً بمُؤتــة أُسنِـدوا لم يُنْقَلوا
صلّى الإلّــه عليهمُ مـن فتيــةٍ ... وسقَى عـظامهَمُ الغمام المُسْبـل
صبـروا بمؤتـةَ لـلإلّـه نفـوسهم ... حذَرَ الرَّدى، ومخـافةً أن ينكُلوا
فمضـوا أمـامَ المسلمين كـأنهم ... فُنُقٌ عليهن الحـديدُ المُـرْفَـل[2]
إذ يهتــدون بـجعفـر ولـوائـه ... قــدّام أولـهِـمْ، فــنـعــم الأوَّل
حتى تفـرّجتِ الصفـوفُ وجعفـرٌ ... حيث الْتقى وعْثُ الصفوفِ مُجدَّل[3]
فتغيَّــر القمــرُ المنيــر لـفَقــده ... والشمس قد كسَفتْ، وكادت تأفِل[4]
قَــرْمٌ عـلا بنيـانُـه من هـاشمٍ ... فـرعـاً أشمَّ، وسؤدداً مـا يُنْقـل
قــوم بهم عصم الإلّــهُ عبـاده ... وعليهمُ نـزل الكتــابُ المُنْـزَل
فَضَلوا المعـاشـر عـزةً وتكـرُّمـاً ... وتغمّـدتْ أحـلامهمْ من يَجْهَــل
لا يُـطلقون إلى السّفـاه حِبـاهُمُ ... ويُــرَى خــطيبُهُم بحقٍّ يَفْصِــل
بيضُ الوجوه، تُرىَ بطونُ أكفِّهمْ ... تندى إذا اعتذرَ الزمانُ المُمْحِـل
وبهــدْيهم رضيَ الإلّــه لخلْقِـه ... وبحـدِّهم نُصِـر النبيُّ المُــرْسَـل

وعقب حنين وعزْمِ الرسول ﷺ التوجه إلى الطائف قال[5]:

قضينــا من تهـامــة كـل رَيْبٍ ... وخيبــر، ثم أجْمَمْنـا السيــوفـا
نخيِّرهـا، ولــو نـطقت لقـالت ... قــواطعهـن: دَوْسـاً أو ثَقيفـا

(١) المدخل: النافذ إلى الداخل.
(٢) الفنق: جمع فنيق، وهو الفحل من الإبل. المرفل: الذي تنجر أطرافه على الأرض، يريد أن دروعهم سابغة.
(٣) وعث الصفوف: التحامها حتى يصعب الخلاص من بينها، تشبيهاً بالوعث، وهو الرمل الذي تغيب فيه الرجل ويصعب فيه السير، مجدل: مطروح على الجدالة وهي الأرض.
(٤) تغير القمر وكسوف الشمس لموت أحد، ليست فكرة إسلامية.
(٥) المرجع السابق ٢: ٤٧٩.

فلستُ لحاصنٍ إن لم تـروهـا | بسـاحـة دارِكمْ منـا أُلـوفـا[1]
ونـنتـزع العـروشَ ببـطن وَجٍّ | وتصبـح دورُكم منكم خُلوفاً[2]
ويـأتيكم لنـا سَـرَعـانُ خيـلٍ | يغـادر خَلْفـه جمعـاً كثيفـاً[3]
إذا نـزلـوا بسـاحتكم سمعتُم | لهـا ممـا أنـاخ بهـا رجيفـاً[4]
بـأيديهم قـواضب مـرهفـاتٌ | يُـزِرْن المصطلين بهـا الحُتـوفا
كـأمثـال العقـائق أخلصتْهـا | قيونُ الهند، لم تُضْرَب كتيفاً[5]
تخـال جَـدِيَّـة الأبـطالِ فيهـا | غـداةَ الزحف جاديًّا مَدُوفاً[6]
أجِـدَّهـمُ أليس لـهـم نـصيـح | من الأقـوام كـان بنـا عـريفـاً[7]
يُخبِّـرهـم بـأنـا قـد جمعنـا | عتاقَ الخيل والنُّجُبَ الطُّروفا[8]
وأنّـا قـد أتينـاهـمْ بـزحـف | يُحيط بسـور حصْنِهمُ صُفـوفـاً
رئيسُـهمُ النبـي، وكـان صُلبـاً | نقيَّ القلب، مصطبِراً عَـزوفاً
رَشيـدَ الأمـر ذا حُكْـمٍ وعلم | وحِلْم، لم يكن نـزِقـاً خفيفـاً
نـطيـع نبينـا، ونـطيـع ربّـاً | هـو الـرحمن كـان بنـا رؤوفـاً
فـإن تُلْقـوا إلينـا السّلْم نقبـل | ونجعلكمْ لنـا عضُـداً وريفـاً[9]
وإن تـأبَـوْا نجـاهـدكمْ ونصبِـر | ولا يـك أمـرُنـا رَعِشـاً ضعيفـاً

---

(١) الشطر الأول ورد في شعرهم الجاهلي.
(٢) العروش: سقوف البيوت. ووج: واد بالطائف. خلوف: يريد دوراً تغيب عنها أهلها.
(٣) السرعان: المتقدمون.
(٤) الرجيف: الصوت الشديد مع اضطراب.
(٥) العقائق: جمع عقيقة، وهي شعاع البرق. وكتيف: مفردة كتيفة، وهي الصفائح الحديد التي تضرب الأبواب وغيرها.
(٦) الجدية: الطريقة من الدم. الجادي: الزعفران. مدوف: مخلوط.
(٧) أجدهم: أي أجد منهم، وهو منصوب على المصدرية.
(٨) الطروف: جمع طرف ـ بكسر الطاء ـ وهي الخيل الكريمة الأصل.
(٩) الريف: المواضع المخصبة التي على المياه، يريد: نتخذكم أعواناً على الحرب، ونستمد من ريفكم العيش.

نجـالـد مـا بقينـا، أو تنيبـوا إلى الإسـلام إذعـانـاً مُضيفـاً[1]
نجـاهـد لا نبـالي من لَقينـا أأهلكْنـا التِّـلادَ أم الـطَّريفـا
وكم من معشـرٍ ألَبُـوا علينـا ضميمَ الجِـذْم منهمْ، والحليفا
أتـوْنـا لا يـرون لهم كـفـاءاً فجـدَّعْنا المسـامع والأنـوفـا
بـكـل مهنـد لَيْـن صقيـلٍ يسـوقهمُ بهـا سَـوْقـاً عنيفـاً
لأمـر الله والإسـلام حـتـى يقـوم الـدينُ معتـدلاً حنيفـاً
وتُـنْسى الـلاتُ والـعُـزَّى وَوَدٌّ ونسلُبُهـا القـلائـد والشُّنـوفـا
فـأمسـوا قـد أقروا واطمـأنـوا ومن لا يمتنـع يَقْبَـل خُسـوفـاً

---

(١) مضيفاً: ملجئاً.

عبدالله بن رواحة

١ ـ نسبه:

هو عبدالله بن رواحة[1]، بن ثعلبة، بن امرىء القيس، بن عمرو، بن امـرىء القيس الأكبر، بن مـالك الأغـر، بن ثعلبة، بن كعب، بن الخزرج، بن الحارث، بن الخزرج الأكبر، بن حارثة، بن ثعلبة العنقاء... إلخ. فبينه وبين جده الخزرج بن حارثة عشرة آباء، وهي سلسلة أطول من سلسلة آباء أحيحة وابن الأسلت، وابن الخطيم، وحسان، وأقل من سلسلة آباء كعب بن مالك بثلاثة آباء.

ب ـ أسرته:

هو من بني الحارث، ويسمون أيضاً بلحارث، وكانت منازلهم بالعوالي شرقيّ وادي بطحان وتربة صُعَيْب، فهم من الفخوذ الخزرجية القليلة التي أتيح لها سكنى العالية، فإن عامة مساكن الخزرج كانت بسافلة المدينـة، ويلاحظ أن نسبتهم مأخوذة من جد أعـلى، ولم تعتد المـراجع أن تنعتـه بالحارثي، وإنما اعتادت أن تقول عنه: الخزرجي الأنصاري.

ولا نعرف شيئاً عن والده رواحة إلا أننا نرجح أنه كان ذا فروسية وشجاعة أورثهما ابنه عبدالله، كما أننا نرجح أنه كان ذا يسار أيضاً، ولذلك

(١) أسد الغابة ٣: ١٥٦ والإصابة ٢: ٣٠٦ والاستيعاب ٢: ٢٩٣.

كان شاعرنا ممن آوى المهاجرين، حيث آخَى الرسول بينه وبين المقداد بن عمرو، ولو لم يكن كذلك لما صح له أن يقوم بأية مسؤولية مالية في هذا المجال.

وجدّه الرابع: عمرو بن امرىء القيس، كان من أبرز رجالات الخزرج جميعاً، بل من أعظم رجالات يثرب في العصر الجاهلي، يحكمونه في قضاياهم، وفضّ خصوماتهم في السلم والحرب، وحين استعرت حرب (سُمير)، التي هي أول حرب بين الأوس والخزرج لجؤوا إلى تحكيمه بينهم، وكان في الوقت نفسه خطيباً معدوداً وشاعراً كبيراً من أصحاب المذهبات، وهو ممن اشترك في نقائضهم الجاهلية، وقد تحدثنا عن ذلك.

أما أمه فهي كبشة بنت واقد بن عَمْرو بن الإطنابة[1]، وعمرو هذا هو ابن عامر بن زيد مناة بن عامر بن مالك الأغر. فهي خزرجية حارثية مثله، يتصل نسبها بنسبه عند جده مالك الأغر. وقد كان عمرو بن الإطنابة سيداً مطاعاً في يثرب، استطاع في فترة من الفترات أن يوحد الحيين من الأوس والخزرج جميعاً تحت رئاسته، وحمل فيها لقب (ملك)، زمان النعمان بن المنذر - كما ذكرنا - في الباب الأول واستطاع أن يحقن الدماء في حرب (فارع) ويتحمل دية القتيل الذي قامت بسببه الحرب وقد كان أيضاً شاعراً معدوداً في الجاهلية.

ولم تحدثنا المراجع عن أعمام له أو إخوان، غير أخته عمرة[2] بنت رواحة أم الصحابي الجليل: النعمان بن بشير، وهي التي تغزل فيها قيس بن الخطيم الأوسي فقال:

أجـدّ بـعـمـرة غـنـيـانُـهـا ... فتهجـر أم شـأننـا شـانُـهـا
وعـمـرةُ من سـروات الـنـسـا ... ء، تنفـح بـالمسـك أرادنُـهـا

---

(١) الإطنابة: هي أمه أما أبوه فهو عامر، كما سبق.

(٢) عمرة: من الأسماء الشائعة عند العرب، وأصلها كما في اللسان الخرزة الفاصلة في العقد.

وفي مذهبته:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب ... لعمرة وحشاً غير موقف راكب

ورد عليه ابن رواحة متغزلاً في أخته، ليلى بنت الخطيم:

أشاقتك ليلى في الخليط المجانبِ ... نعم فرشاشُ الدمع في الصدر غالبي

بكى إثر من شطت نواه، ولم يقف ... لحاجة محزون شكا الحب ناصب

ولم يحدثونا عن أبنائه، غير ما جاء عند ابن حجر أنه لم يكن له عقب، من السابقين الأولين من الأنصار. وقد يكون تأخر في الزواج والإنجاب، وربما أيد هذا تربيته لزيد بن أرقم، فقد نشأ زيد يتيماً في حجر[1] ابن رواحة. ولكن المؤكد أنّ له ولداً أو أكثر، لم تكن لأحدهم شهرة، فقد ذكر ياقوت في ترجمة أبي علي الأنصاري الحموي: إنه الحسين ابن إبراهيم... بن عبدالله ابن رواحة، وإنه قُتل شهيداً كجده، في واقعة مرج عكّا، أيام صلاح الدين والصليبيين، ثم أورد له من الشعر:

إنْ كان يحلو لديك قتلي ... فزِدْ من الهجر في عذابي

عسى يطيل الوقوفَ بيني ... وبينك اللهُ في الحساب[2]

ويظهر ذلك من تعدد كناه، فقد كان يكنى بأبي محمد، وأبي رواحة، وأبي عمرو.

وعن زوجه أو زوجاته لم يزيدوا على إشارة عابرة، يفهم منها أن زوجته كانت مؤمنة قوية الإيمان، فيها طيبة وغفلة، مع غيرة شديدة، وإن ابن رواحة كان يتعامل معها على هذا الأساس، قال ابن عبد البر: إن ابن رواحة مشى ليلة إلى أمَةٍ له فنالها، وفطنت له امرأته، فلامته، فجحدها، وكانت قد

---

(١) الإصابة ٢: ٣٠٧.

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٠: ٤٦.

رأت مباشرته لها، فقالت: له: إن كنت صادقاً فاقرأ القرآن، فالجنب لا يقرأ القرآن، فقال:

شهـدت بـأن وعـد الله حـق ... وأن النـار مثوى الكـافـرينـا
وأن العـرش فـوق المـاء طـاف ... وفـوق العـرش ربّ العـالمينـا
وتـحـمـلـه مـلائـكـة غـلاظٌ ... مـلائـكـة الإلّـه مسـوّمينـا

فقالت: صدق الله وكذبت عيني، وكانت لا تحفظ القرآن ولا تقرؤه، فظنت ما قاله من شعر قرآناً فصدقت أنه لم ينل جاريته وهدأت غيرتها.

وإذا كان لا بد لنا من تعقيب على أسرته بعد أن أوردنا ما أمكننا الحصول عليه من أخبارها، فهو أنها أسرة تمتاز من طرفيها بالسيادة والفروسية والكرم والتضحية والشعر في الجاهلية والإسلام، وهي خصال انعكست كلها في شاعرنا عبدالله رضي الله عنه، وهيأت له معيناً لا ينضب للفخر الذي تردد في شعره الجاهلي أثناء مناقضاته لابن الخطيم، فلما جاء الإسلام ملأ عليه كل منافذ فكره ووجدانه فلم يعد يرى نسباً له غير الإسلام، ولم يسمح لنفسه في ظله أن يفخر بحسب أو نسب، وانكب على القرآن يحفظه ويتدارسه، وعلى ذكر الله يرطب به لسانه ويطهر قلبه ويتعرض بكل ذلك لنفحات رحمة الله وحفيف أجنحة الملائكة، وكاد يترك الشعر بالكلية وبخاصة حين تنزلت الآيات الأخيرة من سورة الشعراء، لولا أن نبيه وصفيه وحبيب روحه ﷺ انتدبه للدفاع عن الإسلام بشعره، وطمأنه بأنه من الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾، فانبرى مع صاحبيه كعب وحسان، يرسلون شعرهم شواظاً على كل من نال من رسول الله ومن الإسلام من شعراء مكة وغيرها. وكلمات هي أشد على أعداء الإسلام من وقع النبال.

وإذا كانت المراجع قد ضنت علينا بالحديث عن أسرة ابن رواحة فإن

الرسول ﷺ تحدث عنه وعن أسرته بما لم يتحدث به عن قرنائه ونظرائه من الشعراء كحسان وكعب، وأخبر عن منازلها وأحوالها يوم القيامة، فهو في الجنة على سرير من ذهب[١] مع الشهداء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ج ـ عصره:

هناك حقيقتان أكيدتان في هذا المجال، الأولى: إن ابن رواحة استشهد[٢] في بعث مؤتة، في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة، وهو يقود جيش المسلمين فيها ضد جحافل الشرك في الشام من عرب وروم، ويقاتل من أجل إعلاء كلمة الله فقد استعمل الرسول ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: (إن أصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس)[٣]، فلما قُتل ابن رواحة اصطلح الناس على خالد بن الوليد فلما أخذ الراية عمل بحنكته الحربية على الانسحاب بالجيش الإسلامي انسحاباً منظماً حكيماً حتى انصرف بهم إلى المدينة، والحقيقة الأكيدة الثانية هي أن ابن رواحة شاعر مخضرم عاش جل حياته في الجاهلية، فهو لم يعش في الإسلام سوى حوالي ثماني سنوات، وقد كان هو وسعد بن الربيع نقيب بني الحارث من الخزرج في بيعة العقبة.

ولم يذكروا شيئاً عن تاريخ ولادته، ولكننا نعلم أنه ممن شارك في حروبهم الجاهلية ومثل الخزرج مع حسان في النقائض التي دارت بين شعراء يثرب في العصر الجاهلي، حيث كان يقابلهم في ذلك قيس بن الخطيم، وقد ذكروا أن حسان ولد سنة ٥٦٣ م، قبل ميلاد الرسول ﷺ بسبع أو ثماني سنين، ورجحنا من القرائن أن ولادة ابن الخطيم حول هذا التاريخ أيضاً،

---

(١) أسد الغابة ٣: ١٥٩.

(٢) أسد الغابة ٢: ٣٠٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣٧٣.

وإن الأمر ـ فيما يبدو ـ لينطبق على ابن رواحة، فإذا ارتضينا هذا فإن ابن رواحة يكون قد مات عن عمر يناهز الثمانية والستين، وبهذا يكون قد عاش فترتين شعريتين مزدهرتين، وأحداثاً حربية عظيمة فاصلة، فكان شاعر الخزرج في الجاهلية وشاعر الأنصار بل المسلمين جميعاً في الإسلام. عاصر أكبر شعراء قومه وبعض شعراء المعلقات كالنابغة، ولكن المراجع لم تذكر أنه كان موجوداً بسوق الجسر بالمدينة حين زارها النابغة، مع أنها أشارت إلى لقائه بابن الخطيم وحسان.

د ـ شاعريته:

لابن رواحة شعر جاهلي وآخر إسلامي، ومن الملاحظ أن كمية الشعر التي وصلتنا له من كلا النوعين، قليلة إذا ما قيست بالدور الذي كان يضطلع به هذا الشاعر في جاهليته وإسلامه، وهو رجل معروف بالبديهة والارتجال، ومما يدل على ذلك ما حدث به عن نفسه، قال: (مررت بمسجد رسول الله ﷺ، وهو في نفرَ من أصحابه، فأضبَّ القومُ[1]: يا عبدالله بن رواحة.. يا عبدالله بن رواحة.. فعرفت أن رسول الله ﷺ دعاني، فانطلقت إليهم مسرعاً، فسلّمتُ، فقال: هاهنا. فجلستُ بين يديه فقال: ـ كأنه يتعجب من شعري ـ : كيف تقول الشعر إذا قلتَه؟ قلتُ: انظُر في ذلك ثم أقولُ. قال: فعليك بالمشركين، قال: فلم أكن أعددت شيئاً، فأنشدته، فلما قلت:

فخبِّروني أثمان العَباءِ، متى كنتم بطاريق، أو دانت لكم مُضَرُ؟[2]

---

(١) أضب القوم: صاحوا وجلبوا وتكلموا كلاماً متتابعاً.

(٢) العباء: كساء جاف غليظ، فجعلهم كأثمانها في الخسة. والبطاريق: جمع بطريق: القائد الحاذق بالحرب وأمورها، وهو أيضاً لقب يطلق على العظيم عند الروم، وكان يلي لقب الحاكم الروماني في الشام. وحينما علت منزلة الحارث بن جبلة الغساني عند الامبراطور جستنيان، جعله ملكاً على جميع قبائل العرب في سوريا، وأطلق عليه لقب فيلارك وبطريق.

قال: فكأني عرفتُ في وجه رسول الله ﷺ الكراهةَ، إذ جعلت قومه (أثمان العباء) فقلت:

نجالد الناس عن عُرضٍ فنأسِرُهمْ ... فينا النبيُّ، وفينا تَنْزِلُ السُّوَرُ
وقد علمتُمْ بأنّا ليس غالِبَنا ... حيٌّ من الناس إن عَزُّوا وإن كثُروا
يا هاشم الخيرِ إنّ الله فَضّلكم ... على البريَّة فضلاً مالَه غِيرُ[1]
إنِّي تفرّستُ فيك الخيرَ أعرِفه ... فِراسةً خالفتْهمْ في الذي نظروا
ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضَهمُ ... في جُلِّ أمرِك ما آوَوْا وما نصروا[2]
فثبَّت الله ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيتَ موسى ونَصراً كالذي نُصِروا

فأقبل علي بوجهه مبتسماً، ثم قال: (وإياك فثبَّتَ الله)[3]، فإن الذي وعته المراجع التي بين أيدينا من شعره وما استطاع جمعه الدكتور حسن باجودة، ثم الدكتور جميل سلطان، لا يكوّن ديواناً بالمعنى الصحيح، وقد أحسّ باجودة بذلك بعد مقارنة بينه وبين ابن الخطيم، فقال: (فإننا نستطيع عن طريق هذه المقارنة أن ننتهي إلى أن أكثر شعر ابن رواحة الجاهلي قد ضاع. لأن هذه النقائض لم تصلنا كاملة من ناحية، ومن ناحية أخرى لم نوفق بعد في العثور على مخطوط ديوانه الذي نعتقد أنه يتضمن شعراً جاهلياً كثيراً للدور البارز الذي كان يلعبه ابن رواحة بيده ولسانه ضد الأوس)[4].

● ومما يلاحظ على شعره الجاهلي أنه كان في جملته رداً على الشاعر الأوسي قيس بن الخطيم، وبعض الشعراء الأوسيين الآخرين، فكله على هذا الأساس داخل في حيز النقائض، بالإضافة إلى أنه لم تصلنا منه قصيدة كاملة سوى قصيدة واحدة هي مذهّبته التي مطلعها:

---

(١) الغير: التغيير والتغير، ولا مفرد له.

(٢) بعضهم: يريد بني عمر بن مخزوم ومن هجا من قريش.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٤) ديوان ابن رواحة للدكتور حسن باجودة ص ٣ مكتبة دار التراث بالقاهرة ١٩٧٢ م.

تـذكّـر بعـد مـا شـطّتْ نجـوداً وكــانـت تيَّـمتْ قـلبـي ولـيـداً

وما عداها وصلنا في أسلوب مقطوعات ظاهرة النقص والبتر بحيث لم يبق من بعضها غير بيت واحد في مقابل قصيدة لابن الخطيم، وهو قوله:

كــذبت لقـد أقمت بهــا ذليـلاً تقيم على الهـوان بهـا وتســري

● وملاحظة أخرى يمكن إبداؤها في هذا الصدد، هي أن ابن رواحة في مناقضاته مع ابن الخطيم كان يقوم دائماً بدور المدافع الذي يتتبع كلام غيره وينقضه ويكذبه مما جعل شعره أقل قوة وأضعف نسجاً، فكأن الحرب بالشعر مثل الحرب بالسيوف تحسن فيها المبادرة وتحديد حركات الخصوم والسيطرة عليها. كان ذلك في يوم معبّس ومضرِّس، ومطلع قصيدة ابن الخطيم فيه:

ألـمّ خـيــال لـيـلى أمّ عــمــرو ولــم يُـلمِـمْ بــنــا إلا الأمــر

حيث رد عليه ابن رواحة بقصيدة لم يبق منها غير البيت الذي ذكرناه قبل قليل ويوم الفضاء الذي انتصر فيه الأوس، ومطلع قصيدة ابن الخطيم:

صـرمتَ اليـوم حبلك من كَنـودا لتُبْــدِل حبْلها حبــلاً جــديــداً

ومطلع ابن رواحة:

تذكرْ بعد ما شطّت نُجوداً. . . . إلخ.

ويوم البقيع الذي انتصر فيـه الأوس أيضاً، يقـول عبيد بن نـافذ الأوسي:

لمّــا رأيتُ بني عــوفٍ وجَمْعَهمُ جاؤوا، وجمعُ بني النجّار قد حفلوا

فيرد عليه ابن رواحة بقصيدة بقي لنا منها بيتان هما:

لمـا رأيت بني عـوف وإخـوتهم كعباً وجمع بني النجار قد حفلوا

قِدْماً أباحوا حماكم بالسيوف ولم يفعل بكم أَحَدٌ مثل الذي فعلوا

وفي يومي حاطب وبعاث نظم ابن الخطيم قصيدتين، الأولى، مطلعها:

أتعـرف رسماً كـاطراد المـذاهب لعمـرة وحشاً غيـر موقف راكب

والثانية مطلعها:

ردّ الخليطُ الجمــالَ فــانقضبــا وقــطّعـوا من وصــالـك السببــا

وناقض ابن رواحة القصيدة الأولى بقصيدة عدة أبياتها خمسة عشر بيتاً مقابل ثمانية وثلاثين بيتاً، ومطلعها:

أشاقتك ليلى في الخليط المجانب نعَمْ فرشاشُ الدمع في الصدر غالبي

وناقض الثانية بقصيدة عدة أبياتها التي وصلتنا ستة أبيات مقابل خمسة وعشرين بيتاً.

يــا قيسُ أنتـمْ شــرارُ قــومكـمُ قِــدْمــاً، وأنـتم أغـثُّهــمْ نسَـبــاً

ولا نريد أن يفهم من هذا أننا نحط من شعر ابن رواحة الجاهلي، فهو من الفحول الذين ذكرهم ابن سلام في طبقاته وقال عنه: (وعبدالله بن رواحة عظيم القدر في قومه، سيّد في الجاهلية، ليس في طبقته التي ذكرنا أسْوَدُ منه)[1]، وعدّ أبو زيد القرشي داليته في المذهبات تماماً كغيره من شعراء يثرب الكبار في العصر الجاهلي وقد تناولنا هذا الجزء من شعره في القسم الجاهلي من هذه الدراسة.

أما شعره الإسلامي فإنه وصلنا أيضاً في أسلوب مقطوعات، وقد يكون ذلك راجعاً لعزوفه الظاهر عن قول الشعر وانشغاله بالقرآن، وكم كان جزعه شديداً حين نزل قوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢٣.

واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾، وقال وهو يبكي: (قد علم الله أني منهم) وكذلك بكى كعب وحسان، فأنزل الله استثناءاً لهم بقوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات....﴾ الآية.

وقيل: إنّ من أحسن ما قاله:

لو لم تكن فيه آيات مبينةٌ كانت بديهته تنبيك بالخبر[1]

ولتمام طمأنة ابن رواحة وصاحبيه ما رواه موسى بن شبة قال: سمعت أبا وجزة السعدي[2] يقول: قال رسول الله ﷺ: (ليس شعر حسان بن ثابت ولا كعب بن مالك، ولا عبدالله بن رواحة شعراً، ولكنه حكمة)[3]. ذلك أن شعرهم لم يكن يهيم في وديان الضلالة أو يخوض في البُطل والسفاهة، وإنما كانوا يدافعون به عن دين الله. قيل لرسول الله ﷺ إن أبا سفيان بن الحارث يهجوك فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه فقال ﷺ: أأنت الذي تقول: فثبت الله...؟ قال: نعم يا رسول الله، أنا الذي أقول:

فثبت الله ما أعطاك من حسنٍ تثبيت موسى ونصراً كالذي نُصروا

فقال ﷺ: وأنت فعل الله بك مثل ذلك.

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: سمعت أبي[4] يقول: ما سمعت أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً من ابن رواحة. سمعت رسول الله ﷺ يقول له يوماً: قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك. فانبعث مكانه يقول:

إني تفرّست فيك الخير أعرفه والله يعلم أنْ ما خانني البصر
أنت النبيّ ومن يُحْرَمْ شفاعته يوم الحساب، فقد أزرى به القدرُ

---

(١) الإصابة ٢: ٣٠٧.

(٢) أبو وجزة السعدي: يزيد بن عبد السعدي. أصله من بني سُليم، كان منقطعاً لآل الزبير، سكن المدينة ومات بها سنة ١٣٠ هـ.

(٣) الأغاني ١١: ٧٦.

(٤) أبوه هو الزبير بن العوام.

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا[1]

فثبته الله أحسن الثبات، فقتل شهيداً، وفتحت له أبواب الجنة فدخلها شهيداً وقال رسول الله ﷺ مرة لابن رواحة في سفر: انزِل فحرك بنا الركاب فقال: إني قد تركت قولي ذلك، فقال له عمر: اسمع وأطع. فنزل وهو يقول:

يا ربِّ لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا   وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا
إن الكفار قد بغَوْا علينا   وإن أرادوا فتنةً أبينا

فقال النبي ﷺ: اللهم ارحمْه. فقال عمر: وجبت. وهي نفسها الأبيات التي ارتجز بها الرسول وهو يحفر الخندق وينقل التراب، حتى وارى التراب صدره ﷺ[2].

وشعر ابن رواحة الإسلامي كان إسلامياً بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان، وإذا كان التغير عند حسان بطيئاً إلى حد مّا، فإن ابن رواحة منذ لامس الإيمان شغاف قلبه تحوّلت جميع جوارحه إسلامية، ومنها لسانه الذي ابتعد عن الرفث ومستهجن القول، وقد شهد له الرسول ﷺ بذلك حين قال: إن أخاً لكم لا يقول الرفث، وذلك لقوله:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَه   إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبُنا   به موقنات، إن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه   إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
واعلم علماً ليس بالظّنِّ أنني   إلى الله محشور هناك وراجع

والتأثر بالقرآن واضح في البيت الأول بقوله تعالى: ﴿اقم الصلاة لدلوك

(١) أسد الغابة ٣: ١٥٧.
(٢) تهذيب ابن عساكر ٧: ٣٩١. ويلاحظ الاضطراب في رواية البيت الأخير.

الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتهجد به نافلة لك، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾[1]، وقد وفق في الدلالة على جمال الفجر وروحانيته بالألفاظ: (انشق ـ معروف ـ ساطع) أيما توفيق.

والبيت الثاني يذكرنا بقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[2]، ونلاحظ فيه المقابلة بين العمى والهدى.

وفي البيت الثالث يذكرنا بقوله تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سُجّداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، ومما رزقناهم ينفقون﴾[3]، وبقوله: ﴿يا أيها المزمّل، قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً، إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا، إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً﴾[4]، وبقوله في نفس السورة: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾[5].

وفي البيت الأخير يعلن عن إيمانه باليوم الآخر، وهو ركن من أركان الإيمان الستة، تحدث عنه القرآن في أكثر من آية.

وحين يقول:

ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضهمُ   في جل أمرك، ما آوَوْا، وما نصروا

إنما يسامت قوله تعالى: ﴿والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء

---

(١) الإسراء: ٧٨، ٧٩.
(٢) الجمعة: ٢.
(٣) السجدة: ١٥، ١٦.
(٤) المزمل: ١ ـ ٦.
(٥) المزمل: ٢٠.

بعض﴾[1]، وقوله: ﴿والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾[2].

ويلاحظ أن بعض شعره الإسلامي جاء في أسلوب أراجيز، وقد كان الرجز من أكثر البحور الشعرية دوراناً على لسان العرب، بل إن البعض يدّعي أنه أول البحور التي رافقت الشعر العربي في طفولته، والذي لا شك فيه أنه هو البحر الذي كان يلجأ إليه المحاربون ورحى الحرب تدور بينهم، كما كانوا يستعملونه في حداء الإبل، ومن ذلك قول ابن رواحة يحدو بالنبي ﷺ:

يارب لو لا أنت ما هتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

...... إلخ.

وكذلك قوله في عُمْرة القضاء وهو يدخل مكة ممسكاً بزمام ناقة النبي ﷺ:

خلّوا بني الكفار عن سبيله   خلّوا فكلُّ الخير في رسوله

...... إلخ.

ويروى أن عمر بن الخطاب أنكر عليه هذا الرجز في هذا الموقف وقال: أوَهاهنا يا ابن رواحة[3] أيضاً؟ وإن النبي ﷺ قال له: (خلِّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل)[4].

ومن حيث الخيال والتصوير عند ابن رواحة فإننا نجده في شعره الجاهلي يعتمد في الغالب على الصور المتعارفة، وليس فيما وصل إلينا من شعره ابتداع لصور جديدة، وذلك كتصوير اشتعال الحرب بلقاح الناقة في قوله:

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) الأنفال: ٧٤.

(٣) تهذيب ابن عساكر ٧: ٣٩١.

(٤) الأغاني ٤: ١٣٨ دار.

لـو كنت فيهم والحـربُ لاقحـة　　لـكنـتَ فـيـهـم مُـغـلَّبـا ذَنَـبـاً

وصورة معارضة الشمس في قوله:

لدن غدوة حتى إذا الشمس عارضت　　وراح لـه من همـه كـلُّ عـازب

ولعل ابن أبي ربيعة نظر إليه في قوله:

رأت رجلاً أمّا إذا الشمس عارضت　　فَيَضحْىَ وأمـا بـالعشيِّ فيخصِـر

وصورة مباراة ناقته المطايا التي تتقي بعيونها وقع السوط، حتى غدت خوص الحواجب:

تبـاري مـطايـا تتقي بعيـونهـا　　مخافة وقع السوط، خوص الحواجب

والتشبيه بالأسُود في قوله:

فهـمْ جسُرٌ تحت الدروع كـأنهم　　أسُودٌ، متى تُنضَ السيوفُ تضارب

وتصوير مشيهم إلى الحرب في قوة وثبات بمشي الجمال المصاعب:

ومعتركٍ ضنكٍ ترى الموت وسْطَه　　مشينا له مَشْيَ الجمال المصاعب

وهي صورة تناولها أكثر شعراء يثرب في الجاهلية، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ولكننا في شعره الإسلامي نلاحظ أنه لم يعد يعتمد كثيراً في تصويره على وسائل الخيال المعروفة، بل غدا يعتمد على التصوير الموسيقي للأحداث والملاءمة بين النغم الشعري والموقف والعاطفة الجياشة المتدفقة، ويظهر ذلك جلياً بصفة خاصة في أراجيزه التي أشرنا إليها، ومع ذلك فقد ورد في بعضها تصوير بالوسائل المعهودة وذلك كتصوير نفسه بنطفة في شنة، في قوله: (هل أنت إلا نطفة في شنّة)، فهي بمنزلة القليل من الماء الذي يبقى في القربة، وإن جسده الذي هو وعاء نفسه بمنزلة القربة البالية الصغيرة، فتوشك روحه

أن تغادره حتى لو سلم من هذه المعركة، معركة مؤتة، كما يتوقع لقليل الماء في القربة البالية أن يتسرب منها.

وقبل أن نغادر هذه الفقرة يجدر بنا أن نقيّد لابن رواحة: الجدية في موضوعات شعره والبعد عن اللهو والمجون، في الجاهلية والإسلام، ولذلك يحس قارىء شعره أنه إزاء شاعر صاحب مسؤولية يحترم الكلمة ويوظفها لأداء مهمة معينة في خدمة القيم المرعية في الجاهلية، وخدمة العقيدة التي دان بها ووهب لها نفسه في الإسلام.

هـ ـ ملامح شخصيته:

نشأ ابن رواحة ـ كما ذكرنا ـ في رعاية أبوين كريمين، يتصل كل منهما بوشائج السيادة والرئاسة، ولذلك لم يتعرض لما قد يتعرض له أبناء الأسر الفقيرة أو قليلة الشأن، من عُرْي أو عوز أو جوع، وقد يكون وحيد أبويه من الذكور، فالمراجع لم تحدثنا عن غير أخته عمرة أم النعمان بن بشير، وهذا الوضع العائلي الحافل بالسيادة واليسار مكنه من تعلم القراءة والكتابة في سن مبكرة، مما هيأه بعد ذلك لأن يكون من كتّاب الوحي المعدودين، وأمناء كتاب رسول الله، ومن جهة أخرى نشأ فارساً شجاعاً يحسن الكر والفر، ويستريح للضرب والطعان وحمحمة الجياد، يقول في جاهليته وهو يخوض الحروب الضارية التي كانت تجلل يثرب:

إذا نُـدعَـى لـثـأر، أو لـجـارٍ　　فنحن الأكثـرون بهـا عـديـداً
متى ما تدع في جُشمٍ بن عوفٍ　　تـجـدْنـي لا أغـمَّ ولا حـيـوداً

ويقول:

نحن استبحنـا مـا في ديـاركمُ　　يـوم صبحنـاكمُ بـهـا عصبـاً

فلما دخل الإسلام صار بإيمانه أقوى لساناً وأحدّ سناناً وأربط جناناً، فقد شهد بيعة العقبة في قومه حين أخذ النبي ﷺ من المبايعين العهد أن يمنعوه

مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم وأزرهم، وحين أقام الرسول حينئذ عليهم اثني عشر نقيباً كان ابن رواحة، منهم فكان هو وسعد بن الربيع ـ كما ذكرنا ـ نقيبي بني الحارث بن الخزرج[1]. ولم تكن البيعة على هذا النحو بالأمر الهين العادي، سواء في بنودها أم في ظروفها التي تمت فيها أم في مسؤولياتها المستقبلية، إنهم بايعوا رجلاً محارَباً من قومه، عرض نفسه على القبائل فرفضته عن عدم اقتناع بدينه أو خوفاً من جبروت قريش، وأين يبايعونه؟ في مكة بين ظهراني أعدى أعداء رسالته ومن يتبعها أو يدخل فيها، وبينهم وبين بلدهم يثرب خمسمائة كيلاً، فلا منجد ولا معين، وإنهم ليتحملون حمايته مستقبلاً وحماية عقيدته ويموتون من أجله، قال ابن إسحاق[2]: (وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ، قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عَوْف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكتْ أموالكم مصيبةً، وأشرافُكم قتلاً، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفّينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابْسُط يدَك فبسط يدَه فبايعوه).

ولقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا كذلك في جميع الظروف والأحوال حتى علت كلمة الله، وأتم الله دينه على الناس، ومن فرط إيمانهم وشجاعتهم لم يكتفوا بالبيعة بل استأذنوا الرسول أن يرتدوا إلى أهل الموقف من المشركين فيقتلوهم، فلم يأذن لهم في ذلك، لأن الله لم يكن أذن له في القتال بعد، بالإضافة إلى ما للمشاعر من حرمة خاصة في النفوس.

---

(١) الإمتاع للمقريزي ص ١٥١ طبعة ١٩٤١ م القاهرة. وسيرة ابن هشام ١ ـ ٤٤٣.
(٢) سيرة ابن هشام ١: ٤٤٦.

وفي العريش ببدر قال الرسول ﷺ: (لا تقاتلوا حتى أوذنكم، وإن كَثَبُوكم فارموهم، ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشَوْكم)، فقال أبو بكر ـ ورسول الله مضطجع ـ يا رسول الله قدْ دنا القوم، وقد نالوا منا. فنهض الرسول وهو رافع يديه يناشد ربه النصر، واندفع عبدالله بن رواحة، وهو في غليان الإيمان والثقة بالله، يستعجل القتال، فقال: يا رسول الله، إني أشير عليك، إن الله أجلّ وأعظم أن ينشد وعده، فاغتفر له الرسول ﷺ هذا الاندفاع وقال له: (يا ابن رواحة، ألا أنشد الله وعده؟ إن الله لا يخلف الميعاد[1])، ثم كان ما كان من أمر المبارزة الأولى، فخرج ثلاثة من المشركين: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، من بين الجمع يتحدَّون الجيش المسلم ويطلبون مبارزة أبطاله، فخرج لهم ثلاثة من شجعان الأنصار هم: شاعرنا عبدالله بن رواحة وعَوْذ، ومُعاذ، : ابنا الحارث، فلما عرفوا أنهم من الأنصار قالوا لهم: ارجعوا فلا حاجة لنا بكم، وإنما نريد أكفاءنا من بني عمنا، وذلك مبالغة منهم في تحدي رسول الله ﷺ، فاخرج لهم الرسول ثلاثة من أفراد أسرته بالذات وهم: عمه حمزة وابنا عميه: عبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، وكان من أمرهم ما كان.

وبعد أن تم للمسلمين النصر، وأخذ الجيش المنتصر طريق العودة إلى المدينة مر الرسول ﷺ بالأثِيل قبل غروب الشمس فبات فيه، وأرسل اثنين من خاصة أصحابه هما: شاعرنا ابن رواحة أيضاً، وزيد بن حارثة، قبل الزوال من يوم الأحد يبشران أهل المدينة، فنادى عبدالله في أهل العالية: يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله، وقتل المشركين وأسرهم، ثم أتبع دور الأنصار يبشرهم داراً داراً. وانطلق زيد على ناقة رسول الله القصواء يبشر أهل السافلة، فكان ذلك النصر شديد الوقع على نفوس اليهود والمنافقين، فقال كعب بن الأشرف لمن حوله: ويلكم، أحق هذا؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يُسمِّي هذان الرجلان، وهؤلاء أشراف العرب وملوك

---

(١) الإمتاع ص ٨٤.

الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لَبطنُ الأرض خيرٌ لنا من ظهرها، ثم خرج إلى مكة يحرّض قريشاً على محاربة الرسول ﷺ، وينشدهم أشعاراً يبكي فيها أصحاب القليب[1].

وتلقى المسلمون رسول الله بالروحاء يهنئونه بالنصر، ودخل المدينة من ثنية الوداع يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من رمضان، فتلقته الولائد بالدفوف بنشيد:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع[2]

وكان لشاعرنا رأي حازم في أسرى بدر مفاده تحريقهم بالنار، فحين قال الرسول: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم، لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله، كذّبوك وأخرجوك، فقدِّمهم واضرب أعناقهم. وقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقِهْم فيه.

فسكت رسول الله ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة.

وهكذا نرى رأي ابن رواحة لا يبعد كثيراً عن رأي عمر في الشدة على أعداء الله، ولكن الرسول قضى بافتدائهم وقال للصحابة: أنتم عالة، فلا ينفكّنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق.

وكان ابن رواحة من أبطال معركة أحد، وحز في نفسه مقتل أسد الله

---

(١) الطبري ٢ : ٤٨٨ .
(٢) المرجع السابق.

حمزة، فلما كان مأتمه جاء كل رجل بنساء قومه ينحن عليه، وكذلك فعل شاعرنا فاتى بنساء بني الحارث ليشاركن في ذلك المأتم، ولكن الرسول ﷺ قال: ما أردت هذا. ثم نهى النساء عن النياحة على الميت مطلقاً وأنها من الأعمال المفضية إلى النار. ولكنه لم يحرم الرّثاء، فرثى عبدالله حمزة بقصيدة مطلعها:

بكت عيني وحق لها بكاها   وما يغني البكاءُ ولا العويل
على أسد الإِلَه غداة قالوا: أحمزةُ ذلك الرجل القتيلُ؟

وفي موقعة الخندق كان الرسول يرتجز بشعر ابن رواحة - كما تقدم - ويرفع صوته بقوله (أبينا . . أبينا)، وكابد المسلمون جميعاً في هذه الموقعة مشقة كبيرة وصفها القرآن بعدة آيات، وكانت عمرة بنت رواحة ترسل ابنتها إلى زوجها بشير وأخيها عبدالله بجفنة تمر عجوة في ثوبها، فرآها الرسول ﷺ يوماً وهو جالس في أصحابه فقال لها: تعالي يا بنيّة، ما هذا معك؟ فأخبرته فأخذ في كفيه ونثره على ثوب بُسط له، وأمر بأن ينادى بأهل الخندق فاجتمعوا يأكلون منه، حتى صدروا وإنه ليفيض من أطراف الثوب[1].

وقد أنس رسول الله من ابن رواحة نضجاً فكريّاً وقدرة على تصريف الأمور وسياسة الناس، ولذلك كان يوليه بعض أمور الدولة، فقد بعثه[2] إلى خيبر خارصاً بين المسلمين واليهود، فيخرص عليهم، فإذا قالوا: تعدّيت علينا، قال: إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا، فتقول يهود: بهذا قامت السموات والأرض.

واستخلفه على المدينة حين خرج بأصحابه إلى غزوة السويق لمواجهة أبي سفيان، فبقي أميراً عليها ست عشرة ليلة، وإذا علمنا أن إمارته أو استخلافه

---

(١) الفصول في سيرة الرسول لابن كثير ص ٢٠٨ تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٣٥٤.

لم يكن على قرية أو حي من الأحياء، وإنما كان على عاصمة الإسلام جميعاً عرفنا أية مزايا كانت في شخصية هذا الشاعر الأمير.

وولاه الرسول ﷺ أيضاً القيادة الحربية مرتين، كانت الأولى إلى خيبر، والثانية إلى مؤتة.

أما خبر الأولى فهو أن يهود خيبر في السنة السادسة للهجرة[1] جعلوا سيداً عليهم يدعى أسير بن رِزام، بعد مقتل زعيمهم سلام بن أبي الحقيق، وقال أسير والله ما سار محمد إلى أحد من يهود، ولا بعث أحداً من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد وأنا صانع به ما لم يصنعه أصحابي. فقالوا: وما عسيت أن تصنع؟ قال: أسير في غطفان فأجمعهم لحربه ونسير إلى محمد في عقر داره، فإنه لم يُغزَ أحد في عقر داره إلا أدرك منه عدوّه بعض ما يريد، فوافقته يهود على ذلك. وانطلق يجمع غطفان، فلما اجتمع له منهم ما أراد سار لحرب المسلمين.

وكان المسلمون قد علموا بتحركاته، فأرسل الرسول ﷺ عبدالله بن رواحة سرًّا في ثلاثة نفر، ليأتوه بخبر رزام وتآمره، فلما وصلوا إلى خيبر، تفرقوا بين بساتينها وحصونها يتسمعون ويتسقطون الأخبار دون أن يعلم بهم العدو ثم عادوا بالمعلومات التي جمعوها إلى المدينة بعد ثلاثة أيام لبضع ليال بقين من رمضان. ثم جاء رجل آخر إلى رسول الله ﷺ يخبره بما بيت يهود، فندب الناس لقتالهم، فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً أمّر عليهم عبدالله بن رواحة، فعمد ابن رواحة إلى حيلة يخضد بها شوكة يهود، ويثني عزمهم على غزو المدينة، وربما فتحت الطريق إلى عقد صلح دائم بينهم وبين المسلمين، فقدم بأصحابه على رزام، فقالوا له: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك، فقالوا: نعم، ثم قالوا له: إن رسول الله ﷺ قد بعثنا إليك لتخرج إليه، ليستعملك على خيبر

---

(١) كانت هذه السرية قبل فتح خيبر. لأن فتحها تم في صفر سنة سبع للهجرة.

ويكرمك ويحسن إليك، فطمعت نفس رزام أن يتولى الإمرة من غير قتال، فاستشار أصحابه، فلم يوافقوه على ما عزم عليه، وقالوا: ما كان محمد ليستعمل رجلاً من بني إسرائيل، وهو مصرّ على دينه، قال: بل قد مللنا الحرب. وخرج مع المسلمين بثلاثين رجلاً، ليكون عدد من معه مساوياً لعدد المسلمين، وركبوا قاصدين المدينة، فكان مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، وأردف أسيرٌ عبدَالله بن رواحة، حتى إذا كانوا بقرقرة - وهي موضع على بعد ستة أميال من خيبر - ندم أسيرٌ على ما فعل، وخشي أن يكون في الأمر كيد، فعزم على الفتك بابن رواحة، ولكن عبدالله لم يكن في غفلة من أمره، فما أن رأى يده تمتد إلى السيف، حتى سبقه واستل سيفه وضربه، فقطع رجله وهو يقول له: أغدراً عدوَّ الله؟ وأخذ يكررها ثلاثاً. فسقط أسيرٌ عن بعيره، وكان بيده مخدش فضرب به عبدالله فشجّه في رأسه. ومال المسلمون على أصحاب رزام فقتلوهم ولم ينج منهم غير واحد، ثم سار ابن رواحة بأصحابه إلى المدينة فوجدوا الرسول ﷺ ينتظرهم خارجها عند الثنيّة، كأنه يستبطىء رجوعهم، فقصّوا عليه ما جرى بينهم وبين العدو، فقال: (قد نجّاكم الله من القوم الظالمين)، كأنه يشير إلى ما كان في قلوبهم من غدر، ثم مسح على وجه عبدالله وبارك شجته، فبرئت ولم تتقيح ولم يصبه منها أذى[1]. وكان ذلك في شوال.

وأما السَّريّة الثانية التي تولى ابن رواحة فيها القيادة فهي سَريّة مؤتة، فقد جعل الرسول له القيادة بعد مقتل زميليه: زيد وجعفر، ولما ودّع الناس الأمراء ومن معهم، وكانوا ثلاثة آلاف، بكى ابن رواحة، فقالوا له: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله عزّ وجلّ، يذكر فيها النار: ﴿وإنْ منكم إلا واردُها كان على ربِّك حتماً مقضياً﴾[2]، فلست أدري

(١) السيرة الحلبية ٣: ٢٠٧.

(٢) مريم: ٧١.

كيف لي بالصَّدَر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، فقال ابن رواحة:

لكنّني أسألُ الرحمنَ مغفرةً ... وضرْبةً ذات فَرْغٍ تقذف الزَّبَدا[1]
طعنةً بيدَيْ حرَّانَ مُجهِزَةً ... بِحرْبة تُنفِذُ الأحشاءَ والكبدا[2]
يقال إذا مَرُّوا على جَدثي ... أرشدَه الله من غازٍ، وقد رشَدا[3]

ثم تقدم ابن رواحة إلى نبيه وصفي روحه يودعه ليتزود من وجه نوره الكريم، ثم أنشد بين يديه شعراً سبق أن قاله في مناسبة أخرى، ولكن دعت إليه المناسبة فقال:

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى، ونصراً كالذي نصروا
إني تفرست فيك الخير نافلة ... فراسة خلفت فيك الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

ثم قال: (يا رسول الله، مُرْني بشيء أحفظه عنك. فقال ﷺ: (إنك قادم غداً بلداً السجود فيه قليل، فأكثر السجود). قال: زدني يا رسول الله قال: (اذكر الله، فإنه عون لك على ما تطلب)، فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع، فقال: يا رسول الله، إن الله وتر يحب الوتر، فقال ﷺ يا ابن رواحة، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة)، فقال: لا أسألك عن شيء بعدها[4].

قال ابن إسحاق[5]: ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا ودّعهم وانصرف عنهم، قال عبدالله بن رواحة:

---

(١) ذات فرغ: ذات سعة. والزبد هنا: رغوة الدم.
(٢) مجهزة: سريعة القتل. تنفذ الأحشاء: تخترقها.
(٣) سيرة ابن هشام ٢: ٣٧٤ وأسد الغابة ٣: ١٥٨.
(٤) الإمتاع ص ٣٤٦.
(٥) سيرة ابن هشام ٢: ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

خَلَفَ السلامُ على امرىء ودّعته في النخلِ خيرِ مُشّيعٍ وخليلِ

ثم مضوا حتى نزلوا بمعان من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل تهيأ لهم بمائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب، وهو تجمع من الجنود لا عهد للمسلمين به، فكان من حقهم أن يترددوا، فأقاموا على معان ليليتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، ولكن الأمير الاحتياطي عبدالله بن رواحة هب بدافع إيمانه القوي غير المحدود، يشجع الناس ويحثهم على الثبات، وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون، للتي خرجتم تطلبون، الشهادة.. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس فقال عبدالله بن رواحة في محبسهم ذلك أبياتاً مطلعها:

جلبْنا الخيلَ من أجَإٍ وفَرْعٍ تُغَرُّ من الحشيشِ لها العكومُ[1]

فمضى الناس إلى أن قابلتهم جيوش الروم بالبلقاء فانحازوا إلى قرية يقال لها مؤتة واستعر القتال بين الجانبين حتى سقط زيد بن حارثة شهيداً، ثم تبعه جعفر بن أبي طالب، فدعا الناس عبدالله بن رواحة وهو بجانب العسكر، كما أمر الرسول الكريم، فأخذ الراية وتقدم بها على فرسه، ثم نزل كأنه قد صار في نفسه بعض تردد، وفي هذه الأثناء أتاه ابن عم له بعرق[2] من لحم وقال له: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسة[3]، ثم سمع الحطمة[4] في الناس فقال

---

(١) أحد جبلي طيء. والفرع: أطول جزء منه، وتغر: تطعم شيئاً فشيئاً. العكوم: جمع عكم بفتح العين، وهو الجذب.

(٢) العرق: العظم الذي عليه بعض اللحم.

(٣) انتهس: أخذ منه بفمه يسيراً.

(٤) الحطمة: زحام الناس وما يتبعه من جلبة.

لنفسه: وأنت في الدنيا.. ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه فتقدم إلى القتال وهو يقول:

يـا نـفسُ إلاّ تُقتلي تـمـوتي   هـذا حِمام المـوتِ قـد صَليتِ
ومـا تَـمنّيتِ فـقـد أُعـطيتِ   إن تـفعـلي فعلَهـمـا هُـديتِ

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً، وعندما عاوده التردد طرده من نفسه وتقدم إلى القتال وهو يقول:

أقسمتُ يـا نفسُ لـتنـزِلنّـهْ   لـتنـزِلـنَّ أو لـتُكْـرهِـنّـه
إنْ أجلبَ النـاسُ وشَدُّوا الـرَّنّـه   مـالي أراكِ تكـرهين الـجنّـة؟
قـد طـال ما قد كنت مـطمئنّـة   هـل أنتِ إلا نـطفـةٌ في شنّـه

ولم يتراجع حتى طعن، فاستقبل الدم بيده، ودلك به وجهه، وظل ثابتاً حتى صرع بين الصفين، فجعل يقول: يا معشر المسلمين، ذبوا عن لحم أخيكم، فاجتمعوا يدافعون عنه حتى مات مكانه شهيداً، ثم تولى قيادتهم خالد وتراجع بهم إلى المدينة.

وروي أنه لما أصيب القوم جاء الملك إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك فقال لأصحابه[١]: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً. قالوا: ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبدالله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: ثم أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ثم قال: لقد رفعوا إلي في الجنة، فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبدالله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت عم هذا؟ فقيل لي مضياً وتردد عبدالله بعض التردد، ثم مضى فقتل[٢].

وفي الواقع لم يكن تردد ابن رواحة عن ضعف أو خوف من الموت فقد

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٣٨٠.
(٢) أسد الغابة ٣: ١٥٩ والإصابة ٢: ٢٠٧.

كان مؤمناً مثالياً أغلى أمنيته الشهادة في سبيل الله، ولكن هذا الموقف يصادفه عادة أعظم الشجعان، وكثيراً ما كان الشعراء الفرسان، يعبرون عما يحصل لهم من ذلك بكل صدق، ومنه ما صادفه جد شاعرنا لأمه، الفارس الشاعر عمرو بن الإطنابة، وذلك ما عبر عنه بقوله:

أبتْ لي عفَّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح

إلى أن يقول:

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانكِ، تُحمدي أو تستريحي

وصادفه فارس اليمن عمرو بن معد يكرب إذ يقول:

فجاشت إليّ النفسُ أولَ مرَّة ... وَرُدّت على مكروهها فاستقرّتِ

وصادفه صاعقة من صواعق الدنيا، قطري بن الفجاءة المازني، إذ يقول:

أقول لها وقد طارت شَعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تراعي

وكان زيد بن أرقم يتيماً تربى في حجر ابن رواحة - كما أشرنا في كلام سابق - فخرج به معه إلى مؤتة، وأردفه معه على ناقته، يقول زيد[1]: فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته وهو ينشد أبياته هذه:

إذا أدنَيتني وحملتِ رَحْلي ... مسيرةَ أربع بعد الحساء[2]

فشأنُكِ أنعُمٌ وخلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرجِعْ إلى أهلي ورائي[3]

وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مشتهِيَ الثَّواء

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٣٧٦.

(٢) الحساء: جمع حسي، وهو ماء يغور في الرمل حتى يجد صخراً فإذا بحث عنه وجد، يريد مكانا فيه الحساء.

(٣) فشأنك أنعم: يريد أنه لا يكلفها سفراً بعد ذلك، وإنما تنعم مطلقة، لعزمه على الموت في سبيل الله، ولا أرجع: قال أبو ذر الخشني: مجزوم على الدعاء، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع إلى أهله.

وردك كـلُّ ذي نـسب قـريـب إلى الـرحمن مُنقـطعَ الإخــاء
هنــالـك لا أبــالي طَلْعُ بَعْــلٍ ولا نَـخْــلٍ أســافلُهــا رِواء[1]

فلما سمعتهن منه بكيت، فخفقني بالدرة، وقال: ما عليك يا لكع، أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شعبتي الرحل.

هذا وكانت مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م)، وبذلك ختمت حياة هذا الشاعر المؤمن الأمير، وأسدل الستار على حياته المليئة بالبطولة والعمل من أجل الإسلام والمسلمين.

وضم ابن رواحة إلى هذه الشجاعة الفذة في الجاهلية والإسلام، كرماً فياضاً وجوداً يدل على نبل المحتد وحب للإيثار، ومن ذلك ما جاء في كتب التفسير: أن ضيفاً من أهله نزل عنده، وكان هو عند رسول الله، فلما رجع إلى أهله وجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي؟ هذا الطعام علي حرام، فقالت امرأته: هو علي حرام، فلما رأى الضيف ذلك منهما قال أيضاً: هو علي حرام، فلما رأى عبدالله ذلك وضع يده، وقال: كلوا باسم الله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ، فذكر له الذي كان منهم، فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[2].

وكان شديد الحب للرسول ﷺ، يفتديه بروحه، ويطيعه حتى في الصغير المباح من شؤون الحياة والأمور الدنيوية الخالصة التي لم يلزمهم فيها بطاعته، فعن ابن أبي ليلى[3] أن النبي ﷺ كان يخطب، فدخل عبدالله بن رواحة، فسمعه يقول: اجلسوا، فجلس مكانه خارجاً من المسجد. فلما فرغ قال له: زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله).

(١) البعل: الذي يشرب بعروقه من الأرض. رواء: صفة للنخل أي مرتو.
(٢) المائدة ٨٧، ويرى جمهور العلماء أن تحريم مثل هذه الأمور لا يحرمها ولا كفارة فيها (ابن كثير ٢: ٦٢٧).
(٣) الإصابة ٢: ٣٠٦.

وكذلك تظهر طاعته له ﷺ من رفضه معاقبة ثابت بن قيس بن شماس لابن المعطل لمهاجمته حسان، دون معرفة من رسول الله. وذلك أن ابن المعطل اعترض حساناً بالسيف لما قذفه به من الإفك، فقال حسان شعراً يعرض فيه بابن المعطل وبمن أسلم من العرب من مضر وهاجروا إلى المدينة، ومطلعه:

أمسى الجلابيب قد عزّوا وقد كثروا ... وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

فاعترضه صفوان ابن المعطل بالسيف فضربه وقال:

تلقّ ذبابَ السيف عني فإنني ... غلامٌ إذا هوجيتُ لستُ بشاعر

فوثب ثابت بن قيس أخا بلحارث الخزرجي على صفوان، وجمع يديه على عنقه، فانطلق به إلى منزل قومه، فلقيه عبدالله بن رواحة، وهو من ساداتهم، فقال: ما هذا؟ قال: ألا أعجبك؟ ضرب حسان بالسيف.. والله ما أراه إلا قد قتله، فقال له ابن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بشيء من هذا؟ قال: لا والله، قال: لقد اجترأت.. أطلق الرجل. فأطلقه، ثم أتوا رسول الله، فذكروا ذلك له، فدعا حسان وصفوان. فقال صفوان: يا رسول الله، آذاني وهجاني فضربته فقال رسول الله لحسان: يا حسان، أتعيب على قومي أن هداهم الله عز وجل للإسلام؟)، ثم قال: (أحسن يا حسان في الذي أصابك)، قال: هي لك يا رسول الله.

كما كان شديد الخوف من الله يرجو رحمته ويخاف عذابه، فعن حماد بن أبي عمران الجوني قال: مرض عبدالله بن رواحة فأغمي عليه، فعاده النبي ﷺ فقال: اللهم إن كان أجله قد حضره فيسره عليه، وإن لم يكن حضر أجله فاشفه، فوجد خفة فقال: يا رسول الله، أمي تقول: واجبلاه، واظهراه، وملك قد رفع مرزبة من حديد يقول: أنت كذا؟ فلو قلت: نعم. لقمعني بها. وفي مرض له أيضاً كان واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكى، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني

ذكرت قول الله وجل: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا؟[1].

وكان رجلاً صواماً قواماً، قال عنه الرسول ﷺ: (رحم الله أخي عبدالله بن رواحة، كان أينما أدركته الصلاة أناخ)[2]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد الحر، حتى أن الرجل ليضع من شدة الحر يده على رأسه، وما في القوم صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة).

وعن ابن أبي ليلى[3] أن رجلاً تزوج امرأة عبدالله بن رواحة فسألها عن صنيعه، فقالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل بيته صلى ركعتين، لا يدع ذلك.

وكان لسانه لا يفتأ يذكر الله، لعلمه أن بذكر الله تطمئن القلوب، قال أبو الدرداء[4]: أعوذ بالله أن يأتي علي يوم لا أذكر فيه عبدالله بن رواحة، كان إذا لقيني مقبلاً ضرب بين ثديي، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي، ثم يقول: يا عويمر، اجلس فلنؤمن ساعة. فنجلس فنذكر الله ما شاء. ثم يقول: يا عويمر، هذه مجالس الإيمان، مثل الإيمان مثل قميصك، بينا أنك قد نزعته إذ لبسته، وبينا أنك قد لبسته إذ نزعته، القلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غليانها.

وكذلك كان شأنه مع غير أبي الدرداء، فكان كلما لقي رجلاً من أصحابه قال له: تعال نؤمن بربنا ساعة. وقال عنه ﷺ: (رحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)[5]، وقال عنه أيضاً: (نعم الرجل عبدالله بن رواحة)، وحين نزل قوله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٤٧٦.

(٢) رواية الطبراني بإسناد حسن.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم في باب الصوم.

(٤) الإصابة ٢: ٣٠٦.

(٥) المرجع السابق.

عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً﴾[1]، قال أناس من الصحابة: لو فعل ربنا لفعلنا، خضوعاً لأمر الله، لأن قتل النفس أو الخروج من الديار من أشق الأمور على النفس، فبلغت مقالتهم رسول الله ﷺ، فقال: (للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي)، أو قال: (إن من أمتي لرجالاً، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي)، وروي أن الرسول لما تلا هذه الآية أشار بيده إلى عبدالله بن رواحة وقال: (لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل)[2].

وكان إلى جانب هذا كله داعية إلى الله أسلم على يديه بعض رجال من قومه، فقد كان أحد النقباء كما ذكرنا، وممن أسلم على يديه أبو الدرداء، وذلك في قصة ظريفة ذكرها الحاكم في المستدرك عن الواقدي، قال[3]: كان أبو الدرداء رضي الله عنه فيما ذكر، آخر أهل داره إسلاماً، لم يزل متعلقاً بصنم له وقد وضع عليه منديلاً، وكان عبدالله بن رواحة رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام فيأبى، فيجيئه عبدالله بن رواحة، فلما رآه قد خرج من بيته خالفه فدخل بيته، وأعجل امرأته وإنها لتمشط رأسها. فقال: أين أبو الدرداء؟ فقالت: خرج أخوك آنفاً. فدخل بيته الذي كان فيه الصنم ومعه القدوم، فأنزله وجعل يقدده فلذاً فلذاً، وهو يرتجز سراً من أسماء الشياطين كلها: (ألا كل ما يدعى مع الله باطل)، ثم خرج، وسمعت المرأة صوت القدوم وهو يضرب ذلك الصنم، فقالت: أهلكتني يا ابن رواحة، فخرج على ذلك، فلم يكن شيء حتى أقبل أبو الدرداء إلى منزله، فدخل فوجد المرأة قاعدة تبكي شفقاً منه، فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك عبدالله بن رواحة دخل علي فصنع ما ترى، فغضب غضباً شديداً ثم فكر في نفسه، فقال: لو كان عند هذا خير لدفع عن نفسه، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ

---

(1) النساء: ٦٦.

(2) تفسير ابن كثير ٢: ٣٣٢ - ٣٣٣.

(3) حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ١: ٣٤٦ طبعة دار القلم بدمشق ١٩٧٠ م.

ومعه ابن رواحة فأسلم. وكان أبو الدرداء أخاه لأمه.

وكان رضي الله عنه أيضاً شديداً على المنافقين، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: (ركب حماراً عليه إكاف تحت قطفيه فدكية، وأردف أسامة وراءه يعود سعد بن عبادة رضي الله عنه قبل وقعة بدر، فسار حتى مر بمجلس فيه عبدالله بن أبي بن سلول، . . . وفي المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبدالله بن أبي أنفه بردائه، وقال: لا تغيروا علينا فسلم النبي ﷺ ووقف ونزل، فدعاهم إلى الله، فقرأ عليهم القرآن، فقال له عبدالله بن أبي: يا أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال ابن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، فركب النبي دابته حتى دخل على سعد ابن عبادة. . . . إلخ)[1].

وإلى جانب هذه الخلال التي أوضحت في أذهاننا شخصية هذا الصحابي الشاعر، وقدمته لنا شاعراً سخر فنّه وسيفه من أجل عقيدته، فإن له أيضاً مكانته عند علماء الحديث، فقد حدث عن رسول الله بعدة أحاديث رواها عنه جماعة كثيرة منهم: ابن عباس، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك[2]، وأبو هريرة[3]. وأرسل عنه جماعة من التابعين، كأبي سلمة بن عبد الرحمن، وعكرمة، وعطاء بن يسار[4]، وكان أحياناً يشترك في تفسير بعض

---

(١) حياة الصحابة ٣: ٨٥.
(٢) الإصابة ٢: ٣٠٦.
(٣) الاستيعاب ٢: ٢٩٤.
(٤) الإصابة.

مفردات القرآن، فقد سأله أحدهم عن لفظة (مقيت) في قوله تعالى: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾[1]، فقال: مقيت لكل إنسان بقدر عمله[2]، أي أن الله يرزق ويقيت كل إنسان بحسب جهده وعمله، لأن الكلمة مشتقة من القوت، وهو يمسك النفس ويحفظها[3].

وإذا أردنا أن نوجز ملامح شخصيته في كلمات قلنا: إنه كان شاعراً، فارساً وبطلاً معدوداً، عظيم القدر في الجاهلية والإسلام، كريماً محباً لله ورسوله، شديد الاقتداء بالنبي الكريم، داعية إلى الله، رحيماً بالمؤمنين، غليظاً على الكفرة والمنافقين، مفسراً محدثاً، سريع البديهة، لين المعشر محبوباً بين أهله وأقرانه، أكرمه الله بالشهادة، وأعز بلسانه وسيفه الإسلام.

نماذج من شعره:

سبق أن أوردنا شعره الجاهلي في الجزء الخاص بذلك من هذه الدراسة. كما أوردنا بعض نماذجه الإسلامية مبعثرة في هذا الفصل والذي قبله، ولذا سنكتفي هنا ببعض النماذج التي لم ترد كاملة هناك، ومن ذلك قوله في الرد على عباس بن مرداس السلمي حول إجلاء بني النضير[4]:

لعمري لقد حَكَّتْ رحَى الحرب بعدما	أطارت لؤيًّا قبلُ شرقاً ومَغْرِباً
بقيةَ آل الكاهنين وعِزَّها	فعاد ذليلاً بعدما كان أغلبا
فطاح سلامُ وابنُ سَعْية عنْوةً	وقِيدَ ذليلاً للمنايا ابن أخطبا
وأَجْلَبَ يبغي العزَّ، والذُّلَّ يبتغي	خلافُ يديه ما جنَى حين أجْلَبا
كتارك سهل الأرضِ والحَزْنُ هَمُّه	وقد كان ذا في الناس أكدى وأصْعَبا

(١) النساء: ٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٢: ٣٤٩.

(٣) الكشاف للزمخشري ١: ٥٤٣.

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ٢٠٢، وقد تردد ابن هشام في نسبتها بين كعب بن مالك وابن رواحة، وليس بين يدينا مرجح.

وشاسٌ وعَزَّال، وقَدْ صَلَّيا بها ... وما غُيِّبا عن ذاك فيمن تَغَيَّبا
وعَوفُ بنُ سَلْمى، وابن عَوْفٍ كلاهما ... وكعبٌ رئيسُ القوم كان وخُيِّبا
فبُعداً وسُحقاً للنضير ومثلها ... إن أعقَب فتحٌ، أو إنِ اللهُ أعقَبا

وقال ابن إسحاق[1]: وقال عبدالله بن رواحة يبكي حمزة بن عبد المطلب:

بكت عيني، وحَقَّ لها بُكاها ... وما يُغني البكاء ولا العويل
على أسدِ الإلَه غداة قالوا: ... أحمزةُ ذاكمُ الرجلُ القتيل؟
أُصيبَ المسلمون به جميعاً ... هناك، وقد أُصيب به الرسول
أبا يعلَى لك الأركانُ هُدَّتْ ... وأنت الماجدُ البَرُّ الوَصُول
عليك سلامُ ربِّك في جِنان ... مخالطها نعيمٌ لا يزول
ألا يا هاشمَ الأخيارِ صَبْراً ... فكلُّ فِعالُكمْ حسنٌ جميل
رسولُ الله مصطبر كريمٌ ... بأمرِ الله ينطقُ إذ يقول
ألا مَنْ مُبلغ عني لؤيًّا ... فبعدَ اليوم دائلةٌ تدول
وقبل اليومِ ما عَرفُوا وذاقوا ... وقائعَنا بها يُشفَى الغليل
نسيتُمْ ضربَنا بقليب بدرٍ ... غداةَ أتاكمُ الموتُ العجيل
غداةَ ثوىَ أبو جهلٍ صريعا ... عليه الطيرُ حائمةً تجول
وعتبةُ وابنه خرّا جميعاً ... وشيبةُ عضّه السيفُ الصقيل
ومَتْركنا أميّةَ مُجْلعِبًّا ... وفي حَيزومه لَدْن نَبيل[2]
وهامَ بني ربيعة سائلوها ... ففي أسيافنا منها فُلول
ألا يا هندُ فابكي لا تَمَلِّي ... فأنت الواله العَبْرَى الهَبول[3]
ألا يا هندُ لا تُبدي شِماتاً ... بحمزة إن عِزكمُ ذليل

وقال في هجرة زينب بنت رسول الله ﷺ وما تعرضت له[4]:

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ١٦٢ ونسبها ابن هشام لكعب أيضاً.
(٢) مجلعب: ممتداً مع الأرض. والحيزوم: أسفل الصدر. واللدن: الرمح اللين. النبيل: العظيم.
(٣) الواله: الفاقد. الهبول: الفاقد أيضاً.
(٤) سيرة ابن هشام ١: ٦٥٥ وقيل: هي لأبي خيثمة أخي بني سالم بن عوف.

أتاني الذي لا يَقْدُر الناسُ قدرَه ... لـزينَبَ فيهم من عقـوق ومـأْثَم
وإخـراجُهـا لم يُخز فيهـا محمـد ... عـلى مأقطٍ وبيننـا عـطر مَنْشَم[1]
وأمسى أبو سفيان من حِلْف ضَمْضَمٍ ... ومِنْ حَرْبنا في رغم أنفٍ ومَنْدَم[2]
قـرنَّـا ابنـه عَمْـرا ومَـوْلى يمينـه ... بذي حَلَقٍ جَلْد الصَّلاصل ِمُحْكَم[3]
فـأقسمتُ لا تنفـك منَّـا كتـائبُ ... سَراةُ خَميس ٍفي لُهام مُسـوَّم[4]
نَـزُوعُ قريشَ الكفـر حتى نَعلَّهـا ... بخـاطمـة فـوق الأنـوف بمَيْسم
نُنزِّلهـمْ أكنـاف نـجـدٍ ونخـلةٍ ... وإن يُتهموا بالخيل والرَّجْل ِنُتْهِم
يدَ الدهر حتى لا يُعـوَّجَ سِرْبُنـا ... ونُلحقـهـم آثـارَ عـادٍ وجُـرهـم
ويَنـدم قومٌ لم يـطيعـوا محمـداً ... على أمـرهمْ، وأيّ حينِ تنـدُّم
فـأبِلْغ أبـا سفيـان إمَّـا لقيتَـه ... لئن أنت لم تُخلِصْ سجوداً وتُسْلِم
فأبشِرْ بخزيٍ في الحياة مُعجَّـل ... وسـربالَ قـار خـالـداً في جهنم

وأخيراً أرجوزته في مؤتة:

يـا نـفسُ إلا تُـقـتـلي تمـوتي
هـذا حِمـام المـوتِ قـد صَـليتِ
ومـا تمـنـيـت فـقـد أعـطيـت
إن تـفـعـلي فـعـلهـا هُـديـت
إن تَـسلَمـي الـيـوم فلن تـفـوتي
أو تُـبـتَـلَيْ فـطالمـا عـوفـيـت
وإن تـأخـرْت فـقـد شـقـيـتِ
هـل أنـتِ إلا إصـبـع دمـيـت
وفي سـبـيـل الله مـا لـقـيـت

(١) المأقط: المضيق ومعترك الحرب.
(٢) هو أبو سفيان بن حرب.
(٣) بذي حلق: يعني الغُل. والصلاصل: جمع صلصلة، وهو صوت الحديد.
(٤) اللهام: الكثير.

حسان بن ثابت

قال أبو عبيدة[1]: فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في عهد النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام.

وقد تحدثنا عن حسان الجاهلي وشعره، وشمل ذلك في ثناياه أيضاً لمحات كثيرة من جوانب حياته الإسلامية، التي رأينا إفرادها بحديث خاص هو ما نحن بصدده الآن.

- ١ -

ولم أجد في المراجع التي بين يدي نصاً واحداً يذكر تاريخ إسلام حسان، كما هو الحال بالنسبة لزميليه: كعب وابن رواحة. ولم يكن أحد من قومه: بني عدي النجاريين، والمعروفين أيضاً ببني حديلة، ضمن من بايع في العقبة الأولى وإن كان بينهم ثلاثة نجاريون من بني مالك بن النجار وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، المعروفان بابني عفراء. ولكننا نجد[2] اثنين منهم حضرا البيعة الثانية أحدهما كان أخاً لحسان، وهو أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام، الذي آخى الرسول ﷺ بعد ذلك بينه وبين عثمان ابن عفان، والثاني هو: أبو طلحة زيد بن سهل، بن الأسود، بن حرام. مع

(١) الأغاني ٤: ١٤١.
(٢) سيرة ابن هشام ١: ٤٥٧.

تسعة آخرين من بني النجار ومع غيرهم من أحياء الأوس والخزرج الذين نيفوا على السبعين.

فحسان إذن لم يكن من السابقين إلى الإسلام، وإنما (اهتز لما أصاب قومه من نـزول الرسول في دورهم، ونزول عثمان على أخيه أوس، فدخل فيها دخل فيه قومه من الإسلام)[1]، وربما يكون لعثمان بن عفان أثر في إسلامه، فقد ظل على علاقة طيبة بعثمان طوال حياته، وحين مات رثاه بقصائد حزينة باكية، دعا فيها إلى الثأر من قاتليه، وحرض الأنصار على صانعي الفتنة، ومن ذلك قوله[2]:

مَن سرّه الموت صرفا لا مِزاج له ... فليأت مأسدة في دار عثمانا

مُستحقبي حَلَقِ الماذيِّ، قد سفعت ... فوق المخاطم، بَيْضٌ زان أبداناً[3]

بل ليت شعري وليتِ الطيرَ تخبرني ... ما كان شأنُ علي، وابنِ عفانا

ضحَّوْا بأشمط، عنوانُ السجود به ... يقطِّع الليل تسبيحاً وقرآناً

لتسمعَنَّ وشيكاً في ديارهمُ: ... الله أكبر، يا ثاراتِ عثمانا

وقد رضيتُ بأهل الشام زافرةً ... وبالأمير، وبالإخوان إخواناً[4]

إني لمنهم، وإن غابوا، وإن شهدوا ... حتى المماتِ، وما سُمِّيت حساناً

ويْهاً فدىً لكمُ أمي وما ولَدت ... قد ينفع الصبر في المكروه أحياناً

شدوا السيوف بثنْيٍ في مناطقكمْ ... حتى يحينَ بها في الموت من حانا

لعلكم أنْ تَروا يوماً بمَغْبطة ... خليفةَ الله فيكم كالذي كانا

ولم تفارق حسان طبيعته الشعرية حتى وهو يدخل الإسلام، فوقف بين

(١) حسان بن ثابت للدكتور درويش ص ١٥٩.

(٢) الديوان ص ٢٤٨.

(٣) مستحقبي، من استحقب الشيء: شده في مؤخر رحله، واحتمله خلفه. الماذي: الدروع. سفعت: أثرت. المخاطم: الأنوف. البيض: الخوذ.

(٤) الزافرة: الأعوان.

يدي رسول الله يعلن إسلامه شعراً وقال:

شهــدت بـإذن الله أن محمــداً   رسولُ الذي فوق السموات من عل

- ٢ -

وعرف الرسول ما عند حسان من ميل إلى الفخر والمباهاة فأفسح له في مجلسه ورفع مكانه، فصدح بالشعـر يعلن سرور الأنصـار، بمقدم النبي، ويشنع على قريش، تفريطهم فيه:

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيُّهم   وقد سُرّ من يسري إليهم ويغتدي

وانطلق يدافع عن الرسول ﷺ وعن الدين، وعرفت قريش بإسلام حسان وتصديه للدفاع عن الدعوة، وهي تعرف ذرابة لسانه وقـوة شعره فبادرته بالهجاء، وقال أمية بن خلف الجمحي يهجوه[١]:

ألا مـن مبـلغٌ حســان عــني   مـغَلْغَـلةً تـدب إلى عـكــاظ[٢]

أليس أبــوك فينــا كــان قَيْنــاً   لدى القينات فَسْلاً في الحفاظ[٣]

يـمــانيًّــا يــظل يـشــد كِـيــراً   ويـنفــخ دائبــاً لهـبَ الشــواظ

فأجابه حسان:

أتــاني عـن أميــة زُورُ قــول   ومـا هـو بـالمَغِيب بـذي حفـاظ

ســأنشـر إن بقيتُ لكم كـلامـاً   ينشَّـرُ في المجـامـع من عكـاظ

قــوافي كـالسِّــلام إذا استمـرّت   من الصم المعَجـرفة الغـلاظ[٤]

تـزورك إن شتـوتَ بكــل أرض   وتـرضخ في محلِّك بـالمَقـاظ[٥]

---

(١) الديوان ص ١٤١.

(٢) مغلغلة: رسالة تحمل من بلد إلى بلد.

(٣) الفسل: الضعيف الرذل.

(٤) السلام: الحجارة، والمعجرفة: الغليظة.

(٥) ترضخ: تكسر. المقاظ: الموضع الذي يقام فيه بالقيظ، أي الصيف.

بنيتُ عليك أبياتاً صلاباً كأَسْر الوَسق قُفِّص بالشِّظاظ[1]
مجلِّلةً تعمِّمه شناراً مضرَّمةً، تأجَّجُ كالشواظ[2]
كهمزة ضيغمٍ يَحمي عريناً شديدِ مغارزِ الأضلاع خاظي[3]
تغض الطرف أنْ ألقاك دوني وترمي حين أدبِر باللحاظ

وتوالت بعد ذلك الأحداث التاريخية الإسلامية الظافرة منذ بدر الكبرى إلى أن جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ورافقت تلك الأحداث ـ كما قلنا ـ حرب شعرية، بين المسلمين والمشركين كان حسان فارسها المعلى الذي لا يشق له غبار، وقد انتدبه الرسول ﷺ لها، كما انتدب معه زميليه كعب بن مالك وابن رواحة، فعن محمد بن سيرين[4] إنه كان يهجو رسول الله ثلاثة رهط من قريش: عبدالله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاص، فقال قائل لعلي بن أبي طالب: اهج عنا القوم الذين قد هجونا، فقال علي: إن أذن لي رسول الله فعلت. فقال رجل: يا رسول الله، ائذن لعلي كي يهجو هؤلاء القوم الذين قد هجونا. قال: ليس هناك، أو قال: ليس عنده ذلك. ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء. فقال: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين.

وتغاضى الرسول ﷺ عما كان يرد في شعر حسان من إقذاع كثيراً ما كان ابن هشام يتورع عن روايته، بل أشار الرسول إلى أن روح القدس

(١) كاسر الوسق: كالعدل المحكم المشدود بالشظاظ، وهو عودان يكونان في عروتي العدل. قفص: شبك.
(٢) الشنار: العار.
(٣) الهمزة: الضغطة. الخاظي: المكتنز اللحم.
(٤) الأغاني: ٤ : ١٤١ ثقافة.

يعضد حسان في هجائه للمشركين، فعن عائشة قالت[1]: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت الشاعر: (إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عز وجل وعن رسول الله).

وقال النبي[2] ليلة وهو في سفر: (أين حسان بن ثابت؟) فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: (احدُ)، فجعل ينشد والنبي ﷺ يصغي إليه حتى فرغ من نشيده، فقال النبي: (لهذا أشد عليهم من وقع النبل).

وعن سعيد بن المسيب[3] قال: جاء حسان إلى نفر فيهم أبو هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: (أجب عني)، ثم قال: (اللهم أيده بروح القدس)؟ قال أبو هريرة: نعم.

وزادت هذه المعركة الشعرية من إحساسه بالسيادة والفخر بحسبه ونسبه، فلذلك كان الفخر والهجاء بالإضافة إلى الشعر الديني والتاريخي السياسي، هي أبرز أغراض شعره الإسلامي، يلي ذلك الرثاء والوصف، ويأتي في آخر القائمة المدح والعتاب والاعتذار.

- ٣ -

وتأتي أهمية حسان الشعرية في العصر الإسلامي من كونه أصبح الناطق الرسمي في مجال الإعلام الإسلامي يساعده في ذلك كعب وابن رواحة، واصطباغ شعره بطابع الدعوة الجديدة فهو يفخر بالإسلام وبما قدم قومه فيه، ويهجو أعداء الإسلام. ويصف معارك الإسلام، ويرثي أبطال الإسلام، ويمدح رسول الإسلام. صحيح أنه بقيت في شعره بعض البصمات الجاهلية، وأن تحوله إلى المفاهيم والصيغ الإسلامية كان بطيئاً، ولكن ذلك في الواقع لا

(١) المرجع السابق ٤: ١٤٧.
(٢) المرجع السابق ٤: ١٤٧.
(٣) الأغاني ٤: ١٤١ ثقافة.

يغض من إسلامياته في شيء، فقد كان من أكبر شعراء يثرب في الجاهلية فنّا وغزارة إنتاج، ومن الشعراء المعدودين على مستوى الجزيرة العربية بأسرها، يقول أبو عبيدة[1]: وأجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر. وقد أفضت بنا دراسة شعره الجاهلي إلى أن مكانته الشعرية في واقعها تتجاوز المدر إلى الوبر، وإن فنّه الشعري يضعه بجدارة في طبقة الشعراء الجاهليين الكبار. وإذا كان الأمر كذلك، فهل كان من اليسير عليه أن يتحول بين عشية وضحاها بشعره إلى فن إسلامي صرف لا شائبة فيه؟ إن العكس في تقديرنا هو الصحيح، وقد كان يكفيه اتخاذ الموقف، ومن هذه الناحية كان موقفه دون شك إسلامياً خالصاً، ثم هو تدرج في معانيه وألفاظه وأساليبه، فلم تمض السنوات الأولى من إسلامه حتى غدا شاعراً إسلامياً متكاملاً لا مطعن فيه، مع الحفاظ على مستوى فني رفيع. ولا شك أن ذلك من أبرز سمات العبقرية الشعرية عند حسان.

- ٤ -

والعجب كل العجب من أولئك الذين ذهبوا يتهمون شعر حسان الإسلامي بالضعف واللين معتمدين على قول الأصمعي[2]: (الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل، فإذا دخل في الخير يضعف، لأن هذا حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره).

ومن الذين انجرفوا وراء هذا الرأي وساروا في هذا الاتجاه، محقق ديوانه الدكتور سيد حنفي حسنين، وقد يكون من المناسب إيراد مقالته توطئة للرد عليها ونقض هذه الفكرة الخاطئة من أساسها، يقول[3]: (وقد عاش حسان في جاهليته في الفترة التي ازدهر فيها نوعان من الشعر التقليدي

(١) المرجع السابق ٤: ١٤١.
(٢) أسد الغابة ٢: ٦ دار الشعب.
(٣) ديوان حسان بن ثابت ـ دكتور سيد حنفي حسنين ص ١٠.

القديم: فن الشعر القبلي، وفن شعر المديح. وقد برع حسان في كلا الفنين، برع في أولهما، لأنه كان من الشعراء القبليين الذين كانوا لسان حال قبائلهم، يمجدون انتصاراتها ويفخرون بأمجادها كما برع في آخرهما، لأنه كان من الشعراء الجوالين الذين نزلوا الإمارتين الشماليتين: إمارة الغساسنة، وإمارة المناذرة، يمدحون ملوكهما، وينالون عطاياهم وجوائزهم لذلك نجد حسان الجاهلي في مناقضاته القبلية، وفي مدائحه التكسبية من خير ما وصلنا من هذا الشعر.

فإذا قرأنا شعره الإسلامي نلاحظ اختلاف المستوى الفني لهذا الشعر في الإسلام عنه في الجاهلية، فالجاهلي قوي جزل صادق التعبير ينبض بالحيوية ويتدفق بالأحاسيس التي توارثها جيلاً بعد جيل، أما الإسلامي فقليل الذي يحتفظ بمستواه وكثير الذي يسقط ويضعف).

ومن الواضح أن أصحاب هذا الرأي يتفقون في عرض القضية على شقين:

الأول: أن شعر حسان الجاهلي قوي وعلى مستوى عال من الفحولة والجزالة وأنه من أجود الشعر الذي عرفه الناس لشعراء ذلك العصر.

ونحن بلا شك معهم في هذا الحكم، ومعنا فيه أيضاً ـ كما تقدم ـ النابغة الذبياني والأعشى، فقد لقيهما، وقال كل منهما له: إنك لشاعر[1].

ومعنا الحطيئة الذي قال وهو على فراش الموت: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:

يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

ومعنا مزرد أخو الشماخ حين يستكثر على كعب بن زهير أن يدعي لنفسه

(١) الموشح ص ٦٠ وبلوغ الأرب ١: ٢٥.

وللحطيئة سبقاً في القوافي ويتناسى الشعراء الكبار مثل حسان فيقول[1]:

فلست كحسان الحسام بن ثابت   ولست كشماخ، ولا كالمخبل
فبؤسك إذ خلفتني خلف شاعر   من الناس، لا أكفي ولا أتنحل

ومعنا أبو عمرو بن العلاء إذ يقول: أشعر أهل الحضر حسان بن ثابت[2].

ومعنا أبو عبيدة في قوله الذي أوردناه قبل قليل: أجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر، وقوله الذي افتتحنا به هذا الحديث عن حسان.

ومعنا محمد بن سلام الجمحي في قوله الذي أوردناه في كلام سابق: (وأشعرهن قرية المدينة، شعراؤهن الفحول خمسة، ثلاثة من الخزرج، وإثنان من الأوس... أشعرهم حسان بن ثابت. وهو كثير الشعر جيده).

ومعنا كذلك كل باحث متريث يحكم ذوقه ولا يتأثر بأحكام بعض المتسرعين.

والأصمعي نفسه يقول: شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر.

أما الأوروبيون فإنهم يفضلون شعره على شعر أهل الحاضرة والبادية جميعاً، لارتباطه بالتاريخ الإسلامي وتوضيح كثير من وقائعه[2].

ولكن لنا وقفة مع الدكتور سيد حنفي فيما ذهب إليه، فقد جعله ممن برعوا في المدح، وعلل ذلك بأنه كان من الشعراء الجوالين المتكسبين بالشعر، فبادىء ذي بدء نلاحظ أنه غير دقيق في التعبير بالشعراء الجواليين، لأن هذا التعبير يقصد منه في العصر الحديث مجموعة من الشعراء ظهروا بين فرنسا واسبانيا كانوا يتجولون بشعرهم ويغنونه ويدورون به بين الناس متأثرين بالشعر العربي والأساليب العربية عرفوا بالتروبادور، وكانوا سبباً في وصل الثقافة الأوروبية بالثقافة العربية والاستفادة منها ثم إن حسان لم يتجاوز شعر المدح عنده العشرين بيتاً موزعة بين ممدوحيه ـ كما أشرنا إلى ذلك في كلام سابق ـ

---

(١) الشعر والشعراء ص ٦١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣٧٥٧.

فكيف يجعله من الأغراض الغالبة عليه، والتي برع فيها، نعم قد يكون لحسان بحكم صلته بالمناذرة والغساسنة شعر مديح آخر لم يصلنا، وهو أمر مقبول من الناحية النظرية، ولكن هذا الافتراض لا يؤهلنا للحكم له أو عليه، وإنما اشتهر حسان بالفخر والهجاء والوصف، ولعل قصة حسان في مدحه آل جفنة بقصيدته البتارة ولقائه آنذاك مع فحلين من فحول الشعر: النابغة وعلقمة هو الذي أطار شهرته بالمدح. وجعل الناس يتوهمونه شاعراً مداحاً.

وصحيح أنه ـ كما أخبر عن نفسه ـ كان يحصل على الجوائز السنية وبخاصة من الغساسنة ولكن قلة نصوص المدح لديه لا تجعلنا نركن إلى أنه كان بالفعل من المستمنحين المتكسبين، والموجود منها ليس فيه ما ينم على هذا الاتجاه، فإن ما في لاميته من مدح ـ مثلاً ـ ليس خاصاً بالأمير الغساني الذي وقف بين يديه، بل هو مدح عام يلحق بكل غساني، علاوة على ما كان بينه وبينهم من علاقة في الأنساب تجعل مديحه له ضرباً من الفخر.

أما الشق الثاني من القضية وهو ليونة شعره بعد إسلامه، فإنه يجدر بنا قبل المناقشة أن نحدد المعنى المقصود من هذه الليونة، فإذا كان الغرض منها السهولة والبعد عن بعض ما كان في الشعر الجاهلي من غرابة في اللفظ أو وعورة في الأسلوب فليس ذلك بعيب، بل إنه لدليل على تأثر حسان ببيئته، وتأثره بأسلوب القرآن الكريم السهل الممتنع الناصع المشرق، وهو أمر طبيعي متوقع يدل من ناحية أخرى على استعداد فني خاص عند حسان يلائم به بين فنه والحياة من حوله بجميع أساليبها الفكرية والتعبيرية، وإنما كان يمكن أن يعاب بالجمود والتوقف على التجدد والمعاصرة فيما لو كان كذلك. وفي اعتقادنا أنه لا يضير حسان في شيء من هذا الوجه أن لا يرضى عنه رجل مولع بالغريب كالأصمعي، جعل مقياس بلاغة الشعر عنده، ما فيه من ألفاظ بدوية حوشية وأساليب جاهلية شثناء. بل إن من حق حسان أن يفخر بأخذه من القرآن ومسايرته لروح العصر الحديث والحياة الجديدة، في وقت

صمت فيه شعراء معدودون كلبيد، وبقي آخرون يعيشون قبل عصرهم في جاهلية وبداوة وعنجهية كالحطيئة.

وإذا كان الغرض من الليونة: الضعف والهبوط - كما يفهم من قول الأصمعي (سقط شعره) ومن قول سيد حنفي: (أما الإسلامي فقليل الذي يحتفظ بمستواه وكثير الذي يسقط ويضعف)، فإن ذلك غير سليم ولا مستقيم، وقد تكلم في هذا الموضوع الدكتور محمد طاهر درويش[1] بما لم يترك فيه لغيره مجالاً للقول، ولهذا فسيكون في كلامنا هنا كثير من المسامتة والاحتذاء، وملخص هذا الرأي:

١ - إن كلام الأصمعي ينقض آخرُه أولَه لأنه جعل سبب هبوط شعر حسان، دخوله في الخير، من مراثي النبي وحمزة وجعفر وغيرهم، وجعل سبب قوة الشعر انتهاجه سبيل الفحول، من وصف الديار والخمر والخيل والحرب والهجاء والمديح والنسيب والفخر. وإذا راجعنا شعر حسان وجدنا أن أكثره كان في الوجوه التي ذكرنا، وأقله ما كان في الرثاء، فكيف يصح إذن وصف جملة شعره على هذا الأساس بالضعف واللين؟

٢ - إن إلزام الشاعر بانتهاج ما سماه سبيل الفحول، واتهام ما لم يكن كذلك بالضعف والهبوط غيرُ مسلّم، فإن كثيراً من الشعراء في العصور الإسلامية المختلفة خالفوا ذلك المنهج ومع ذلك كانوا من الشعراء العظام بكل المقاييس، فهذا الإلزام إذن مرفوض فنياً وواقعياً.

٣ - ليس بصحيح أن الشعر ملازم للنكد والشر، معاد للحق والخير، بل الصحيح أن الشعر وسيلة صالحة للتعبير الفني المطلق لا رابطة خفية أو ظاهرة تربطه بخير أو شر، ولا أثر في ذلك لارتفاعه أو هبوطه، إلا إذا كنا ممن يقدر العمل الفني بالمضمون، وحينئذ سنجد المضمون الشعري الإسلامي لحسان في غاية الرفعة والسمو فلا ضعف ولا لين. فإذا رجعنا إلى البصراء

---

(١) حسان بن ثابت للدكتور درويش ٥٠٤ - ٥١٠.

بالشعر، العالمين بأسباب قوته وضعفه وجدناهم يردون قوة الشعر وضعفه إلى طبيعة الشاعر، وأصالة مواهبه أو سطحيتها وإلى صدق عاطفته أو كذبها، وقوة انفعاله النفسي أو ضعفه، وكما تنفعل النفوس بعوامل الشر تنفعل بدوافع الخير، وقد يصل انفعالها بأسباب الخير أقصى درجاته فيرتفع شعرها فيه إلى أسمى ذرواته، وقد يكون انفعال الشاعر بحب الرسول ﷺ أشد وأقوى من انفعال شاعر بحب غادة لعوب، فيقول الأول في مدحه ووصف ما يعانيه من لواعج حبه ما لا يستطيع أن يقوله الآخر في محاسن محبوبته وما يحسه من لوعة العشق وحرقته، وقد يقول شاعر في حب الذات القدسية ووصف الراح الإلٓهية ما لا يقوله آخر في الكواعب الحسان، أو في بنت الدنان وخمر بيسان)، وهذا البوصيري يأتي بالشعر الرائع المونق في مدح الرسول ﷺ، وبين أيدينا روائع شوقي أيضاً في مدح الرسول وبكاء مجد العروبة وحضارة الإسلام في الأندلس والشام، وما صاغه في الحكم والأخلاق من عيون شعره وخوالده، فلا تنافي البتة بين الخير والإبداع الشعري.

٤ ـ لا ينبغي أن يتخذ الرثاء سبباً في ضعف الشعر بل إنه إذا كان صادقاً كان من أروع أبواب الشعر، وأوسعها مجالاً للإبداع والتفنن، لا يتأثر بجاهلية أو إسلام، وهذه المراثي العظيمة لأبي تمام والبحتري والمتنبي وابن الرومي، وأبي البقاء الرندي وشوقي وغيرهم تأتي بما لا نظير له في ميدان الشعر.

٥ ـ إن فخر حسان الإسلامي وهجاءه وهما الفنان اللذان برع فيهما حسان في الجاهلية والإسلام لا يستطيع أحد أن ينسب إليهما أي لين أو ضعف بحال من الأحوال، بل الملاحظ أنهما ازدادا قوة وسار بهما أشواطاً كبيرة، مع شرف الغاية وسمو الاتجاه، وقد يحسن في هذا الباب الرجوع إلى لاميته في الفخر التي فيها:

فنحن الذرى من نسل آدم والعُرى   تـرّبـع فينـا المجـد حتى تـأثـلا

بنى العز مجداً فاستقرت عماده ... علينا، فأعيا الناس أن يتحولا
وإنك لن تلقى من الناس معشراً ... أعز من الأنصار عزاً وأفضلا

كما يحسن في الهجاء أن نذكر مناقضاته مع كل أعداء الإسلام من قرشيين وغيرهم، وإنني لأتخيل حسان في هذه المعركة يضرب على يمينه وشماله، ومن خلفه ومن أمامه، في حركة لا تفتر ولسان لا يتوقف، قد أفحمهم جميعاً وأسكتهم، وخرج منتصراً رافع الرأس، يعتز به قومه ويفخر به دينه، وكم يذكرني بجرير حين يقول[1]:

أعددت للشعراء سماً ناقعاً ... فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وضغا البعيث، جدعت أنف الأخطل

وقد بلغت قوة تأثير شعره الهجائي في صدر الإسلام، مبلغاً عظيماً، جعل الناس يستجيرون منه برسول الله ﷺ، قال أبو الفرج[2]: (جاء الحارث ابن عوف بن أبي حارثة إلى النبي ﷺ فقال: أجرني من شعر حسان فلو مزج البحر بشعره لمزجه)، وذلك (أن الحارث أتى رسول الله ﷺ فقال: ابعث معي من يدعو إلى دينك وأنا له جار، فأرسل معه رجلًا من الأنصار، فغدرت بالحارث عشيرته، فقتلوا الأنصاري، فقدم الحارث على رسول الله ـ وكان عليه الصلاة والسلام لا يؤنب أحداً في وجهه ـ فقال: (ادعوا لي حسان)، فدعي له، فلما رأى الحارث أنشده:

يا حار من يغدر بذمة جاره ... منكم فإن محمداً لم يغدر
إن تغدروا فالغدر منكم شيمة ... والغدر ينبت في أصول السخبر[3]

فقال الحارث: اكففه عني يا محمد، وأؤدي إليك دية الخفارة[4]، فأدى إلى

(١) ديوان جرير ص ٤٤٣ طبع دار الأندلس.
(٢) الأغاني ٤: ١٥٩ ثقافة.
(٣) السخبر: شجر إذا طال تدلت رؤوسه.
(٤) الخفارة: الذمام.

النبي ﷺ سبعين عشراء، وكذلك دية الخفارة، وقال: يا محمد، أنا عائذ بك من شره، فلو مزج البحر بشعره مزجه).

ومخافة هذا الهجاء هي التي جعلت رجلاً كالمغيرة بن شعبة يبعث لحسان بخمسمائة ألف درهم اتقاء لسانه، مع ما عرف به المغيرة من بخل شديد، ذكروا منه أنه طلق إحدى نسائه لأنه رآها تخلل أسنانها بعد صلاة الفجر، فظن أنها كانت تأكل، وما أكلت المسكينة شيئاً، وإنما كانت تتخلل من السواك، يقول أبو الفرج أيضاً[1]: (بينما حسان ذات يوم جالس بالخيف من منى، وهو مكفوف، إذ زفر زفرة ثم أنشأ يقول:

وكـأن حـافـرهـا بكـل خميلةٍ ... صـاعُ يكيـل بـه شحيـحٌ مُعـدِم
عاري الأشاجـع من ثقيف أصلُه ... عبـدٌ ويـزعم أنـه مِنْ يَقْـدُم[2]

وكان المغيرة بن شعبة يسمع ما يقول: فبعث إليه بخمسمائة ألف درهم، فلما أتاه بها الرسول قال: من بعث بهذه؟ قال: المغيرة بن شعبة، سمع ما قلت، فقال: وأسوأتاه.. وقبلها).

٦ - يقول ابن سلام[3]: عن حسان: (وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاضهت قريش واستبّت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى)، ومن ذلك[4] قصيدة في هجاء أبي لهب، قال عنها سعيد بن عبد الرحمن بن حسان: ليست هذه الأبيات من قول حسان، إنما هي مما وضع عليه، ومنها:

فلو كنتَ حرًّا من أكارم هاشمٍ ... وأشـرافها منهـا منعتَ المـظالمـا
ولكنّ لِـحيـانـا أبـوك ورثْـتَـه ... ومأوى الخَنَى منهم، فدَعْ عنك هاشماً
سمـا هـاشمٌ للمكـرمـات وللعـلا ... وغودرتَ في كابٍ من اللؤم جاثماً

---

(١) المرجع السابق ١٦: ٤٨.
(٢) يقدم: فرع من قبيلة إياد اليمانية. ويقال: أن ثقيفاً نفسها من بني يقدم وفي الشعر إقواء.
(٣) طبقات فحول الشعراء ١: ٢١٥ وحمل عليه: نسب إليه وليس له. وتعاضهوا: تشاتموا.
(٤) ديوان حسان بن ثابت للدكتور سيد حنفي ص ٢٣.

ومنها أيضاً الأبيات التي وضعت على لسانه في هجاء بني مخزوم، والتي يقول فيها:

كلابٌ وتَيْمٌ أَلْصَقا ابن أخيهما ... ولولاهما كانوا عبيدَ بني بَكر
هما استنقذاه بعدما شاب رأسُه ... بدهر حذار العار من سُبَّة الدهر
وإنَّ امرأً بَزْلٌ أبوه وجدُّه ... سَحابٌ لَمحسوسٌ إلى منتهىَ الفَخْر

يقول العدوي: ليست هذه الأبيات بمعروفة لحسان، ومخزوم أثبت وأشهر في قريش من أن تشتم، وإنما وضعت مقاومة لسلطان أمير المدينة إبراهيم بن هشام المخزومي في عهد بني أمية.

وكذلك القصيدة المنسوبة إليه في رثاء عثمان والتي منها:

أبلغ معاويةَ بن حرب مَألُكا ... ولكل أمر يستَرادُ قرار
لا تقبلن دنية أُعطِيتها ... أبدا ولمَّا تألَمِ الأنصار
حتى تُبارَ قبيلةٌ بقبيلة ... قَوَداً وتحرَبَ بالديار ديار
وتجيء من نَقْب الحجاز كتيبةٌ ... وتسيل بالمستلئمين صِرار

فإنها من وضع أنصار معاوية، وكذلك بعض أبيات نونيته السابقة في رثاء عثمان، نعم كان حسان عثمانياً للأسباب التي ذكرناها سابقاً، يبكي عثمان ويستحث على الأخذ بثأره، ولكننا نستبعد أن يحمل وزر قتله علياً رضي الله عنه، لأن علياً لم يعن عليه أحداً ولم يدع إلى خلعه، بل يحاول جهده كما حاول غيره تخذيل الثائرين وإقناعهم بالعدول عن موقفهم فلم يفلح.

وكذلك استغل سمعته الشعرية الزبيريون، ومن ذلك اللامية التي أوردها أبو الفرج، فإن بعض أبياتها على الأقل موضوع وبخاصة البيت الذي وضع فيه آل الزبير فوق عشائر قريش جميعاً، فليس للزبير شبيه ولا نظير في قريش، وهو بعد ذلك أقرب الأسر لرسول الله ﷺ، وهو جانب اعتمد عليه

الحزب الزبيري في مناهضة الأمويين.

أقام على عهد النبي وهـدْيه　　حـواريُّه والقـولُ بـالفعـل يُعـدل
أقـام على منهـاجـه وطـريقـه　　يوالي وليَّ الحق، والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذي　　يصول إذا ما كـان يوم محجّـل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حشَّها　　بأبيضَ سباقٍ إلى المـوت يُرقـل
وإن امـرأ كـانت صفيـةُ أمَّـه　　ومن أسدٌ في بيتهـا لَمُـرفَّـل[2]
لـه من رسول الله قـربى قريبـةٌ　　ومن نصـرة الإسلام مجـد مؤثل
فكم كـربـةٍ ذبَّ الـزبيـرُ بسيفـه　　عن المصطفى والله يعطي فيجزل
فمـا مثله فيهم، ولا كـان قبله　　وليس يكون الدهرَ ما دام يذبل
ثنـاؤك خيـر من فعـال معـاشـر　　وفعلك، يا ابن الهاشمية أفضل

وكذلك فعل العباسيون كغيرهم من الأحزاب السياسية، فمن ذلك قصيدة نسبوها إليه في رثاء جعفر بن أبي طالب. أولها:

تـأوبني لـيـل بيثـرب أعسـر　　وهم إذا مـا نـوم القـوم مسهـر

فلعل من نسب الضعف إلى شعر حسان الإسلامي عنَى مثل هذا الشعر الموضوع المحمول عليه، وهو منه براء، وفي هذه الحالة لا يصح لنا أن نؤاخذ حسان بضعف كلام لم يقله ولا يتصل بشعره من قريب أو بعيد.

٧ ـ إن ما يعترض قارىء شعر حسان الإسلامي من بعض الهنات، لا يمكن أن يخلو منه شعر شاعر في جاهلية أو إسلام، بل إن الشاعر في القصيدة الواحدة لا يطلب منه أن يكون كل أبياته سواء، وكذلك البناء أي بناء، وبخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن حسان كان كثيراً ما يضطر إلى الارتجال، لأن المواقف كانت تتطلب منه ذلك، ولا يقبل منه تأنٍ أو اعتذار، وذلك كما

---

(١) الديوان ص ١٩٨.
(٢) المرفل: المسود الأعظم.

هو الحال في قصة ورود وفد تميم، ولم يؤثر عن حسان في جاهلية أو إسلام أنه كان من عبيد الشعر كالحطيئة أو زهير وأضرابهما، بل كان شاعراً قوالاً حاضر البديهة ذرب اللسان.

ومن كل ما تقدم يتضح أن (الحكم على شعر حسان الإسلامي بالليونة والضعف حكم جائر خطير. وعلى من يتصدى لمثل هذا الحكم أن ينظر في شعره الجاهلي والإسلامي كله، ويرى مبلغ اتصال كل منهما ببيئته، وملاءمته الأوضاع والأحوال التي لابسته، وتجاوبه مع المناسبات التي دعت إليه، وتأثيره وتأثره بما حوله، ومبلغ غناء كل منهما في موضعه وتمثيله لعصره، وجريه على سنن الشعر، وحظه من لغته ومزاياه، وسينتهي به النظر إلى أن شعره جميعه في ذلك سواء)[1]، لم يضعف ولم يلن ولم ينتكس مستواه الفني، وإنما هو فن جاهلي، وآخر إسلامي، كان من واضعي أسسه حسان وزميلاه كعب وابن رواحة، يجب أن ينظر إليه بمقاييس نقدية نابعة من داخل هذا الإطار. (وربما كان غرض الأصمعي بالليونة: البعد عن المبالغة والجنوح إلى الكذب، وترك الاتجاه إلى المعاني الجاهلية وتزيين الباطل وتحسين الملذات، كما كانت عادة الشعراء، وكما عرف عندهم من أن أعذب الشعر أكذبه، وهو عندئذ أدنى إلى الحق والصواب. ولعل مما يؤيد هذا ما روي من أن قائلاً قال لحسان: لان شعرك في الإسلام يا أبا الحسام فقال[2]: (يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الكذب، وإن الشعر يزينه الكذب)، قال ابن الأثير:[3] في تفسير كلام حسان السابق: (يعني أن الإجادة في الشعر هو الإفراط في الذي يقوله، وهو كذب يمنع الإسلام منه، فلا يجيء الشعر جيداً).

- ٥ -

ومهما يكن فحسب حسان أنه كان شاعراً فحلاً مطبوعاً سمح القريحة

---

(١) حسان بن ثابت للدكتور درويش ص ٥٠٧.

(٢) أسد الغابة ٢ : ٦ دار الشعب.

(٣) حسان بن ثابت ٥٠٩.

عظيم الاعتداد بنفسه وشعره، وأنه تخلى في شعره ما استطاع عما ذمه القرآن، ووقف نفسه على الجهاد بشعره في سبيل الله، فنال من أعدائه كل منال، حتى استحق أن يلقب بشاعر الرسول وأن يقدمه على غيره من الشعراء ويقيم له منبراً في مسجده ينشد فيه شعره، ويدعو له بالتأييد فيه، ويقول فيه: (هجاهم حسان فشفى واشتفى) وأن يندبه بعد ذلك عمر بن الخطاب للفصل في خصومات الشعر والشعراء.

وقد كان الأنصار يفاخرون به شعراء العرب جميعاً، وكان قومه الخزرج يفاخرون به فخرهم بزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل من الصحابة العظام أصحاب المآثر وذوي العلم في الإسلام، فقد روى الخشني عن أنس أنه قال[1]: تفاخرت الأوس والخزرج فقال الأوس: منا غسيل الملائكة حنظلة الراهب، ومنا عاصم بن ثابت بن الأقلح الذي حمت لحمه الدبر، ومنا ذو الشهادتين: خزيمة بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش: سعد بن معاذ، قالت الخزرج: منا أربعة قرأوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يقرأه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب سيد القراء، ومنا الذي أيده الله بروح القدس في شعره: حسان بن ثابت.

كان حسان رائداً للشعر السياسي والديني وشعر النقائض، تأثر به كثير من الشعراء كفرسان النقائض: الفرزدق وجرير والأخطل والكميت، وبلابل الغزل: ابن أبي ربيعة والعرجي والأحوص وغيرهم، ومعاقرو اللسلاف، كالأخطل وأبي نواس، وأمراء المديح والرثاء كالمتنبي والكميت. (ولا شك أنه كان مدرسة هجائية تأثر بها ونهج نهجها جرير والفرزدق، وأن نقائضه كانت مثالاً احتذياه وتبعاه).

- ٦ -

ونحن في الواقع لا نستطيع أن نوفي هذه العبقرية الفذة حقها من

---

(١) العقد الفريد ٣: ٢٥١.

التوقير والتقدير مهما أطنبنا، وقد يكون فيما أوردنا حول شاعريته على اختصاره ما يكفي للدلالة عليها، ومع ذلك فإننا نؤثر أن نختم هذه الفقرة بذكر بعض ما غني فيه من شعره الإسلامي، مما يدل على انسجامه مع فن آخر من الفنون الجميلة الرائعة، فقد تغنت[1] عزة الميلاء في قوله:

إن كنت كـاذبـةَ الـذي حدّثتِني فنجوتِ منْجَى الحارث بن هشام

تـرك الأحبَّـة أن يقـاتِـل دونهم ونجـا بــرأس طِمِـرَّةٍ ولـجـام

وفي قوله:

تبلت فؤادَك في المنـام خـريـدةٌ تشفي الضجيـعَ ببـاردٍ بســام

كـالمسـك تخلطه بمـاء سحـابـة أو عاتـقٍ كـدمِ الـذبيـح مُـدام

نماذج من شعره الإسلامي:

رغم ما قد يتوقع من ضياع بعض شعر حسان في المديح على الأقل، فإنه يبقى الشاعر المدني الأول من حيث الكم جاهلية وإسلاماً، وسوف لا نرخي لأنفسنا العنان في مجاراة هذا الكم في إيراد ما سنورده هنا من نماذج لشعره، وإنما سنكتفي بالقدر الذي يساعد على تصور أفضل، مما لم يتهيأ لنا إيراده في الفصول السابقة، ومن ذلك ما قـاله في هجـاء هذيـل في يوم الرجيع[2]:

فـلا والله مــا تدري هُـذَيــل أصــافٍ مـاءُ زمــزم أم مشـوب

ولا لهـمُ إذا اعتـمــروا وحجّـوا من الحِجْـرين والمسعَى نصيب[3]

ولـكـنَّ الـرجـيــعَ لهـم محــلٌّ بــه الـلؤم المبــيـنَّ والـعـيـوب

---

(١) الأغاني ٤: ١٧٣ ثقافة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ١٨٢.

(٣) الحجرين: أراد حجر الكعبة، وإنما ثناه مع ما يليه.

كـأنهمُ لـدى الـكَنّـات أُصْـلاً ... تيـوسٌ بـالحجـاز لهـا نَبيب[1]
هـمُ غـرُّوا بـذمّتـهم خُـبيبـاً ... فبئس العهـدُ عهـدُهم الكـذوب

وقال يهجو الوليد بن المغيرة[2]:

إذا نسِبتْ يـومـاً قـريشٌ نفتكمُ ... وإن تنتسب شَجعْ فأنت نسيبهـا
وإن التي ألقتك من تحتِ رجلها ... وليداً لِمهجانُ الغـذاء خُبوبهـا[3]
وأمُـكٌ من قَسْـر حُبـاشـةُ أمُّهـا ... لسمـراءِفَهْمٍ، آسنُ البَوْل طيبُهـا

وقال يهجو صفوان بن أمية[4]:

من مبلغٌ صفـوانَ أن عـجـوزه ... أمَـةٌ لجـارة مَعْمَـرِ بن حبيب[5]
أمَـةٌ يقـال من البـراجم أصلُهـا ... نسبٌ من الأنساب غيرُ قريب[6]
سـائل بحنبـلَ إن أردت بيـانَهـا ... مـاذا أراد بخَـرْبِهـا المثقـوب[7]
لـولا السِّفارُ وبُعـد خَـرْقٍ مَهْمـهٍ ... لتـركتُهـا تحبـو على العـرقـوب

ومـر حسان بمجلس مزينة بعدما كف بصره فضحك به بعضهم فقال:

أبـوك أبـوك، وأنـتَ ابـنُـه ... فـبئس الـبـنـيُّ، وبئس الأب
وأمّـك سـوداء مَـودونـةٌ ... كـأن أنـاملهـا الـحُـنْـظب[8]
يـبيـت أبـوك بـهـا مُـعْـرِسـا ... كـمـا سـاور الهـوَّةَ الـثـعـلب

---

(١) الكنات: جمع كنة، وهي شيء يلصق بالبيت يكن به. النبيب: الصوت.
(٢) الديوان ص ٢٥.
(٣) مهجان: صيغة مبالغة من هجن. والخبوب: جمع خب، وهو الخداع.
(٤) الديوان ص ٣٢.
(٥) معمر بن حبيب: رجل من قريش.
(٦) البراجم: أحياء من بني تميم.
(٧) حنبل: زوج أم صفوان. خربها المثقوب: أذنها المشقوقة.
(٨) المودونة: القصيرة العنق والألواح واليدين، أو الناقصة الخلق، الضيقة المنكبين، الحنظب: ضرب من الخنافس.

فما منك أعجبُ يا ابن اسْتِها ولكنَّني من أولَى أعجب
إذا سمعو الغيَّ آدُوا له تيوسٌ تَنِبُّ إذا تضرب[1]
ترى التيسَ عندهمُ كالجواد بلِ التيس وسْطهمُ أنجب
فلا تدْعُهم لقراع الكماة ونادِ إلى سوءة يركبوا

وقال لحكيم بن حزام[2]:

نجَّى حكيماً يوم بدر ركضُه كنَجاءِ مُهْرِ من بنات الأعوج[3]
ألقَى السلاحَ وفرَّ عنها مهمَلا كالهِبْرِزيِّ يزِلُّ فوق المِنْسج[4]
لما رأى بدراً تسيل جِلاهُها بكتائبٍ مِ الأوس أوْ مِ الخزرج[5]
صُبْرٍ يساقون الكماة حتوفَها يمشون مَهْيَعَةَ الطريق المَنْهج
كم فيهمُ من ماجد ذي سَوْرة بطلٍ بمَكْرَهةِ المكان المحُرِج[6]
ومسوَّدٍ يُعطي الجزيلَ بكفه حمّالِ أثقال الدِّيَات متوَّج
أو كلِّ أروعَ ماجدٍ ذي مِرَّة أو كلِّ مُسترخي النِّجاءِ مدجَّج
ونجا ابنُ حمراءِ العِجانِ حويرثٌ يَغلي الدماغُ به كغَلْي الزِبْرَج[7]

وقال لِعُيينة بن حصن عندما أغار على لقاح رسول الله ﷺ، ويذكر غزوة الرسول لهم بسبب ذلك، وهي المعروفة بغزوة ذي قرد[8]:

---

(١) آدوا: عطفوا.
(٢) الديوان ص ٤٢.
(٣) حكيم بن حزام: هو ابن خويلد، ابن أخي أمِّ المؤمنين خديجة، أسلم عام الفتح والأعوج: فرس كريم تنسب إليه الخيل العتاق.
(٤) الهبرزي: من الروم، الجيد الرمي بالسهام، يزل: يسرع. المنسج: من الدابة ما شخص من فروع الكتفين إلى أصل العنق.
(٥) جلاهها: ضفافها.
(٦) مكرهة المكان: المكان الشاق.
(٧) ابن حمراء العجان: أي أعجمي، وهو سب عند العرب. الزبرج: الذهب.
(٨) الديوان ص ٦٥.

هـل سَـرَّ أولادَ اللقيـطة أننـا ... سِلْمٌ غـداةَ فـوارس المِقـداد[1]
كنـا ثمـانيـةً، وكـانـوا جَحْفـلا ... لِجباً، فشُلّوا بـالـرمـاح بَـدَاد[2]
لـولا الذي لاقتْ ومسَّ نسـورَها ... بجنـوب سايـةَ أمسِ بالتَّقْـواد[3]
أفنَى دوابـرَهـا ولاح متـونَهـا ... يـومٌ تُقـاد بـه، ويومُ طِـراد[4]
لَلقِينكمْ يحمِلن كـلَّ مـدجَّـج ... حامي الحقيقةِ ماجدِ الأجـداد[5]
كنـا من الرِّسْـلِ الـذين يلُونكمْ ... إذ تقـذِفون عِنـانَ كـلِّ جـواد[6]
كـلَّا وربِّ الـراقصـات إلى منىً ... والـجـائبـيـن مـخـارِمَ الأطـواد
حتى نُبيلَ الخيلَ في عـرصاتكمْ ... ونؤوبَ بـالملَكـات والأولاد[7]
زَهْـواً بـكـل مقلِّص وطِمِـرَّةٍ ... في كـل معتـرك عَـطفْن وواد[8]
كـانـوا بـدارٍ نـاعمين، فبُـدِّلـوا ... أيـامَ ذي قَـرَدٍ، وجـوهَ عبـاد[9]

وقال عندما فقد بصره[10]:

إن يـأخذ الله من عينيَّ نـورهمـا ... ففي لسـاني وقلبي منهمـا نـور
قلب ذكيٌّ، وعقل غيرُ ذي رَذِلٍ ... وفي فمي صارم كالسيف مـأثور

---

(١) اللقيطة: أم حصن بن حذيفة، كانت سقطت منهم في نجعة، وهي صغيرة فأخذت، وسميت اللقيطة، وأعجبت حذيفة فتزوجها. المقداد: هو ابن الأسود وكان بين الأنصار الذين ركبوا في طلب عيينة واستردوا اللقاح.
(٢) شلوا: طردوا. بداد: متفرقين.
(٣) الضمير في لاقت يعود إلى الخيل. نسورها: جمع نسر، وهو لحمة صلبة في باطن الحافر. ساية: واد بين المدينة ومكة. التقواد: مصدر قاد.
(٤) دوابرها: جراحها في ظهرها. لاح: غير.
(٥) حقيقة الرجل: ما يلزمه حمايته ومنعه.
(٦) الرجل الرسل: أي فيه لين واسترسال. يلونكم: يصدقونكم الولاء.
(٧) نبيل: من البول. الملكات: النساء اللواتي أملكن.
(٨) المقلص: الفرس المشرف.
(٩) ذو قرد: ماء على بعد ليلتين من المدينة. عباد: عبيد.
(١٠) الديوان ص ٩٤.

وكان بشير بن أبيرق الظفري من المنافقين بالمدينة، وذات مرة سرق درعي حديد فلما أحس بانكشاف حاله طرحهما في منزل أحد اليهود ليبرأ منهما ويؤخذ بهما اليهودي، وجاء جماعة من قومه يبرئونه عند رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾[١]، فخاف أن يقيم عليه رسول الله الحد، فلحق بمكة، ونزل على سلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية، فبلغ ذلك حسان فقال[٢]:

وما سارق الدرعين إنْ كنتَ ذاكراً ... بذي كرم بين الرجال أُوادعه
فقد أنزلتْه بنتُ سعد فأصبحتْ ... ينازعها جِلدُ اسْتِها، وتنازعُه
فهلّا أسِيدا جئتَ جارك راغباً ... إليه ولم تعمَدْ له فترافعه[٣]
ظننتم بأن يخفَى الذي قد صنعتمُ ... وفينا نبيٌّ عنده الوحيُ واضعه[٤]
فلولا رجالٌ منكمُ أن يسوءهم ... هجائي، لقد حلّت عليكم طوالعُه
فإن تذكروا كعباً إذا ما نسيتُمُ ... فهل من أديمٍ ليس فيه أكارِعه[٥]
هم الرأس والأذناب في الناس أنتمُ ... فلم تك إلا في الرؤوس مسامعه

وقال يفتخر بنسبه[٦]:

ألم ترنا أولادَ عمرو بن عامر ... لنا شرف يعلو على كل مُرتق[٧]
رسا في قرار الأرض ثم سمَت له ... فروع تُسامي كلَّ نجم محلِّق
ملوك وأبناءُ الملوك، كأننا ... سواري نجومٍ طالعاتٍ بمشرق
إذا غاب منها كوكب لاح بعده ... شهابٌ متى ما يبد للأرض تُشرق

---

(١) النساء: ١٠٦.
(٢) الديوان ص ١٥٨.
(٣) ترافعه: تفاخره.
(٤) واضعه: مبلغه.
(٥) يريد أن المهجوين هم من كعب بمنزلة الأكارع، وهي ما دون الركب.
(٦) الديوان ص ١٦٦.
(٧) عمرو بن عامر: هو عمرو مزيقياء أحد جدوده الأعلين.

لكـلِّ نجيبٍ منجِبٍ زخَـرتْ بـه ... مهـذّبـةٌ أعــراقُهـا لم تُـرهَّـق[1]

كجَفْنةَ والقَمقامِ عمرو بن عامـر ... وأولادِ ماءِ المزن، وابنَيْ مُحرِّق[2]

وحارثةَ الغطريـف، أو كابن منذر ... ومثلِ أبي قابوسَ ربِّ الخوَرْنَق[3]

أولئك لا الأوغادُ في كـل مأقِطٍ ... يَـرُدون شأوَ العـارض المتألِّق[4]

بطعنٍ كإيزاغِ المِخاضِ رشـاشُه ... وضرُبٍ يُزيلُ الهامَ من كل مَفرِق[5]

أتـانا رسـولُ الله، لمـا تجهّمتْ ... له الأرضُ، يرميه بها كل مُوفِق[6]

تُــطرِّده أفـنــاءُ قيس وخِـنــدِفٍ ... كتائبُ إن لا تغد للرَّوع تَطرُق[7]

فكنا له من سـائر النـاس معقِلا ... أشمَّ، منيعـاً ذا شمـاريـخَ شُهَّق

مكلَّلةً بــالـمشــرِفـي وبــالقـنـا ... بها كلُّ أظْمَى ذي غِراريْنِ أزْرق[8]

تـذود بها عن أرضهـا خـزرجيـةٌ ... كـأُسْد كَـراءٍ، أو كجِنّة نَمْنَق[9]

تـؤازرهــا أوسيَّـةٌ مــالـكـيّــةٌ ... رِقاقُ السيوف، كـالعقائق ذُلَّق[10]

نفى الـذمَّ عنا كـلَّ يوم كـريهـة ... طعانٌ كتضريم الأباءِ المحرَّق[11]

وإكــرامُنــا أضيــافَنـا، ووفــاؤنــا ... بمـا كـان من إلٍّ علينـا ومَـوْثِق

فنحن ولاةُ الناس في كل موطن ... متى مـا نقل في الناس قولاً نصدق

تـوفَّقُ في أحكـامنــا حكمـاؤنــا ... إذا غيـرهم في مثلهـا لم يُـوفَّق

---

(١) زخرت به: هو من قولهم: فلان زاخر، أي كريم ملآن من الشرف. مهذبة أعراقها: خالصة أصولها نقية من العيوب. لم ترهق: لم تدنس.

(٢) جفنة: هو ابن عمرو أول ملوك الغسانيين. القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل.

(٣) ابن منذر: عمرو بن هند من المناذرة ملوك الحيرة. أبو قابوس: النعمان بن المنذر.

(٤) العارض: أراد الجيش الضخم. المتألق: الذي يبرق عليه ما عليه من الحديد.

(٥) الإيزاغ: قذف الناقة ببولها.

(٦) تجهمت: تنكرت. الموفق: من قولهم: أوفق السهم، وضع الفوق في الوتر ليرمي.

(٧) الأفناء: الأخلاط. تطرق: من الطرق بالحصى، وهو ضرب من التكهن.

(٨) الأظمى: الأسمر، وأراد الرمح.

(٩) كراء، ونمنق: موضعان.

(١٠) العقائق: جمع عقيقة، والمقصود بريق البرق. الذلق: الماضية السريعة السلة.

(١١) الأباء: القصب.



الفَصْلُ الرَّابِعُ

النثر الأدبي في المدينة
أنواعه ـ أغراضه ـ خصائصه

ـ تمهيد

ـ أولاً : النثر اللساني

الخطب ـ الحواريات ـ الأمثال ـ الوصايا ـ القصص.

ـ ثانياً : ثانياً: النثر القلمي.

ـ تمهيد.

ـ الرسائل.

ـ العهود.



- ١ -

تمهيد:

إن الحاجة إلى النثر الأدبي في صدر الإسلام تضاعفت عما كانت عليه في العصر الجاهلي واتسعت دواعيه أيما اتساع، وأصبح وجوده ضرورة لابد منها لنشر الدعوة، والتحريض على الجهاد، وإرساء قواعد الدولة وإدارة شؤونها وشرح مبادىء الإسلام، ولم يكن الشعر وحده بمستطيع أن ينهض بتحقيق كل هذه الأغراض، فليس الشعر مجالاً لعرض قضايا التوحيد ومسائل العبادات والمعاملات، ولا هو مضمار لمناقشة مشاكل الحكم والوقائع اليومية، ونحو ذلك من أمور الناس، وإذا كان الشعر قد احتل مكان الصدارة في الفن القولي خلال العصر الجاهلي، ولم يشركه في ذلك من فنون النثر غير الخطابة التي كانت كثيراً ما تزاحمه في هذه المكانة، فإن الأمر اختلف كثيراً عن ذلك في صدر الإسلام وذلك للأسباب التالية:

١ - أن القرآن، وهو دستور الدعوة المحمدية، وكتابها المنزل من عند الله للتلاوة والتعبد والتشريع كان نثراً ولم يكن شعراً، وقد تمثل أمام العرب أسلوباً معجزاً للبيان، ونموذجاً كاملاً للبلاغة والفصاحة، حرّك قدراتهم الإبداعية، وفجرّ في داخلهم ينابيع جديدة للتعبير، تنشد احتذاء هذا النموذج الراقي، فتحسن تارة وتكبو أخرى، ولكنها كانت تخرج من كل محاولة أكثر إصراراً على التقليد والاحتذاء، وبذلك وجد النثر التربة الصالحة للنمو والإثمار والإيناع. وحث الإسلام على حفظ القرآن

وترتيله، قال تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظةٍ للقرآن، يتلوه كبيرهم وصغيرهم، ورجالهم ونساؤهم، مما جعلهم يتطبّعون بطوابعه اللغوية وأسلوبه النثري الجميل.

٢ ـ **أكملت الأحاديث النبوية** ما بدأه القرآن، وقد كان بعضها قرآني المنهج في ألفاظه ومعانيه ومبانيه، بل إن بعضه كان بياناً للقرآن ومكملاً لما فيه من قصص أو تشريع، واستقل بعضه الآخر بأسلوب خاص. وكان الصحابة يروونه عن الرسول ﷺ في حياته وبعد مماته، وكان هو نفسه يحثهم على ذلك، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله: (اللهم ارحم خلفائي، قلنا: يا رسول الله، ومن خلفاؤك.؟ قال: الذين يروون أحاديثي ويعلّمونها الناس)[١] وقال أيضاً: (نضّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فبلغها كما سمعها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع)[٢]، وذلك لما في إشاعته وتداوله من نشر لأوامر الدين ونواهيه، ولم يكن الأمر فيه مقصوراً على مجرد الرواية، بل إن الرسول رخّص في بعض الأحوال لنفر من الصحابة في أن يكتبوا عنه الحديث، فقد أذن لرجل من الأنصار شكا إليه حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه[٣]، وعن رافع بن خديج قال: (قلنا: يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها.؟ قال: اكتبوا ولا حرج)[٤]، واستأذنه عبدالله بن عمرو بن العاص أن يكتب ما يسمع من حديثه فأذن[٥] له، وكان يسمّي صحيفته التي كتبها عن الرسول: الصادقة.

٣ ـ **إن طبيعة الدعوة الإسلامية** كانت تستدعي وجود التعبير النثري، فأكثر القضايا الدينية ـ كما أشرنا ـ لا يمكن طرحها إلا بوساطة النثر، لأنها في

(١) مقدمة القسطلاني على البخاري.
(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه.
(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٦٥ طبعة يوسف العش.
(٤) المرجع السابق ص ٧٢.
(٥) المرجع السابق ص ٧٤.

حاجة إلى البرهنة والتدليل، والإلحاح على الجزئيات، كما أنها تُعْرَض على الناس من جميع المستويات في أسلوب نثري مبسط قريب من الأفهام، بعيد عن تجنيح الشعر وتحليق الخيال.

٤ - **ويكفي أن الرسول نفسه**، وهو سيد هذه الأمة وإمامها، وأسوتها في القول والعمل، لا يعبر شعراً، وما ينبغي له، وإنما كان يخطب ويكتب الرسائل ويوصي، ويجادل أهل الكتاب بأسلوب نثري جميل مشرق أخاذ.

٥ - **إن اتجاه المسلمين إلى تكوين الدولة**، ومحاولتهم اتخاذ كل مظاهرها، وإقامة جميع معالمها، واستقرار العلاقات بين العرب أنفسهم، وبين العرب وغيرهم في هذا النطاق من الحياة المنظمة التي تشرف عليها سلطة حكومية متسلسلة: كان ذا صدى فعال في الحياة الفنية، بحيث استلزم نشأة لون من النثر الذي تلجأ إليه عادة الحكومات ليكون الصلة بينها وبين الناس، تعبر به عن رغباتها، وتعلن عن سياستها، كما تعتمد عليه في الترغيب والترهيب والتمكين للمبدأ أو السلطان.

٦ - **انتشار الكتابة في المجتمع المدني** والتنويه بشأنها، إذ كانت أول آية نزلت من القرآن هي قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾، وأقسم الله في سورة الطور بالكتاب: ﴿والطور وكتاب مسطور في رقّ منشور﴾، وعمل الرسول ﷺ على نشرها في المجتمع الإسلامي فكان من ذلك جعلُه فداءَ بعض أسرى بدر ممن كانوا يحذقون الكتابة، أن يعلّموا عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة.

٧ - **إن السلائق الأدبية** وجدت في النثر متنفساً جديداً، بعيداً عن حياة الشعراء المثقلة بالتقاليد الجاهلية التي ذم بعضها القرآن، فقد كان لهم في النثر مندوحة عن التعرض للوقوع تحت طائلة التسفيه، ومجالاً لإبداع فن قولي منسجم مع مبادىء الدعوة الجديدة واتجاهاتها.

- ٢ -

لهذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة نجد أن الشعر في صدر الإسلام تزحزح كثيراً عن مكانته، وبرزت أنواع من النثر جديدة تبحث عن مكان لها مناسب في خضم الوجود الإسلامي الجديد الزاخر بمختلف المعطيات، في الوقت الذي استمرت فيه أغلب أنواع النثر الجاهلي على اختلاف في الكم والكيف، ونستطيع أن نحصر النثر الإسلامي وفي المدينة بالذات في نوعين: لساني وقلمي.

أولاً: النثر اللساني

ويشمل كل ما كانت وسيلته اللسان من الكلام الأدبي المنثور وهو: الخطب ـ الحواريات ـ الأمثال ـ الوصايا ـ القصص.

أ ـ الخطب:

كانت الخطابة هي الأداة القولية الأولى التي اعتمدتها الدعوة الإسلامية في نشر مبادئها والتبشير بأصولها وفروعها وشرح أهدافها الكبرى ومثلها العليا، وكان المجال أمامها واسعاً، والطريق منفسحاً عريضاً، لا تقيدها قافية ولا يحجزها وزن كما هو الحال في الشعر، ومن المقرر أن الخطابة تزدهر إبّان الأحداث والنهضات وقد كان الإسلام أكبر حدث شهدته الجزيرة العربية في تاريخها الطويل على الإطلاق ـ كما أشرنا إلى ذلك غير مرة ـ فكان طبيعياً أن تزدهر في ظله الخطابة، وقد رفع صاحب الرسالة لواءها منذ أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فأتى الصفا، فصعد عليه ثم نادى: (يا صباحاه)، فاجتمع الناس عليه فقال: (يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ.؟) قالوا: نعم. ما جربنا عليك كذباً. قال: (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[1]، وكان طوال مدة إقامته بمكة قبل

---

(١) البداية والنهاية ٣: ٣٨.

الهجرة ـ وهي ثلاث عشرة سنة ـ يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، محاولاً أن يوقظ ضميرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي خلقهم ورزقهم، ليعبدوه، ويستشعروا جميع الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية، فيتم لهم بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

● وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، فازدادت حاجته إلى الخطابة، واتسعت جنباتها بما أخذ يشرّع للمسلمين، ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم، وفي الأسبوع الأول من وصوله إليها أدركته صلاة الجمعة في منازل بني سالم بن عوف ببطن وادي رانونا، وهو مرتحل من قباء إلى المدينة، فنزل من على راحلته وجمّع بأصحابه، وألقى فيهم الخطبة التالية[1]:

(الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوي وفرّط، وضل ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عونُ صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يُصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذّركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، والذي صدّق قوله، وأنجز وعده، لا خُلْف لذلك، فإنه يقول عز وجل: ﴿ما يبدَّل القول

---

(١) الطبري ٢: ٣٩٥.

لديّ وما أنا بظلّام للعبيد﴾، فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه من يتّق الله يكفّر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله توقّي مقته، وتوقّي عقوبته، وتوقّي سخطه، وإن تقوى الله تبيّض الوجوه، وترضي الربّ، وترفع الدرجة.

خذوا بحظّكم، ولا تفرّطوا في جنب الله، قد علّمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده، هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حيّ عن بينة، ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم».

وفي مرضه الأخير ﷺ خرج إلى المسجد عاصباً رأسه، فجلس على المنبر، فصلى على أصحاب أُحُد، فأكثر الصلاة عليهم، واستغفر لهم ثم قال: (إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد، فسدوها إلا بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه، أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها.

يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عَيْبتي التي أويت لها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم).

وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده يخطبون، ومثلهم كان يفعل قادة الجيوش وغيرهم.

● ثم إن الإسلام من تمام اهتمامه بالخطابة جعلها متممة لكثير من شعائره، كصلاة الجمعة والعيدين، والاستسقاء، والحج، وبهذا كله نشأت الخطابة الدينية التي ألغت كل سمات الخطابة الجاهلية، وأزالت كل ما لا يتفق وروح الإسلام. ولم يقتصر هذا النوع من الخطابة الدينية على المدينة وحدها، بل كان يشيع في كل مكان يحل فيه الإسلام.

● وحين بدأت المعارك الإسلامية صحبها نوع آخر من الخطابة، الغاية منه الحث على الجهاد في سبيل الله، اتسع باتساع رقعة الغزوات والفتوح، ومثال ذلك: قول أبي بكر من خطبة له قالها حين ندب الناس لفتح الشام[1]: (ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله، لَما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصَّ به، هي التجارة التي دلّ الله عليها، ونجّى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة).

وقول عمر من خطبته يوم ندب الناس لفتح مصر[2]: (إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النّجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطُّرّاء المهاجرون عن موعد الله، سِيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: ﴿ليظهره على الدين كله﴾، والله مظهر دينه ومعزّ ناصره، وموليّ أهله مواريث الأرض..).

وفي بعث مؤتة وقف عبدالله بن رواحة يشجع الناس ويحرّضهم على الثبات أمام جيش الروم فقال[3]: (يا قوم! والله إن الذي تكرهون لَلّذي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة) فقال الناس: قد والله صَدَق ابن رواحة، فمضوا إلى وجهتهم يقاتلون.

---

(١) الطبري ٢: ٥٨٨.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق ٣: ٣٧.

ومن ذلك أيضاً خطبة عتبة بن غـزوان في فتح الأبلّة التي يقول فيها[1]: (أما بعد، فإن الدنيا قد تولّت حذّاء[2] مدبرة، وقد آذنت أهلها بصرم، وإنما بقي منها صُبابة كصبابة الإناء يصطبّها[3] صاحبها، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم).

● وكان الرسول ﷺ وخلفاؤه من بعده يرسلون العمـال والولاة إلى البلاد المختلفة التي انضوت تحت لواء الإسلام، فإذا قدم الوالي مصره قام خطيباً في الناس، يبين لهم خطته التي سيسير عليها، أو يعظهم ويشرح لهم مبادىء الشريعة، فعن حنش الصنعاني قال[4]: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة، فقام فينا خطيباً فقال: (يا أيها الناس، إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقوله فينا يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ فقال: لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماؤه زرع غيره، يعني إتيان الحبالى من السّبايا، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابّة من فـيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردّها فيه. ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فـيء المسلمين حتى إذا أخلقه ردّه فيه).

● وكانت وفود القبائل العربية تقدم على الرسول وخلفائه بالمدينـة، ويخطب خطباؤها للمفاخرة، أو لإعلان الخضوع والدخول في الإسلام، أو لعرض شأن من الشؤون، أو لتهنئة أو تعزية، وكثيراً ما يكون الخطيب في هذه الحالة من رؤساء القوم، فقد وفدت طـيء على رسول الله وفيهم زيد الخيل، فلما انتهوا إليه كلموه، وعرض عليهم الإسلام فأسلموا[5]، وسمى

---

(١) البيان والتبيين ٢: ٥٧.

(٢) حذّاء: سريعة الإدبار.

(٣) يصطبّها: يشربها. والصّبابة: بقية الماء.

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ٣٣١ وجربة: جزيرة كبيرة في تونس.

(٥) سيرة ابن هشام ٢: ٥٧٧.

الرسول زيداً بزيد الخير. ووفدت تميم - كما أشرنا إلى ذلك في كلام سابق - فقام خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة بين يديه مفاخراً بقومه، ورد عليه خطيب الرسول ثابت بن قيس مستوحياً هدْي الإسلام، فلم يلبثوا أن دخلوا في الإسلام، وجاءه وفد بني نهد، وعليهم طهفة بن أبي زهير، وأرسل بنو الحارث بن كعب وفداً منهم، فيه يزيد بن عبد المدان[1] وجاء وفد مذحج وخطيبهم ظبْيا بن حداد[2]، وكذلك أقبلت وفود عبد القيس وبني حنيفة، وبني زُبَيدة، وكندة، والأزد، وغيرهم ممن جاؤوا مكابرين، ولكنهم لم يرجعوا إلا بعد أن منّ الله عليهم بالإسلام.

ووفدت بعد ذلك الوفود على الخلفاء الراشدين للاستمناح أو الشكوى، فقد وفد على عمر منهم من سألوه سد الخصاصة والزيادة في الأعطيات والفرائض، وخطب منهم بين يديه هلال بن وكيع، وزيد بن جبلة، والأحنف بن قيس[3].

ووفد على عثمان من أهل الأمصار من يمثلهم في الاحتجاج عليه، في عزل بعض الصحابة، وتوليته جماعة من أقربائه من بني أمية[4].

ومن كل هذا نشأ في المدينة ما يعرف بخطب الوفود.

● وفيها نشأت أيضاً الخطب السياسية لأول مرة في تاريخ العرب، فلما قضى الرسول ﷺ، اختلف الناس في أمر الخلافة، وتنازعها المهاجرون والأنصار، وكان الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، واستعان كل فريق بالخطابة في تأييد حقه فيها. فسعدُ بن عبادة، والحباب بن المنذر بن الجموح يريدانها للأنصار، وبشير بن سعد الأنصاري، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو بكر،

---

(١) المرجع السابق ٢: ٥٩٢ - ٥٩٤.
(٢) البيان والتبيين ٢: ١١٦.
(٣) المرجع السابق.
(٤) البداية والنهاية ٧: ١٦٦ - ١٧٥.

وعمر، يريدونها للمهاجرين[1]. وكان سعد مريضاً، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي، ولكن تلقّ مني قولي فأسمعهموه، فكان يتكلم وينقل عنه الرجل ما يقول، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[2]: (يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمنت به من قومه إلا رجال قليل، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا أن يعزّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمُّوا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوّه منكم، وأثقلَه على عدوّه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، حتى أثخن الله عز وجلّ لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قرير العين استبِدّوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس). فأجابوه بأجمعهم: قد وفّقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، ونوليك هذا الأمر، فإنك فينا مَقْنَع، ولصالح المؤمنين رضا.

وقام أبو بكر فخطب فيهم، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه، وشهيداً على أمته، ليعبدوا الله ويوحّدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة، وإنما هي حجر منحوت، وخشب منجور[3]، ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[4]، وقالوا: ﴿ما نعبدهم إلا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٦٥٩.

(٢) الطبري ٣: ٢١٨.

(٣) كان آلهة الأوس والخزرج من الخشب، كما ذكرنا ذلك في موضعه.

(٤) يونس: ١٨.

ليقربونا إلى الله زلفى﴾[1]، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمؤاساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم، وكلّ الناس لهم مخالف، زارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنِف[2] الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، ورضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلّة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تُفتاتون بمشورة، ولا تُقضَى دونكم الأمور).

فقام الحباب بن المنذر فقال:

«يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم، ولن يُصْدِر الناس إلا عن رأيكم، أنتم أهل العز والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة، ذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكُم، وينتقض عليكم أمركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير).

فقال عمر: (هيهات! لا يجتمع اثنان في قَرَن، والله لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولّي أمرها من كانت النبوة فيهم، ووليّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدلٍ بباطل، أو متجانف لإثم، ومتورّط في هَلَكة).

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) شنف: بغض وتنكر.

فقام الحباب مرة أخرى فقال:

(يا معشر الأنصار، املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولّوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممّن لم يكن يدين، أنا جُذَيْلُها المحكّك، وعُذَيْقها المُرجَّب، أما والله لئن شئتم لنعيدنّها جذعة).

فقال عمر: إذن يقتلك الله. قال: بل إياك يقتل.

فقام أبو عبيدة فقال: (يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر).

ثم قام بشير بن سعد الأنصاري فقال: (يا معشر الأنصار، إنّا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربّنا وطاعة نبيّنا، والكدح لأنفسنا، فلا ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضا، فإن الله وليّ المنّة علينا بذلك، ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحقّ به وأولى، وايْم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم).

وانتهى النزاع بتولية أبي بكر، وانتصار فكرة المهاجرين، فلما تمت الخلافة لأبي بكر خطب الناس وشرح لهم سياسته فيهم.

وحين ظهرت حروب الردة رافقتها أيضاً كثير من الخطب السياسية. وحين تولى عمر الخلافة شرح للناس من على المنبر ما اعتزم أن يأخذهم به ويحمل نفسه ويحملهم عليه، وكان بعد ذلك لا يدع مناسبة إلا خطب فيها، وتحدث عن حقوق الأمة وسياسة الرعية، وطلب النصيحة من المؤمنين والعون على الحق. ونشطت هذه الخطب أيضاً بعد مقتل عمر، حين افترقت كلمة المسلمين إبان عهدي عثمان وعليّ، وانقسموا أحزاباً وطوائف يدّعي كل منها

الأحقية بالخلافة، ويحاول إظهار منافسيه بمظهر المفتات الذي يغتصب ما لا حق له فيه.

وكان اعتماد الخطباء على الدين في إثبات الحق السياسي، واضحاً وجلياً، ولذلك كانت المعاني السياسية شديدة الامتزاج بالمعاني الدينية، ثم انعكس الأمر في العصر الأموي فتمحض الاتجاه السياسي، وغلب على الخطابة الطابع السياسي الخالص.

●واستمرت إلى جانب هذه الأنواع من الخطب، خطب الإملاك والنكاح، وقد ذكرنا في حديثنا عنها في العصر الجاهلي، أن من سماتها أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب، وهي النوع الوحيد الذي يؤديه الناس وهم جالسون، ويبدو أن بعضهم كان يتهيّبها، فقد روي عن عمر قوله: وما يتصعّدني كلام كما تتصعّدني خطبة النكاح[1].

● وظهرت أيضاً الخطب الاجتماعية، وهي وإن كانت شديدة الالتصاق بالخطب الدينية، ويمكن إدراجها فيها، إلا أنها جديرة بالتنويه، فقد اهتم الرسول ﷺ وصحابته الكرام ببيان ما ينبغي أن يكون عليه الفرد في نفسه وبيئته وفي سره وعلانيته، وما ينبغي أن يتجه إليه الناس في حياتهم، وتعاونهم وصلاح ذات بينهم، وفي أخلاقهم والتماس العلم، والتحلي بالآداب العامة والخاصة. ومن ذلك خطبه التي كان يعالج بها بعض ما كان منتشراً بينهم من خرافات، فقد خطبهم حين مات ولده إبراهيم، ونسب بعض الناس كسوف الشمس لموته، فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة[2].

ومن ذلك حثه الأنصار على التكافل الاجتماعي، من حمل الكَلّ، وكفالة

---

(١) البيان والتبيين ١: ١١٨.

(٢) أسد الغابة ١: ٣٩.

اليتيم، وتقديم المعروف، وترك الشح بالأموال، والتخلي عن تحصينها، ففيها يأكل ابن آدم أجر، وفيها تأكل الطير أجر[1].

إلى غير ذلك من المناسبات التي خطب فيها الرسول وخلفاؤه ليعالجوا المشاكل الاجتماعية بالروح الدينية، وتثبيت الخلق في النفوس والإيمان في القلوب.

● وشيء آخر يمكن أن نعده من مظاهر ازدهار الخطابة في المدينة المنورة في هذا العصر، ذلكم هو اشتراك النساء فيها، والخطيبة المجلية كانت هي أم المؤمنين عائشة، فقد كان لها يوم الجمل ما كان.

وبلغها أن أناساً ينالون من أبي بكر، فأرسلت إليهم فلما حضروا خطبتهم فقالت:

(إن أبي والله لا تَعْطوه الأيدي، ذاك طود منيف وظلّ ممدود، أنجحَ إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم، سبْق الجواد إذا استولى على الأمد، فتى قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً، يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب صدعها، ويلمّ شعثها، فما برحت شكيمته في ذات الله تشتد، حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون، وكان وقيذ الجوانح غزير الدمعة، شجيّ النشيج، وأصفقتْ إليه نسوان مكة وولدانُها يسخرون منه ويستهزئون به، والله يستهزىء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون، فأكبرت ذلك رجالات قريش، فما فلّوا له صفاة، ولا قصفوا قناة، حتى ضرب الحق بجرانه، وألقى بَرْكه، ورست أوتاده، فلما قبض نبيّه ضرب الشيطان رواقه، ومدّ طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، فقام الصدّيق حاسراً مشمّراً، فردّ نشر الإسلام على غرّه، وأقام أوده بثقافِه، فابذعرَّ النفاق بوطئه، وانتاش الناس بعدله، حتى أراح الحقّ على أهله، وحقن الدماء في أُهُبِها، ثم أتته منيّته، فسدّ ثَلمته نظيرُه في المرحمة، وشقيقه في المعدلة، ذلك ابن الخطاب، لله درّ أمّ حفلت له ودرّت عليه، ففتح الفتوح، وشرّد الشرك، وبعج الأرض فقاءت

(١) المرجع السابق ص ٩٣.

أكُلَها، ولفظت جناها، ترْأمُه ويأباها، وتريده ويصرف عنها، ثم تركها كما صحبها، فأروني ماذا ترتابون.؟ وأيّ يومَيْ أبي تنقِمون.؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

● وهكذا كان للإسلام اليد الطولى في ازدهار الخطابة، بمبادئه وشرائعه، وبأحداثه ومعاركه الداخلية والخارجية، وبما حققه لأتباعه من عناصر حضارية وقيام الحكومة النظامية، وقد شمل تأثيره كل جوانب الخطابة وتناول بالتغيير موضوعاتها ومعانيها وأساليبها فغدت متميزة بطابعها الإسلامي الخاص، وإذا كان قد قدر لبعض ألوان الخطابة أن يستمر، كخطب الوفود، فإنه لم يستمر لأنه من الموروثات الجاهلية، وإنما لأن دواعيه ـ كما علمنا ـ كانت قائمة، ولذلك نرى بعض الألوان الأخرى اختفت لعدم اتفاقها مع روح الإسلام، كالمنافرات والمفاخرات، التي كانت تمثل جزءاً من الخطابة الجاهلية.

● **ومما ساعد على ازدهار الخطابة في صدر الإسلام**، النظام الديموقراطي الذي كان يسود الحياة الإسلامية، بحيث كان يباح لمن يشاء من الرعية أن يناقش الخليفة أو الوالي، في شؤون الحكم والسياسة والدين، دون خوف أو حرج، وكثيراً ما كان الخليفة يتخلى عن رأيه ويأخذ برأي مخالفيه إذا رأى الحق في جانبهم، بل كان يحرّض الناس على مناقشته في كل قضية وإبداء رأيهم ونصحهم، فأبو بكر يقول في خطبة بيعته: (أيها الناس، إني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم...)[1].

وحين قال عمر في خطبة له: (أيها الناس، إن أحسنت فأعينوني، وإن صدَفْت فقوّموني) قام رجل من المسلمين يقول له: (والله لو رأينا فيك

---

(١) الطبري ٢: ٤٥٠.

إعوجاجاً لقومناك بسيوفنا). وحين أراد تحديد المهور ردت عليه امرأة قوله محتجة بقوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾[1]، تراجع عن فكرته، وقال: أخطأ عمر وأصابت امرأة. ومما أعان على تطور الخطابة في هذا العصر أيضاً نظام الشورى الذي كانت تقوم عليه شؤون الحكم ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[2]، وكان الرسول نفسه يستشير أصحابه ويعرض عليهم قضايا الحرب والسلم، وتبعه خلفاؤه في ذلك، وكان عمر يقول: (لا خير في أمر أبرم من غير شورى)، فهذه المجالس الشورية قد أفسحت المجال لارتقاء الخطابة وازدهارها دون شك، وأطلقت في القول لسان كل ذي فصاحة وبلاغة.

ولا ننسى ما نفح به القرآن الكريم الخطابة من بلاغة، وما أسبغ عليها من حلل البيان والحكمة، فراحوا يجارون أسلوبه، ويقتبسون من ألفاظه ومعانيه، ويتبعون نهجه في المحاجة والاستدلال، ويرصِّعون بآياته خطبهم، حتى كان بعضهم يرى أن خلو الخطبة منه، ينزل بها عن مستوى الإجادة، ويغضّ من مكانتها، قال عمران بن حطّان: خطبت عند زياد خطبة، ظننت أنّي لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس، فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن[3]. وقد حرص الخطباء على هذا، وبخاصة في الخطب الدينية، ونبه الفقهاء إلى ذلك في خطب الجمعة والعيدين بالذات.

● **ولبلوغ الخطابة هذا الشأو العظيم** في صدر الإسلام، تركزت مسؤولية النثر كله فيها، حتى جاز لبعضهم أن يقول: إن الكلام عندما جاء الإسلام كان شعراً وخطابة[4]، فيجعل الخطابة قسيماً للشعر، ويدخل الكتابة وبقية أنواع النثر الأخرى تحت لواء الخطابة، فكأنما هي النثر كله، بل

---

(١) النساء: ٢٠.

(٢) الشورى: ٣٧.

(٣) البيان والتبيين ٢: ٥.

(٤) تاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي ٢: ١٦٣ النهضة ١٩٥٢ م.

ويذهب بعضهم إلى أكثر[1] من ذلك فيرى أن الحياة التي دبت في الخطابة بالنهضة الإسلامية تسربت إلى الشعر، وبسطت سلطانها عليه، وجذبته إلى نطاقها، وحملته إلى أن يحذو حذوها، ويأخذ طابعها، ويتسم بخصائصها، فظهر بذلك الشعر الديني السياسي، الذي اتخذ طابعاً خطابياً بارزاً عالي النبرات، على يد حسان وكعب وابن رواحة، كثر فيه الارتجال، وشاع فيه الانفعال ومواجهة الخصوم ومجادلتهم في شعر النقائض، وكان هذا الشعر الخطابي من الرجز الذي كان يصحب المعارك، ويستجيب للأفكار التي تجيش بها النفس في يسر وسهولة.

* * *

ومن خلال هذا العرض لعوامل ازدهار الخطابة الإسلامية ونماذجها وأغراضها، يمكننا رصد خصائصها، لنستطيع بذلك تمييزها عن الخطابة الجاهلية، فإن المتأمل في نصوص الخطابة الإسلامية يرى الفروق واضحة بينها وبين الخطابة الجاهلية، إذ أصبحت الخطب أقوى نسجاً وأكثر تماسكاً وإحكاماً، وقويت الروابط المعنوية بين أجزائها، فلم تعد حِكَماً وأمثالاً تنثر دونما روابط، وكيفما تعنّ.

● **ويمكن إجمال تلك الخصائص فيما يلي:**

١ ـ **أصبحت جميع الخطب** تفتتح بحمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه، فكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر أو أجذم، ولم يكن لأي خطيب أن يشذ عن هذه الخصيصة، لذلك سموا خطبة زياد بن أبيه التي ترك فيها البسملة بـ(البتراء)، وغالباً ما كان الخطباء يختمون خطبتهم بنحو ما يستهلونها به من التحميد أو الدعاء، كقول عمر في نهاية خطبة له: (فاحمدوه عباد الله على نعمه، واشكروه على آلائه، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين)[2]. وكان آخر دعاء أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه

(١) الخطابة في صدر الإسلام للدكتور محمد طاهر درويش ص ١٢١ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م.
(٢) العقد الفريد ٦: ٣٤.

قد فرغ من خطبة الجمعة: (اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك). وكان آخر دعاء عمر إذا فرغ من خطبته: (اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني في غرّة، ولا تجعلني مع الغافلين)[1].

٢ ـ **توشحها بالآيات القرآنية** ، والأحاديث النبوية، وبعض الحكم والأمثال، وإيراد بعض الأشعار في الخطب السياسية، وقد أشار الجاحظ إلى عجز الأعراب الجفاة الذين لم يتفقهوا في الدين عن إجادة الخطابة[2]، لأنهم كانوا عاجزين عن تمثل روح الإسلام، وعن توشيح خطبهم ببعض الآيات القرآنية التي تضفي على الخطب وقاراً وجلالاً.

٣ ـ **مالت الخطب** في هذا العصر إلى الطول أحياناً، وبخاصة الخطب السياسية، والتي فيها محاجّة ومجادلة، أو بسط لمبادىء الإسلام، وفيما عدا هذا كانوا يعمدون إلى التقصير، وقد كان الرسول ﷺ يقصّر الخطب الجمعية، وجاء في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام: (إذا وعظت جندك فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً)[3]، ومن الخطب الطويلة: خطبة الوداع، وخطبة عمر في أرض سواد العراق، وطائفة من خطب علي في حربه مع معاوية.

٤ ـ **أصبحت ألفاظ الخطابة** أكثر سهولة وعذوبة وأهدأ موسيقى وأحسن ملاءمة للمعاني.

٥ ـ **أصبحت الخطبة متماسكة** الأجزاء، تكاد تدور حول موضوع واحد، بعد أن كانت في الجاهلية فقرات متقطعة، تفقد في الغالب وحدة الفكرة والموضوع ما عدا خطب النكاح.

---

(١) البيان والتبيين ٣: ٢٢٢.
(٢) المرجع السابق ٢: ٢٣٦.
(٣) الكامل لابن الأثير ٢: ١٩٦.

٦ ـ **كانوا كالجاهليين** يعدّون خطبهم في الذهن، دون جنوح إلى التكلف الممقوت، ودون أن يلغوا في نفوسهم سليقة الارتجال، وكان للرسول ﷺ ذوق خاص في اختيار ألفاظه وجمله، وقد ألمحنا إلى أنه خص من بين الخطباء بابتداع بعض العبارات التي أصبحت مناراً للفصحاء والبلغاء، وكان ربما لفت النظر إلى وجوب التدقيق في اختيار الألفاظ، فقد جاء عنه: (لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقَسَتْ نفسي)[١]، بل كان لأجل ذلك يغير بعض أعلام الأشخاص والأماكن كتغييره اسم أحد أصحابه كان يدعَى (جعيلا) إلى عمرو، وهو الذي كان يرتجز به المسلمون يوم الخندق فيقولون:

سماه من بعد جعيل عمراً وكان للبائس يوماً ظَهْراً

فكان الرسول يكرر بعدهم: (عمراً ـ ظهراً). وتغيير اسم حي من الأوس كان يدعى (بني الصّماء) إلى بني السّمّيعة، وكانت منازل بني سلمة بن سعد الخزرجيين تسمى في الجاهلية خُرْبى فسماها: صالحة. وفي أُسْد الغابة وغيره من الكتب المتخصصة في ذكر أسماء الصحابة عدد كثير من تلك النماذج، وقد شهد له البلغاء بروعة البيان وقوة الأداء، ومن ذلك ما قاله الجاحظ، إنه عليه السلام: (استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السُّوقي...)[٢].

ومما يدل على إعدادهم المسبق لخطبهم ما رواه[٣] الطبري في حديث السقيفة عن عمر: (أتيناهم، وقد كنت زوّرت في نفسي مقالة أقدمها بين يدي أبي بكر)، وروي أن عثمان صعد المنبر يوماً ليخطب فأرتج عليه فقال: (إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٧.

(٣) الطبري ٢: ٢٠٤ وزوّرت: هيأت.

إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب)[1].

على أن بعض المواقف كانت تضطرهم إلى الارتجال فتسعفهم في ذلك فطرتهم العربية السليمة، وتقيهم شرّ العثار.

٧ ـ **ومن مظاهر اهتمامهم** بالصياغة في خطبهم وجود السجع في طائفة منها، وهم في ذلك أيضاً كالجاهليين، وهو سجع في غاية الجمال والأصالة والبعد عن التكلف. ومن أمثلته قول الرسول ﷺ في خطبة الوداع: (لكم عليهنّ ألا يوطئن فُرُشكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم)، وكقول عليّ: (يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَون ولا تَغزون، ويُعصى الله وتَرْضَون)، ولكن هذا السجع على جماله وأصالته قليل في خطبهم، لا لأن السجع والزخارف الفنية غير أصيلة عند العرب، وأنها مما اكتسبوه من الفرس بعد اختلاطهم بهم كما يزعم المسيو مرسيه ويتابعه طه حسين، أو من اليونان كما استقر عليه رأيه أخيراً[2]، فإن تلك الزخارف ومنها السجع موجودة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وإنما مردُّ ذلك إلى كراهة التكلف من ناحية، وإلى اهتمامهم بإيضاح الأفكار الجديدة التي أمدهم بها الإسلام من ناحية أخرى، فلم يحفلوا بالسجع، وإن لم يهملوا العناية بالأسلوب، وربما كان لنهي الرسول ﷺ عن محاكاة سجع الكهان، دخل في ذلك أيضاً، يقول الجاحظ: (وكان الذي كره الأسجاع بعينها، وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة، أن كهان العرب الذين أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدّعون الكهانة... كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع... فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها في صدر كثير منهم، فلما زالت العلة، زال التحريم)[3]، وقد روي عن عمر إنكاره السجع على صُحار

---

(١) البيان والتبيين ٢: ٢٥٠.

(٢) النثر الفني للدكتور زكي مبارك ص ٥٠.

(٣) الطبري ٣: ٢٥٧.

العبدي حين وصف له بلاد مُكران بقوله: (أرض سهلها جبل، وماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوّها بطل، وخيرها قليل، وشرّها طويل...) فقال له عمر: أسجّاع أنت أم مخبر[1].

ويبدو أن المنهي عنه هو محاولة مجاراة أسجاع الكهان فقط، أما ما جاء عفو الخاطر وبلا تكلف فلا نهي عنه، وإنما هو من مصادر الجمال التي تفننت فيه آي القرآن وأحاديث النبي الكريم.

٨ ـ ظهرت فيها سمات الخطابة الناجحة، الناجمة عن قوة العاطفة وشدة الإيمان بالفكرة، والحرص على الإقناع والاستمالة، كاللجوء إلى أساليب التوكيد المختلفة من تكرار وقسم واستعانة بأدوات التوكيد[2]، ففي خطبة الوداع نجد الرسول يكرر عبارة: (ألا هل بلغت.؟ اللهم فاشهد)، وفي يوم السقيفة نجد الحباب بن المنذر يقول: (أما والله لئن شئتم لنعيدنّها جذعة)، ويقول علي يستنفر أتباعه لقتال معاوية: (أما والله لئن ظهروا عليكم بعدي لتجدنّهم أرباب سوء، كأنهم والله قد شاركوكم في بلادكم... إلخ).

ومن هذه السمات: الأساليبُ الإنشائية كالاستفهام والتعجب والدعاء ونحوها، ومثاله قول علي أيضاً: (أيّ دار بعد داركم تمنعون.؟ ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون.؟ ما بالكم.؟ ما داؤكم.؟ ما طبّكم.؟ ألْقَومُ رجال أمثالكم.؟ أقوالاً بغير علم، وغفلة من غير ورع، وطمعاً في غير حق..)[3].

٩ ـ أصبحت معاني الخطابة وأهدافها ومقاصدها سامية، تدور كلها في فلك الدعوة إلى الإيمان والفضائل والجهاد، وحتى السياسية منها لم تتخلص من ممازجة الدين، كما نلمس فيها شيئاً من الدقة والتسلسل في إيراد الأفكار،

---

(١) البيان والتبيين ١: ٢٩٠.

(٢) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ص ٤٥.

(٣) نهج البلاغة ١: ٣٩.

والعناية بإيراد الحجج والأدلة وتفنيد أقوال الخصوم.

● وعلى الجملة أضفى القرآن والإسلام بعامة على الخطابة في المدينة روحاً إسلامية تباين الروح الجاهلية وتعفي على آثارها، وكانت المدينة بحكم تجمّع أهل الفصاحة واللسن فيها وعلى رأسهم المصطفى ﷺ، ولكونها عاصمة الدولة الإسلامية هي الرائدة لهذا الفن من القول في صدر الإسلام، وما جاء بعد ذلك لم يكن غير صدى لما كان يتردد على منبر المسجد النبوي الشريف وعلى ضفاف العقيق ووادي قناة.

● وليس معنى هذا أنه لم يكن لأعداء الإسلام من القرشيين وغيرهم خطابة، فقد كان لهم خطب يدافعون بها عن كيانهم ووثنيتهم وينالون فيها من المسلمين، كما كان لهم شعر، ولكن لم يصلنا من ذلك إلا النزر اليسير، وذلك للسبب نفسه الذي ذكرناه بالنسبة لأشعارهم، وهو تعمد إغفالها وتناسيها، لما فيها من محادة لله ورسوله وتذكير بماض كريه إلى نفوسهم، لا سيما وأن بعض أولئك الخطباء كسهيل بن عمرو، قد أسلم وحسن إسلامه. على أن الأمر لم يقتصر على خطب الأعداء وحدهم، بل شمل الضياع خطب المسلمين أنفسهم في المدينة، بل وخطب الرسول ﷺ، فإن الجزء الذي وصلنا من خطبه وخطب خلفائه من بعده قليل جداً بالنسبة لواقعهم المعاشي، وربما ولّد هذا بعض الدهشة وأثار شيئاً من التساؤل، كيف ضاعت تلك الخطب.؟ ولماذا لم تصل إلينا.؟ وما الذي سوّغ للرواة التعفية على تلك الآثار التي لو جمعت لكونت مجلدات كبيرة.؟ الواقع أن الغرابة تزول إذا تذكرنا أن القرآن نفسه كان سيتعرض للضياع بعد موقعة اليمامة في حروب الردة، فقد مات فيها كثير من الحفاظ، ولولا أن ألهم الله أبا بكر وعمر إلى جمعه لتبدد وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس، وكان جمعها له مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

---

(١) الحجر: ٩.

ب ـ الحواريات:

نقصد به ذلك النثر الذي كان يدور بين الرسول وأصحابه في الوقائع الحربية والأحداث اليومية والمناسبات المختلفة، أو بينه وبين أعضاء الوفود، ومن كان يدخل معه من أعدائه في حجاج أو جدال، وما بين الصحابة أنفسهم أو بينهم وبين غيرهم، ثم ورد لنا على لسان الرواة بأسلوب (قال، وقلت، ونحوهما)، وارتفع عن مستوى المحادثة اليومية إلى مستوى النثر الأدبي بما فيه من سمات فنية، وقد أغفل أكثر الباحثين الحديث عن هذا النوع، وربما يسر لهم ذلك أنه يشبه الخطابة إلى حد كبير، وإن تميّز عنها بأنه لا يشترط فيه أن يلقى في جموع الناس، ولا يقصد منه دائماً إلى الاستمالة بقدر ما يقصد منه إلى الإقناع، وأمثلته في كتب السيرة والتاريخ، وكتب الأدب، كثيرة جداً، وربما كان من المناسب أن نورد له نماذج متعددة بغية تمييزه عن غيره وتحديد ملامحه قدر المستطاع.

● فمن ذلك[1] أن المسلمين أمسكوا قبل وقعة بدر بعبد للمشركين على ماء (بدر)، وأرادوا أن يعرفوا منه أخبار قافلة أبي سفيان، واشتدوا عليه، فلما رأى صنيعهم الرسول ﷺ أتاهم وقال لهم: (والذي نفسي بيده لتضربونه إذا صدق، وتتركونه إذا كذب)، قالوا: (فإنه يحدّثنا أن قريشاً قد جاءت) ـ ولم يكونوا يعرفون بخروجها ـ قال: (فإنه قد صدق، قد خرجت قريش تجير ركابها)، فدعا الغلام فسأله، فأخبره بقريش، وقال: (لا علم لي بأبي سفيان) فسأله: (كم القوم.؟) فقال: (لا أدري، والله هم كثير عددهم)، قال الرسول له: (من أطعمهم أول من أمس.؟) فسمّى رجلاً، فقال: (كم جزائر نحر لهم.؟) قال: (تسع جزائر)، قال: (فمن أطعمهم أمس.؟) فسمّى رجلاً، فقال: (كم نحر لهم.؟)، قال: (عشر جزائر) فقال النبي ﷺ: (القوم ما بين التسعمائة إلى الألف). وقد كان عددهم بالفعل ـ فيما يذكر المؤرخون ـ تسعمائة وخمسين رجلاً.

---

(١) الطبري ٢: ٤٢٣.

● ثم إنه لَمّا ترجحت[1] عنده الحرب قال ﷺ: (أشيروا علي أيها الناس.! (يعني الأنصار، لأنه كان يتخوّف أن لا يكونوا يرون عليهم نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، حسب بيعة العقبة، وأنه ليس عليهم أن يخرجوا معه منها إلى قتال عدوّ، فقال له سعد بن معاذ: (والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله.؟) قال: (أجل.) قال: (فقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت[2] بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدْق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.). فسُرّ النبي ﷺ بهذا القول، ثم قال: (سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم).

● وبادر رسول[3] الله ﷺ إلى الماء فنزل أدنى ماءٍ من بدر، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح السَّلِمي الأنصاري: (يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل.؟ أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخره.؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال: (يا رسول الله، فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نعوّر ما سواه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون) فقال رسول الله: (لقد أشرت بالرأي) واستجاب لرأيه.

ثم قال سعد بن معاذ: (يا رسول الله، نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه، ونعدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوّنا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا

(١) المرجع السابق ص ٤٣٥.
(٢) استعرض البحر: أتاه من جانبه عرضاً.
(٣) المرجع السابق ص ٤٣٩ والأغاني ٤: ١٨٩.

على عدونا كان ذلك مما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنك أقوام ـ يا نبي الله ـ ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك) فأثنى الرسول عليه، ودعا له، وابتنى العريش.

● وتكشف هذه النصوص الثلاثة عن الدور الذي كان يقوم به هذا النثر الحواري في الحياة الحربية الإسلامية، وتدل على الناحية الاستخبارية عند الرسول القائد، فقد حزر جيش أعدائه، وتدل أيضاً على الشورى التي كان يسوس بها أفراد جيشه، وأن على القائد أن يتأكد من تعبئتهم النفسية لخوض الحرب. ومن جهة أخرى تدل هذه النصوص على مدى حب الأنصار للرسول ﷺ وحرصهم على حياته، ويظهر الذوق الفني بوضوح في اختيار سعد للتعبير عن الهزيمة بقوله: (وإن كانت الأخرى)، وفي المنطق الذي رتب فيه المناصرة على الإيمان، كما يظهر في عدم مبادرة الحباب بابداء الرأي، وإيثاره البدء بالمساءلة.

● ورأى رسول[1] الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية للأسر في غزوة بدر، فقال: (لكأنّك يا سعد تكره ما يصنع الناس؟. قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين، فكان الإثخان في القتل أعجب إليّ من استبقاء الرجال).

● ولمّا كثرت[2] أذيّة كعب بن الأشرف لنساء المسلمين بشعره، ومنهن أم حكيم بنت عبد المطلب، قال الرسول ﷺ: (من لي من ابن الأشرف؟). فقال محمد بن مسلمة الأشهلي الأنصاري: (أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله) قال: (فافعل إن قدرت على ذلك)، وظل ابن مسلمة ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلاّ غراراً، فلما علم به رسول الله ﷺ دعاه، وقال له: (لم تركت الطعام

---

(١) الطبري ٢: ٤٤٩.

(٢) الطبري ٢: ٤٨٨.

والشراب؟). قال: (يا رسول الله، قلت قولاً لا أدري أأفي به أم لا؟). قال: (إنما عليك الجهد) قال: (يا رسول الله، إنه لا بدّ لنا من أن نقول) قال: (قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك). ثم إن ابن مسلمة اختار أربعة معه من الأنصار لقتل ابن الأشرف، وذهب إليه أول الأمر أحدهم، وهو أبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وقش ـ وكان أخاً لكعب من الرضاع ـ فتحدَّث معه ساعة وتناشدا الشعر، ثم قال له: (ويحك يا ابن الأشرف، إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك، فاكتم عليَّ) قال: (أفعل) قال: (كان قدوم هذا الرجل بلاء علينا، عادتْنا العرب، ورمونا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السّبل، حتى ضاع العيال، وجُهِدت الأنفس، وأصبحنا قد جُهدنا وجُهد عيالنا)، فقال كعب: (أنا ابن الأشرف!. أما والله لقد كنت أخبرتك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما كنت أقول) فقال سِلكان: (إني أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنَك، ونوثّقَ لك، وتحسن في ذلك) قال: (ترهنوني أبناءكم) فقال: (لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة[1] ما فيه لك وفاء) فقال: (إن في الحلقة لوفاء) ثم خرج أبو نائلة من عنده فلم يلبث أن رجع ليلاً مع أصحابه وهتف به ـ وكان كعب حديث عهد بعرس ـ فخرج إليهم في ملحفته، وأرادت امرأته أن تثنيه عن النزول قائلة: (إنك امرؤ محارب، وإن صاحب الحرب لا ينزل في مثل هذه الساعة)، قال: (إنه أبو نائلة، لو وجدني نائماً لما أيقظني)، قالت: (والله إني لأعرف في صوته الشر)، قال: (لو دعي الفتى لطعنة أجاب)، فنزل وتحدثوا معه ساعة ثم قالوا: (هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث فيه بقية ليلتنا هذه!). قال: (إن شئتم) فتماشوا إليه، ثم إن أبا نائلة وضع يده في فود رأسه ثم شمها فقال: (ما رأيت كالليلة طيب عطر قط) ثم بعد فترة عاد لمثلها، حتى اطمأن كعب، وعاد لمثلها مرة أخرى، ثم أمسك بفودي رأسه وقال: (اضربوا

---

(١) الحلقة: السلاح، وأراد أبو نائلة بذلك أن لا ينكر كعب السلاح إذا جاؤوا به لقتله.

عدوّ الله) فطعنه ابن مسلمة بِمِغْول[1].

وفي غزوة الأحزاب[2] قدم حيي بن أخطب النضْري إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة يشجعه على نقض العهد بينه وبين الرسول ﷺ، فأبى كعب أن يفتح له الحصن، فناداه حيي: (يا كعب، افتح لي)، قال: (ويحك يا حيي! . إنك امرؤ مشؤوم، إني عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلاَّ وفاء وصدقاً)، قال: (ويحك، افتح لي أكلمك)، قال: (ما أنا بفاعل)، قال: (والله إن أغلقت دوني إلا على جشيشتك[3])، ففتح له فقال: (ويحك يا كعب!. جئتك بعزّ الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذنب نَقَمي، إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني، أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه)، فقال له كعب: (جئتني والله بذل الدهر، بجهام قد هراق ماءَه يُرعد ويُبرق، ليس فيه شيء، ويحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلاَّ صدقاً ووفاءً)، ثم إنه قبِل عَرْض حيي الذي عاهده قائلاً: (لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك).

● وفي غزوة قريظة[4] بعد أن تقرر قتل رجالهم وسبي ذراريهم وقسم أموالهم، أتى ثابت بن قيس بن شمَّاس إلى أبي عبد الرحمن الزَّبير بن باطا القرظي، وكان شيخاً كبيراً، فقال: (يا أبا عبد الرحمن.. هل تعرفني؟). قال: (وهل يجهل مثلي مثلك؟). قال: (إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي) - وكان الزّبير منّ على ثابت يوم بعاث، فلم يقتله، بل جزّ ناصيته وخلى عنه - قال الزّبير: (إن الكريم يجزي الكريم)، فذهب ثابت إلى

---

(١) مغول: سكين تكون في السوط.

(٢) المرجع السابق ٢ : ٥٧١.

(٣) الجشيشة: طعام يصنع من البر، يطحن غليظاً.

(٤) المرجع السابق ٢ : ٥٨٩ - ٥٩٠.

رسول الله ﷺ وقال: (يا رسول الله، قد كانت للزّبير عندي يد، وله عليّ منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه)، فقال الرسول: (هو لك)، فأتاه فقال: (إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك)، قال: (شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟). فرجع ثابت إلى رسول الله فقال: (يا رسول الله، أهلُه وولدُه)، قال: (هم لك)، فأتاه فقال: (إن رسول الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك)، قال: (أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم؟). فرجع ثابت إلى رسول الله فقال: (يا رسول الله، ماله)، قال: (هو لك)، فأتاه فقال: (إن رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك، (فهو لك)، قال: (أيْ ثابت.. ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحيّ، كعب بن أسد.؟)، قال: (قتل)، قال: (فما فعل سيد الحاضر والبادي، حيي بن أخطب.؟)، قال: (قتل)، قال: (فما فعل مقدّمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا كررنا، عزّال بن شمويل.؟)، قال: (قتل)، قال: (فما فعل المجلسان.؟) - يعني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة - قال: (ذهبوا، قتلوا)، قال: (فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلاّ ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قَبْلة[1] دلوٍ نَضَح، حتى ألقى الأحبة)، فقدَّمه ثابت فضرب عنقه ثم قال:

وفتْ ذمّتي، أني كريم وأنني ... صبور إذا ما القوم حادوا عن الصّبر
وكان زبيرُ أعظمَ الناس منّة ... عليّ، فلمّا شُدّ كوعاه بالأسر
أتيت رسول الله كيما أفكّه ... وكان رسول الله بحرَ الندى يجري

● وهذه النصوص الثلاثة من هذا النثر الحواري الممتع تكشف أيضاً عن جانب تاريخي هام، يصور علاقة المسلمين باليهود في المجتمع المدني إبان صدر الإسلام، فحين تجد الصدق والوفاء والتسامح والإعذار من جانب الرسول وصحبه، تجد الكذب والغدر والحقد والعداء المتأصل في الجانب

---

(١) قبلة دلو نضح: أي مقدار ما يمسك الرجل الدلو ليصبها في الحوض ثم يصرفها.

الآخر، فهي وثائق حربية اجتماعية تاريخية لها وزنها في مجال البحث وتحقيق الوقائع، علاوة على ما فيها من بعض النبضات الفنية التي تؤكدها البديهة وتدعمها السلائق.

● وكان رسول[1] الله ﷺ ببعض الطريق مرجعهُ من خيبر فقال من آخر الليل: (من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام.؟) فقال بلال: (أنا يا رسول الله أحفظ لك)، فنزل رسول الله ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلي، فصلَّى ما شاء الله، ثم استند إلى بعيره، واستقبل الفجر يرمقه، فغلبته عينه، فنام فلم يوقظهم إلَّا مسُّ الشمس، فلما صحا رسول الله ﷺ قال: (ماذا صنعت بنا يا بلال.؟)، فقال: (يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك)، قال: (صدقت) ثم توضأ وصلى بالناس، فلما سلَّم قال: (إذا نسيتم الصلاة فصلّوها إذا ذكرتموها، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾.

ولما أراد رسول[2] الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المريّ: قائدي بني غطفان يوم الأحزاب، على ثلثي المدينة ليرجعا عنها، ويفسد ما بينهم وبين قريش، استشار في ذلك السعدين[3] فقالا: (يا رسول الله، أمر تحبّه فنصنعه، أم شيء أمرك الله عزَّ وجلَّ به، لا بد لنا من عمل به، أم شيء تصنعه لنا.؟) قال: (لا، بل لكم. والله ما أصنع ذلك إلَّا أنّي رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمر مّا ساعة)، فقال له سعد بن معاذ: (يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله عزّ وجلّ وعبادة الأوثان، ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلَّا قِرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا، ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلَّا السيف، حتى

---

(١) الطبري ٣: ١٧.

(٢) الطبري ٢: ٥٧٣.

(٣) السعدين: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج.

يحكم الله بيننا وبينهم). فقال رسول الله ﷺ: (فأنت وذاك).

● ولما سمع[1] الرسول ﷺ بنزول المشركين على شفير وادي قناة مما يلي المدينة قرب أُحُد قال للمسلمين: (إنّي رأيت بقراً، فأوّلتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلْماً، ورأيت أنّي أدخلت يدي في درع حصينة، فأوّلتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا، أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها)، فقال رجال من المسلمين: (يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرونا أنّا جبنّا عنهم وضعفنا)، ووافق عبدالله بن أبيّ رأي الرسول فقال: (يا رسول الله، أقم بالمدينة، ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قطّ إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا[2]).

● وخرج عديّ[3] بن حاتم حتى قدم على رسول الله المدينة فدخل عليه وهو في مسجده، وسلّم، قال عديّ: فقال: (من الرجل.؟) فقلت: (عدي بن حاتم) فقام فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلّمه في حاجتها. فقلت في نفسي: (والله ما هذا بملك)، ثم مضى بي حتى أدخلني بيته، فتناول وسادة من أدم محشوّة ليفاً، فقذفها إليّ، فقال لي: (أجلس على هذه) قلت: (لا، بل أنت، فاجلس عليها) قال: (لا، بل أنت) فجلست، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. قلت في نفسي: (والله ما هذا بأمر ملك) ثم قال:

---

(١) المرجع السابق ٢: ٥٠٢.

(٢) كان ابن أبيّ صادقاً في قوله رغم نفاقه، فقد كانت هذه هي طريقة المدينة في الدفاع عن نفسها في الجاهلية ـ كما أوضحنا ذلك في الباب الأول من هذه الدراسة.

(٣) المرجع السابق ص ١١٤.

(إيه يا عديّ بن حاتم.. ألم تك رَكوسياً[1]؟) قلت: (بلى..) قال: (أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع[2].؟) قلت: (بلى..) قال: (فإن ذلك لم يكن يحلّ لك في دينك) قلت: (أجل والله) وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل، ثم قال: (لعلّه يا عدي بن حاتم، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلّه إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسيّة على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلاّ الله، ولعلّه إنما يمنعك من الدخول فيه أنّك ترى أنَّ الملك والسلطان في غيرهم، وايْمُ الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت)، فأسلمتُ.

● ومن نماذجه في عهد الخلفاء الراشدين:

لما ولي عمر[3] الخلافة بقي على مرتّب أبي بكر الذي كانوا فرضوه له، فاشتدت حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فقال الزبير: (لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه)، فقال عليّ: (وددنا قبل ذلك، فانطلقوا بنا)، فقال عثمان: (إنه عمر.. فهلموا فلنستبرىء ما عنده من وراء، نأتي حفصة فنسألها ونستكتمها)، فدخلوا عليها، وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر، ولا تسمي له أحداً، إلاّ أن يقبل، وخرجوا من عندها فلقيت عمر في ذلك، فعرفت الغضب في وجهه، وقال: (من هؤلاء.؟)، قالت: (لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك)، فقال: (لو علمتُ من هم لسوءت وجوههم، أنت بيني وبينهم. أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس.؟) قالت: (ثوبين ممشّقين[4]، كان

---

(١) الركوسية: قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئة.
(٢) المرباع: ربع الغنيمة، والمقصود أنه كان يأخذه لسيادته فيهم.
(٣) المرجع السابق ص ٦١٧.
(٤) الثوب الممشّق: المصبوغ بالمشق أي المغرة.

يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع)، قال: (فأي الطعام ناله عندك أرفع.؟) قالت: (خبزنا خبزة شعير، فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكّة لنا، فجعلناها هشّة دسمة، فأكل منها وتطعّم منها استطابةً لها)، قال: (فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ.؟) قالت: (كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف، فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثّرنا بنصفه)، قال: (يا حفصة، فأبلغيهم عني أنَّ رسول الله ﷺ قدَّر فوضع الفضول مواضعها، وتبلّغ بالتّزجية، وإنما مَثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزوّد زاداً فبلغ، ثم اتّبعه الآخر فسلك طريقه، فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما، لحق بهما وكان معهما. وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما).

وفي الأغاني عن أبي عبيدة[1] قال: قدم عمرو بن معدي كرب والأجلح بن وقّاص الفَهمي على عمر بن الخطاب، فأتياه وبين يديه مال يوزن، فقال: متى قدمتما؟ قالا: يوم الخميس. قال: فما حبسكما عني؟ قالا: شُغلنا بالمنزل يوم قدمنا، ثم كانت الجمعة، ثم غدونا عليك اليوم، فلمّا فرغ من وزن المال نحّاه ثم أقبل عليهما فقال: هيه! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، هذا الأجلح بن وقّاص شديد المِرّة، بعيد الفرّة، وشيك الكرّة، والله ما رأيت مثله من الرجال صارعاً ومصروعاً، والله لكأنه لا يموت، فقال عمر للأجلح - وأقبل عليه - ! هيه! قال: وأنا أعرف الغضب من وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين ، الناس صالحون، كثير نسلُهم، دارّة أرزاقُهم، خِصْب نباتُهم، أجرئاء على عدوّهم، جبانٌ عدوّهم منهم، صالحون بصلاح إمامهم، والله ما رأينا مثلك إلّا من تقدَّمك، فنستمتع الله بك. فقال: ما منعك أن تقول في صاحبك مثل الذي قال فيك.؟ قال: منعني ما رأيت في وجهك. قال: قد أصبت، أما لو قلتَ له مثل الذي قال لك لأوجعتكما عقوبة، فإن تركتك لنفسك فسوف أتركه والله لك، لوددت لو سلِمتْ لكم حالُكم هذه أبداً، أما

---

(١) الأغاني ١٥ : ١٨٨ - ١٨٩ ثقافة.

إنه سيأتي عليك يوم تعَضُّه وينهشُك، وتهرُّه وينبحُك، ولستَ له يومئذٍ وليس لك، فإن لم يكن بعهدكم فما أقربه منكم!..

● وهكذا نعلم أن هذا النوع من النثر متميز عن غيره، فليس هو من جنس الخطب، ولا هو من الأمثال أو الوصايا أو القصص، وإنما هو مجموعة حواريات كانت تدور بينهم في الأمور الحازبة والحياة العامة، ترسم كثيراً من مظاهر الحياة لديهم وتحتفظ لنا في داخلها بثروة تاريخية واجتماعية وسياسية، لا يمكن أن نغفلها بحال، ولكونها إجابات مرتجلة فإنها بعيدة كل البعد عن التأنق والصنعة، وإنما هم كانوا ينطلقون فيها على سجيتهم دون تكلف أو إعداد، ولذلك يحق لنا أن نعتبرها من هذه الناحية أقرب أنواع الفن القولي تصويراً لدواخل نفوسهم وأصدقها تعبيراً عن انفعالاتهم المختلفة، وهذه بلا شك مزية أخرى تعطي لهذا النوع النثري مع ما ذكرناه سابقاً، أهمية خاصة تجعله جديراً بعناية الدارسين.

* * *

ج ـ الأمثال:

لقد سبق أن تحدثنا عن الأمثال في المدينة بقدر كاف أثناء حديثنا عن النثر الأدبي بالمدينة في العصر الجاهلي، ومن المعتقد أن تلك الأمثال الجاهلية ظلَّت شائعة الاستعمال في المجتمع المدني الإسلامي في نثرهم القلمي واللساني جميعاً، ذلك أن الأمثال في الغالب لم تكن تحمل في ثناياها ما يصطدم بالعقيدة الإسلامية، وما كان منها كذلك وهو قليل. وجهه الرسول ﷺ وجهة إسلامية، وذلك مثل قولهم: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، حيث بين لهم أن نصرته إذا كان ظالماً تتمثل في نصحه أن يعدل عن ظلمه.

والذي يدعونا إلى الاعتقاد باستمرار الأمثال الجاهلية بينهم أنها وصلتنا عن طريقهم، فهم من الجيل الذي أخذ عنه أول من دوّن الأمثال كصُحار

العبدي وابن شريّة، كما أنّ القرآن ضرب المثل بالتي نقضت غزلها أنكاثاً من بعد قوة، وغيرها مما هو معروف عند العرب، ولم تخل خطبهم أيضاً من الأمثال، وهذا عبدالله بن أبيّ يقول[1] في غزوة بني المصطِلق: (والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش إلاّ كما قال الأول (سمّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل...)، ولكننا من جهة أخرى نعتقد أنه لا بد أن تكون الأمثال المستعملة في صدر الإسلام بالمدينة ذات علاقة وثيقة ببيئة المدينة الدينية والحربية، والزراعية، متأثرة بالوافدين عليها من قرشيين وغيرهم من المسلمين.

● والذي لا شك فيه أن كثيراً من كلام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام جرى بين الناس مجرى المثل، وشاع استعماله بين المتكلمين، ومن أمثلة ذلك: (سبقك بها عكّاشة)، (إنّ المنبتّ[2] لا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع)، (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، (الرائد لا يكذب أهله)، (من حسّن ظنّه بالناس كثرت ندامته)، (أخذنا فألك من فيك)، (إن لصاحب الحق مقالاً)، (إن الله يكره الحَبْر السمين)، (أنت ومالك لأبيك)، (أنفق بلالاً ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً)، (إن من العصمة أن لا تجد)، (البلاء موكّل بالمنطق)، (حبك للشيء يعمي ويصم)، (الحرب خدعة).

وسأله حذيفة[3]: أبعد هذا الشر خير يا رسول الله.؟ فقال: (جماعة على أقذاء، وهدنة على دخن)، وقال حين[4] ذكر الدنيا وزينتها: (إن مما يُنبت الربيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلمّ).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٢٩١ والجلابيب: الأزر الغلاظ، كانوا يلتحفون بها، لقب بها المشركون من أسلم من المهاجرين.

(٢) الخطابة في صدر الإسلام للدكتور درويش ص ١٦٨ والمنبتّ: المغذّ في السير إذا أفرط في الإغذاذ عطبت راحلته من قبل أن يبلغ حاجته أو يقضي سفره.

(٣) العقد الفريد ٣: ٣.

(٤) المرجع السابق ٣: ٤.

والحبط: أن تأكل الدابة حتى ينتفخ بطنها وتمرض منه.

أو يلم: أي أو يقرب من ذلك.

وقال لأبي سفيان: (أنت أبا سفيان كما قالوا: كل الصيد في جوف الفَرا).

وقال: (إياكم وخضراء الدّمن. قالوا: وما خضراء الدمن.؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء).

وقال: (الولد للفراش وللعاهر الحجر).

وقال: (إن من البيان لسحرا).

وقال: (الإيمان قيّد الفتك[1]).

وقال:[2] (لا ترفع عصاك عن أهلك).

كذلك كان بعض كلام الصحابة رضوان الله عليهم كقول الحباب بن المنذر: (أنا جُذيلها المحكّك، وعُذَيقها المرجّب[3])، وقول عمر: (أخطأ عمر وأصابت امرأة)، وقولهم في السقيفة: (منا أمير ومنكم أمير)، وقول عائشة[4]: (رُمي بريشك على غاربك).

● وقد كان من الأغراض الأساسية لإيراد الأمثال في الكلام، تقويته وتدعيمه، والتعبير عن المقصود من أوجز طريق، ولعلهم من هذه الناحية استعانوا إلى جانب الأمثال بالآيات القرآنية وأحاديث الرسول، فهما متّجَه كل ناثر وشاعر، ولا غنى لخطيب أن يوشح بهما كلامه ويرصعه بما فيهما من بلاغة وكمال، فليس أقوى منهما تأثيراً في قلوب المؤمنين ولا أدعى منهما للتأثير.

● ونلاحظ أن الأمثال في جميع العصور ومنها صدر الإسلام، وفي جميع

---

(١) قيّد الفتك: أي منع منه كأنه قيد له.

(٢) المرجع السابق ٣: ٦٦.

(٣) الجذيل: تصغير الجذل، وهو عود ينصب للإبل الجرباء لتحتك به من الجرب، أراد أنه يشفَى برأيه. والعذيق: تصغير عَذق: وهو النخلة، فإذا مالت النخلة الكريمة بنوا من جانبها المائل بناء مرتفعاً يدعمها لكيلا تسقط، فذلك الترجيب. وصغرهما للمدح. ومثله قولهم: إنه لجذل حكاك.

(٤) قالته عائشة لابن أخت ميمونة زوج النبي ﷺ: ذهبت والله ميمونة ورمي بريشك على غاربك.

البيئات ومنها المدينة، متفقة من حيث القالب والشكل والغرض العام، وقد استطاعت الأمثال الإسلامية من هذه الناحية أن تحافظ على هذه السمات والشيات.

* * *

د ـ الوصايا:

يرى الكثيرون أن الأولى اعتبار الوصايا لوناً من ألوان[1] الخطابة، ولاحقة بها، لما يجمع بينهما من مواجهة المخاطبين بالقول، والقصد فيهما إلى الإقناع والاستمالة، ولا يخفى ما في هذا الرأي من التسامح والتجاوز اللذين ربما قصد منهما إلى تقليل التقسيمات، في فنون القول، وإلّا فإن الوصايا في الحقيقة فن قولي مستقل قائم بذاته، إلّا أن العلاقة وثيقة بينه وبين الخطابة، لا لأن الخطابة أعم من الوصايا كما يقول الدكتور محمد طاهر درويش، ولكن لأن بينهما العموم والخصوص الوجهي، أي أنهما قد يجتمعان وقد يفترقان، فالخطبة إذا كانت مجموعة من النصائح صح أن تسمى وصية، ولا نزال نسمع خطيب الجمعة يقول: أيها الناس، أوصيكم ونفسي بتقوى الله، فالخطيب يوصي والشاعر يوصي والكاتب يوصي.

ومما تفارق فيه الوصية الخطبة أيضاً أن الخطابة لا بد أن تكون في جمع عام من الناس، بينما الوصية تكون موجهة عادة لناس مخصوصين، وفي شأن خاص في مناسبة مخصوصة، يوجهها والد لأفراد أسرته أو أمّ لابنتها، أو رئيس قوم لأفراد عشيرته ـ كما سبق أن ذكرنا في حديثنا عن النثر المدني الجاهلي ـ وقد تكون الوصية لفرد واحد كما تكون لجماعة، وللشاهد والغائب.

كما أن نصيب التفنن في الوصية قليل، وليست الخطبة كذلك.

ومن ناحية أخرى قد يكون الإخلاص والصدق والتصميم على النفع في

---

(١) الخطابة في صدر الإسلام للدكتور درويش ص ١٦٨.

الوصية أكثر مما هو في الخطبة.

● وكما اهتم العرب بالوصايا في جاهليتهم اهتموا بها في إسلامهم، وكان لهم بها عناية ظاهرة، وتكرر في القرآن قوله تعالى: ﴿ذلكم وصاكم به﴾ والفعل (وصّى)، ووردت فيه وصايا لقمان الحكيم لابنه، وغيرها من الإرشاد والتوجيه، وما أكثر ما كان الرسول ﷺ يوصي أصحابه ويعظهم في السلم والحرب والمناسبات المختلفة.

● أقبل على بعض المهاجرين مرة ـ وهو في المسجد ـ فقال[1]: (يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا نزلن بكم ـ وأعوذ بالله أن تدركوهن ـ إنه لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوا بها، إلّا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع، التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقُصوا المكيال والميزان، إلّا أُخذوا بالسنين وشدَّة المؤنة وجور السلطان. ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم، إلّا مُنعوا القطر من السماء، فلولا البهائم ما مطروا. وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سُلّط عليهم عدوّ من غيرهم، فأخذ بعض ما كان في أيديهم. وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله وتجبّروا فيما أنزل الله إلّا جعل الله بأسهم بينهم).

وحين أرسل عبد الرحمن بن عوف على سرية دُومة الجندل، دفع إليه اللواء وقال[2]: (خذه يا ابن عوف، اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم).

● وأوصى ﷺ المهاجرين في مرضه الذي مات فيه، بالأنصار فقال[3]: (يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٦٣١.
(٢) المرجع السابق ص ٦٣٢.
(٣) المرجع السابق ص ٦٥٠.

محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم).

● وشيع أبو بكر[1] عمرو بن العاص والوليد بن عقبة حين بعثهما على الصدقة إلى قضاعة، وأوصى كل واحد منهما بنفس الوصية التي أوصى بها الآخر، وهي: (اتق الله في السّرّ والعلانية، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق الله يكفِّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله، إنك في سبيل من سبل الله، لا يسعك فيه الإذهان[2] والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم، وعصمة أمركم، فلا تن ولا تفتر).

● وكذلك أوصى أسامة بن زيد وجنده في خروجه لقتال الروم فقال[3]: (يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني:

لا تخونوا، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقِروا[4] نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله).

● وأوصى خالد بن الوليد حين سيّره إلى العراق[5]، ويزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام[6]، وعمر بن الخطاب عندما استخلفه وهو على فراش الموت[7].

---

(١) الطبري ٣: ٣٩٠.

(٢) الإذهان: يقال: ذهنه عن الشيء، أي أنساه إياه وألهاه عنه ومثله: أذهنه.

(٣) الطبري ٣: ٢٢٦.

(٤) العقر: هو هنا قطع رأس النخلة.

(٥) العقد الفريد ١: ٤٠.

(٦) الكامل لابن الأثير ٢: ١٩٦.

(٧) البيان والتبيين ٢: ٣٤.

● وقال عمر[1] لعتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة: (يا عتبة، إني قد استعملتك على أرض الهند، وهي حَوْمة من حومات العدوّ، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها، وأن يعينك عليها، وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدّك بعرفجة بن هرثمة، وهو ذو مجاهدة في العدّو ومكايدة، فإذا قدم عليك فاستشره وقرّبه، وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية عن صغار وذلّة، وإلاَّ فالسيف في غير هوادة، واتق الله فيما ولّيت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك إخوتك، وقد صحبت رسول الله ﷺ، فعززت به بعد الذلّة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرت أميراً مسلّطاً وملكاً مطاعاً، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيا لها نعمة، إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك عن من دونك، احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفها عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنّم، أعيذك بالله ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حين رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا ترد الدنيا، واتّق مصارع الظالمين).

● وكذلك أوصى سعد بن أبي وقّاص حين أمّره على حرب العراق[2] فقال: (يا سعد، سعد بن وهيب، لا يغرنّك من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله، فإن الله عزّ وجلّ لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، فإنَّ الله ليس بينه وبين أحد نسب إلاَّ طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربّهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه، فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين).

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩٣.

(٢) الطبري ٣: ٤٨٣.

● **ثم عاد فوصَّاه عند سيره**[1]:

(إني قد ولّيتك حرب العراق، فاحفظ وصيّتي، فإنَّك تَقدِم على أمر شديد كريه لا يخلّص منه إلاَّ الحق، فعوّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكلٍّ عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصّبرَ على ما أصابك أو نابك، يجتمع لك خشية الله. واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته، واجتناب معصيته. وإنما أطاعـهُ مَنْ أطاعـه ببغض الدنيـا وحبّ الآخرة. وعصاه من عصاه بحبّ الدنيا وبغض الآخرة.

وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء، منها: السر، ومنها: العلانية، فأما العلانية: فأن يكون حامدُه وذاتُه في الحق سواء. وأمَّا السرّ: فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس. فلا تزهد في التحبّب، فإن النبيّين قد سألوا محبّتهم، وإن الله إذا أحبّ عبداً حبّبه، وإذا أبغض عبداً بغّضه. فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس، ممّن يشرع معك في أمرك).

● وكذلك كان بعض الصحابة الكبار يتوجهون بالوصايا إلى غيرهم من الصحابة والتابعين أو إلى أبنائهم وأفراد أسرتهم. يقول[2] معـاذ بن جبل الخزرجي:

(تعلموا العلم فإن تعلُّمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قُرُبة. والعلم منارُ سبيلِ أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السَّرّاء والضرّاء، والزّين عند الأخلّاء، والسّلاح على الأعداء، يرفع الله به قوماً فيجعلهم قادة أئمة، تُقتفَى آثارهم، ويقتدى بفعالهم، والعلم حيـاة القلب من الجهل، ومصبـاح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات

---

(١) المرجع السابق.
(٢) العقد الفريد ٢ : ٧٢.

العلا في الدنيا والآخرة، والفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته القيام، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام).

● **وأوصى سعد بن أبي وقاص ابنه فقال[1]:**

(يا بني، إياك والكبر. وليكن فيما تستعين به على تركه علمك بالذي منه كنت، والذي إليه تصير، وكيف الكبر مع النطفة التي منها خلقت، والرحم التي منها قذفت، والغذاء الذي به غذيت.؟).

* * *

ولا شك أن في هذه الوصايا وأشباهها كثيراً من الروح الخطابية، وإن كان بعضها موجهاً إلى أفراد، ويلاحظ أنها تتميز عن الوصايا الجاهلية بتنوع أغراضها، فبعضها ديني محض، وبعضها اجتماعي كوصاة الرسول بالأنصار، وبعضها الآخر يجمع بين الروح الدينية والأنظمة الحربية وسياسة الرعية كبقية النصوص.

كما تتميز بترابط أفكارها، واشتمال بعضها على الآيات القرآنية ذات العظة البليغة. أما أسلوبها فسهل، بعيد عن التعقيد والزخرف اللفظي ولا سيما السجع، والجمل متراوحة بين القصر والطول، منظّمة العرض محكمة التقسيم، وتذكرنا وصية معاذ بن جبل بما كتبه الجاحظ عن الكتاب.

* * *

٥ ـ القصص:

قال ابن حجر[2] في ترجمة كعب بن مالك: (وتخلف في تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، وقد ساق قصته في ذلك سياقاً حسناً، وهي في الصحيحين)، فما هذه القصة التي يشير إليها ابن حجر.؟ وهل هي حقاً

---

(١) المرجع السابق ٢ : ١٧٣.

(٢) الإصابة (ترجمة كعب).

تتصل بالقصة من قريب أو بعيد.؟

يجدر بنا للإجابة على الفقرة الأولى من السؤال أن نورد حديث التوبة كما ورد في صحيح البخاري على لسان كعب نفسه، وسيساعدنا ذلك دون شك على وضع الإجابة للفقرة الثانية من السؤال.

قال كعب رضي الله عنه: (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلاَّ في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ، يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أنّي لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة. ولم يكن رسول الله ﷺ يريد في غزوة إلاَّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، وعدداً كثيراً، فجعل للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم وأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ[1]، فما رجل يريد أن يتغيب إلاَّ ظن أنه سيخفَى له، ما لم ينزل فيه وحي الله. وغزا رسول الله ﷺ حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد الناسَ الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدّر لي

(١) لا يجمعهم كتاب حافظ: أي لم يعمل لهم إحصاء ولا سجل يجمع أسماءهم.

ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم، أحزنني أنّي لا أرى إلاّ رجلاً مغموصاً[1] عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه ونظرُه في عطفه[2]. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلاّ خيراً. فسكت رسول الله ﷺ. فلما بلغني أنه توجه قافلاً، حضرني همي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: ماذا أخرج من سخطه غداً.؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أطل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أنني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبِل منهم رسول ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلمت عليه تبسّم تبسُّمَ المغضَب. ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك.؟ فقلت: بلى، إنّي والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، والله لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب لترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك عليّ. ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه، إنّي لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قطّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي

---

(١) مغموصاً عليه: يعاب عليه.

(٢) العطف: الجنب، والمقصود بالنظر في العطف: العجب والخيلاء.

الله فيك. فقمت.. وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني.. فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ ما اعتذر إليه المخلّفون.؟ قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد.؟ قالوا: نعم. رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما.؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أميّة الواقفي. فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً، لي فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعترف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأمّا صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما. وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا[1].؟ ثم أصلّي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام. فقلت: يا أبا قتادة.. أنشدك الله، هل تعلمني أُحِب الله ورسوله.؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت. فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك.؟ فطفق الناس

---

(١) هكذا وردت أم المعادلة بعدهل، والمكان للهمزة، كما قرره النحاة.

يشيرون له حتى إذ جاءني، دفع إلي كتاباً من ملك[1] غسان، فإذا فيه: أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمْت بها التنور فسجرته[2] بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل.؟ قال لا، بل اعتزلها فلا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولِ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله.. إن هلال بن أميَّة شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه.؟ قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي منذ كان من أمره ما كان، إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شابّ.؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال الذي ذكر الله قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، فخررت ساجداً، وقد عرفت أنه قد جاء فرَج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا، حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إليَّ رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما

---

(١) هو جبلة بن الأيهم.

(٢) سجره في التنور: أوقده في الفرن.

جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهنئوني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ، جالس، حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله!؟ أم من عند الله.؟ قال: لا. بل من عند الله.

وكان رسول الله ﷺ استنار وجهه حتى كأنّه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.

قلت: فإنّي أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إنَّ الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت.

وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين﴾، إلى قوله: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾، فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني إلى الإسلام أعظم في نفسي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا إنقلبتم﴾، إلى قوله: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾.

وكما تخلفنا أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قبل منه رسول الله ﷺ، حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه، وبذلك قال إليه: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلّفوا﴾ (وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه).

* * *

وبترديد النظر في هذا النص نجد فيه كثيراً من الخصائص الفنية التي ترشحه للدخول في الفن القصصي، المتأثر بالقصة القرآنية التي (خضعت في موضوعها، وفي طريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية)، وتحول فيها (الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية)[1]، فقد استطاع كعب أن يحقق أهدافه الدينية في تعميق الإيمان الصادق الذي لا يقبل المداهنة ولا يستسيغ الكذب ولا يرضى الخداع، في مواجهة التقصير والذنب والتخلي عن الواجب، والذي يجعل الإنسان قادراً على تحمل تبعة أخطائه مهما كلفته من آلام وجرعته من مرارة، ليعود أشد نقاء إلى حظيرة العقيدة وظلال الإيمان.

واستعمل من أجل تحقيق هذا الهدف وسائل فنية رائعة هي من صميم الأسلوب القصصي، فقد ذكر الحدث مجملاً، وهو تخلفه عن غزوة تبوك، فأثار بذلك التشويق المطلوب، وخلق الفضول والتطلع في نفس القارىء ليشده إلى متابعة التفاصيل، التي أخذ يبوّبها، ويعرضها في مجموعة من المشاهد المليئة بالحركة والجلبة أحياناً، والكئيبة الظلال والألوان أحياناً أخرى.

المشهد الأول: المسلمون مع رسول الله ﷺ في المدينة، يعدون العدّة للغزو، والعرق يتصبب من الجباه، من جراء الجو الحار الكالح، الذي اعتادت لوافحه أن تهب على المدينة كلما أظلها الصيف، والنخيل والأعناب

---

(١) التصوير الفني في القرآن للمرحوم سيد قطب ص ١١٧، ١٣٩ مطبعة دار الشروق.

ومختلف أشجار الفاكهة قد أينعت وحان قطافها، وحوّمت رغبات أصحابها عليها، وطوقتها عيون الأماني، والناس يغدون ويروحون في سحن مختلفة، ما بين جاد في الخروج مع الجيش الغازي إلى تبوك، ومتردد يعصره الصراع، فيستجيب لدواعي الإيمان تارة، وينطرح صريع رغباته الموهنة لعزمه تارة أخرى، وإلى جانب هذا نشاهد زمرة من المنافقين تتسلل بين الناس تثبطهم وتوهي من تصميمهم وتقول لهم: لا تنفروا في الحر.

ويروح كعب ضحية تردده، فيمضي عليه اليوم واليومان وهو لم يتم جهازه، ويضيق عليه هذا التردد الخناق، فلا يتحرر منه إلا بعد فوات الأوان، وقد ارتحل الجيش عن المدينة وعسكر بخيله ورجله على تبوك.

المشهد الثاني: الرسول ﷺ يتفقد أفراد جيشه في تبوك، فلا يرى من بينهم كعباً، فيعجب لذلك. ويسأل عنه، وتأتيه الإجابة الأولى قاسية تنعت كعباً بما لا يرضاه، ثم تتلوها إجابة أخرى رفيقة رقيقة، فيها كثير من الإنصاف والتقدير لمواقف كعب السابقة.

المشهد الثالث: الرسول ﷺ في مسجده الشريف بالمدينة بعد عودته من تبوك، والأصحاب من حوله، وجموع المتخلفين عن المعركة يتواردون عليه، للسلام وتقديم المعاذير، غير ثلاثة، منهم كعب، أبوا إلَّا أن يقولوا الصدق، وآثروا أن لا يحجبوا ما طرأ عليهم من ضعف إنساني حال بينهم وبين حضور المعركة، فيدرك الرسول صدقهم، ولكنه يترك أمر قبول توبتهم لله، فيأمر بهجرهم ومقاطعتهم وعدم التعامل معهم، حتى يحكم الله فيهم ويأذن بما يشاء. فيخرج كعب من عنده كسيراً حزيناً يجر ذيول الحسرة والندامة.

المشهد الرابع: كعب نهب التردد، بعد أن زين له قومه الرجوع إلى الرسول الكريم، وإبداء المعاذير، ثم وصوله إلى رأي حاسم، يمضي فيه بالصدق إلى أقصى مداه.

المشهد الخامس: يعمل فيه البعد الزماني والمكاني معاً، (والمونولوج)

الداخلي، في تجسيد مأساة الحيرة والانتظار والترقب، خمسون ليلة يقاطعه فيها الأصدقاء وأبناء العشيرة، ويفر منه الناس في الأسواق والطرقات، ويجفوه فيها حبيبه ونبيه، وتأتي رسالة من ملك غسان يغريه فيها باللحاق به فيسارع إلى رفضها وإحراقها في تنور بيته، وتسود الدنيا في عينيه، وتضيق عليه وعلى زميليه الأرض بما رحبت، وبذلك تبلغ القصة ذروة تأزمها، وتبرق العيون متطلعة إلى الحل، وتخفق الأفئدة مستشرفة للنهاية، فلا تلبث أن تتنزل بعض الآيات الكريمات على رسول الله ﷺ وسلم لتضع حداً لهذه المأساة وتنزل الستار على آخر مشاهدها. فيخضر بالبشرى قلبه، وتنتعش بالتوبة نفسه، وتعود له كرامته ويرجع اعتباره مع الكلمات المباركات والحروف المشرقة، المضمخة بعبير السماء.

● وكان كعب إلى كل هذا دقيقاً في رسم شخصيات القصة وتحليل المشاهد وذكر دقائقها التي تساعد على التلوين وإضفاء الظلال اللازمة لتجسيد فنيات القصة. ونلاحظ أنه ترك بين المشاهد فجوات، هي أشبه شيء بما (يؤديه في المسرح الحديث إنزال الستار وفي السينما الحديثة انتقال الحلقة، بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين، فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق، وهي طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب[1].

● وبعد هذا التحليل السريع للنص وفي ضوء معطياته يكون بإمكاننا أن نضع هذا النص في عداد القصص على نحو من الأنحاء، وأن نقدمه كنموذج حيّ لهذا الفن الأدبي من بين فنون النثر في المدينة المنورة في صدر الإسلام.

ويبدو أنه لم يؤثر في حياة كعب حدث كهذا الحدث الأليم فصوره بريشته النثرية المبدعة ولعلّه أدرك بحاسته الفنية أن ذلك يغنيه عن الحديث

---

(١) التصوير الفني ص ١٥٢.

عن ذلك شعراً، وهو الشاعر المعدود ـ كما نعرف ـ في الوقت الذي نرى موقفه يختلف إزاء الحدث الثاني المهم في حياته، ونعني به بيعته في العقبة، فقد صاغه شعراً في عينيته كما صاغه نثراً في أسلوب قصصي جذاب أيضاً، ولكننا قلنا عن تلك العينية: إنها لم تكن من قصائده الناجحة، وربما أحس بهذا فلم يُعِد المحاولة مرة أخرى هنا واكتفى بالصياغة النثرية، وعلم أن فيها الغناء.

●قال في قصة بيعته للنبي ﷺ في العقبة[١]

(خرجنا في حجّاج قومنا من المشركين، وقد صلّينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور[٢] سيّدنا وكبيرنا، فلما وجّهنا[٣] لسفرنا، وخرجنا من المدينة، قال البراء لنا: يا هؤلاء، إني قد رأيت رأياً، فوالله ما أدري، أتوافقونني عليه، أم لا.؟ قلنا: وما ذاك.؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنيّة[٤] مني بظهر، وأني أصلّي إليها. فقلنا: والله ما بلغنا أن نبيّنا ﷺ يصلي إلاّ إلى الشام[٥]، وما نريد أن نخالفه، فقال: إني لمصلّ إليها. فقلنا له: لكنا لا نفعل. فكنّا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، وصلى إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة. وقد كنا عبنا عليه ما صنع، وأبى إلاّ الإقامة على ذلك. فلمّا قدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، حتى نسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء، لِما رأيت من خلافكم إياي فيه.

---

(١) سيرة ابن هشام: ١: ٤٣٩ ـ ٤٤٣.
وقد بلغ من اعتزاز كعب بحضور هذه البيعة أن فضلها على شهود بدر.

(٢) يكنى البراء. بأبي بشر، أحد أبنائه، وهو الذي أكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة، فمات، ومعرور: اسم أبيه، ومعناه مقصود. يقال: عرّه، واعترّه: إذا قصده.

(٣) وجّهنا: اتجهنا.

(٤) هذه البنية: يعني الكعبة.

(٥) إلى الشام: أي إلى بيت المقدس.

فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، وكنا لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله فقال: هل تعرفـانه.؟ فقلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمَّه.؟ قلنا: نعم، - وقد كنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً - قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. فدخلنـا المسجد، فـإذا العباس جـالس، ورسول الله ﷺ جـالس معه، فسلّمنـا، ثم جلسنا إليـه، فقـال رسول الله للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل.؟ قال: نعم، هذا البراء من معرور، سيّد قومه، وهذا كعب بن مالك. فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: الشاعر.؟ قال: نعم، فقال له البـراء: يا نبيّ الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنيّة منّي بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله.؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلَّى معنا إلى الشام، وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أعلم به منهم.

ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعـوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، فتسللنا تسلُّل القطا، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب (أم عمارة)، إحدى نساء بني مازن بن النجار،

وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع.

فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلَّا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثّق له. فلمّا جلس كان أوَّل متكلم العباس، فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحيّ من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلَّا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنَّه في عزّ ومنعة من قومه وبلده. فقلنا له: سمعنا ما قلت، فتكلَّم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربّك ما أحببت. فتكلَّم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيّاً، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر، فاعترض القول، والبراء يكلّم رسول الله، أبو الهيثم بن التيّهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال[1] حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسَيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.؟ فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهَدْم الهدم[2]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

فقال له البراء: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك، فقال رسول الله:

---

(١) يعني بالرجال: اليهود.

(٢) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك، وهدمي هدمك: أي ما هدمته أنت من الدماء هدمته أنا. وقال ابن هشام: (الهدم) بتحريك الدال وهي: الحرمة، يعني: ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم.

أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً، فأخرجوهم له - (وعدّد النقباء) - ثم قال: فأخذ البراء بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا ثم قال رسول الله ﷺ: ارفضّوا إلى رحالكم، فقال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلنّ على أهل منىً غداً بأسيافنا. فقال رسول الله: إنا لم نؤمر بذلك، ارفضّوا إلى رحالكم.

فرجعنا إلى رحالنا فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلّة من قريش، فيهم الحارث بن هشام، فتى شابّ، وعليه نعلان له جديدان، حتى جاؤونا في رحالنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

فانبعث من هناك من قومنا من المشركين يحلفون لهم بالله: ما كان من هذا من شيء، وما فعلناه. وأنا أنظر إلى أبي جابر: عبدالله بن عمرو بن حرام، وهو صامت، وأنا صامت، فلما تثوّر القوم لينطلقوا، قلت كلمة كأني أشركهم في الكلام: يا أبا جابر: أنت سيّد من ساداتنا، وكهل من كهولنا لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى.؟ فسمعه الفتى فخلع نعليه فرمى بهما إليّ، وقال: والله لتلبسهما، فقال أبو جابر: مهلاً، أحفظت[1] لعمر الله الرجل، اردد عليه نعليه، فقلت: والله لا أردهما، فأل صالح والله، إني لأرجو أن أستلبه).

● وهكذا أيضاً نجد الخصائص التي تحدثنا عنها ماثلة في هذه القصة أيضاً، ولا شك أن كعباً سكب في هاتين القصتين كثيراً من فنه ولونهما بريشته المبدعة، دون أن يفقدهما قيمتها التاريخية.

● وكذلك كان يفعل القرآن الكريم فيما ورد فيه من قصص الأنبياء وغيرهم.

---

(١) أحفظته: أخجلته.

● ولم يكن كعب وحده الذي عرف بمثل هذه الصياغة النثرية في المجتمع المدني، بل كان هناك قصص ديني يمت إلى الوعظ والإرشاد والتهذيب بأوثق الصلات[1]، ويتسم بروح الخطابة، ويتخذ بعض وسائلها، ويعتمد على رواية أخبار السالفين، (ليكون في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ويحكي أحوال الغائبين للشاهدين، يقوي عزائمهم، ويثبت قلوبهم، ويصور للناس ما ينتظرهم في آخرتهم، ليعدّوا لها زادها[2])، وقد كان الرسول نفسه يقص على أصحابه، فمن على منبره الشريف قص عليهم قصص موسى مع ربه[3]، وقصص يحيى معه[4]، (وكان أبو سفيان وأبو هريرة ومعاذ بن جبل، يقصون ويعظون الجيش في موقعة اليرموك[5])، وأصبح هذا القصص الوعظي تقليداً معروفاً أيام الخلفاء، فقد أمر عمر سعد بن أبي وقاص بموعظة جيشه الذي كان يقوده إلى العراق، وأقام سلمان الفارسي قاصاً وداعية للناس في هذا الجيش الذي بدأ بفتح القادسية[6]، وكذلك أقام زياد بن أبيه بين يديه يقص على الناس خبر وقعة جلولاء، حينما جاءه من عند سعد بن أبي وقاص في المدائن بهذه البشارة[7]، وأقام عثمان عبدالله بن الزبير يقص على المسلمين خبر فتح إفريقية حين وفد عليه بشيراً بذلك[8].

---

(١) الخطابة في صدر الإسلام للدكتور درويش ص ١٤٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البداية والنهاية ١ : ٢٩٢.

(٤) أسد الغابة ١ : ٣٢٠.

(٥) الخطابة في صدر الإسلام ص ١٤٠.

(٦) البداية والنهاية ٧: ٣٧.

(٧) المرجع السابق ٧: ٦٩.

(٨) العقد الفريد ٢: ١٤٩.

ثانياً: النثر القلمي

- ١ -

ويشمل كلّ ما كان يؤدى بوساطة القلم من الكلام المنثور، ونحن نعلم أن الكتابة انتشرت في المجتمع المدني الإسلامي وارتفعت نسبتها إلى حد كبير، وذلك لحاجة المسلمين إلى تقييد آي القرآن الكريم، وللحاجة الماسة بعد ذلك لإدارة شؤون الدولة في الحرب والسلم، ثم إن القرآن الكريم نفسه حث على القراءة والكتابة وأعطاهما شأناً عظيماً، كما رأينا في سورة العلق، وسورة القلم، وسورة الطور، وتردد فيه ذكر أدواتهما، كاللوح والقرطاس والصحف، قال تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ[1]﴾، وقال ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس[2]﴾، وقال: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة[3]﴾، ولم يقتصر نشاط بعضهم على تعلم الكتابة العربية، بل تجاوزها بدافع الرغبة أو الاحتكاك أو بأمر من الرسول ﷺ، إلى تعلّم لغات أخرى مثل السريانية والعبرية، كما فعل زيد بن ثابت الأنصاري.

وحث القرآن على استخدام الكتابة في المعاملات، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب

---

(١) البروج: ٢١ - ٢٢.
(٢) الأنعام: ٩١.
(٣) البينة: ٢.

بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علَّمه الله، فليكتب وليملل الذي عليه الحق[1]﴾.

وكانت مجموعة من الصحابة تكتب لرسول الله ﷺ - كما أشرنا إلى ذلك في كلام سابق - أوصلهم البعض إلى ستة عشر كاتباً، فمن كتّاب الوحي عثمان، وعلي، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت. وكان زيد بجانب ذلك يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية[2] والعبرية والسريانية وكان خالد بن سعيد[3] بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والحصين بن نمير، وشرحبيل بن حسنة الطابخي، وأبان بن سعيد، يكتبون له في الشؤون المختلفة. وكذلك كان يفعل معاوية قبل وفاته ﷺ بأشهر قلائل، وعبدالله بن أبي سرح ثم ارتد ولحق بالمشركين بمكة.

أما عبدالله بن الأرقم بن عبد يغوث الزهري والعلاء بن عقبة الحضرمي، فقد كانا يكتبان المداينات بين الناس وسائر العقود والمعاملات[4].

وكان الزبير بن العوام، وجهيم بن الصلت، يكتبان أموال الصدقات[5].

وحذيفة بن اليمان كان يكتب خرص الحجاز.

أما حنظلة بن الربيع بن صيفي فكان يكتب في كل هذه الأمور إذا غاب من ذكرنا، بحيث ينوب عنهم في سائر ما ينفرد به كل واحد منهم، ولذلك لقب بحنظلة الكاتب، وقد مات في خلافة عمر في الرها فرثته امرأة من قومه فقالت:

---

(١) البقرة: ٢٨٢.
(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٤٥.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق.

يــا عجب الـدهــر لمحــزونــةٍ تبكي على ذي شيبــة شــاحب
إن تسـأليني الـدهـر: ما شفّني.؟ أخبــرك قيــلاً ليس بــالكــاذب
إنَّ ســواد الــرأس أودى بــه حــزني على حنــظلة الكــاتــب

وكتب لأبي بكـر: عثمان بن عفـان، وزيد بن ثـابت، وعبـدالله بن الأرقم. ونقش خاتمه: (نعم القادر الله)[1].

وقد كتب الأخيران لعمر أيضاً. وكان نقش خاتم عمر: (كفى بالموت واعظاً يا عمر)، وقيل: (آمنت بالذي خلقني[2]).

وكتب لعثمان: مروان بن الحكم، وكـان نقش خاتمـه: (آمنت بالله مخلصاً) وقيل: (آمنت بالله العظيم). وقيل: (لتصبرن أو لتندمن).

ومعنى هذا كله، أن ما كان يكتب على عهد الرسول ﷺ، أمران: القرآن، والحديث أحياناً. والرسائل والعهود، وكذلك كان الحال في عهد الخلفاء الراشدين، فقد جمع القرآن مـرتين، وسيّـرت المصاحف في عهـد عثمان.

- ٢ -

ولكن ليس من شأننا هنا دراسة القرآن أو الحديث، وإنَّما الذي يهمنا من هذا النثر المكتوب هو الرسائل والعهود.

أ ـ الرسائل:

أكثر الرسائل التي وصلتنا في كتب التاريخ والسيرة، لا علاقة لها بالرسائل الأخوانية، بالرغم من أن المنطق التاريخي يفـرض شيوعهـا بين

(١) المرجع السابق ص ٢٤٩.
(٢) المرجع السابق ص ٢٥١.

الناس، ولعلَّها كانت منتشرة بينهم بالفعل، وأهملها الرواة، لانشغالهم بما هو أهم منها، وانجذابهم لكل ما هو رسمي، وله صلة بالكيان الإسلامي العام، فمعظم الرسائل التي بين أيدينا، مكتوب لأغراض حكومية صرفة، أريد منها تسيير شؤون الأمة، ولم يقصد منها إلى التفنن والإبداع، ومن شأن هذا النوع من الرسائل أن يقترب أحياناً من الأسلوب العلمي، لأن كل همه الأداء والتبليغ، ولهذا جاءت هذه الرسائل خالية من التنميق والتحبير، معتمدة في أغلب حالاتها على الاختصار. ولهذا أيضاً لم تستطع أن تزحم الخطابة أو تقلل من شأنها، فبقيت لها منزلتها، واحتفظت بينهم بمكانتها، واتسعت ميادينها وأغراضها، ولكن كثيراً من هذه الرسائل لم يخل من النبضات العاطفية الحية، واللقطات الفنية التي قصد منها إلى التأثير، وبخاصة إذا كانت متصلة من قريب أو بعيد بالدعوة إلى الإسلام والتمسك بشرائعه، ومن ذلك رسالة[1] النبي ﷺ إلى النجاشي مع عمرو بن أميّة الضَّمْري:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصحي. والسلام على من اتبع الهدى).

● فقد اشتملت هذه الرسالة على بعض اللمسات الفنية، كالمقابلة بين رسول الله وملك الحبشة، وكإيراد بعض أسماء الله بطريقة متخيرة تعين على الغرض، وتقديم الإيمان بعيسى لأن المرسل إليه نصراني ولكن في ظل المفهوم

---

(١) الطبري ٢: ٦٥٢.

الإسلامي، والخاتمة بالسلام على من اتبع الهدى. وكان أن استجاب النجاشي للإسلام وفتح الله له قلبه وهداه.

● وأرسل إلى كسرى[1] مع عبدالله بن حذافة السهمي بطريقة مغايرة، وذلك لمجوسيته:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إلّه إلّا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإنّي رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين، فأسلِم تَسلم، فإن أبيتَ، فإن إثم المجوس عليك).

● وكتب[2] ﷺ إلى ملوك حمير حين أرسلوا إليه بمفارقتهم الشرك وأهله:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله، إلى الحارث بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان: قَيْل ذى رُعَين وهمدان ومَعافر.

أما بعد ذلكم: فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إلّه إلّا هو.

أما بعد: فإنَّه قد وقع بنا رسولكم، مَقْفلنا من أرض الروم[3]، فلقينا بالمدينة، فبلّغ ما أرسلتم وخبّر ما قِبَلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأنَّ الله قد هداكم بهدايته، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خمس الله، وسهم نبيّه وصفيّه، وما كُتب على المؤمنين من الصّدقة:

من العقار[4]: عُشُر ما سقت العين وسقت السماء، وكلّ ما سقي بالغرب نصف العشر.

---

(١) المرجع السابق ٢: ٦٥٤.
(٢) المرجع السابق ٣: ١٢٠.
(٣) أي بعد عودته من تبوك.
(٤) العقار: الأرض التي تزرع.

وفي الإبل: في الأربعين ابنة لبون، وفي الثلاثين من الإبل: ابن لبون ذكر. وفي كل خمس من الإبل: شاة، وفي كل عشر من الإبل: شاتان. وفي كل أربعين من البقر: بقرة. وفي كل ثلاثين من البقر: تبيع، جذع أو جذعة.

وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها: شاة.

وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهرَ المؤمنين على المشركين، فإنه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذمة الله وذمَّة رسوله.

وإنه من أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ، فإنَّ له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم. ومن كان على يهوديته أو نصرانيته، فإنَّه لا يفتن عنها، وعليه الجزية، على كل حالم: ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد: دينار واف، أو قيمته من المعافر(١)، أو عرضُه ثياباً، فمن أدى ذلك إلى رسول الله، فإنَّ له ذمة الله ورسوله ومن منعه فإنَّه عدوّ لله ولرسوله.

أما بعد:

فإنَّ رسول الله محمّداً النبيّ أرسل إلى زُرْعة ذي يزن: أنْ إذا أتتكم رسلي، فأوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل، وعبدالله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نِمَر، ومالك بن مرّة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم، وبلّغوها رسلي، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبنّ إلاّ راضياً.

أما بعد:

فإنَّ محمداً يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنه عبده ورسوله، ثم أن مالك بن مرّة الرّهاوي قد حدّثني أنك أسلمت من أوّل حمير، وقتلت المشركين، فأبشر

---

(١) المعافر: ثياب اليمن.

بخير، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخذلوا، فإن رسول الله مولى غنيّكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لأهله، إنما هي زكاة يتزكّى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السبيل، وإن مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب، وآمرك به خيراً، وإنّي قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولي ديني، وأولي علمهم. فآمركم بهم خيراً، فإنه منظور إليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

● ونلاحظ أن هذه الرسالة بدأت بالبسملة كسابقتيها، ويقول من فلان إلى فلان، ولكنها تميزت بالطول، وباشتمالها على جزء من التشريع الخاص بفريضة الزكاة، وبعلاقة الإسلام مع أهل الأديان الأخرى، فبعض العرب باليمن ـ كما هو معلوم ـ كانت تدين باليهودية وبعضهم بالنصرانية.

كما أنه كان يبدأ كل فقرة جديدة بالفاصل (أما بعد) ثم ختمها كالعادة بالسلام.

● ومن رسائله المختصرة ما أرسله إلى قائده عبدالله بن جحش، وذلك أنه أرسله[1] في السنة الثانية للهجرة في سرّية ومعه ثمانية رهط من المهاجرين أو اثنا عشر إلى أرض نخلة، بين مكة والطائف، وكتب له كتاباً أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيُمضي له أمره به، ولا يستكره أحداً من أصحابه، وبعد مسير اليومين فتح ابن جحش الكتاب، فإذا فيه: (وإذا نظرت في كتابي هذا، فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصّد بها قريشاً، وتعلّم لنا من أخبارهم).. إلى آخر الخبر.

● **وكذلك رسالته[2] إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي:**

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى.

---

(١) المرجع السابق ٢: ٤١١.
(٢) المرجع السابق ٢: ٦٤٩.

أما بعد:

أسلِم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرَّتين، وإن تتولَّ، فإنَّ إثم الأكَّارين عليك).

● وكذلك رسالته[1] إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمّر الغساني، مع شجاع بن وهب الأسدي:

(سلام على من اتبع الهدى وآمن، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك).

وهناك رسالتان تبادلهما الرسول مع قائده خالد بن الوليد، تمثلان علاقته بقواده، ففي سنة عشر للهجرة بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد في سرّية إلى بني الحارث بن كعب بنجران يدعوهم للإسلام، فإن قبلوا أقام فيهم يعلّمهم الإسلام، وإلَّا قاتلهم، فلمَّا ذهب إليهم خالد دخلوا في الإسلام، فأقام فيهم، ثم كتب إلى رسول الله كتاباً قال فيه[2]:

(بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد النبيّ رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد.

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلَّا هو.

أما بعد:

يا رسول الله صلى الله عليك، بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلت منهم وعلَّمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنّة نبيه. وإن لم يسلموا قاتلتهم. وإنّي قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً، قالوا: يا بني الحارث، أسلموا

(١) المرجع السابق ٢: ٦٥٢.
(٢) المرجع السابق ٣: ١٢٦ - ١٢٧.

تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عمّا نهاهم الله عنه، وأعلّمهم معالم الإسلام وسنّة النبيّ ﷺ، حتى يكتب إليّ رسول الله. والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته).

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبيّ رسول الله، إلى خالد بن الوليد. سلام عليك، فإنّي أحمد الله إليك لا إلّه إلا هو.

أما بعد:

فإن كتابك جاءني مع رسلك بخبر: أنّ بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشّرهم وأنذرهم، وأقبل، وليقبل معك وفدهم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

● والملاحظ أن خالداً قدّم اسم الرسول ﷺ، علماً بأنه هو المرسل إليه مع أن الطابع العام لرسائلهم هو من فلان إلى فلان، وذلك تعظيماً منه لقدر الرسول عليه السلام، وكذلك نداؤه بيا رسول الله. وكلتا الرسالتين اشتركتا في استعمال: (أما بعد)، وفي الخاتمة.

● ونختم الحديث عن رسائل الرسول ﷺ بالرسالتين اللتين تبودلتا بينه وبين مسيلمة الكذاب. كتب مسيلمة إلى رسول ﷺ: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك، فإنّي قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون).

وقدم عليه رسولان بهذا الكتاب، فلما قرأه ﷺ قال لهما: (فما تقولان أنتما.؟) قالا: (نقول كما قال). فقال: (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما)، ثم كتب إلى مسيلمة:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب،

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد:

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقيْن).

● ويتولى أبو بكر الخلافة وترتد كثير من القبائل العربية، فيرسل الجيوش لقتالهم ومعهم كتاب مفتوح لهم موحّد الصيغة، وهذا نصه[1]:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نقرّ بما جاء به، ونكفّر من أبى ونجاهده.

أما بعد:

فإنَّ الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لينذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً، ثم توفّى الله رسوله ﷺ، وقد نفّذ لأمر الله ونصح لأمته، وقضى الله عليه، وكان الله قد بيّنَ له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل، فقال: ﴿إنك ميّت وإنهم ميتون[2]﴾، وقال: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن متّ فهم الخالدون[3]﴾، وقال للمؤمنين: ﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين[4]﴾.

---

(١) المرجع السابق ٣: ٢٥٠.

(٢) الزمر: ٣٠.

(٣) الأنبياء: ٣٤.

(٤) آل عمران: ١٤٤.

فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له، فإن الله له بالمرصاد، حيّ قيّوم لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوّه، يجزيه.

وإنّي أوصيكم بتقوى الله، وحظّكم ونصيبكم من الله، وما جاءكم به نبيّكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كلّ من لم يهده الله ضالّ، وكل من لم يعافه مبتلىً، وكلّ من لم يعنه الله مخذول، فمن هداه الله كان مهتدياً، ومن أضله كان ضالاً، قال الله تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً[1]﴾، ولم يُقْبَل منه في الدنيا عمل حتى يقرّ به، ولم يُقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله، وجهالة بأمره وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلاً[2]﴾. وقال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوّاً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير[3]﴾.

وإني بعثت إليكم فلاناً[4] في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله، حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً، قَبِل منه وأعانه عليه. ومن أبى، أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منهم قَدَر عليه، وأن يحرقهم بالنّار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذّراري، ولا يقبل من أحد إلاّ الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله.

وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان،

---

(١) الكهف: ١٧.
(٢) الكهف: ٥٠.
(٣) فاطر: ٦.
(٤) كان يعين اسم القائد المرسل.

فإذا أذّن المسلمون فأذّنوا كفّوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم، وإن أذّنوا فاسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقرّوا قُبِل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم).

● والملاحظ أن هذا الكتاب المفتوح طويل طولاً يناسب المقام الذي كتب من أجله، وقد احتوى على كثير من التفاصيل اللازمة والشروح المطلوبة للعقيدة، وموقف المؤمنين والمرتدين منها، وفي الكتاب كثير من الإنذارات والإعذارات، وهو بما فيه من تعبيرات أدبية وعاطفة دينية صادقة يدخل في النثر الأدبي الرفيع، ويعتبر نموذجاً للنثر الفني الأنيق.

● وكتب أيضاً إلى خالد وهو في غمار حروب الردة[1]:

(ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً، واتّق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جدّ في أمر الله ولا تنينّ، ولا تظفرنّ بأحد قتل من المسلمين إلاّ قتلته، ونكّلت به غيره، ومن أحببت ممّن حادّ الله أو ضادّه، ممّن ترى أن في ذلك صلاحاً، فاقتله).

● وكتب إلى عكرمة يعنّفه على تسرّعه في حرب الردة باليمامة وتعرّضه للهزيمة من مسيلمة[2]:

(لا أرينّك ولا أسمعنّ بك إلاّ بعد بلاء، والحق بعُمان حتى تقاتل أهل عمان، وتعين حذيفة وعرفجة، وكل واحد منكم على خيله، وحذيفة ما دمتم في عمله على الناس، فإذا فرغتم فامض إلى مَهْرة، ثم ليكن وجهك منها إلى اليمـن، حتى تلاقي المهاجر بن أبي أميّة باليمن وبحضرموت، وأوطيء من بين عمان واليمن ممّن ارتدّ، وليبلغني بلاؤك).

* * *

● وكان أول كتاب كتبه عمر حين ولي أمور المسلمين بعد موت أبي

(١) المرجع السابق ٣: ٢٦٣.
(٢) المرجع السابق ٣: ٣١٥.

بكر، الكتاب الذي وجّهه إلى أبي عبيدة يولّيه على جند خالد بن الوليد بعد أن عزله[1]:

(أوصيك بتقوى الله الذي يبقَى، ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تقدِّم المسلمين إلى هَلَكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سريّة إلاّ في كشف من الناس[2]. وإياك وإلقاء المسلمين في التهلكة، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغمّض بصرك عن الدنيا، وأله قلبك عنها. وإياك أن تُهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعهم).

● وهي رسالة تكشف عن حرص عمر على عدم تعريض جيوش المسلمين إلى المهالك والدعوة إلى التريث، وقد كان عزل خالداً خوفاً على المسلمين من سرعة هجماته، وقد كان الخليفة يخطط للمعارك وهو في المدينة، وكثيراً ما كان القواد يكتبون إليه يستشيرونه في ذلك، بعد أن يرسموا له خريطة الأرض ويزودوه بالمعلومات الكافية عن ملابسات المعركة، ومن ذلك أنَّ أبا عبيدة كتب إلى عمر وهو على جند الشام يسأله بماذا يبدأ فكتب إليه عمر[3]:

(أمّا بعد: فابدؤوا بدمشق، فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فِحْل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تُغيروا على فِحْل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعَمْرا، وأخلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل

(١) المرجع السابق ٣: ٤٣٤.
(٢) الكشف: الجماعة من الناس.
(٣) المرجع السابق ٣: ٤٣٧.

بلد وجندٍ على الناس حتى يخرجوا من إمارته).

● وكتب إلى المثنّى حين كان في مواجهة الفرس[1]:

(أما بعد: فاخرجوا من بين ظهراني العجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة أحداً، ولا مضر، ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً، إلَّا اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلَّا حشرتموه، احملوا العرب على الجدِّ إذ جدّ العجم، فلتلقَوْا جِدَّكم بجدّهم).

● ومما يندرج تحت هذا النوع ما كتبه عمر أيضاً إلى سعد بن أبي وقاص، حين كتب إليه من شَراف في الجبهة الشرقية يصف له منزله ومنازل الناس فيما بين غُضيّ إلى الجبّانة فكتب إليه عمر[2]:

(إذا جاءك كتابي هذا فعشّر الناس، وعرّف عليهم، وأمّر على أجنادهم، وعبّهم، ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدّرهم وهم شهود، ثم وجّههم إلى أصحابهم، وواعدهم القادسية، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمرهم).

● وقد اشتهر عهد عمر بكثير من التنظيمات الجديدة، وتكوين عديد من الدواوين التي أملتها حاجة الدولة، واتسعت رقعة الفتوحات فكثرت المسؤوليات وتعدَّدت التبعات، واستتبع هذا كثرة في الرسائل المتبادلة للقيام بهذه المهمة، مما ساعد على تطويع هذا النوع من النثر لإرادة الكتّاب وطاقاتهم الفنية، وبدأت تأخذ طريقها إلى التميز. واستكمالاً لتلك الصورة الزاهية التي كانت عليها الرسائل في ذلك العهد لا مناص من إيراد النماذج التالية:

● كتب عمر إلى سعد وهو بشراف أيضاً في حرب القادسية[3]:

---

(١) المرجع السابق ٣: ٤٧٨.
(٢) المرجع السابق ٣: ٤٨٧.
(٣) المرجع السابق ٣: ٤٩١ وأنهار ممتنعة.

(أما بعد: فسر من شَراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكَّل على الله، واستعن به على أمرك كله. واعلم فيما لديك أنك تقدِم على أمّة عددهم كثير، وعدّتهم فاضلة، وبأسهم شديد. وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً، كؤود، لبحوره وفيوضه ودأدائه[1]، إلَّا أن توافقوا غيضاً من فيض[2].

وإذا لقيتم القوم، أو أحداً منهم، فابدؤوهم الشدّ والضرب. وإياكم والمناظرة لجموعهم، ولا يخدعُنّكم، فإنهم خَدَعة مَكَرة، أمْرُهم غير أمرِكم، إلا أن تحادّوهم. وإذا انتهيت إلى القادسية[3] فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع بينها، ثم الزم مكانك فلا تبرحه، فإنهم إذا أحسّوك أنغضتهم[4]، ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجْلهم، وحدِّهم وجِدّهم، فإن أنتم صبرتم لعدوّكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلَّا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى قدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ، وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن، وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم، ويردّ لكم الكرّة).

● ومما كتبه عمر إلى سعد[5]:

(أما بعد: فتعاهد قلبك، وحادِث جندك بالموعظة والنيّة والحسبة، ومن غفل فليحدثها، والصبرَ الصبرَ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة. والحذرَ الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله، واسألوا الله العافية، وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلَّا بالله. واكتب

(١) الدأداء: آخر أيام الشهر، ويقال: ليلة دأداء: شديدة الظلمة.
(٢) غيضاً من فيض: قليلاً من كثير.
(٣) القادسية: هي باب فارس في الجاهلية، حصينة، دونها قناطر.
(٤) أنغضتهم: حرّكتهم.
(٥) المرجع السابق ٣: ٤٩١.

إليَّ: أين بلغك جمعهم.؟ ومن رأسهم الذي يلي مصادقتكم.؟ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقرَّ عليه أمر عدوّكم، فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الـذي بينكم وبين المدائن، صفة كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجليَّة، وخف الله وارجه، ولا تُدِلّ بشيء. واعلم أنَّ الله قد وعدكم. وتوكَّل لهذا الأمر بما لا خلف له، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم).

● فكتب إليه سعد[1]:

(إنَّ القادسية بين الخندق والعتيق، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاحّ إلى الحيرة بين طريقين، فأما أحدهما فعلى الظّهر، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحضوض، يطلع بمن سلكه على ما بين الخـورنق والحيرة، ومن عن يمينـه القادسيّـة إلى الوَلَجَـة فيض من فيوض مياههم.

وإن جميع من صالح المسلمين من أهـل السواد قبـلي، ألب لأهل فارس، قد خفّوا لهم، واستعدوا لنا. وإن الذي أعدّوا لمصادمتنا رستم، في أمثال له منهم، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا، ونحن نحـاول إنغاضهم وإبرازهم، وأمر الله بعد ماض، وقضاؤه مسلّم إلى ما لا قدّر لنا وعلينا، فنسأل الله خير القضاء، وخير القدر في عافية).

● فردَّ عليه عمر:

(قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينغض الله عـدوّك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم، حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله).

وواضح أن هذه الرسائل التي كان يرسلها القواد من مواقعهم الحربية

---

(١) المرجع السابق.

إلى الخليفة في المدينة، محتوية على وصف جغرافي دقيق، يجعل الخليفة يشاهد من خلاله ما يريد مشاهدته، ويرسم بواسطته الخطة الناجحة، وربما كان يصحب هذه الرسائل بعض المخططات المصورة وبعض الرسومات، إن ذلك غير مستبعد عن العقلية العربية المتفتحة، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن شيء من ذلك على كل حال، وقد نابت قوة التعبير ودقة الوصف في نظرنا عن كل رسم أو مخطط، ولا مانع أن نعتبر هذه الرسائل وأشباهها مما ولد في نفوس العرب المعارف الجغرافية بعد ذلك ومكن لها ووضع أساسها. ومن جهة أخرى نلاحظ أن الرسائل اختلفت بداياتها عما كانت عليه، فلم تعد تبدأ بمثل: من فلان إلى فلان، ولكنها احتفظت بتعبير (أما بعد).

● ويطيب لنا أن نختم هذه الفقرة بكتاب عمر إلى واليه على البصرة أبي موسى الأشعري لندرك من خلالها لوناً آخر من الرسائل التي تشرح للولاة سياسة الخليفة في حكم رعيته، ومنهج الحكم الإسلامي العادل الذي ساس به الخلفاء الراشدون أمة محمد ﷺ وطبقوا فيه شرائع الله[1]:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد:

فإن القضاء فريضة محكمة، وسنّة متّبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلّم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك. البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين، إلاّ صلحاً حرّم حلالاً أو أحلّ حراماً. ولا يمنعنّك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع عنه إلى الحقّ فإنّ الحق قديم، ومراجعة الحقّ خير من التمادي في الباطل، الفهمَ الفهم عندما يتلجلج في صدرك، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبيّ ﷺ.

اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعْمَدْ إلى أحبّها

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٤٨ وما بعدها.

إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بيّنة، أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلاّ وجّهت عليه القضاء. فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، وأبلغ في العذر.

المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلاّ مجلوداً في حدّ، أو مجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبيّنات والأيمان. ثم إياك والقلق والضجر والتأذّي بالناس، والتنكّر للخصوم في مواطن الحق، التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذّخر، فإنّه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك، هتك الله ستره، وأبدى فعله. والسلام عليك).

* * *

وهكذا نرى الرسائل تنهض بدور كبير في حياة الدولة الإسلامية وتعبر عن الأغراض السياسية والحربية والوعظية والجغرافية، وكل المظاهر الحضارية التي بلغتها الدولة الإسلامية في ذلك العصر. ولا يضرها بعد هذا أن لم تكن زاحمت الخطابة، فقد سلك كل منهما طريقاً غير طريق الآخر، وبرز فيما يمكن أن يبرز فيه.

* * *

ومن الرسائل الأخوانية القليلة التي ظفرنا بها رسالتان تبودلتا بين صحابيين جليلين ربطت بينهما صداقة قوية استمرت مدى الحياة، وهما سلمان الفارسي وأبو الدرداء:

● كتب سلمان إلى أبي الدرداء يقول(١):

(أما بعد: فإنك لن تنال ما تريد إلاّ بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلاّ بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكراً، وصمتك فكراً، ونظرك

(١) العقد الفريد ٣: ٨٦.

عبراً، فإنَّ الدنيا تتقلَّب، وبهجتَها تتغيّر، فلا تغترّ بها، وليكن بيتك المسجد، والسلام).

● فأجابه أبو الدرداء[1]:

(سلام عليك. أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسقمك ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، ومن جفائك لمودّتك، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين، إمَّا في الجنة، وإمَّا في النار، فإنَّك لا تدري ألى أيّهما تصير).

● وكتب عمر إلى ابنه عبدالله في غيبة غابها[2]:

(أما بعد: فإنَّ من اتقى الله وقاه، ومن اتكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن اقترضه جزاه، فاجعل التقوى عمارة قلبك، وجلاء بصرك، فإنَّه لا عمل لمن لا نية له، ولا خير لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خَلَقَ له).

● ونلاحظ اعتماد الرسائل الثلاث على الإيجاز، وأنها تخدم في واقعها الهدف العام للحركة الأدبية الإسلامية الموجهة، ولا تتحدَّث في الأمور الخاصة.

* * *

ب ـ العهود:

المقصود بها كل العقود والمواثيق التي كتبت في هذه الفترة سواء منها ما كان متصلاً بالمعاملات، أم ما كان منها لتنظيم علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب الأديان، أم ما تم أثناء الفتوح، وسواء منها ما كان على لسان الرسول ﷺ أم ما كان على لسان خلفائه من بعده والقادة الفاتحين. وقد جمع منها محمد حميد الله الحيدر آبادي طائفة ضخمة سماها: (مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة)، ووثق أكثرها وأبان عن صحة

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق ص ٩٠.

نسبتها، إلى أصحابها وارتباطها بحوادثها ووقائعها.

• ويقع على رأس تلك الوثائق جميعاً صحيفة الموادعة التي كتبها النبيّ ﷺ بينه وبين اليهود بالمدينة ونظم فيها العلاقات بين أفراد المجتمع المدني في ظل الإسلام، وقد نيفت بنودها عن الأربعين وسبق أن تحدثنا عنها في الباب الثالث.

• ومنها المعاهدة التي كتبها بينه وبين قريش عام الحديبية، وهذا نصها[1]:

(باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّه عليه، وأنَّ بيننا عيبة[2] مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال[3]، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه. ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه). ثم أضيف إليها: (أن يرجع المسلمون عامهم ذاك فلا يدخلون مكة، فإذا كان العام القابل، دخلوها وأقاموا فيها ثلاثاً، وليس معهم سوى سلاح الراكب: السيوف في القرب) وشهد عليها رجال من المسلمين ورجال من المشركين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومِكْرَز بن حفص ـ وهو يومئذٍ مشرك ـ.

• وكانت بعض هذه العهود تكتب في أسلوب رسائل، وذلك كمعاهدته ﷺ مع أهل نجران[4] وفيها يبين ما عليهم من خراج ثم يقول:

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٣١٧.

(٢) عيبة مكفوفة: صدور منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة، وضرب العيبة مثلاً.

(٣) الإسلال: السرقة الخفية. والإغلال: الخيانة.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠.

(ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، ولا يغيّر أسقُفّ من أسقفيّته ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية. . . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَف غير ظالمين ولا مظلومين).

● وكتب أبو بكر عهداً مفتوحاً مع قواده في حروب الردة موحّد الصيغة، يمنح الحق للقائد باتخاذ ما يجب اتخاذه ويكفل حقوق التائبين العائدين إلى حظيرة الإسلام وهذا نصه[1]:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان[2]، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كلّه. سرّه وعلانيته، وأمره بالجدّ في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أمانيّ الشيطان، بعد أن يعذر إليهم، فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم، ويعطيهم الذي لهم، لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوّهم فمن أجاب إلى أمر الله عزّ وجلّ وأقرّ، قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيها استسرّ به، ومن لم يجب داعية الله قُتِل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه، لا يُقبل من أحد شيئاً أعطاه إلاّ الإسلام، فمن أجابه وأقر، قُبِل منه وعلّمه، ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قَتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسّم ما أفاء الله عليه، إلاّ الخمس فإنه يبلّغانه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألاّ يُدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم، لا يكونوا عيوناً، ولئلا

---

(١) الطبري ٣: ٢٥٠.

(٢) يوضع مكانها اسم القائد.

يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقّدهم، ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول).

● وبعث أهل نجران وفداً لأبي بكر بعد وفاة الرسول ﷺ تجديداً للعهد، فكتب لهم هذا الكتاب[1]:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لأهل نجران، أجارهم من جنده ونفسه، وأجاز لهم ذمة محمد ﷺ، إلاّ ما رجع عنه محمد رسول ﷺ بأمر الله عزّ وجلّ في أرضهم وأرض العرب، أن لا يسكن فيها دينان، أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملّتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم وغائبهم وشاهدهم، وأسقفّهم ورهبانهم وبيعهم حيثما وقعت، وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير، عليهم ما عليهم، فإذا أدّوه فلا يحشرون ولا يُعشّرون. ولا يغيّر أسقفّ من أسقفيّته، ولا راهب من رهبانيته، ووفى لهم بكل ما كتب لهم رسول الله ﷺ وعلى ما في هذا الكتاب من ذمة محمد رسول الله ﷺ وجوار المسلمين. وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق. شهد المِسْور بن عمرو، وعمرو مولى أبي بكر).

● والملاحظ أن العهود تختلف في بداياتها عن الرسائل، فبدايتها لا تقترن بعبارة (أما بعد)، وفي نهايتها ينص على الشهود، كما ينص أحياناً على محرر العهد أيضاً.

● وصالح عمر أهل إيلياء بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح، لكل كورة كتاباً واحداً ما خلا أهل إيلياء[2]:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل

---

(١) المرجع السابق ٣: ٣٢١.

(٢) المرجع السابق ٣: ٦٠٩ وإيلياء: هي بيت المقدس.

إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزهـا، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم. ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود[١]. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللّصوت[٢]. فمن خرج منهم فإنّه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلّي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنّه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسـوله، وذمـة الخلفاء، وذمـة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحضر سنة خمس عشرة).

● أما سائر العهود التي كتبها للأكوار الأخرى فهي ـ كما قلنا ـ موحدة على كتاب (لدّ) وهي[٣]:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين أهل لدّ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا مللها، ولا من صلبهم ولا من

---

(١) تدل هذه المعاهدة على عدم أصالة اليهود في بيت المقدس، وأنهم كانوا مكروهين من أهلها.
(٢) اللصوت: جمع لصت، وهو اللّص.
(٣) المرجع السابق.

أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم. وعلى أهل لدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام، وعليهم مثل ذلك الشرط)... إلخ.

● ونلاحظ أن هذين العهدين متشابهان في الصياغة والحقوق، غير أن الثاني خلا من الإشارة إلى وجود يهود بين السكان كما أنه لم يشتمل على السماح للمعاهدين بمغادرة البلاد، وقد أورده الطبري ناقصاً على كل حال.

● وكان قواد الجيوش أو بعضهم مخوّلاً أن يوقع العهود مع البلاد التي يفتحها، ومن أمثلة ذلك عهد خالد بن الوليد لمرتدي اليمامة بعد هزيمتهم[1]:

(هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد، مجّاعة بن مرارة، وسلمة بن عمير، وفلاناً وفلاناً، قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة، على أن يسلموا، ثم أنتم آمنون بأمان الله، ولكم ذمة خالد بن الوليد وذمَّة أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ وذمة المسلمين على الوفاء).

● ونلاحظ أنه لم يضع لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله، بل أعطاهم ذمته وذمة الخليفة والمسلمين.

● وكتب خالد أيضاً عهداً مرسلاً لأهل السواد بالعراق، وكان الذي صالحه عليها ابن صَلوباً[2]:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد لابن صلوبا السّوادي، إنك آمن بأمان الله، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرْجك وجزيرتك ومن كان في قريتك ـ بانقيا، وباروسما ـ ألف درهم، فقبلتها منك، ورضي

(١) المرجع السابق ٣: ٢٩٨.

(٢) المرجع السابق ٣: ٣٤٤ وكان منزل ابن صلوبا بشاطيء الفرات، وقد حقن دمه بإعطاء الجزية.

من معي من المسلمين بها منك، ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ وذمة المسلمين على ذلك. وشهد هشام بن الوليد).

● ونلاحظ أنه أعطاه ذمة الله وذمة رسوله، وهو أمر نهى عنه الرسول ﷺ حتى لا يتعرض المسلمون لخفر ذمة الله ورسوله. كما نلاحظ أنه تم فيه الإشهاد.

- ٣ -

وبعد هذا العرض لأنواع النثر الأدبي في صدر الإسلام وبيان أغراضه والخصائص المميّزة لكل نوع. يمكننا أن نجمل خصائصه العامة فيما يلي:

١ - أن نصيب الأنصار من الرسائل والعهود قليل، وكان الدور البارز فيه للمهاجرين من قريش وغيرها، ولعلّ ذلك راجع لبعدهم عن مناصب القيادة في الدولة. فقد كان أعلامها هم الخلفاء والقواد والولاة.

٢ - خلوّ هذا النثر من المحسنات البديعية إلاّ ما جاء عفواً، وفي حدود ضيقة كبعض الأسجاع، لأن الأدب العربي في هذا الدور كان أدب أداء وتبليغ وإفهام، فلا مجال للاهتمام بالتزيين والعناية بالزخرف، فهو أدب يهدف إلى المعنى في هدوء ويسلك إليه في وضوح، ويحاول خلال ذلك أن يبلغ نفوسنا وأن يثيرها قدر ما تسعفه حاسته الفنية وقواه النفسية.

والجُمَل في عمومها تمتاز بالبعد عن الطول والخلو من الاعتراضات والغلو، لأنها كانت محكومة بالفكر الناضج والقيم الروحية الراقية.

٣ - إيراد بعض الآيات والأحاديث والأمثال، للتوجيه والإقناع وإقامة الحجة.

٤ - ترسّم الأساليب القرآنية ومحاولة احتذائها، والاستيحاء من مجازاته الفنية وطرائقه التعبيرية، فقد كان القرآن المنارة التي بها يهتدون، والنموذج القولي المعجز الذي بهرهم ببلاغته وسحرهم بفصاحته وتصويره الفني الرائع.

٥ ـ إن للنوع اللساني منه واقعاً جاهلياً داخل المدينة وخارجها، عرضنا له في الفصول السابقة، وحددنا مميزاته وخصائصه، وذلك يهيء الفرصة أمام الدارسين للموازنة، ولكون النصوص المدنية الجاهلية قليلة فإنه لا يتسنى لنا إجراء مثل هذه الموازنة، غير أن الذي لا شك فيه أن النثر اللساني في هذا العصر أصاب تطوراً كبيراً كمّاً وكيفاً، وتأثر بكل معطيات البيئة الإسلامية الجديدة. وقد أوضحنا ذلك في معالجتنا السابقة لأنواعه. كما أبرزنا دور النثر الحواري.

٦ ـ إن النثر القلمي يكاد في جملته يكون من مستحدثات صدر الإسلام بالمدينة، ولئن كنا افترضنا للرسائل الإخوانية وجوداً جاهلياً على نحو من الأنحاء، وحدثنا التاريخ والشعر عن قيام العهود بينهم، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة للرسائل الحكومية لاستلزامها وجود الدولة، فهي على هذا النحو مدينة في نشأتها للإسلام، على أن وجود العهود في العصر الجاهلي لا يمنعنا من الاعتراف بأنها إنما تأصلت وقويت جذورها في صدر الإسلام تبعاً لتوالي الأحداث وتعدد أوجه الحياة.

٧ ـ جل النصوص النثرية التي وصلتنا لهذا العصر، أصحابها من المخضرمين الذين كانوا حققوا شطراً من الأصالة الأدبية قبل إسلامهم، فلما جاء الإسلام ومبادئه وأحداثه بنى فيهم على أصول راسخة، وفجّر فيهم ينابيع الفن القولي، ممتزجة بروحه، مطبوعة بآثاره مع الحفاظ على تلك الأصالة الذاتية الواثقة.

٨ ـ التشابه واضح بين هذه الآثار النثرية، وذلك لاتحاد المنابع والمصبات، ولكن تشابهها مع ذلك لا يذهب بعنصرها الشخصي، إلَّا أن القدر المشترك بينها كثيراً ما يطغى على هذا العنصر الشخصي ويطويه، ويتجلى هذا التشابه في الموضوعات المطروقة، فكلها مما يتصل بالدعوة إلى الدين والدفاع عن الإسلام، وبما له علاقة بسياسة الحكم وإدارة المجتمع وتحديد الصلة ما بين الولاة والخلفاء، وما بين الخلفاء والمسلمين، وأدّى

هذا التشابه في المضمون إلى تشابه الشكل في أغلب الأحيان.

٩ ـ من الملاحظ أن الذين نبغوا في الخطابة هم الذين نبغوا في الكتابة أيضاً كالنبي ﷺ، والخلفاء الراشدين، ومن هنا لم تتخلَّص كتاباتهم في الغالب من الروح الخطابية، وكان القدماء لذلك يرون أن من السهولة بمكان تحويل الرسالة إلى خطبة، والخطبة إلى رسالة.

١٠ ـ إن أقصى ما أصبح يطمح إليه الشعر إزاء هذا الإزدهار النثري، أن لا يندحر أمامه وأن يحافظ على بعض ما كان له من مكانة في قلوب الناس، ولا سيما بعد وفاة الرسول ﷺ، حين بدا للناس أن مهمة شعراء الأنصار الثلاثة في الدفاع عن الإسلام قد انتهت، ولم تعد الحاجة تدعو إليها. وقد كان من أثر ذلك أن غيّر الشعر استراتيجيته إلى المقطوعات بدلاً من القصائد مع الحفاظ على بهائه ورُوائه.

١١ ـ إن النثر كالشعر في هذه الفترة كان أدباً موجهاً، وهذا يعني أنه لم يكن يقتصر على أن يكون أداة للتعبير الذاتي، وسبيلاً من سبل الرفاهية الداخلية، ولكنه كان قبل ذلك وفوق ذلك، غاية اجتماعية، وغرضاً أصيلاً في حياة الجماعة، تتخذ منه سبيلها إلى تأييد دعوتها وتأكيد ذاتها وتأدية أغراضها الكبرى، فالحياة الإسلامية خرجت بالأدب عن خصيصته الذاتية إلى طابعها الاجتماعي، ومن الواضح أن كل الموضوعات التي تناولها نثر هذه الفترة كانت صميم الحياة الاجتماعية والسياسية للجماعة الإسلامية الجديدة، كما كانت أساليبه صدى لها وتعبيراً عنها وتصويراً لمُثلها، وحثّاً على غايتها ودفعاً للناس في طريقها المستقيم، ومن شواهد هذا التوجيه ما ذكرناه آنفاً من تعهد الرسول ﷺ الشعراء بالتقويم وكذلك ما فعله عمر وعثمان من معاقبة من شذ منهم عن دائرة التوجيه. ولم تكن طبيعة هذا التوجيه قائمة دائماً على القسر والإكراه، بل كانت تجمع في واقعها بين الانسياق والانصياع حيناً، والتدريب والتعليم حيناً والإكراه والدفع حيناً آخر.

● وآية هذا كله أن الإسلام أراد الأدب أن يكون أدب الحياة الإسلامية نفسها ولذلك أخذ نفسه بتوجيهه هذه الوجهة الاجتماعية، مدركاً مكانة القوى النفسية الفنية في قيادة الجماعة وتصريف مشاعرها، ولكن شدة هذا التوجه وحدَّته ـ مع الأسف ـ لم تتواتر مع مدته، فإذا الحياة نفسها تنحرف عن مثلها، منذ حدوث الردة الاجتماعية مع ميلاد الدولة الأموية، وإذا هي تجرف الأدب معها، وتبيح له ما لم يكن مباحاً في عهد النبوة والخلافة الراشدة.

١٢ ـ إن الطابع الغالب عليه هو الإيجاز[١]، ذلك أن الإيجاز هو عماد الأدب الجاهلي الموروث، ولأن الحياة الإسلامية نفسها أول عهدها بالتفتح كانت توحي به وتدعو إليه، لما فيها من سرعة في الأحداث وتنوع في المفاجآت وتعدد في المسؤوليات، فهي حياة متطلعة معجلة، من أمامها وورائها هذه الأعباء الثقال، أعباء الدعوة والفتح، وما يقتضي ذلك من تحركات إدارية وسياسية تقوم بها أمور الدولة وشؤون الحكم، ولم تكن مثل هذه الظروف لتسمح بالإطالة أو التمهل أو تشقيق الكلام، وإنما يبدو أنها كانت تُدفع إلى هذا الإيجاز دفعاً وتضطر إليه اضطراراً.

ومن ناحية أخرى فإن الحياة الاجتماعية كانت قائمة على البساطة بعيدة كل البعد عن التعقيد والالتواء، ولم يكن فيها ما يضطر الكاتب أو المتكلم إلى أن يسرف في بيانه أو يسهب في حديثه.

١٣ ـ أنه كان من الأدب المطبوع، الذي لا تصنع فيه ولا تكلّف، وليس معنى هذا أنه كان يتخذ سبيله إلى الظهور سبيلَ النباتات البرية، فلا بد في النتاج الأدبي من جهد يبذل فيه، وعناية يحاط بها، مهما يكن نصيبه من الضعة والسموّ. فهو أدب تصطنعه المواهب النفسية في حدود قدراتها، لا تتكلف أن تشحذ هذه القدرات، ولا أن تضيف إليها،

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص ٣٦٥.

كانت تتعاون عليه طاقات الأدباء الداخلية، ولكنها كانت لا تلتقي أو تتعقد في سبيل إنتاجه، ولذلك نقرأ هذا الأدب فنحس الانسياب والتدفق، ونشعر كأنما نجري مع دفقة الماء في مجرى سهل، والريح رخاء والأفق مديد، لا تعترضنا عقبات ولا تستوقفنا حواجز، ليست هناك هذه القسوة في التعابير، ولا هذه الجفوة في الصور أو الإلحاح على المعاني[1].

لم يكن أدب هذا العصر إذن أدباً تطغى عليه فنية مصطنعة، وإنما كان هناك هذا التفنن الطبيعي الهادىء الذي لا نحس معه إرهاق الأديب ولا اعتصار قواه، وكان هذا الهدوء والطبيعة والقصد إلى الوضوح وحسن الأداء من كمال التفنن، ومن مقاييسه الصحيحة الأولى. وهذا ما نعنيه بأنه أدب مطبوع.

* * *

وهكذا يكون النثر في هذه الفترة نثراً اجتماعياً موجزاً مطبوعاً موجهاً بعيداً عن الصنعة والتكلف، مترسماً طرائق القرآن محافظاً على أصالته، ومن هنا كان إحدى ذروات تاريخنا الأدبي وظل نموذجاً صالحاً للاحتذاء في جميع العصور، وفخرُ المدينة أنها كانت أرضه التي نبت فيها وبيئته التي ظهر منها ونما في رحابها.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٨.

الفصل الخامس

أشهر الخطباء والكتاب

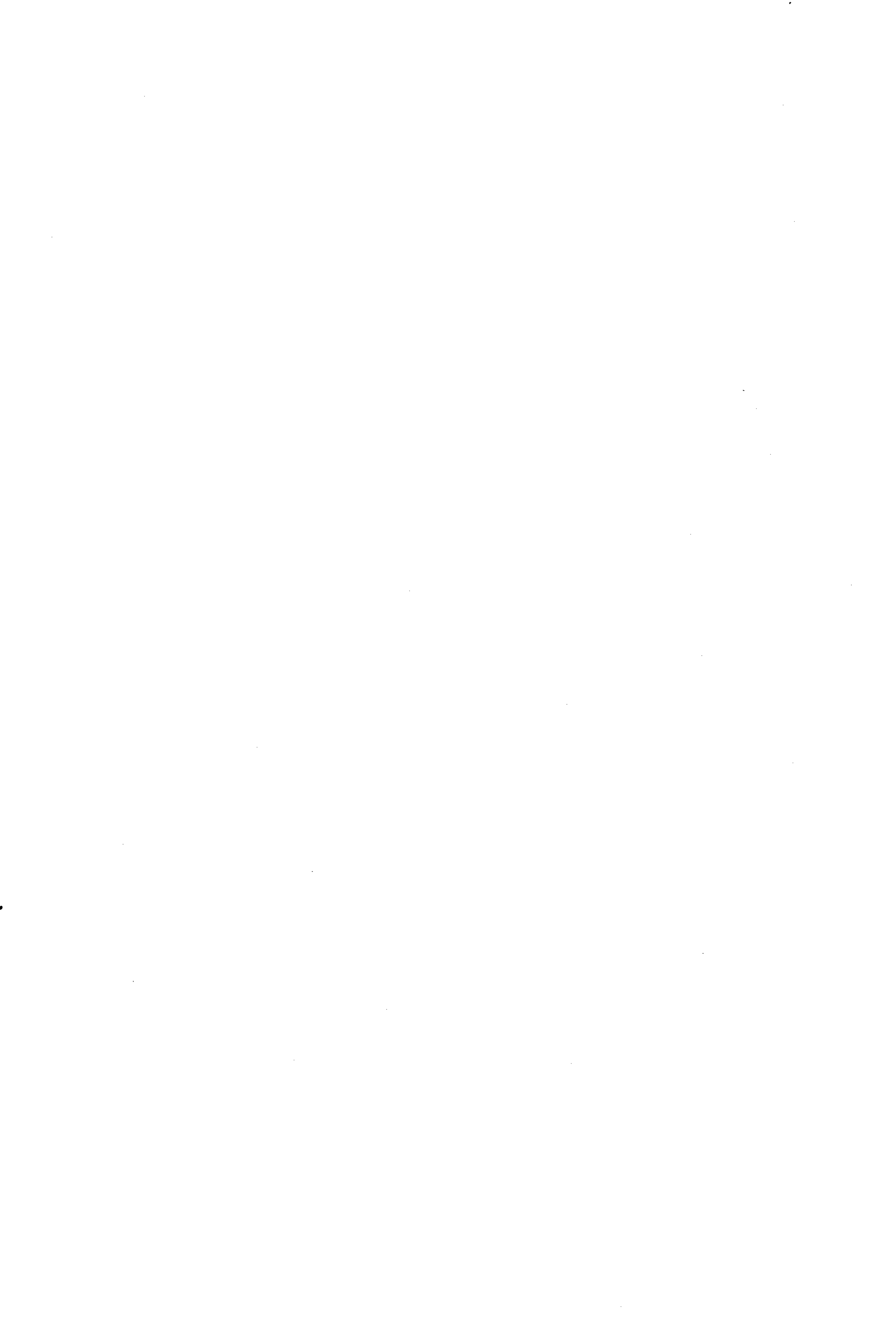
تمهيد

١ ـ محمد ﷺ

٢ ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه

٣ ـ عمر الفاروق رضي الله عنه

٤ ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه



تمهيد

نعود هنا ـ للتذكير بحقيقتين سبقت الإشارة إليهما في الفصل السابق، وذلك لأهمية استحضارهما في الذهن بين يدي هذا الفصل. الأولى: أنَّ ريادة الشعر بالمدينة في هذا العصر كانت للأنصار، وإنْ شاركهم فيه بعض المهاجرين بقدر محدود. والتعليل لذلك أن قريش لم تكن مشتهرة بالشعر، فلا غرابة أن لا يصل فيه شعراؤها إلى مكانة مرموقة تضاهي مكانة شعراء الأنصار من الفحول. بينما الريادة النثرية كانت للمهاجرين، وإنْ شاركهم فيها الأنصار على نطاق ضيق، وقد يكون ذلك لأن جُلّهم أقبل على الدين بكليته، ولم يعد قلبه متعلقاً بغير ذكر الله، وهو احتمال لا يبدو مقنعاً إذا علمنا أن من المهاجرين من كان كذلك أيضاً، وأن ذلك الاستغراق الديني لم يمنع الرسول ﷺ ولا خلفاءه الراشدين من القول، وقد كان الأنصار في جاهليتهم أهل خطابة وفصاحة ولسن. ورأينا الرسول ينتدب شاعرهم وخطيبهم للردّ على وفد بني تميم. ولهذا فإننا نزعم أن نشاطهم النثري لم يتوقف في ظل الإسلام، وما كان له ليتوقف وهم وقود كل الأحداث الإسلامية: الرئيسية والفرعية، ولكنه ضاع، لبعدهم عن أضواء السلطة والقيادة في هذه الأثناء بالذات وفي أثناء عصر التدوين، وهو بعض ما أصاب الأنصار وتراثهم من حيف، وإننا ممّا تبقى من شذرات مبعثرة لبعضهم، ومن خلال تحمُّلهم، للأحاديث النبوية، وروايتهم لها، نستطيع أن نرجح أنهم كانوا على مستوى فنّي عالٍ في النثر كما كانوا في الشعر.

والحقيقة الثانية: أنَّ الذين اشتهروا بالخطابة هم أنفسهم في الغالب الذين اشتهروا بالكتابة، وعلى هذا الأساس سنقْصُر حديثنا في هذا الفصل على أربع شخصيات منهم، انعقد إجماع الباحثين على تميـزهم، وريادتهم الأدبية إلى جانب قيادتهم في الحكم والدين، وهم: محمد ﷺ، وأبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعلي بن أبي طالب.

وقد سبق لنا أن تناولنا مشاهير الشعراء المدنيين في الجاهلية والإسلام من ست زوايا، من شأنها أن تساعد على إجلاء شخصية كل واحد منهم، وهي: نسبه ـ أسرته ـ عصره ـ ملامح شخصيته ـ شاعريته ـ نماذج من شعره، ولكننا بالنسبة لهذه الشخصيات التي سنتناولها هنا سنغفل متعمدين الحديث عن النقاط الثلاث الأولى، فقد بلغ هؤلاء الرجال من الشهرة والذيوع عند الخاصة والعامة القدْر الذي يصبح معه تناولُ هذه النقاط ضرباً من الكلام الذي لا فائدة منه ولا طائل تحته، فمن الذي لا يعرف هذه الجوانب من حياة محمد ﷺ أو حياة خلفائه الراشدين؟ وهم أعلام الأمة وأئمتها وهُداتها المهتدون؟

وسوف لا يكون عملُنا هذا سيرةً أو تاريخاً أو ترجمة أو حتى شبه ترجمة لأحدٍ منهم، فذلك ما لا تتسع له العجالات. وكما أنه من ناحية أخرى ليس هو من أهداف هذه الدراسة، وإنما سنكتفي بالإشارة السريعة إلى بعض الجوانب البارزة في حياتهم، مما له علاقة بشخصيتهم الأدبية، لإيماننا بالصلة الوثيقة بين القائل الصادق والقول الصادق، إذ الأدب صورة قائله، وهو التعبير الحق عن فكره ووجدانه وملامح شخصيته ومختصر صفاته، أو أنه هكذا يجب أن يكون.

محمد صلى الله عليه وسلم

حياته:

لقد تصدى للكتابة عن الرسول ﷺ مئات الناس في مختلف العصور، تناول بعضهم حياته منذ الولادة حتى الوفاة، واقتصر البعض الآخـر على بعض الجوانب من حياته، وظهرت كتب تتحدَّث عن شمائله وأخـلاقه، وأخرى في بلاغته وفصاحته، ولا يزال الدارسون من كل جنس ودين يجدون في دراسة شخصيته الممتعة: الجديدَ الذي يمكن إجلاؤه وتقديمُه إلى الكون معالم مضيئة على طريق الفكر والتحضر، وتلكم لعمري من أبرز سمات العظمة وصفات العبقرية وما يمكن أن يكون عليه بشر في الوجود، ونحن لا نريد أن نزن شخصيته ﷺ بموازين العباقرة والعظماء، فهو أسمَى من ذلك مكانة وأبعد شأواً، ولكن حين جعله الله لنا موضع القدوة فقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[1]﴾، علمنا أن باستطاعتنا الحديث عن بعض الجوانب الظاهرة من شخصيته، والتي لها مساس بهذا البحث من قريب أو بعيد، فإذا قرأنا رسائله وخطبه وعهوده ووصاياه، وقبلها ما أمكننا قراءتُه من أحاديث، ورأينا الجانب الأخلاقيَّ ماثلاً فيها، يطبعها ويسُود عباراتِها لفظاً ومعنى، لم نستغرب، لأننا نعلم مسبقاً أنه كان المثلَ الأعلى للإنسان الكامل، وأن قومه في الجاهلية والإسلام عرفوا منه هذا الكمال المطلق وضربوا به

(١) الأحزاب: ٢١.

الأمثال، وأن ربه زكّاه بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم[1]﴾، وقال هو عن نفسه: إنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق. وقد غرس الله في نفسه الشريفة الشعورَ بالعظمة الشاملة فكان يفيض منها على الناس كافة، وكانت جُمّاع أخلاقه الكريمة من بِرّ ورفق ورحمة، وسماحة وبذل، وتواضع وحلم، وصدق ووفاء، وتضحية وعدل وإحسان، ولم تكن مجرد غرور وتعالٍ يبعث على العنف والبطش والقسوة، والتسلّط والسيطرة، والكبر والأَثَرة، والاستعلاء في الأرض بغير الحق، فهو أولى بقول الشاعر:

دنــوتَ تــواضعــاً وعلوتَ قـدْراً فشــأنــاك انخـفــاضٌ وارتفــاع
كـذاك الشمس تبعُد أن تسامى ويـدنـو الضــوء منهـا والشعــاع

كان مثالاً للدعة وخفض الجناح للمؤمنين، يشاركهم في جميع أحوالهم، ويسوّي بينهم في كل شيء، وقد ينادي أحدهم بـ (يا أخي) ونحوها، فحين استأذنه عمر في الخروج إلى العمرة، أذن له وقال: (يا أخي لا تنسنا من دعائك).

وقام في حدود هذه العظمة الشامخة يدعو إلى وحدانية الله قوماً تأصلت فيهم عقيدة الشرك، فلم تفتر له همة، ولم تهن له عزيمة، وسار في طريقه مستجيباً قول ربه: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين[2]﴾، وسعت قريش إلى عمه أبي طالب ليمنعه أو يلويه عما بادأهم به، فما زاده ذلك إلاّ قوة وتصميماً، وحين قال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، وكان جوابه ﷺ: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته[3])، ثم عمدوا

---

(١) القلم: ٤.
(٢) الحجر: ٩٤.
(٣) سيرة ابن هشام ١: ٢٨٠.

إلى إيذائه بكل ألوان الإيذاء، فصمد أمامهم كالطود الأشم حتى يئسوا من ترهيبه، ثم هاجر إلى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة من الدعوة والجهاد، ليبدأ مرحلة أخرى أكثر جهداً وأعظم مشقة كانت سجلاً حافلاً بالشجاعة والبطولة والثبات والتضحية، أرست لهذه الأمة دعائم حياتها، ومكنت لها في الأرض، وجعلت منها نموذجاً حياً للدعوة الإسلامية لا نزال نستمد من هديه ونستنير بخطاه.

وقد اجتذبت جوانب عظمته إليها كل عظمة، واستطاعت بما فيها من إشعاعات روحية، وعناصر فذة أن تطوي من حولها كل العظمات، وأن تبسط سلطانها على كل نفس، وتخضع لها كل قوة، وتحمل كل شخصية أخرى على الحب والطاعة والولاء فكانت تلك العظمات الأخرى التي يمثلها أبو بكر وعمر وعلي وخالد وابن أبي وقاص وحمزة وأبو عبيدة وأضرابهم تدور حول عظمته كما تدور الكواكب حول الشمس، هي عظمات متباينة في معدنها وطرازها، مختلفة في شياتها وسماتها، كل واحدة منها كافية لأن تقوم عليها دولة وتنهض بها أمة، ولكنها كانت في الوقت نفسه طاقة كبرى تستمد أسوتها من العظمة المحمدية الكبرى الموصولة أسبابها بعناية الخالق العظيم.

ومن تمام عظمته ﷺ رحمته ورأفته بالمؤمنين: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم[1]﴾، وكان ذلك طبيعة أصيلة فيه تشمل بخيرها كل العالمين، فحين اشتدَّ عليه أذى أهل الطائف لم يدع عليهم وإنما دعا لهم، وحين ساقوا إليه سبي هوازن كان من بينه الشيماء بنت الحارث أخته من الرضاعة. فرقَّ لها وتحركت فيه مشاعر الرحمة، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه، ثم قال لها[2]: (إن أحببت فعندي محبة مكرمة وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت) فقالت:

---

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٤٥٨.

بل تمتعني[1] وتردني إلى قومي فأعطاها غلاماً وجارية وردَّها إلى قومها.

وقال أنس بن مالك: (خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته[2]). وكان عطوفاً على الفقراء والمساكين والنساء والأطفال.

وقد بلغ من رحمته ورفقه أن دعا إلى الرفق بالحيوان فقال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدَعْها تأكل من خشاش الأرض[3])، وقال: (في كل كبد رطبة أجر).

وسمع بحديث الإفك يسري بين المسلمين، فآلمه ذلك كثيراً، وجاشت غوارب الحمية في نفسه، ولكنه رجع إلى حلمه وأناته، وقد عصمه ربه من نزعات الغضب وبوائقه، فوقف يخطب في الناس ينهاهم أن يتحدثوا في عرضه بالباطل، وقال[4] بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلاَّ خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلاَّ خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي). ولم يشأ أن يزعج عائشة وهي على فراش المرض بما سمع، حتى تهيأت له الفرصة، فلما أنزل الله براءتها في سورة النور، لم يشأ أن ينتقم من صانعي ذلك الإفك، بل عفا عنهم وتركهم لوخز الضمير.

وكذلك كان موقفه البطولي الرائع في فتح مكة، والقلوب من حوله تضطرب واجفة، والعيون ترمقه والهة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء). فمن الذي يستطيع أن يفعل هذا غير نبيّ عظيم مؤيد من ربه، إنه لو ذبحهم جميعاً لكان معذوراً، ولما صح أن يلومه أحد، وهم الذين آذوه وشتموه وسخروا به

---

(١) تمتعني: أي تعطيني ما يكون به الإمتاع، أي الانتفاع.

(٢) الفصول في اختصار سيرة الرسول ص: ٢٣٦.

(٣) هداية الباري للطهطاوي ١: ٢٣١ ـ الرغائب سنة ١٣٤٠ هـ.

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ٣٠٠.

واضطروه للخروج من مسقط رأسه، ثم بلغ بهم الحقد أشده حين لم يتركوه في مهاجره الجديد بالمدينة يستريح أو تستقر به الحياة، بل جيَّشوا الجيوش لقتاله؛ وألّبوا العرب عليه، من يستطيع أن يملك زمام غضبه ويتناسى كل هذا أو بعضه ويقول في حلم وأناة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، إنها العظمة النبوية في أجلى معانيها، تلك العظمة التي جمعت حوله القلوب، وغرست في نفوس أتباعه محبته، فقدموه على النفس والأهل والولد. وهو القائل: (لا تطروني كما أطرت النصارى أنبياءهم)، و (إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)، وكان يعيش بين أصحابه كواحد منهم، يحفر الخندق معهم، ويحمل اللبِن والطين لبناء المسجد، ويحلب الشاة، ويخصف نعله، ويحمل متاعه ويقول: صاحب الشيء أحق بحمله، إلى غير ذلك من صفات التواضع التي كانت تزيده رفعة وعلوّاً في عيون أصحابه وأتباعه.

وكان ﷺ وفيّاً كريماً صادقاً شجاعاً محارباً إداريّـاً من الطراز الأول، سياسيّاً محنكاً، ألف الله به بين قلوب العرب، وأزال به ما كان بينهم من عداوة وبغضاء، وحاشا لله أن أدعي التصدي لذكر جميع صفاته في هذه الصفحات الوجيزة، فإنَّها بحر زاخر لا يُشق عبابه، ويكفيه أنه نبي الأمة ورسول رب العزة الذي أنقذ به العالم من الجهل والضلالة والعمى، فمن اتبعه دخل الجنة ومن عصاه واستكبر دخل النار.

فصاحته وبلاغته:

قال تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان﴾ ومن أولى بهذا البيان غير سيد الأمة ﷺ الذي أرسله الله ليبين للناس ما نزل اليهم.؟ ومن حكمته تعالى أنه لم يرسل نبياً عِيِّاً، فإن ذلك يتنافى مع مهمته الأساسية التي هي التبليغ، قال تعالى عن نبيه داوود: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب[1]﴾، فالبيان من سمات الجمال وآياته في الإنسان، وقد سئل

(١) سورة ص: ٢٠.

النبي ﷺ: فيم الجمال؟ فقال: (في اللسان) يريد البيان[1]، وقال: إن من البيان لسحراً. وقال: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، وقال عن نفسه أيضاً: (أعطِيت جوامع الكلم).

لقد اجتمعت له فصاحة اللسان، وطلاوة الألفاظ، ووضوح المخارج، وجمال النبرات، وعذوبة المنطق، قالت عائشة: (ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلَّم بكلام، بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه)، وكان قويّ العارضة دامغ الحجة، ويظهر ذلك فيما كان يعرض له من جدل مع المشركين وأهل الكتاب، وتحدثنا كتب التاريخ عمن جاؤوه أعداءً كافرين، فما يخرجون من عنده إلاّ وهم مسلمون، إلاّ من طبع الله منهم على قلبه، كابن أبيّ وأضرابه، ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

* * *

وكل كتب الحديث صالحة للتمثيل لبلاغته وفصاحته ﷺ، وقد أوردنا فيما سبق نماذج لخطبه وعهوده ورسائله. وسنورد هنا بعض نماذج أخرى. فمن خطبه:

● **أ ـ أولى خطبه العامة:**

قالها حين أمره الله بالصدع بالدعوة، حيث قام بين أهل مكة خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(إن الرائد لا يَكذِب أهله، والله لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إلّه إلاّ هو إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة والله لتموتُن كما تنامون، ولتبعثُن كما تستيقظون، ولتحاسبُن بما تعملون، ولتجزَوُنّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً، أو لنار أبداً[2].

---

(١) العقد الفريد ٢: ٣.

(٢) الكامل لابن الأثير ٢: ٢٧.

إن الجملة الأولى من هذه الخطبة لجمال جرْسها وروعة معناها تحولت إلى مثَلٍ سائر، أما عن وسائل التوكيد التي استعملها كالقسم وغيره، فهو مما يتناسب في حالة الإنكار التي كانوا عليها، ونلاحظ أن الجمل متساوية، وفي بعضها سجع وازدواج، وأنه بنى في كلامه معهم على قاعدة من الثقة بينه وبينهم، فهو معروف بالإخلاص والمناصحة لهم والحرص عليهم، فما يقوله لهم على هذا الأساس هو ما فيه خيرهم، فلا يسعهم إلَّا اتباعه. وبالإضافة إلى ما ذكرنا فإن جمل هذه الخطبة تحمل توقيع قائلها، ومن السهل التعرف عليه، فإنها لا تصدر إلَّا عن خاتم المرسلين وسيد النبيين.

● **ب ـ أولى خطبه بالمدينة:**

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أما بعد: أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم، تعلمُنّ والله ليُصعَقَنّ أحدُكم، ثم ليدعَنّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنّ له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلّغك؟ وآتيتُك مالاً؟ وأفضلت عليك؟ فما قدّمت لنفسك؟ فلينْظرنّ يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقٍ من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1]).

فهذه الخطبة وعظية يستقبل بها قوماً في حاجة إلى دعم إيماني قوي يثبتهم على الحق بعد حلوله بينهم، تذكرهم الآخرة وأفضال الله عليهم في الدنيا، وتحثهم على فعل الخيرات، وعدم التعلق بعرض الدنيا، وتعلِّمهم أن الصدقة تكون بالكلم الطيب والبشاشة وحسن الاستقبال كما تكون بالمال. كل ذلك في جمل قصيرة خالية من الأسجاع، معتمدة أيضاً على التوكيد وحسن التصوير والاستفهام المشوق الموصل إلى الغاية، وقد بدئت كعامة

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٥٠٠.

خطبه بالحمد والثناء ثم جاء بجملة (أما بعد)، وخُتمت بالسلام والرحمة.

هذا وقد أوردنا في الفصل السابق أولى خطبة جمعة له بالمدينة وعلقنا عليها.

● ج - خطبة أخرى:

وروى طلحة بن عبيد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على منبره يقول[1]: (ألا أيها الناس، توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا الأعمالَ الصالحةَ قبل أن تُشغَلوا، وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكرِكم له، وكثرةِ الصدقةِ في السرِّ والعلانية: تُرزَقوا، وتؤجَروا، وتُنصروا.

واعلموا أنَّ الله عزَّ وجل قد افترضَ عليكم الجمعةَ في مقامي هذا، في عامي هذا، في شهري هذا، إلى يوم القيامة، حياتي ومن بعد مماتي، فمن تركها وله إمامٌ، فلا جَمَع الله له شملَه، ولا بارَك له في أمرِه، ألاَ ولا حجَّ له، ألاَ ولا صومَ له ، ألا ولا صدقةَ له، ألا ولا بِرَّ له.

ألا ولا يؤمُّ أعرابيّ مهاجراً، ألا ولا يؤمُّ فاجر مؤمناً، إلَّا أن يَقْهَرَه سلطانٌ يخافُ سيفَه أو سوْطَه).

بدأت الخطبة بالوعظ العام ثم ركزت على الغرض الأساسي وهو وجوب صلاة الجمعة على المسلمين، وبيان أن تركها يسبب ردَّ كثير من العبادات. ثم بينَّ ﷺ بعض صفات من يصلح للإمامة في الصلاة.

● د - خطبة أخرى:

وبما أن قضية البعث، والجنة والنار من الأمور الغيبية التي لم تتقبلها

(١) إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني - تحقيق السيد أحمد صقر ص ١٢٩ دار المعارف بمصر ١٩٧١.

العقلية الوثنية فإن خطبه ﷺ تركز عليها كثيراً، ومن ذلك غير مـا تقدَّم قوله[1]:

(أيها الناس، إن لكم معالمَ، فانتهُوا إلى معالِمكم، وإن لكم نهايةً، فانتهوا إلى نهايتكم.

إن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانعٌ فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما الله تعالى قاضٍ عليه فيه.

فليأخذ العبدُ لنفسه من نفْسِه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبة قبل الكِبَرِ، ومن الحياة قبل الموتِ.

والذي نفس محمد بيدِه: ما بَعْدَ الموت من مُستَعْتَبٍ، ولا بعد الدنيا دارٌ، إلَّا الجنةُ والنار).

● ومن خطبه في الوعظ والهداية ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ بعد العصر فقال[2]:

(ألا إن الدنيا خضِرة حلوة[3]، ألا وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء.

ألا لا يمنعن رجلاً مخافة الناس، أن يقول الحق إذا علمه.

قال أبو سعيد الخدري: ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلَّا حمرة على أطراف السعف، فقال:

(إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى).

---

(١) المرجع السابق، والبيان والتبيين ١: ٣٠٢.

(٢) إعجاز القرآن ص ١٣٣.

(٣) خضرة مضرة: ناعمة غضة، طرية طيبة. وفي الحديث: (إن الدنيا حلوة خضرة مضرة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها).

ويبدو أن هذه الخطبة كانت من أطول خطبه، إن لم تكن أطولها جميعاً، فقد نص أبو سعيد على بدايتها بما بعد صلاة العصر، وعلى نهايتها بمغيب الشمس، ومع ذلك لم يبق لنا منها إلاَّ هذه القطعة القصيرة، وذلك يدل على مدى الثروة التي فقدناها بضياع مثل هذه الخطبة، فإذا أضفنا إلى ذلك خطبه الجمُعية التي تزيد عن اثنتين وخمسين خطبة سنوياً، مضروبة في عشر سنين عاشها بالمدينة، أدركنا مدى الخسارة التي خسرناها، وعلمنا أية كارثة أصابت التراث بموت الصحابة الأبرار في الفتوح والغزوات، وعدم إسراعهم إلى جمع محفوظاتهم وتدوينها كما فعلوا في القرآن، ولعلَّ ذلك كان لحكمة يعلمها الله.

● هـ ـ خطبة أخرى:

والغالب أنها جُمُعية، ولا يزال أئمة المساجد في زماننا يرددون فقراتها، يقول[1] فيها: (إن الحمد لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له.

إن أحسن الحديث كتابُ الله، قد أفلح من زيّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحِبّوا من أحب الله، وأحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عليه قلوبكم، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً.

اتقوا الله حق تقاته، وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

● و ـ خطبته يوم فتح مكة:

وقف يوم فتح مكة على باب الكعبة ثم قال:

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٠.

(لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعى، فهو تحت قدميَّ هاتين، إلّا سدانة البيت، وسقاية الحاج.

ألا وقتيل الخطإ العمد بالسوط والعصا، فيه الدية مغلظة، منها أربعون خَلِفةً[1]، في بطونها أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظُّمَها بالآباء، الناس من آدم، وآدمُ خلق من تراب ـ ثم تلا هذه الآية ـ:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير[2]﴾.

يا معشر قريش ـ أو يا أهل مكة ـ ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخٍ كريم، ـ ثم قال ـ: فاذهبوا فأنتم الطلقاء).

● ز ـ خطبته في وفد بني نهد:

كانت الوفود بعد فتح مكة تتوارد على المدينة معلنة إسلامها واستسلامها، وكل وفد معه خطيبه أو خطباؤه، وينتدب الرسول ﷺ من أصحابه من يردّ عليه، ويتولى في بعض الأحيان الرد بنفسه، وذلك كرده على طَهْفة بن أبي زُهير النهدي في وفد قومه من تهامة، قال[3]:

(اللهم بارك لهم في مَحْضها ومَخْضها ومَذْقها[4]، وابعثْ راعيَها في الدَّثْر[5] بيانع الثمر، وافجُرْ له الثَّمَد[6]، وبارك له في المال والولد، من أقام

(١) الخلفة: الحامل من النوق.
(٢) الحجرات ١٣.
(٣) العقد الفريد ١: ١١٣.
(٤) المحض: اللبن الخالص. المخض: اللبن الذي أخذ زبده. المذق: اللبن الممزوج بالماء.
(٥) الدثر: المال الكثير. والمراد هنا: الخصب.
(٦) الثمد: الماء القليل.

الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان محسناً، و من شهد أن لا إلّه إلاّ الله كان مخلصاً.

يا بني نهد، ودائع الشِّرك[1]، ووضائع المُلْك[2]، لا تُلْطِطْ[3] في الزكاة، ولا تُلْحِد[4] في الحياة، ولا تثاقل عن الصلاة).

ونلاحظ أن هذه الخطبة اشتملت على بعض الألفاظ الغريبة، وإن لم تبعد عن الإطار العام لخطبه، ويبدو أنه تعمد هذا الإغراب ليطابق بها خطبة النهديين، ويحدث في نفوسهم شيئاً من الأنس والارتياح، وعلى كل حال لم يبلغ الإغراب لديه مبلغ ما جاء في خطبة النهديين وهذا نصها:

(يا رسول الله، أتيناك من غَوْرَيْ[5] تهامة بأكْوار المَيْس[6]، ترمي بنا العِيس[7] نستحلب الصَّبِير[8]، ونَستجلِب الخَبير[9]، ونستعضد البَرير[10]، ونَستخِيل الرِّهام[11]، ونَستحيل الجَهام[12]، من أرضٍ غائلةِ النِّطاء[13]، غليظةِ الوطاء[14]، نَشِفَ المُدْهُن[15]، ويَبِس الجِعْثِن[16]، وسقط

(١) ودائع الشرك: غنائم المشركين المودعة في بيت المال.

(٢) وضائع الملك: جمع وضيعة، وهي ما يضع الناس من مالهم ويأخذه السلطان من خراج وزكاة وعشور.

(٣) لا تلطط: لا تجحد ولا تمنع.

(٤) لا تلحد: لا تمل عن الحق.

(٥) غور تهامة: ما انحدر مغرباً عنها.

(٦) أكوار: جمع كور، وهو الرحل. والميس: شجر عظام.

(٧) العيس: الإبل البيضاء المائلة إلى الشقرة.

(٨) الصبير: السحاب الكثيف.

(٩) الخبير: العشب.

(١٠) نستعضد البرير: نجني ثمر الأراك. وكانوا يأكلونه عند الجدب.

(١١) نستخيل الرهام: نتخيل المطر الضعيف.

(١٢) نستحيل الجهام: السحاب لا ماء فيه.

(١٣) غائلة النطاء: مهلكة البعد.

(١٤) الوطاء: ما يفرش ويداس عليه.

(١٥) المدهن: مستنقع الماء.

(١٦) الجعثن: أصل النبات.

الأُمْلوج[1]، ومات العُسْلوج[2].

● ج - خطبته في حجة الوداع:

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال[3]:

(أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً، أتدرون في أيّ شهر أنتم؟ وفي أي يوم أنتم.؟ وفي أي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام.

قال: أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه.

وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلَّغتُ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل رباً موضوع، ولكم رؤوس أموالكم، لا تَظلِمون ولا تُظلَمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أوَّل ما أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث[4] بن عبد المطلب، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

---

(١) الأملوج: ورق كورق شجر السدر في البادية.
(٢) العسلوج: اللين الأخضر من قضبان الشجر.
(٣) الطبري ٢: ١٥٠ - ١٥١ وإعجاز القرآن ص ١٣٠.
(٤) كان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته بنو هذيل.

أيها الناس ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضَل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيُحِلوا ماحرَّم الله﴾، ويحرِّموا ما أحلَّ الله، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدَّة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرام)، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان[1]. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهدْ. ألا لا ترجعوا بعدي كفَّاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنِّي قد تركت ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهدْ.

اتقوا الله في النساء، فإنهنَّ عندكم عوان[2]، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهنَّ عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلَّا بإذنكم، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مُبيِّنة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهينْ فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. فإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، إني قد بلَّغت. تعَلَّمُنَّ[3] أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلَّا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم. ألا هل بلَّغت؟ ألا هل بلغت؟ ليبلِّغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلَّا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قسَمَ لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز

---

(١) إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرّم في رمضان وتسميه رجب.

(٢) عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة. والمقصود: إنهن كالأسيرات.

(٣) تعلّم: من أخوات ظن.

لوارث وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من دعي إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

هذه هي الخطبة التي ألقاها على المسلمين في حجة الوداع، اختلفت الروايات في فقراتها وترتيب هذه الفقرات، وقد كتبتها هنا مزيجاً من رواية الطبري والباقلّاني وابن عبد ربه. ولهذه الخطبة أهمية كبرى، من حيث أنها ألقيت في أكبر مؤتمر إسلامي هو الحج، احتشد له الناس من كل صوب، وقد بلغوا مائة ألف فكان لا بد أن تشتمل على أكبر قدْر ممكن من الخطوط العريضة للإسلام، بعد أن استقرت دعائمه الأساسية ودخل فيه الناس أفواجاً، ولما لهذه الخطبة من أهمية نراه يفتتحها بكلام المودِّع، ليكون إقبالهم عليه أكثر، ولما سيلقيه عليهم فيها أوعى وأوعب، ثم يثنّي بأسئلة يريد من إلقائها التأكد من حضور أذهانهم معه، وشدهم إليه شدّاً، وليؤكد في نفوسهم حرمة الدماء والأموال والأعراض، فإنها إن حُفظت تحققت للمجتمع طمأنينته وأمنه واستقراره، وبغير ذلك لن تكون حياة.

ثم هو لم يكتف من أجل تحقيق الاستقرار المالي بالتأكيد على حرمة الأموال، بل حث على أداء الأمانة وتحريم الربا. ولم يكتف من أجل المحافظة على الأرواح بالتنبيه على حرمة الدماء، بل أبطل كل ما يتصل بالثأر، لأن ذلك من أخلاق الجاهلية، أما الإسلام فقد وضع في ذلك منهجاً متبعاً، معروفاً في كتاب الله. ونهاهم عن مقاتلة بعضهم بعضاً، فإن ذلك مما يورث الكفر ويفضي بالقاتل والمقتول إلى النار.

ثم تحدَّث عن حقوق الزوج والزوجة، لبيان أهمية الأسرة في بناء المجتمع المستقر الآمن. فكأنما هو بذلك يوجهنا إلى وجوب الاهتمام بها وبكل ما يتصل بها، وأن في سلامتها سلامة الأمة كلها، ونراه يكرر النداء: (أيها الناس) وأداة التنبيه (ألا)، ويختم أكثر الفقرات بـ (هل بلّغت) ونحوها، ويشهد الله على قوله، وذلك إمعاناً منه في التأكيد على أهمية ما تضمنته الخطبة

من المعاني السامية والأفكار الشريفة والمبادىء الإسلامية العالية.

لقد جمعت هذه الخطبة كل مقومات الخطابة الناجحة، فكانت بذلك نموذجاً عالياً يحتذيه الخطباء والمفوهون ويقتبسون من هديه ويترسمون هداه.

● هذا وكان ﷺ يستعمل بعض ما كان يستعمله خطباء عصره من أدوات أثناء خطبه، فكان في السلم يعتمد على العصا، وفي الحرب يتكىء على القوس، كما كانت الانفعالات تبدو على وجهه الكريم، فقد تحمر عيناه، ويعلو صوته ويظهر غضبه، أو يبين بشره وبشاشته، ولكنه كان يكره ما كان يفعله بعضهم من التشادق والتصنع، ويقول: (إياي والتشادق)، ويقول أيضاً: (إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه تخلُّلَ البقرة بلسانها).

● وقد وصف الجاحظ بلاغته ﷺ فقال[1]: (لم ينطق إلاَّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاَّ بكلام قد حُفّ بالعصمة، يبذّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلاَّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلاَّ بالصدق، ولا يطلب الفلج إلاَّ بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه، من كلامه ﷺ).

* * *

ومن عهوده:

كتب ﷺ لأُكَيْدر دُومة[2]:

(من محمد رسول الله ﷺ لأكيدر دومة، حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل

---

(١) البيان والتبيين ٢: ١٤ ـ ١٥.
(٢) العقد الفريد ١: ٢٥٥.

وأكنافها: إن لنا الضاحية من البعل[1]، والبَوْر، والمَعامي، وأغفال الأرض[2]، والحلْقة والسلاح، والحافر والحصن، ولكم الضامنة[3] من النخل والمَعين من المعمور، لا تُجمع سارحتُكم[4]، ولا تُعَدّ فارِدتُكم[5]، ولا يُحظَر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء.

شهد الله ومن حضر من المسلمين).

هذا وقد أوردنا في الفصل السابق من النماذج ما فيه كفاية وغَناء.

● ونلاحظ أن كل ما كان يتصل باليمن من كلامه ﷺ، خطباً ورسائل وعهوداً، يتسم بشيء من الإغراب، وربما كان ذلك للرغبة في إفهامهم ومؤانستهم، لأن لغتهم كانت تختلف في بعض مفرداتها عن لغة العدنانيين، ولم يكن هذا الإغراب ليعيب كلامه ﷺ، بل هو في حقيقته من دواعي بلاغته وإبداعه، لما فيه من القدرة الفائقة على التعبير والإحاطة الفائقة باللهجات العربية المختلفة، والملاءمة بين كلامه والمخاطبين. ﷺ.

(١) البعل: الشاربة بعروقها من غير سقي، من كل شجر. والضاحية: التي في البر.
(٢) البَوْر والمعامي، والأغفال: ألفاظ متقاربة المعنى هنا، وهي ضدّ الأراضي العامرة.
(٣) الضامنة: التي في القرى. أي ما كان داخلاً في العمارة، وتضمنته أمصارهم وقراهم.
(٤) السارحة: السائمة يعني لا يجمع بين متفرقها، بل يذهب إليها جامع الصدقات بنفسه.
(٥) الفاردة: الشاة المنفردة، أي لا تضم إلى الشاة فتحتسب معها.

أبو بكر الصديق

حياته:

هو عبدالله بن عثمان، من بني تَيْم بن مُرّة، من بطون قريش، وأبو بكر كنيته، ولقبه بالصديق، أما كَنيَة أبيه فهي أبو قحافة، كان ذا فضل ورئاسة في جاهليته لم يشرب الخمرة قط، ولم يخض فيما كان يخوض فيه قومه من باطل، أو يقف موقف الشبهات، وكان فيهم صاحب مال وتجارة، يألفه الناس ويثقون بعلمه ورجاحة عقله، ويرتاحون لعشرته ومجالسته، وارتبط مع أكثرهم برباط الأخوة والصداقة، وكانت صداقته للرسول ﷺ هي أعظم هذه الصداقات وأجداها جميعاً عليه، ذلك أنها هيأت له الأسبقية في الإسلام لما خبره في هذا الصَّديق من صفات تؤهله للنبوة فكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال، وجعل من نفسه داعية بين أصدقائه الذين وثق بهم ووثقوا به، فأسلم بدعوته رجال من قريش كان لهم شأن مجيد بعد ذلك في تاريخ الإسلام، منهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون وغيرهم. ولم يقر قراره حتى أسلم أبواه.

وقد جاءه لقب الصِّديق من مسارعته إلى تصديق الرسول ﷺ في كل ما أتَى به ولا سيما في حدث الإسراء والمعراج، لقيه بعض وجوه قريش يقولون: هل لك إلى صاحبك؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إنه يدّعي أنه أسري به البارحة إلى المسجد الأقصى، وقد عاد.! فما زاد على أن قال: أوَ قد قال ذلك؟

قالوا: نعم قال: إن كان قال ذلك فقد صدق. وعرف عنه الجاهليون الصدق في أمور الديات.

وكان حاد الذكاء، سريع التأثر، عصبي المزاج، شديد الحماسة لاعتقاده، لطيف الحس، خاشع النفس، غزير الدمعة.

وكان مثالاً للعفو والرحمة، والرفق واللين، فلما استشار الرسول أصحابه في أسرى بدر، لم يدع إلى قتلهم كما فعل عمر وسعد بن معاذ، ولم يشر بإحراقهم كما فعل ابن رواحة، وإنما أشار بإبقائهم لعلَّ الله أن يهديهم للإسلام أو يخرج من أصلابهم من يكون قوة للإسلام، ولمست هذه الإشارة الرفيقة وجدان الرسول ﷺ فشبهه بنبيين كريمين هما: إبراهيم وعيسى عليهما السلام، فقال: (مثَلك يا أبا بكر مثَل إبراهيم، قال: ﴿من تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾، ومثَلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنَّك أنت العزيز الحكيم﴾. ولهذا أيضاً وجدناه يوصي جيش أسامة بالضعفاء، من أطفال وشيوخ ونساء، وأن لا يقوموا بأي عمل تخريبي في بلاد الأعداء. وحين أرسل إليه عمرو بن العاص برأس بطريق الشام أنكر عليه ذلك أشد الإنكار، وقال: لا يحمل إلي رأس، إنما يكفي الكتاب والخبر.

ولم يكن هذا اللين مما يؤثر على عزيمته ومضائه فيما اعتقد صوابه وأدرك جوانب الخير والصلاح فيه، فقد كان في ذلك عنيفاً لا يبالي بما يلقى فيه من مشقة وعناء، فقد جاهر بإسلامه ولم يعبأ بغضب قريش، وقام في مكة مقام المبشر بالإسلام، فآذوه وضربوه ضرباً مبرحاً، نقل على إثره إلى بيته محمولاً، وحين اشتد عليه أذاهم استأذن رسول الله في الهجرة من مكة، فلقيه سيد الأحابيش[1]: مالك بن الدُّغُنّة فقال له[2]: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني

---

(١) الأحابيش هم بنو الحارث، والهون بن خزيمة، وبنو المصطلق من خزاعة فهم عرب وليسوا من الحبشة، سموا كذلك باسم جبل يسمى حُبْش تحالفوا عنده.

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٧٣.

قومي وآذوني، وضيقوا علي، قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري، فرجع معه إلى مكة، وقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضنّ له أحد إلاّ بخير. فكفوا عنه.

ثم إنه اتخذ لصلاته مسجداً عند باب داره فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته، وينجذبون إلى صوته الرقيق، ؛ فشكته قريش إلى ابن الدغنة، فذهب إليه وقال: يا أبا بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت. قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله، قال فارْدُدْ علي جواري، قال: قد رددته عليك، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إن ابن أبي قحاقة قد رد عليّ جواري، فشأنكم بصاحبكم.

وحين هاجر إلى المدينة ضحى بأسرته، فتركها في مكة، وحمل معه ماله كله، يتزود به في سبيل الله.

ومن شدة مضائه وقوة عزيمته تسييره جيش أسامة بعد موت الرسول ﷺ، وقيامه بحروب الردة رغم كل الظروف القاسية التي كانت تحيط بالمدينة.

وكان الصديق من أشجع الصحابة قلباً ويداً ورأياً ولساناً، فأما شجاعة الرأي واللسان فإنها تتمثل فيما قدمناه من إعلان إسلامه وثباته في مواجهة قريش، كما تظهر في موقفه في سقيفة بني ساعدة. وأما شجاعة القلب واليد فإنها تظهر أول ما تظهر في حادث الهجرة وتتجلى في المواقف الحربية التي وقفها مع رسول الله، فقد حضر معه كل المشاهد، وكان في ساعات الخطر من أقرب المقاتلين منه مكاناً، فكان معه في مركز القيادة بالعريش يوم بدر، كما كان من الثابتين من حوله يوم أحد ويوم حنين، حين تخاذل من تخاذل

وتفرقوا عن الرسول وهو يناديهم: أين أيها الناس؟ هلموا إليَّ. ـ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله. وهتف هاتفهم: يا للأنصار، يا للخزرج، يا معشر أصحاب السمرة.

وكان راجح العقل ـ كما قلنا ـ واسع العلم بالأنساب وأيام العرب، وبخاصة ما يتصل بقريش، لا تفوته مفخرة من مفاخرهم ولا مغمز من مغامزهم، ولذلك أشار الرسول على حسان بن ثابت حين انتدبه لهجاء قريش، أن يجلس إلى أبي بكر، فيأخذ منه ما يعينه على مهمته، وقال له[1]: (فاذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم، وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك).

وإلى جانب ذلك كان ذا ضمير يقظ، لا يسيء إلى الناس لأنه يكره أن يساء إليه، وكان ذا روح صافية شفافة، تستجيب للهواتف، واستطلاع المجهول، وتحنّ إلى موحياته ونجاواه. وقد كان ذلك مما قارب بينه وبين الإسلام، فما هو إلاَّ أن دعاه الرسول إليه حتى أسرع يعلن إسلامه، كأنه كلمة ورد جوابها. أو صوت ورجع صداه.

ويذكر العقاد في كتابه (عبقرية الصديق) بعد أن عدد جملة من صفاته: أن مفتاح شخصيته وجُمّاع صفاته هو الإعجاب بالبطولة، فهو رجل معجب ببطولة نبيه، وقد ظهر هذا الإعجاب في إيمان القلب وروية الفكر، وفي سياسته العامة والخاصة، فكان الرسول ﷺ نموذجه الأعلى، يحرص على اتباعه والاقتداء به، ويطيعه حياً وميتاً، ويترسم خطاه قولاً وعملاً، ولهذا كان يثور حين تتعرض سنة من سنن الرسول للعدوان، ويستخف بفرائض الإسلام وسلطانه إنسان.

وهكذا انطبعت شخصية الصديق بالصفات المحمدية التي جعلت منه عظمة متميزة، تستمد أصالتها من مكوناتها الخاصة، ويظاهرها في ذلك هذا

---

(١) أسد الغابة ٣/٤.

الالتحام الوثيق بعظمة العظمات المتمثلة في شخصية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وقد رشَّحه كل أولئك لأن يكون محل ثقة نبيه وخليله، فكان يؤثره بنصيب ظاهر من رعايته كأنما هو يعده للخلافة من بعده، كان رفيقه في الهجرة وصاحبه في الغار، ويبلغه أن قوماً نالوا أبا بكر بألسنتهم فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس، ليس أحد منكم أمنّ علي في ذات يده ونفسه من أبي بكر، كلكم قال لي: كذبت، وقال لي أبو بكر: صدقت، فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً[1]).

وجعل منه أول أمير يحج بالمسلمين، وأشار بما فيه الكفاية إلى توليه الخلافة من بعده، ومن ذلك إنابته مكانه في الصلاة، فقد ذهب مرة يصلح بين جماعة من الأوس فقال لبلال: إذا حضرت الصلاة ولم آت، فمر أبا بكر أن يصلي بالناس، وقال في مرضه الذي مات فيه: مروا أبا بكر فليصل بالناس، ولما راجعته في ذلك عائشة قائلة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف، متى يقم مقامك لا يسمع الناس، قال: مروه فليصل بالناس، فطلبت من حفصة أن تكرر عليه، ففعلت، فقال: مروه فليصل بالناس، وضجر من مراجعتهما له، وقال: إنكن صواحب يوسف، وكان أبو بكر غائباً فدعا بعضهم عمر للصلاة بالناس، وهو لا يعلم من أمر رسول الله شيئاً، فلما كبر عمر وسمع رسول الله صوته قال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون، فعاد عمر باللوم على الرجل الذي دعاه. وقال لامرأة عرضت عليه أمراً وأمَرها أن تذهب ثم ترجع إليه، وقالت له أرأيت إن لم أجدك ـ كأنها تعني الوفاة ـ قال: إن لم تجديني فأتي أبا بكر.

ثم قبض الله رسوله إليه فارتاعت القلوب وذهلت النفوس، وفقد كثير من الصحابة صوابهم، وصرخ عمر في الناس وهو تحت وطأة الصدمة وقد شهر سيفه: (إن رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ، كما رجع موسى، فليقطعن

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣١.

أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات[1]، وجاء أبو بكر فدخل على رسول الله، فكشف عن وجهه ثم قبَّله، وقال: (بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً) ثم رد البرد على وجهه، وخرج وعمر لا يزال في ذهوله يكلم الناس، فقال له: على رسلك يا عمر، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ﴿وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين[2]﴾. فعاد الناس إلى رشدهم وثاب عمر إلى نفسه، وكفى الله بذلك المسلمين شر فتنة الموقف، وشاء الله أن يُجري هذا الفضل على يد أبي بكر.

وقبل أن يفرغوا من جهاز رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتدبرون أمر الخلافة، وأدركهم جماعة من المهاجرين منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، وكثر اللجاج ـ كما أشرنا إلى ذلك في مناسبة سابقة ـ وانتهى الاختلاف بمبايعة أبي بكر، وبذلك قطع أبو بكر الطريق على هذه الفتنة فماتت في مهدها. وكانت مدة خلافته على قصرها من أزخر سني حياته على الإطلاق، ومن أكثر السنوات عائدة بالخير على الإسلام.

فقد شاعت الردة في قبائل العرب، ومنعوا الزكاة، واشرأب أعداء الإسلام من كل جانب يتحفزون للقضاء عليه، وفي الوقت نفسه كان الرسول قبل وفاته قد جهز جيش أسامة، وكان هذا الجيش قد فارق المدينة فعلاً وعسكر خارجها في انتظار الإشارة الأخيرة للمسير، وكان الرسول أمر بإنفاذه لمقاتلة الروم بالشام.

واضطربت الآراء بعد وفاة الرسول ﷺ وأشار كثير من الصحابة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٦٥٥.

(٢) الطبري ٢: ٢٠٠.

باستبقاء الجيش للدفاع عن المدينة والاستعانة به في مواجهة المرتدين، وهنا تَمثُل أمام أبي بكر صورة بطله العظيم، وتتحرك في داخله عاطفة الحب والإعجاب به وما يتبعه من طاعة مطلقة واقتداء غير محدود، فيقول لهم: (لا رددت جيشاً وجهه رسول الله، ولا حللت لواءاً عقده رسول الله، ولو أن السباع والطير من حول المدينة تخطفتنا، ولو أنَّ الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين، ولو لم يبق في القرى أحد غيري، لأجهزن جيش أسامة[1])، فلما آنسوا منه هذا التصميم اقترح بعضهم أن يؤمر عليهم غير أسامة، فهو شاب دون العشرين، وفي الجيش أهل السن والحنكة، ومنهم عمر، فأبى عليهم ذلك أيضاً وقال: ألا أؤمر أمير رسولِ الله ﷺ؟ ثم انطلق بنفسه إلى الجند وأمرهم بالمسير[2]، وسار معهم يودعهم ماشياً وأسامة راكباً، وعبد الرحمن بن عوف وراء الخليفة يقود راحلته، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن أنزل، فقال أبو بكر: والله لستَ بنازل، ولستُ براكب . . . إلخ، ثم تقدَّم من أسامة يستأذنه في عمر لحاجته إليه، فأطلقه له.

وبهذا كله علم الناس درساً هم في أشد الحاجة إليه في ذلك الحين وفي كل حين، وهو درس الطاعة، ووجوب اتباع إرادة رسول الله واحترامها بعد مماته كما كان ﷺ في حياته، في وقت كشرت فيه الفتنة عن أنيابها وتفاقم الشر من كل جانب، وكيف يتسنى له أن يطالب المنشقين ومانعي الزكاة بالطاعة والرجوع إلى اتباع الكتاب والسنة، ويبيح لنفسه نقض ما أبرمه الرسول وقضاه؟ إنه لو فعل ذلك لامتُحِنت الأمة بما لا يعرف مداه إلَّا الله.

وكان أُولى ثمرات هذا الدرس أن القبائل حين سمعت بتسيير جيش أسامة، رهبت الانتقاض وقالت: ما سار هؤلاء القوم إلى أعدائهم إلا وبهم منعة ولديهم قوة، وأين نحن من الروم؟ ثم أخلدوا إلى الطاعة والتسليم.

---

(١) البداية والنهاية ٦: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) المرجع السابق.

وعاد الجيش بعد شهرين مظفراً لينضم إلى المسلمين في جهاد المرتدين[1].

وراجع الصحابة أبا بكر في مانعي الزكاة علّه يتألفهم ويلاينهم، ويعالج الموقف بالدعوة الحسنة وتعميق الإيمان في قلوبهم، حتى يثوبوا ويرجعوا إلى حظيرة الإسلام، وإنما دفعهم إلى مراجعته ما شاهدوه من كثرة المرتدين وقلة جند المسلمين، ومرة أخرى يشتد أبو بكر، ويأبى إلاَّ القتال، ويقول: (والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة[2])، وقام لحربهم بنفس لا تعرف الهوادة ولا تألف اللين، وأعلن النفير العام، فجعل على مداخل المدينة حراساً يبيتون بالجنود حولها، كما جعل من أهلها من يبيت يحرسها من الداخل فيقيم بالمسجد لا يبرحه، وخرج بنفسه يقود أصحابه إلى من حول المدينة من الأعراب في وقائع متلاحقة، حتى دانوا له بالطاعة، وجاءته منهم زكاتهم وصدقاتهم، ثم أرسل الجيوش إلى المناطق البعيدة كاليمامة وغيرها، حتى استقرت الأمور وعاد الناس إلى دين الله وارتفعت راية الإسلام من جديد على ربوع جال فيها الشيطان ولعب بعقول أهلها المتنبئون.

ولما اطمأن بعد كل هذا العناء إلى سلامة الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية شرع في تأديب أعداء المسلمين في الخارج الذين قلنا: إنهم بدؤوا تحركاتهم على حدود الدولة الإسلامية في أثناء انشغالها بالحروب الداخلية، فبعث رضي الله عنه البعوث إلى الشام والعراق، وخص الله سيفه المسلول خالد بن الوليد بالفضل في كل هذه الحروب، وقد رفض أبو بكر أيضاً أن يعزله حين أشار عليه بعضهم بعزله، لأنه سيف سله رسول الله، فما ينبغي له أن يغمده.

واستحق أبو بكر بهذه الأعمال المجيدة في نظر المؤرخين لقب مؤسس

---

(١) المرجع السابق ٦: ٣١١.

(٢) المرجع السابق ٦: ٣١٢ ـ ٣١٤.

الدولة الإسلامية فلم يفارق الحياة حتى كانت الدولة كأقوى ما تكون دولة في الداخل، وكانت جيوشها على الحدود تدوّي بكلمة التوحيد.

ورثاه علي بن أبي طالب فقال: (كنت كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ: ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، فالقوي ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك).

فصاحته وبلاغته:

كان غزير العلم والرواية للشعر، بليغاً متذوقاً، لقي أعرابياً يحمل ثوباً فظنه يبيعه، فسأله: أتبيع هذا الثوب؟ فقال: لا عافاك الله، فاستوقفه وقال له: أولا قلت: لا وعافاك الله؟ ذلك أن الجملتين مختلفتان خبراً وإنشاءاً، فالواجب فيهما العطف كما يقرر علماء البلاغة في باب الوصل والفصل، لأن ترك العطف ينقل الكلام من الدعاء للسامع إلى الدعاء عليه، وهو غير المراد، وقد قال الصاحب بن عباد عن مثل هذه الواو: إنها أحسن من الواوات على صدوغ الحسان.

وكان أبو بكر يكره بطبعه المستقيم وذوقه الفني السليم، أسجاع الكهان، وكلام المتنبئين، ويهتز للتعبير القرآني، وما فيه من بلاغة وذكر حكيم، حتى ليستغرق في البكاء ويسمع منه النشيج، كما كان يعجب ببلاغة الرسول الكريم، وقد كان لذلك أثر واضح في ما نسج من خطب ووصايا، وما حبَّر من رسائل وعهود. لمسنا ذلك فيما أوردناه منها في الفصل السابق ونلمسه أيضاً فيما يلي:

● أ ـ خطبته بعد بيعته العامة بالخلافة:

لما بايع الناس أبا بكر البيعة العامة، بعد بيعة السقيفة، قام فحمد الله

وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال[1]:

(أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، لا يدعْ أحد منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلَّا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلَّا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله).

ويلاحظ أنها خطبة موجزة ، والإيجاز من الأساليب التي كان يؤثرها أبو بكر، لأنه يتفق مع خلاله وصفاته، من فضل ووقار ومروءة، وقد أوصى يزيد بن أبي سفيان به، لأن كثير الكلام - في نظره - ينسي بعضُه بعضاً، وتعتبر هذه الخطبة نموذجاً للخطابة السياسية، فهي خطبة الرئاسة، وقد اشتملت على الجزء الأساسي من منهجه في الحكم القائم على الصدق والأمانة والإحسان وطاعة الله. هذا وقد اشتملت الخطبة على بعض المحسنات كالسجع والمقابلة والازدواج.

● ب - خطبة أخرى:

وقام في أول خلافته يعظ الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[2]:

(يا أيها الناس. إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلَّكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت

---

(١) الطبري ٢: ٢١٠ وسيرة ابن هشام ٢: ٦٦١ والعقد ٤: ١٢٧ مع اختلاف.

(٢) الطبري ٢: ٢٢٣.

فقوّموني، وإن رسول الله ﷺ قُبِض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة، ضرْبةِ سوط فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني، لا أؤثّر في أشعاركم وأبشاركم.

ألا وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم أن لا يمضي هذا الأجل إلّا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلّا بالله، فسابقوا في مهل آجالكم، من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجدَّ الجد.. والنجاء النجاء، فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مَرُّه سريع، احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلّا بما تغبطون به الأموات).

وهنا يمتزج الدين بالغرض السياسي أيضاً، ونراه يعترف فيها بتقصيره عن شأو محمد ﷺ، وأنه لم يكن يستعمل في الرعية السوط، أما هو فإنه قد يضطره الغضب إلى استعماله، ولذلك يحذرهم غضبه، ثم هو يوصيهم أن يستعينوا بالله على صالح الأعمال قبل حلول الآجال، فتوصد أمامهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الاعتبار بغيرهم ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وفي الخطبة تعظيم لشخصية الرسول ﷺ وحرص على هداية المسلمين ومكاشفة بما فيه من حدة طباع، وألفاظها واضحة بعيدة عن الصنعة، وما جاء فيها من بعض الأسجاع والمقابلات فهو طبيعي لا تكلف فيه.

• ج ـ خطبة أخرى:

وقام أيضاً في إحدى خطبه الدينية الاجتماعية فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[1]:

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلّا ما أريد به وجهه، فأريدوا

---

(١) المرجع السابق: ٢٢٤.

الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وخطأ ظفرتم به، وضرائب أديتموها، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم، اعتبروا عبادَ الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس.؟ وأين هم اليوم؟ أين الجبارون؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً، وقد تُرِكت عليهم المقالات، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا ونُسي ذكرهم، وصاروا كلا شيء، إلّا أن الله قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبقينا خلفاً بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن اغتررنا كنا مثلهم. أين الوُضّاءُ الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟ صاروا تراباً، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلَفهم، فتلك مساكنهم خاوية، وهم في ظلمات القبور، هل نحسّ منهم من أحد أو نسمع لهم ركزاً؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما قدموا، فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت.

ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه به سوءاً، إلّا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يدرك إلّا بطاعته، أما إنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة).

● د ـ خطبة أخرى:

وخطب أيضاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[1]:

(إن أشقى الناس في الدنيا الملوك.

---

(١) العقد الفريد ٤ : ١٢٧.

فرفع الناس رؤوسهم، فقال: ما لكم أيها الناس؟ إنكم لطعانون عجلون، إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما بيده، ورغبه فيما بيد غيره، وانتقصه شطر أجله، وأشرب قلبه الإشفاق، فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير، ويسأم الرخاء، وتنقطع عنده لذة البهاء، لا يستعمل العبرة، ولا يسكن إلى الثقة، فهو كالدرهم القَسِّيِّ والسراب الخادع، جذِل الظاهر، حزين الباطن، فإذا وجبت نفسُه، ونصب عُمُره، وضحا ظلّه، حاسبه الله، فأشدّ حسابه، وأقلّ عفوه.

ألا وإن الفقراء هم المحرومون، ألا إن من آمن بالله حكم بكتابه وسنة نبيه ﷺ. وإنكم اليوم على خلافة نبوّة، ومفرق محجَّة، وسترون بعدي مُلْكاً عضوضاً، ومَلِكاً عنوداً، وأمة شَعاعاً، ودماً مباحاً، فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة، يعفو لها الأثر، ويموت لها الخبر، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن، واعتصموا بالطاعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر، أي بلاد خَرْشَنة إن الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها).

● هـ ـ خطبة أخرى:

وهي خطبة يذكرهم فيها بنعمة الله عليهم بالإسلام، ويقارن بين ما كانوا عليه في جاهليتهم من تشتت وتفرق وبين ما آلوا إليه بالإسلام من أخوّة وألفة وقرب من الله يقول[1]:

(الحمد لله، أحمده، وأستعينه، وأستغفره وأومن به، وأتوكل عليه، وأستهدي الله بالهدى، وأعوذ به من الضلالة والردى، ومن الشكّ والعمى، من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو حي

(١) المرجع السابق ٤: ١٢٨.

لا يموت، يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، إلى الناس كافة رحمة لهم وحجة عليهم، والناس حينئذٍ على شر حال في ظلمات الجاهلية، دينهم بدعة، ودعوتهم فرية، فأعز الله الدين بمحمد ﷺ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلَّكم تهتدون، فأطيعوا الله ورسوله، فإنه قال عز وجل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾.

أما بعد: أيها الناس، إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير، من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك، وإياكم والفخر، وما فخْرُ من خُلِق من تراب، وإلى التراب يعود..؟ هو اليوم حي، وغداً ميت، فاعملوا وعدّوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله، وقدموا لأنفسكم خيراً تجدوه مُحْضراً، فإنه قال عز وجل: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد[1]﴾، فاتقوا الله عباد الله وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم، صغيرها وكبيرها، إلاَّ ما غفر الله، إنه غفور رحيم، فأنفسَكم أنفسكم والمستعانُ بالله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً[2]﴾، اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك، أفضل ما صليت على أحد من خلقك، وزكِّنا بالصلاة عليه، وألحِقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، اللهم أعنا على طاعتك، وانصرنا على عدوك).

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

● و ـ من خطبه في حروب الردة:

لا بد أن تكون له خطب كثيرة في هذا المجال وإن لم تصلنا، إذ كان عليه تثبيت القلوب الواجفة، وشد العزمات الواهية، وخنق التردد في النفوس، كما كان عليه أن يدعو المتمردين إلى أن يعودوا إلى رشدهم ويثوبوا إلى الحق.

ومن ذلك قوله[1]:

(الحمد لله الذي هدى وكفى، وأعطى فأغنى. إن الله بعث محمداً ﷺ والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رث حبله، وخلُق عهده، وضلَّ أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب، قد غيروا كتابهم، وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون يحسبون أنهم في منعة من الله، لا يعبدونه، ولا يدعونه، فأجهدهم عيشاً، وأضلَّهم ديناً، فختمهم الله بمحمد، وجعلهم الأمة الوسطى، ونصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض الله نبيه ﷺ، فركب الشيطانُ منهم مركبه، وأخذ بأيديهم، وبغى هلكتهم: ﴿وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين[2]﴾.

إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما قد تقدَّم من بركة نبيكم ﷺ، وقد وكلكم إلى المولى الكافي، الذي وجده ضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه: ﴿وكنتم على شفى حفرة من النار فأنقذكم منها... الآية﴾، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله، حتى ينجز الله وعده، ويوفي لنا عهده، ويُقتل من قُتِل منا شهيداً من أهل الجنة، ويبقى من بقي

(١) البداية والنهاية ٦: ٢١٢.
(٢) آل عمران: ١٤٤.

منا خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله حق، وقوله الذي لا خُلْف له: ﴿وعد الله الـذين آمنـوا منكم وعملوا الصـالحـات ليستخلفنّهم في الأرض. . .﴾ الآية[١].

* * *

ومن وصاياه:

كان كلما وجه قائداً إلى معركة أو أميراً إلى جهة أو والياً على شأن من شؤون الدولة أوصاه، ورسم له بعض ما يجب عليه، ونبَّهه إلى طاعة الله، كما رأينا في وصيته لأسامة وجيشه، وليزيد بن أبي سفيان وغيرهما، ومن ذلك أيضاً:

● أ ـ وصيته لخالد بن الوليد:

رغم إيمان أبي بكر بقدرة خالد القيادية فإنه رأى أن من واجبه أن يزوده بوصية حين سيّره إلى قتال المرتدين، يعلمه فيها فن القيادة، وما ينبغي أن يكون عليه قائد الجيش، فقال[٢]:

(سر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدوّ فكن بعيداً عن الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بـالزاد، وسـر بالأدلاء، ولا تقـاتل بمجروح، فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات، فإن في العرب غرة، وأقلِل من الكلام، فإنما لك ما وُعي عنك، واقبل من الناس علانيتهم، وكِلْهم إلى الله في سرائرهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه).

إن أبا بكر يرى أن قائد الجيش يجب أن يكون بمأمن من الحرب، في مقر القيادة، كما فعل الرسول ﷺ في غزوة بدر بإشارة الأنصار، كما يجب أن يستعين بالـزاد، ويعتمد عـلى الأدلاء والإخباريـين، ويعزل الجـرحى عن

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) العقد الفريد ١ : ٩٢.

المقاتلين، ويحترس من هجمات الليل ومن الغفلة، وأن يكون كلامه قليلاً، ويقبل من الناس ظاهرهم. وهذه كلها من الأصول الحربية الناجحة التي انتصر بها الإسلام. وقد كانت عبارة الوصية في غاية الوضوح وجمال العرض والتصوير، مما يحقق لها التأثير فكأنها خطبة.

●ب ـ وصيته ليزيد بن أبي سفيان:

وحين وجه يزيد بن أبي سفيان لفتح الشام قال[1]:

(إني قد وليتك لأبلوك، وأجربك، وأخرِّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدُّهم تولِّياً له، وأقرب الناس من الله أشدّهم تقرباً إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالدٍ[2]، فإياك وعُبِّيَّةَ[3] الجاهلية.. فإن الله يبغضها، ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعِدْهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضُه بعضاً. وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها، بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم إليك رسُل عدوك فأكرمهم، وأقلِل لبثهم، حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تريَّثْهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع مَنْ قِبَلك مِنْ محادثتهم، وكن أنت المتولِّي لكلامهم ولا تجعل سرك لعلانيتك، فيختلط أمرك، وإذا استشرت فاصدُق الحديث تُصْدَق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك، فتؤتى من قِبَل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك، وبدِّدهم في عسكرك، وأكثِر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢: ١٩٦.

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاص، وكان أبو بكر أرسله إلى الشام ثم عزله.

(٣) عبية الجاهلية: كبرها وفخرها.

غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وعقِّب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما، لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجنّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذَلها مُدْقِعاً[1]، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم، ولا يكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدُق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتنب الغُلول فإنَّه يقرّب من الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له).

وأول ما يلاحظ في هذه الوصية طولها، مع العلم أن الصدّيق كان يحب الإيجاز، وقد تضمنت الوصية نفسها التنويه بشأنه، فما السبب الذي جعل الصديق يخالف ما اعتاده من سنن القول؟ إن يزيد لم يكن كخالد بن الوليد قائداً محنكاً متمرساً بالقيادة، بل كان قائداً تحت التجربة، قليل المهارة، يقوم بمواجهة الروم، فكانت البلاغة تقتضي هذه الإطالة وهذا البسط، وقد قدم له من النصائح ما يضمن له به تحقيق مهمته ويساعده على النجاح، ونهنه ما عسى أن يتنبه في نفس يزيد الأموي من عنجهية وكبرياء، بسبب توليه القيادة، وجدير بهذه الوصية أن ينظر إليها كمخطط حربي متكامل يدرس للاستفادة منه حربياً وبيانياً.

● ج ـ وصيته لعمر حين استخلافه:

كان أبو بكر منذ تولى الخلافة قد وضع أمامه سيرة الرسول ﷺ نموذجاً يحتذيه ويتأثر خطاه، وأحس الناس أيام خلافته بأن روائح الرسالة لا تزال تعبق بها رحاب المدينة، وتملأ جنبات المسجد النبوي الشريف، وشاهد أبو بكر الموقف الحرج الذي تعرضت له وحدة الأمة في سقيفة بني ساعدة، فضن

---

(١) لا تخذل: لا تضعف ولا تسترخ. المدقع: الهارب أو الشديد الهزال.

بها أن تتعرض لموقف مشابه أو أشد بموته، فأوصى بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب، ولكنه أحس أنه مسؤول عن توجيهه وتسديده وتقديم النصح له فدعاه إليه، وقال[1]:

(إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوى الله، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفرائض، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثِقَله عليهم، وحُق لميزان لا يوضع فيه إلاّ الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلاّ الباطل أن يكون خفيفاً.

وإنَّ الله ذكر أهل الجنة، فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا سمعتَ بهم قلت: إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم، وأمسكِ عن حسناتهم، فإذا سمعتَ بهم قلت: أنا خير من هؤلاء. وذكر آية الرحمة والعذاب، ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله غير الحق.

فإذا حفظت وصيتي، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتي، فلا يكونن غائب أكره إليك من الموت، ولن تعجزه).

* * *

ومن عهوده:

سبق أن ذكرنا نماذج لعهوده، وهذا عهده لعمر بالخلافة[2]:

(هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، آخر عهده بالدنيا، وأول

---

(١) العقد الفريد ٣: ٨٣.

(٢) إعجاز القرآن ص ١٣٧.

عهده بالآخرة، ساعة يؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر.

إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برَّ وعدل، فذاك ظني به، ورأيي فيه، وإن جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردت لكم، ولكل امرىء ما اكتسب من الإثم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون).

عمر الفاروق

حياته

هـو عمر بن الخـطاب بن نفيل بن عبـد العزّى، من بني عـدي بن كعب بن لؤي، كان في جاهليته رجلاً ذا مال، مقبلاً على الملذات يحب الخمرة ويعاقرها ويسر بها[1]، وكان في الوقت نفسه ذا قوة وشكيمة لا يرام ما وراء ظهره[2]، ولا يتجرأ عليه أحد في مكة.

تأخر إسلامه مع حمزة بن عبد المطلب إلى السنة الخامسة للبعثة، وكان قبلها قاسياً غليظ القلب على المسلمين، حتى يئسوا من إسلامه وقال عنه بعضهم: لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب. ولكن الرسول كان يدعو له بالهداية ويقول: اللهم أيّد الإسلام بأحب العمرين لديك، يعني عمر بن الخطاب وأبا جهل عمرو بن هشام، واستجاب الله دعاءه، وأعز الله الإسلام به وبحمزة، فخرج المسلمون عقب إسلامه من دار الأرقم إلى الكعبة في صفين، على أحدهما عمر، وعلى الآخر حمزة، وقريش تنظر فلا تستطيع أن تفعل شيئاً، ولذلك لقبه النبي ﷺ بالفاروق، لأن الله فرّق به بين الحق والباطل.

وفرح الرسول والمسلمون بإسلامه فرحاً شديداً لأنه خطا بالدعوة من

(١) سيرة ابن هشام ١: ٣٤٦.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٢.

طور إلى طور، يقول ابن مسعود[1]: (إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريش حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه).

وكان عمر من هذه الشخصيات العظيمة التي هيأها الله لصنع التاريخ، وتغيير مجرى الأحداث في حياة الأمم والشعوب، ومنح الدعوات التي يتبنونها أو ينضمون إليها، قدْراً من القوة يسهم في دفعها وتطويرها، ويعود ذلك بالطبع إلى طاقات كامنة فيهم، وصفات معينة تميزهم وتحقق أصالتهم، وقد كانت أبرز هذه الصفات جميعاً في عمر كما يذكر العقاد في كتاب (عبقرية عمر) هي طبيعة الجندي التي أهم مظاهرها: البأس، والشجاعة، والنظام، والطاعة، والخشونة، والنجدة، والحزم، والصراحة، واحترام الواجب، وتقدير المسؤولية، وحب الحق، وكراهية الباطل.

فهذه الطبيعة فيه هي منبع جميع صفاته، وعليها تدور كل خلاله، سواء في ذلك ما كان منها بارزاً واضحاً، أم ما كان في حاجة إلى قليل من التأمل، ومن ذلك العدل، والرحمة، والغيرة، والفطنة، وقوة الإيمان، والنخوة الدينية، فبين هذه الصفات وطبيعة الجندي وشائج قوية وروابط جدّ متينة.

كانت هذه الصفات في جميع مراحل حياته تسم سلوكه وتطبع تصرفاته، وتنعكس في أقواله وأفعاله، ومن يراجع خطبه ورسائله ووصاياه تتأكّد لديه هذه الحقيقة، كما يرتسم أمامه النموذج الحي للمطابقة بين القول والسلوك.

ومن مظاهر عدله الذي ذهب مثلاً في الناس، هو إقامته الحد على ابنه وهو الخليفة المهاب، وأخذه الحق للمصري من ابن واليه على مصر، عمرو بن العاص حين ضربه ظلماً وهو يقول: أنا ابن الأكرمين. فأقاده منه

---

(١) المرجع السابق.

على ملإٍ من الناس، وأعطاه الدِّرة وقال له: اضرب ابن الأكرمين. فما زال الرجل يضربه حتى أوجعه، ثم قال له عمر: أجِلْها على صلعة عمرو، لعلمِه أن ابنه ما فعل ذلك إلاَّ اعتماداً على سطوة أبيه، وعلى تغاضيه، ففزع عمرو، ولم يسعه غير عفو صاحب الحق، وتوجه عمر إلى ابن العاص يقول: متى استعبدتم الناس يا عمرو وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.

ولم يفرق في عدله بين أمير وسُوَقة، وبين من يعرف ومن لا يعرف، فقضى للأعرابي على الأمير الغساني جبلة بن الأيهم لطمة بلطمة.

ومن مظاهر رحمته أنه كان يحب أفراد أسرته حباً جماً تمثل في ندمه على ضرب أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد حين علم بإسلامهما[1] وكان ذلك من مفاتيح قلبه للإسلام. واستُشهد أخوه زيد بن الخطاب في حروب الردة فجعل يبكيه كلما ذكره، وما هبت صبا نجد إلاَّ أثارت في قلبه الأشجان. وكان يصيبه الأرق من ذكر أحد أصدقائه فيقول: واطول ليلاه.. فإذا صلى الغداة مضى إليه فالتزمه واعتنقه.

ورغم نزوعه إلى الغلظة على المشركين وإشارته بقتل أسرى قريش في بدر، فإن عاطفة الرحمة غلبت عليه يوم فتح مكة، حين سمع سعد بن عبادة الأنصاري يقول: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلُّ الحُرَمة) وأشفق على قريش من سيفه، وذهب إلى الرسول يقول: (يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة)، فأمر الرسول علِيّاً أن يأخذ من سعد الراية ويدخل بها[2].

وفي جاهليته مر ببعض المهاجرين إلى الحبشة فـرقّ لهم، قالت أم عبدالله بنت أبي حَثْمة: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، إذْ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي ـ وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء أذىً لنا وشدةً

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٤.

(٢) المرجع السابق ٢: ٤٠٦.

علينا ـ فقال: إنه لَلانطلاقُ يا أمّ عبدالله؟ قلت: نعم والله، لنخرُجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجاً، فقال: صَحِبكم الله، ورأيت له رقّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا[1].

ولم يمنع اختلاف الدين رحمته من أن تصل إلى مستحقيها، فقد رأى شيخاً ضريراً يسأل الناس، وعلم أنه يهودي، فقال له: (ما ألجأك إلى ما أرى؟) قال: اسألِ الجزية والحاجة والسن. فأخذ بيده إلى منزله فأعطاه، ووضع عنه وعن أمثاله الجزية، وفرض له في الصدقات من بيت المال.

وقصته مع الصبيان الجياع، الذين وجد أمهم تسكتهم ليلاً على مشارف المدينة أيام خلافته، بماء تغليه على النار، توهمهم أنه طعام، حتى يناموا، قصةٌ مشهورة متواترةٌ، وقد حمل إليهم بنفسه الدقيق والشحم، ولم يبرح حتى طعموا وشبعوا وناموا.

وكان بكاء طفل يقلقه ويحرمه النوم، ولذلك فرض العطاء لكل مولود في الإسلام حين علم أن أمهاتهم تستعجل فطامهم ليُفرض لهم: وقال: لا تُعجلوا صبيانكم عن الرضاع، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

وكانت رحمته كعدله تتسع للجميع وتشمل حتى الحيوان، فكان يبيطر ما لديه من دواب، ويدعو الناس إلى الرفق بحيواناتهم، ويؤدب من يحمّلها ما لا تطيق.

وكان عمر إلى جانب عدله ورحمته رجلاً غيوراً على الدين والعرض وعلى كل ما تجب حمايته. وبلغ من غيرته أن النساء كن يخشين منه ما لا يخشين من رسول الله، وهو أولى بالخشية.

وكان ذا فراسة وفطنة، حتى لقد قال عنه الرسول: إن يكن في أمتي محدَّثون فعمر. وكثيراً ما كان القرآن ينزل على وفاق رأيه، كما في أسرى بدر.

---

(١) المرجع السابق ١: ٣٤٣.

وكان يقول: أعقل الناس أعذرُهم للناس. ويقول: احترسوا من الناس بسوء الظن، ويقول: لست بالخَبّ ولا الخَب يخدعني. وقال عنه المغيرة بن شعبة: كان عمر والله أعقلَ من أن يُخدع، وأفضلَ من أن يَخدع.

وكان شجاعاً فارساً ذا نخوة دينية ظاهرة. فحين أسلم جاهر بإسلامه، وحين هاجر أعلن هجرته على رؤوس الملأ، وقال لهم: من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده أو يرمل زوجته فليلحقني عند هذا الوادي، وعرض على عياش بن أبي ربيعة نصف ماله إذا ثبت على هجرته ولم يصغ إلى أبي جهل والحارث بن هشام في الرجوع إلى مكة[1]. وطلب من الرسول أن يقلع ثنيتي سهيل بن عمرو لأنه كان يثير الناس على المسلمين بخطبه، وأسرع إلى حسان يوم أحد يدعوه إلى الرد على هند بنت عتبة التي وقفت فوق صخرة تهجو المسلمين وتنال منهم بشعرها[2]. ولم يرض بصلح الحديبية، وقال للرسول: ألسنا على الحق؟ فعلام نعطي الدنية في ديننا[3].. وطلب من الرسول أن يأذن بقتل عبدالله بن أبيّ حين حاول تأليب الأنصار على المهاجرين في أعقاب غزوة بن المصطلق[4]، وطالب بقتل حاطب بن أبي بلتعة حين عرف أنه كتب إلى قريش يعلمهم بتأهب الرسول لفتح مكة[5]. وعندما قال ذو الخويصرة التميمي للرسول، وهو يقسم غنائم حنين: لم أرك عدلت. قال للرسول: ألا أقتله[6].. ثم أجلى يهود خيبر عن الجزيرة العربية، إلّا ما كان معه عهد من رسول الله، لأنه ثبت عنده أنه قال في مرض موته: (لا يجتمع دينان بجزيرة العرب[7])، وشبهه الرسول في الشدة على الكفار بنوح وموسى، فأما الأول

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٤٧٤.
(٢) المرجع السابق ٢: ٩٢.
(٣) المرجع السابق ٢: ٣١٦.
(٤) المرجع السابق ٢: ٢٩٢.
(٥) المرجع السابق ٢: ٣٩٨.
(٦) المرجع السابق ٢: ٤٩٦.
(٧) المرجع السابق.

فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً[1]﴾، وأما الثاني فقال: ﴿ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم[2]﴾.

ومن أخلاق الفروسية التي كانت تلازمه: الخشونة والرياضة المستمرة. فكان يقول: (علموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل). ويقول: (لا تخور قوىً ما كان صاحبها ينزو وينزع). ويقول: (الراحة عُقْلة، وإياكم والسمنة، فإنها عقلة). وقال الأصمعي في وصف فروسيته: (كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أُذن فرسه اليسرى، ثم يجمع جراميزه [3] ويثب، فكأنما خلق على ظهر فرسه [4]).

ومنها الصراحة التي لا تعرف المواربة، فقد مر بسعيد بن العاص، فقال له: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة. أما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور برَوْقه فحدت عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله[5].

وخرج في غزوة ذات السلاسل جندياً في جيش عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح، وجندياً في جيش أسامة، وهو شاب حديث السن، لولا استبقاء أبي بكر له، وكان بعد ذلك كلما لقي أسامة هشّ له وقال: السلام عليك أيها الأمير[6] وكان مع النبي كما قال عن نفسه: (كنت عبده وخادمه وجلوازه[7]).

---

(١) نوح: ٢٦.
(٢) يونس: ٨٨.
(٣) الجراميز: مجموع البدن.
(٤) البيان والتبيين ٣: ١٧.
(٥) سيرة ابن هشام ١: ٦٣٦.
(٦) البداية والنهاية ٦: ٣٠٥.
(٧) الجلواز: الشرطي.

وكان حازماً يكره التهيب والتردد، أسهم في القضاء على فتنة السقيفة مع أبي بكر، وواجه المجاعة في عام الرمادة، بما يتناسب معها، ولقي ولاته بما ظن أنه الحق، ووقف من عشيرته بني عدي موقف الحاكم الواعي، فكان ينهاهم عن التماس أي امتياز عن غيرهم في خلافته، وأمر في وصيته عند موته بقتل من يخالف الجماعة في اختيار الخليفة.

وعزل سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد للحيطة السياسية، ولم يمنعه عمله هذا من أن ينصفهما ويبرىء جانبهما حين تأكد لديه خلاف ما تبادر إلى ذهنه، فجعل الأول ضمن من حصر فيهم الوصية بالخلافة من بعده وقال: (فإن أصابت سعداً فذاك، وإلا فأيهم استُخلف فليستعن به، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة)، واعتذر عن عزل الثاني وقال: (إني أعتذر إليكم عن عزل خالد بن الوليد، إني أمرته أن يحبس هذا المال على المهاجرين، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فنزعته وأثبت أبا عبيدة بن الجراح) فقام أبو عمرو بن حفص فقال: (والله ما عدلتَ يا عمر، لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله، وأغمدت سيفاً سله رسول الله، ووضعت لواءاً نصبه رسول الله، ولقد قطعت الرحم، وحسدت ابن العم)، فقال عمر: (إنك قريب القرابة، حديث السن، مغضب في ابن عمك[1])، ثم كتب إلى الأمصار ينفي عن خالد ما عسى أن يكون علق به من تهمة بالعجز أو الخيانة، ولما مات حزن عليه حزناً شديد وأكثر من طلب الرحمة له، وقال: (قد ثلم في الإسلام ـ بموته ـ ثَلمة لا ترتق، كان والله ميمون النقيبة، سدّاد لنحور الأعداء). وحين سمع بكاء بنات عمه عليه قال للذي سأله أن ينهاهن عن البكاء: (دعهنَّ يبكين على أبي سليمان، مالم يكن نقْع أو لقْلقة، على مثله تبكي البواكي)، فقد كان يعرف قدر خالد وفضله في الجهاد وحسن بلائه في الإسلام.

---

(١) أسد الغابة ١: ٥٣.

وكان عمرُ وكان. . . وعدِّدْ ما شئت من الصفات فستجد عمر آخذاً منها بالنصيب الأوفى.

وإذا كان أبو بكر أول خليفة للمسلمين، وعد بذلك وبما حققه من تثبيت لقواعد الدولة وقضاء على فتنة الردة وتسيير للجيوش وبكل الصفات التي عرف بها، مؤسساً للدولة الإسلامية، فإن عمر ثاني خليفة للمسلمين لا يمكن تصنيفه إلاَّ في زمرة المؤسسين للدول، فقد كان بسيرته منذ أسلم إلى أن لقي ربه يعمل من أجل تأسيس الدولة الإسلامية، صدع بإيمانه وأعلن هجرته وساند أبا بكر في حسم الفتن وأقنعه بجمع القرآن الذي هو دستور هذه الأمة، فلما ولي الخلافة، واصل البناء وسيّر الجيوش إلى المشرق والمغرب، فعلى عهده تمت أعظم الفتوح، واستقرت السيادة للمسلمين، وذل الأكاسرة والقياصرة، ودخل عمر[1] غوطة دمشق وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين[2]﴾.

وفي الحقيقة لم تنشأ الدولة الإسلامية بمفهومها الصحيح إلاَّ على يد عمر، فهو الذي دوَّن الدواوين ونظم القضاء والإدارة، واتَّخذ بيت المال، وأقام البريد، وحمى الثغور بالمرابطين، وألف بجواره مجلس الشورى من خيرة الصحابة، وجعل موسم الحج جمعية عامة للعمال والولاة ولأصحاب الشكايات والمظالم، وأكمل ما بدأه أبو بكر من تعاليم الحرب والقيادة، وعلم ولاته أن الولاية تكليف لا تشريف، وحظر عليهم أبهة الحكم التي تحجبهم عن رعاياهم، كما وضع الأساس لتخطيط المدن وفن العمارة الإسلامية، وبعد مئات السنين من موته رضي الله عنه لا يزال أنصار الحرية يرددون في اعتزاز كلمته إلى عمرو بن العاص: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟).

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٥٥.

(٢) الدخان: ٢٥.

كان عمر عظمة من هذه العظمات التي كانت تدور في فلك عظمة محمد الكبرى، قال عنه النبي ﷺ: (لم أر عبقريّاً يَفري فَرْيه). وقالت عنه عائشة: (من رأى عمر علم أنه خلق غنىً للإسلام، كان والله أحوذيّاً، نسيج وحْدِه، قد أعد للأمور أقرانها[1]). ورثاه علي فقال: (إن موت عمر ثلمة في الإسلام لا تُرتق إلى يوم القيامة)، وقال عنه معاوية وهو يذكر الخلفاء: (أما أبو بكر فلم يُرد الدنيا ولم تُرِده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يُرِدها، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن).

فصاحته وبلاغته:

إذا بدا إيمان أبي بكر بالإسلام نابعاً من تصديقه لصاحب الرسالة قبل كل شيء، فإن إيمان عمر كان لتأثره بالقرآن، سواء كان سمعه من الرسول مباشرة وهو يصلي بجانب الكعبة، أم سمعه في بيت أخته فاطمة، وذلك يدل على الحس البلاغي المرهف الذي كان يمتلكه عمر، فقد أثرت تلك الآيات الكريمات التي سمعها أيما تأثير في نفسه، فأسرع يبحث عن دار الندوة ليعلن إسلامه بين يدي النبي ﷺ.

وعُرف عمر أيضاً بحفظ الشعر وتذوقِهِ ونقده كما سنشير إلى ذلك في الفصل التالي إن شاء الله، وعرف في خطبه ببلاغة العبارة وجهارة الصوت ووضوح المنطق وسلامة المخارج وقوة التأثير في سامعيه، وكانت رسائله وعهوده بالإضافة إلى خطبه نسخة من أخلاقه وصفاته، ومع ذلك كان يتهيب أن يتولى خطب الزواج، ويعلل ذلك ابن المقفع فيقول: (ما أعرفه إلاَّ أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحداق من قرب في أجواف الحداق، ولأنه إذا كان جالساً معهم كانوا كأنَّهم نظراء وأكفاء، وإذا علا المنبر صاروا سُوَقة ورعية).

* * *

(1) البداية والنهاية ٦: ٣٠٥.

ومن خطبه غير ما ذكرنا:

● أ ـ خطبته حين أخذ البيعة العامة للصديق:

في اليوم التالي لمبايعة السقيفة جلس أبو بكر على المنبر للمبايعة العامة، فقام عمر قبله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال[1]:

(أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلاَّ عند رأيي، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إليَّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبِّر أمرنا، حتى يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لِما كان هداه له. وإنّ الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحِب رسول الله، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا). فقام الناس للمبايعة.

وهي خطبة سياسية اتسمت بالروح العمرية التي تعمد إلى الغرض في شدة وحزم، ولا تنسى في الوقت نفسه إيراد الحجة والدليل، فأبو بكر خير الصحابة بصحبته السابقة للرسول واختياره لمرافقته له في الهجرة.

● ب ـ فقرة من خطبته عقب استخلافه:

(إنما مثل العرب مثَلُ جمل أنِفٍ اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنّهم على الطريق[2]).

وقد لخصت هذه الفقرة في إيجاز واجبَ القادة تجاه أمتهم، وبينت حزم عمر في حكمه للرعية، واشتملت على التأكيدات التي لا تدع مجالاً للتردد، وقدمت المعنى في تصوير مؤثر جميل مستمد من البيئة العربية.

---

(١) الطبري ٢: ٢١٠.

(٢) المرجع السابق ٤: ٥٤ والأنف: الذي يشتكي وجع أنفه من الحلقة التي توضع فيه، فهو ينقاد لقائده.

● ج ـ خطبة أخرى:

وقال أيضاً[1]:

(ما كان الله ليراني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر، ـ ثم نزل عن مجلسه مرقاة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اقرؤوا القرآن تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، إنه لم يبلغ حقّ ذي حق أن يطاع في معصية الله، ألا وإني أنزلت نفسي من مال بمنزلة والي اليتيم، إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تَقَرُّم البَهْمةِ[2] الأعرابية، القَضْم لا الخَضْم[3]).

وكما تأدب أبو بكر فنزل مرقاة من المنبر عما كان عليه الرسول، فعل عمر، فنزل مرقاة عما كان عليه أبو بكر، وذلك تقدير من اللاحق للسابق ومن الخلف للسلف ما أجدر حكام المسلمين باتباعه.

وقد دعا إلى التمسك بالقرآن، والتمسك به من الأصول القويمة للحكم في الإسلام، ثم كرر فكرة أبي بكر في أن طاعة الرعية للخليفة مرهونة بطاعة الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأوضح لهم أنه والٍ أمين على أموال المسلمين، لا يأخذ منها إلاَّ اليسير الذي يقيم به أوده، وهو منهج سياسي رائع بمثله قامت دولة الإسلام، وقد اعتمد أيضاً على الصور البيانية يوضّح بها المعنى ويقربه إلى الأذهان، وهي طريقة تظهر كثيراً فيما كتب وخطب. والسياسة عنده كأبي بكر ممتزجة بالدين، بل هي خادمة له محققة لأغراضه وأهدافه.

● هـ ـ خطبة أخرى:

ويبدو أن عمر كان يحس أنه لا بد للحاكم أن يكون على علاقة دائمة

(١) المرجع السابق ٢ : ٢٣٤، والعقد الفريد ٤ : ١٣٠.
(٢) البهمة: ولد الضأن والمعز والبقر. والتقرم: الأكل الضعيف، كما يفعل كل صغير.
(٣) القضم: الأكل بأطراف الأسنان، فهو قليل. والخضم: الأكل بأقصى الأضراس فهو كثير.

برعيته، يعظهم ويشرح لهم منهجه في إدارة الدولة وتصريف الأمور، ليكونوا على بينة ومعرفة بما لهم وما عليهم، فلذلك كان يغتنم الفرص لتحقيق هذه الغاية، ومن ذلك قوله بعد أن حمد الله وأثنى عليه[1]:

(يا أيها الناس، إني قد وُلِّيت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم، ما تولّيت ذلك منكم، ولكفى عمر مُهِمّاً محزناً انتظارُ موافقة الحساب، بأخذ حقوقكم، كيف آخذها؟ ووضْعِها، أين أضعُها؟ وبالسير فيكم، كيف أسير؟ فربي المستعان، فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة، إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده).

● و ـ خطبة أخرى:

وخطب[2] أيضاً في مثل هذا المعنى، ودعا الناس إلى مكاشفته بما يكون عنده، وأمرهم بتقوى الله، والتزام الحق قبل أن يحملهم عليه، فإنه ليس بينه وبين أحد من الناس هوادة فيه، ووعدهم بأن يلي ما حضره من أمورهم بنفسه، وبكل ما غاب عنه للأمناء الأكفياء: (إن الله عز وجل قد ولّاني أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده، كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمرني به، وإني امرؤ مسلم، وعبد ضعيف، إلّا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم: إن عمر تغيَّر منذ ولي، أعقِل الحق من نفسي، وأتقدم وأبيّن لكم أمري، فأيَّما رجل كانت له حاجة، أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق، فليؤذِنِّي، فإنَّما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم

---

(١) الطبري ٥: ٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦.

وأعراضكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحْمِل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليَّ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إليَّ صلاحكم، عزيزٌ عليَّ عنتُكم، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله، لا أكِلُه إلى أحد، ولا أستطيع ما بعُد منه إلاَّ بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله).

● ز ـ خطبة أخرى:

وقال أيضاً[1] يذكر بنعمة الله على العرب بالإسلام بعد ضلالة، وتوحيدهم به بعد فرقة، وأن ذلك يستدعي شكر النعمة بالابتعاد عن المعاصي والحرص على الطاعة:

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه ﷺ فهدانا به من الضلالة، وجمعنا من الشتات، وألف بين قلوبنا، ونصرنا على عدونا، ومكن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين، فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها، والشكر عليها، فإن الله قد صدقكم بالوعد بالنصر على من خالفَكم، وإياكم والعمل بالمعاصي وكفر النعمة، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلاَّ سُلِبوا عزهم، وسلِّط عليهم عدوهم.

أيها الناس: إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة، وجمع كلمتها، وأظهر فلْجَها، ونصرها وشرفها، فاحمدوه عباد الله على نعمه، واشكروه على آلائه، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين).

● ح ـ خطبة أخرى:

وقال[2] يدل الناس على طرق العلم والمعرفة، ويبين لهم كيف يقسم

(١) العقد الفريد ٤ : ١٣٠.

(٢) المرجع السابق ٤ : ١٢٩.

المال في الرعية، والأسس التي يقوم عليها العطاء:

(أيها الناس: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني خازناً وقاسماً، إني بادىء بأزواج رسول الله ﷺ فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم: أنا وأصحابي، ثم بالأنصار الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلومن رجل إلَّا مُناخ راحلته. إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي، فابتُليت بكم وابتليتم بي، وإني لن يحضرني من أموركم شيء فأكِلَه إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكّلنّ بهم).

● ط ـ خطبته عام الرمادة:

وكان عام الرمادة عاماً عصيباً على المسلمين، عم فيه الجدب وكثرت المجاعات، فأقبل عمر بالمسلمين يستغفر ويستسقي، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال[1]:

(أيها الناس: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إنَّا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً﴾. فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عمه، اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً، اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة، ولا تدَعُ الكسيرة بمضيعة، اللهم قد ضرَع الصغير، ورقّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أغثهم بغياثك قبل أن

(١) المرجع السابق ٤: ١٣١.

يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من رَوْح الله إلَّا القوم الكافرون).

فلما برحوا حتى أمطرت السماء وقلصوا المآزر، وطفق الناس يقولون للعباس: هنيئاً يا ساقي الحرمين.

* * *

ومن وصاياه:

أ ـ كان يقول لجنده عند عقد اللواء وتوجيههم[1]:

(بسم الله وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلَّا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثّلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور[2]، ولا تقتلوا هرِماً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقَّوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شنّ الغارات).

ب ـ وقال[3] يحثّ الناس على طلب الرزق ويوصيهم بنبذ الكسل:

(لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض، فإذا قُضِيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلَّكم تفلحون).

* * *

ومن رسائله:

○ أ ـ كتب إلى معاوية في القضاء[4]:

(إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة،

---

(١) العقد ١: ٤٠.

(٢) الظهور: النصرة والغلبة.

(٣) المرجع السابق ٢: ٣٠٥.

(٤) المرجع السابق ١: ٦٢.

وإدناء الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسطَ لسانه، وتعاهدِ الغريب، فإنك إن لم تتعاهده سقط حقه، ورجَع إلى أهله، وإنما ضيَّع حقه من لم يرفق به، وآسِ بين الناس في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس، ما لم يتبين لك فصل القضاء).

وهي رسالة شديدة الشبه برسالته التي وجهها إلى أبي موسى الأشعري في الموضوع نفسه حين كان على العراق، وإن كانت تلك أوعب وأكثر تفصيلاً.

● **ب - وهذا توجيه آخر كتبه[1] إلى أبي موسى يوجهه فيه إلى أساليب الحكم الحازمة، والضرب على أيدي أصحاب الفتن والداعين إلى الجاهلية:**

(أما بعد: فإن الناس نُفْرة عن سلطانهم، فاحذر أن تدركني وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواء متبعة، ودنيا مُؤْثَرة. أقم الحدود، واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار، وأخِفِ الفساق، واجعلهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً. وإذا كانت بين القبائل نائرةٌ فنادَوْا: يا لفلان.. فإنما تلك نجوى من الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله، وتكونَ دَعَواتُهم إلى الله والإسلام. واستدم النعمة بالشكر، والطاعةَ بالتألف، والمقدرةَ بالعفو، والنصرةَ بالتواضع والمحبةِ لِلناس. وبلغني أن ضبة تنادي: يا لَضبة.. والله ما علمت أن ضبة ساق الله بها خيراً قطّ، ولا صرف بها شراً. فإذا جاءك كتابي هذا فأنْهكهم عقوبة حتى يَفْرَقوا إن لم يفقهوا، وألْصِق بغيلان بن خرشة من بينهم.

وعد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وباشر أمورهم، وافتح بابك لهم، فإنما أنت رجل منه، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً.

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك

---

(١) المرجع السابق ١: ٦٤.

ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلُها، فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة، همُّها في السمن، والسِّمنُ حتفُها، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من يشقى به الناس. والسلام).

● **ج ـ وكتب إلى[1] سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد:**

(أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلاَّ نُنْصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحْيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا، فلن يسلَّط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلِّط عليهم شرٌّ منهم، كما سلِّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله، كفارُ المجوس ﴿فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾. واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفرُ لم يَنقُص قوتَهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكُراع[2].

وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يُجمّون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم. ونحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلَها من أصحابك إلاَّ من تثق بدينه، ولا يرزأ أحداً

---

(١) العقد ١: ٩٢.

(٢) الكراع: الخيل.

من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتُليتم بالوفاء بها، كما ابتلُوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولَّوْهم خيراً، ولا تستبصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أدنى أرض العدوّ فأَذْكِ العيونَ بينك وبينهم، ولا يخْفَ عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإنَّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه. والغاش عين عليك ليس عيناً لك.

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنعه بك.

ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتحفظ من البيات جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عهد إلاَّ ضربت عنقه لترهب بذلك عدو الله وعدوك.

والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم. والله المستعان).

وهي رسالة تؤكد طبيعة الجندية في عمر والصفات الحربية المتأصلة فيه، وهي كغيرها من رسائل عمر وخطبه وعهوده ووصاياه وعامة أقواله وتصرفاته، تؤكد شخصيته الفريدة المتميزة بجميع أحوالها وخصائصها، فهو

الرجل المؤمن الفارس الشجاع، العادل الرحيم، الفطن الغيور، والإداري الحازم، والمحارب العالم بأساليب الحروب، والقاضي الذكي الأريب، ثم هو بعد ذلك الأديب ذو الذوق السليم والفهم القويم والناقد الثاقب النظرات والعبقري الذي تخرج من مدرسة محمد بن عبدالله.

علي بن أبي طالب

حياته:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، فهو ابن عم الرسول ﷺ، لم يسجد في حياته لصنم قط، لأنه دخل الإسلام وهو طفل في العاشرة من عمره، فهو أول من أسلم من الصبيان، كما كان أبو بكر أول من آمن من الرجال. ذلك أنه أصابت قريش أزمة شديدة، فأخذه الرسول من والده أبي طالب، فكان في بيته ينفق عليه ويشرف على تربيته، فلما بُعث نبياً آمن به[1]، ولم يكن لديه ما يمنعه من اتباعه، لثقته فيه من جهة، ولأنه لا عهد له بالشرك من جهة أخرى.

وكان علي أول هاشمي لأبوين هاشميين، وورث لهذه الميزة جملةً من الصفات الفاضلة.

وكان حسن الوجه وثيق البنية، مضروباً بشجاعته الأمثال، ما صارع أحداً إلَّا صرعه، وما بارز شخصاً إلَّا قتله ولو كان من أبطال العرب المعدودين، كعمرو بن عبد ود، الذي بارزه يوم الخندق وقتله. وبات في فراش النبي ليلة الهجرة وهو شاب لم يتجاوز العشرين إلَّا بقليل، مع علمه بما عسى أن يصيبه بهذا المبيت، فقد كانت قريش تنوي قتل النبي ﷺ في فراشه، ولكن يد الله كانت فوق كيدهم فهاجر الرسول ولم يصب علي بسوء.

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٢٤٦.

وحضر كل غزاة مع الرسول ﷺ غير تبوك، لأنه كان استخلفه على أهله بالمدينة، فكان للمسلمين أماناً من الخوف، وعلى المشركين رعباً مسلَّطاً، وحمل لواء المسلمين في بدر، وأُحد، والخندق، وبني قريظة، وفتح مكة، وخيبر، وعلاوة على ذلك كان ممن يبدؤون الحرب قبل المناجزة، فيخرج على عادة العرب للمبارزة، فيجندل خصمه ويعود سالماً إلى صفوف المسلمين. وفي بدر وأُحد والخندق وبني المصطلق بالذات قتل من أئمة الكفر عدداً كبيراً، وكان من المستميتين في الدفاع عن الرسول يوم أُحد يوم انكشف كثير من المسلمين. وكان أيضاً من الصحابة الفدائيين الذين يدفع بهم النبي لاستطلاع أحوال الأعداء قبل اللقاء.

وكان لثقته بنفسه لا يهزه كلام المادحين، ولذلك أجاب أحدهم بقوله: (أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك)، وربما كانت هذه الثقة بنفسه وبشجاعته سبباً في انهزامه أمام معاوية، فقد كان يكره خُدَع الحرب مع معرفته لها، ولا يصانع حتى في ساعات الشدة، في الوقت الذي كان معاوية يسلك في جميع ذلك كلَّ مسلك.

وكانت الفروسية من أبرز صفاته، وفيه كل خصائصها، من صراحة ومروءة ونخوة وحزم وصرامة رأي وخشونة في الحق.

ومن تمام مروءته أنه لم يكن يقاتل أعداءه يوم الجمل وصفين وفي قتاله مع الخوارج، إلَّا بعد التذكير بالمودات والحرمات، فإذا انقضى القتال سلم صدره من كل ضغينة ولم يتعرض لأحد بمسبة أو نقص. وكان يأمر أصحابه بأن لا يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو ينهبوا مالاً، وصلى في وقعة الجمل على قتلاه وقتلى أعدائه، وحال رجال معاوية بينه وبين الماء في صفين، فلما أجلاهم عنه تركهم يشربون[1]، وجلد من نال من عائشة بعد وقعة الجمل وأعزها، وردَّها مكرمة إلى مكة.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٥٥.

ووقف من عثمان في محنته موقفاً لم يقفه أولئك الذين قاموا بعد موته يطالبونه بدمه كطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص، فكان يخذّل الثائرين ويصدهم، ويعود إلى عثمان مرة بعد مرة بنصح الشفيق ورأي الخبير[1].

ومن صفات الفرسان الميلُ إلى المرح والدعابة، وقد كان علي كذلك مع الاحتفاظ بالوقار.

وعرف فيه النبي الحكمةَ وحسن التصرف، فكان ينتدبه لمعالجة بعض الأمور، فأرسله ليصلح خطأ خالد بن الوليد حين قتل بني جذيمة، دون أن يرسله الرسول لقتالهم، وتركه وراءه بمكة حين هاجر، ليؤدي عنه الحقوق والودائع.

ومن حكمته أن عمه العباس حين اشتدَّ المرض برسول الله وتوقع موته قال له: انطلق بنا يا علي إلى رسول الله ﷺ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرنـاه فأوصى بنا الناس، فقال له: إني والله لا أفعل، والله لئن منعَناه لا يؤتيناه أحد بعده[2].

وكان الرسول يخصه بمحبة ظاهرة، ولذلك زوجه ابنته فاطمة، وعندما عقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أول الهجرة أخذ بيد علي فقال: هذا أخي.

وكان يسره أن يكون موضع حب الناس، ويسوؤه أن يرى فيهم شاكياً منه، واستخلفه على أهله حين خرج إلى تبوك وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلاَّ استثقالاً له، وتخففاً منه، فلما قال ذلك المنافقون، أخذ سلاحه وخرج حتى أتى الرسول وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: (كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك،

---

(١) المرجع السابق ٧: ١٦٨ ـ ١٧٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٣٢٠.

أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي[1]).

وبعثه بسورة براءة في موسم الحج، وأبو بكر أمير الحج، وقال: (لا يؤديها عني إلاَّ رجل من أهل بيتي. وبعثه إلى أهل نجران يجمع صدقاتهم، وأرسله لغزو بني عبدالله بن سعد من أهل فدك. وقال فيه: (أيها الناس، لا تشكو علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله من أن يُشكَى[2]).

وكان أيضاً محل ثقة الخلفاء الراشدين، وصاحب المنزلة لديهم، يرجعون إليه في كثير من الشؤون، ويستفتونه في كثير من المشكلات والقضايا، فأعانهم بعلمه ورأيه، ووقفوا عند حكمه وفتواه، ومع ذلك فقد كان يرى أنه أولى منهم بالخلافة، ولذلك تأخر في بيعة أبي بكر بعض التأخر، ومما يدل على هذا الإحساس في نفسه قوله: (إن المهاجرين قد احتجوا على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ففَلَجوا عليهم، فإن يكن الفلَج به فالحق لنا دونهم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم). وقال: (ثم استخلف الناس أبا بكر رضي الله عنه، واستخلف أبو بكر عمر رضي الله عنه، فأحسنا السيرة، وعدلا في الأمة، وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا، ونحن آل رسول الله ﷺ، فغفرنا ذلك لهما[3])، وكان لهذا الموقف وغيره من صفات علي آثار بعيدة في حياته وحياة المسلمين، وأحيطت شخصيته بالأنصار المغالين، والأعداء المتطرفين، غلا في حبه وتعظيمه أقوام إلى حد الكفر كالروافض، وبالغ في بغضه واتهامه أقوام إلى حد التكفير، كالخوارج، حتى أدَّى بهم هذا البغض إلى التقرب بدمه إلى الله في زعمهم. وكان المذهب الوسط فيه هو مذهب أهل السنة والجماعة، يحبونه ويؤمنون بخلافته وأنه من المبشرين بالجنة، كما يحتفظون للخلفاء من قبله بفضلهم ومكانتهم رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) المرجع السابق ٢: ٥٢٠.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٤٥.

(٣) الطبري ٦: ٤.

ولعلَّ من سوء حظ علي أنه تولى الخلافة بعد عثمان الذي أورثه عصراً قلقاً وأمة قتلت خليفتها، فلم يعد في نفوس أهلها توقير للخلافة والخليفة كما كان الحال في عهد الشيخين، وإذا كان عمر قد حرص على استبقاء الصحابة ولا سيما ذوي الأسبقيات منهم، في المدينة، فإنهم في عهد عثمان انطلقوا في كل صوب، واجتمع حول بعضهم الناس، وكان معاوية قد مكن لنفسه في الشام، ومكة والمدينة تتنافسان، والكوفة تترقب، وقبائل البادية تنفَس على قريش مكانتها الدينية والدنيوية، والعبيد والموالي من الناقمين على عثمان.

وكان معاوية ألد الخصوم الذين واجههم علي، وشاء الله أن تدور بينهما حروب طويلة استنفدت كثيراً من مقدرات الأمة، وعرضتها لنكسة ماحقة، ولولا الرعب الذي تركته الفتوحات السابقة لهذا العهد في قلوب أعداء الدولة الإسلامية وانسحاق الفرس والروم لوقع شر مستطير.

وقد كان علي في هذه المعركة يخوض الحق ليصل إلى الحق، وكان معاوية حسب تعبيره يخوض بعضاً من الباطل ليصل إلى الحق، وهي (ميكافيلية) لا يرتضيها خلق عليّ ولا يقبلها الإسلام، وفي الوقت الذي كان قوام جيش علي من القراء والحفاظ والعبّاد وأهل الفقه، لا يُصغون إليه ولا يأتمرون بأمره بقدر ما يصغون إلى ما يمليه عليهم اقتناعهم وفهمهم للأمور من خلال النصوص والأحداث، كان جيش معاوية من أهل الدنيا الطامعين في مغانمها دون التفكير كثيراً في الحلال والحرام، وكان معاوية حريصاً على إرضائهم وتلبية رغبات ذوي الأقدار منهم، وهم لا يسألونه عما يفعل، ويطيعونه طاعة عمياء، ويصور المسعودي موقفه وموقف أنصاره فيقول[1]: (وبلغ من إحكامه السياسة وإتقانه لها، واجتذابه قلوب خواصه وعوامه، أن رجلاً من أهل الكوفة دخل دمشق على بعير له، في حال منصرفهم عن صِفين، فتعلَّق به رجل من دمشق، فقال: هذه ناقتي أُخِذت مني بصفين، وارتفع أمرهما إلى معاوية، فأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة، يشهدون أنها

---

(١) مروج الذهب ٢: ٢٠٥.

ناقته... فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليمها إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله. إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى. ودسّ إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعفه، وبرَّه، وأحسن إليه، وقال له: أبلغ علياً أني أقابله بمائة ألف، ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل).

بالإضافة إلى ذلك فإن الحرب في حقيقتها لم تكن بين علي ومعاوية بقدر ما هي حرب بين الخلافة الدينية والدولة الدنيوية، فكأنَّ علياً بخلقه ودينه ومثالياته جاء متأخراً بعض الشيء عن زمنه، فكان عمريَّ المذهب في زمن سيطرت عليه روح معاوية التي لا تدقق في الوسائل إلَّا بمقدار كونها مطية للغايات بغض النظر عن أي اعتبار آخر.

ورث علي أمة منقسمة تعيش تدافعاً وثورة وهياجاً، وتتطلب السيطرة عليها كثيراً من المكر والدهاء، والخداع والمخاتلة، والبطش والفتك، والغدر والرشوة وكل أولئك مما يأباه خلق علي وترفضه استقامته، فإنه لم يكن لعلي خلق شخصي وآخر سياسي، وإنما هو خلق واحد مستقيم، ومبادىء لا يحيد عنها أبداً ولا يميل، وهو في عرف السياسة عيب، وعند السياسيين نقص كبير.

وقد كان علي نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة، ونعم الملك لو أقبل على ملك موطد الأركان، يكون معه في غنى عن المداهنة والمساومة والإسفاف والخداع والفتك وإهدار الدماء.

ووازن هو بينه وبين معاوية فقال: (والله ما معاوية بأدهى مني، ولولا كراهة الغدر لكنت من أدهى الناس).

فصاحته وبلاغته وعلمه:

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد... يزعم الناس أنك تبغض علياً؟ فبكى الحسن حتى اخضلت لحيته، وقال: أنا أبغض علياً؟.! ثم قال: كان

سهماً صائباً من مرامي الله عز وجل على عدوه، ورباني هذه الأمة، وذا فضلِها وسابقتها، وذا قرابة قريبة من رسول الله، وزوج فاطمة الزهراء، وأبا الحسن والحسين، لم يكن بالسروقة لمال الله، ولا بالنئومة في أمر الله، ولا بالملولة لحق الله، أعطى القرآن عزائمه، وعلم ما فيه وما عليه، حتى قبضه الله إليه، ففاز منه برياض مونقة، وأعلام مشرقة، أتدري من ذاك؟ علي بن أبي طالب يا لُكَع[1]).

● وقد كان علي بالفعل ذا علم واسع ومواهب عقلية فائقة، وبصيرة نافذة وإدراكٍ ثاقبٍ لمقاصد القرآن وكلام النبوة، مما جعل الخلفاء من قبله يرجعون إليه في كثير من القضايا، فيأخذون بفتواه، ويرجحون فقهه وفهمه، وجاءت خطبه زاخرة بهذا العلم والمواعظ الحسان التي تدل على وعي كامل بحقائق الإسلام وفهم لمراد الله ورسوله.

وكان إلى جانب هذه المعرفة العالية والعقلية المتفتحة صاحب فصاحة وبلاغة، إيجازاً وإطناباً، وحقيقة ومجازاً، وقلماً ولساناً. وقد سئل عبد الحميد الكاتب: ما الذي خرجك في البلاغة؟ فقال: حفظ كلام الأصلع. يعني عليّاً[2].

وقد جمع الشريف الرضي من كلامه رضي الله عنه ديواناً سماه (نهج البلاغة) ثم تصدى لشرحه بعض المشتغلين بالأدب كابن أبي الحديد من القدماء، والشيخ محمد عبده، في العصر الحديث، ومع ذلك فإن أكثر الباحثين نبهوا إلى أن أغلب ما فيه موضوع ومصنوع، وليس من هدفنا هنا الخوض في هذه القضية، فإن العقاد في (عبقرية الإمام)، وطه حسين في (الفتنة الكبرى) وأحمد أمين في (فجر الإسلام) كفونا مؤونة ذلك. ولكننا نقول: إن الذي يبقى من هذا الكتاب بعد تصفيته وحذف ما يقوم عليه

(١) ذيل الأمالي والنوادر للقالي ص ٩٨ والعقد الفريد ٣: ٩٥ الاستقامة ١٩٤٠ م دار الكتب ١٩٢٦ م.

(٢) نهج البلاغة ـ جمع الشريف الرضي ١: ٥١٤ القاهرة ١٣٢٨ هـ.

الخلاف منه، يشهد لعلي بالمكانة العالية في دنيا الفصاحة والبلاغة ويرفعه قمة شامخة بين البلغاء في الجاهلية والإسلام، فهو ربيب النبي وتلميذه الروحي وخريج مدرسة القرآن.

نماذج من خطبه:

○ أ ـ خطبته في رثاء أبي بكر:

ارتجت المدينة يوم قُبض أبو بكر بالبكاء كيوم قُبض النبي ﷺ، وجاء علي باكياً مسترجعاً، وهو يقول: (اليوم انقطعت خلافة النبوة)، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال[1]: (رحمك الله أبا بكر، إلفَ رسول الله ﷺ وأنسَه، وثقته وموضعَ سره، كنت أول القوم إسلاماً، وأخلَصهم إيماناً وأشدهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم غَناءاً في دين الله، وأحوطهم على رسول الله، وأثبتهم على الإسلام، وأيمَنهم على أصحابه، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله ﷺ سنَنًا وهدياً، ورحمةً وفضلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده.

فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر.

صدَّقت رسول الله ﷺ حين كذَّبه الناس، فسماك في تنزيله صدِّيقاً، فقال: ﴿والذي جاء بالصدق وصدَّق به[2]﴾.

واسَيْته حين بخلوا، وقمت معه عند المكاره حين قعدوا، وصحِبْته في الشدائد أكرم الصحبة، ثاني اثنين وصاحبه في الغار، والمنزَّل عليه السكينة والوقار، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة

---

(١) إعجاز القرآن ١٤٣ ـ ١٤٥.

(٢) الزمر: ٣٣.

حين ارتد الناس، فنهضت حين وهَن أصحابك، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضَعُفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعْتعوا[١]، مضيت بنور إذ وقَفُوا، واتّبعوك فهُدُوا.

وكنتَ أصوبهم منطقاً، وأطولهم، وأبلغهم قولاً، وأكثرهم رأياً، وأشجعهم نفساً، وأعرفهم بالأمور، وأشرفهم عملاً.

كنت للدين يعسوباً[٢]، أولاً: حين نفر عنه الناس، وآخِراً: حين قفلوا، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً، إذ صاروا عليك عيالاً، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه، ورعيت ما أهملوا، وحفظت ما أضاعوا، شمرت إذ خنعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ جزعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا.

وكنت كما قال رسول الله ﷺ، أمنَّ الناس عليه في صحبتك وذات يدك، وكنت كما قال، ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم.

لم يكن لأحد فيك مغمزٌ، ولا لأحد مطمع، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز، حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس إليك أطوعهم لله.

شأنك الحق والصدق والرفق، وقولك حكم وحَتْم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، فأبلغتَ وقد نهج السبيل، وسهُل العسير وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين، وقوي الإيمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت بالخير فوزاً عظيماً فجلَلْت

---

(١) التعتعة: في الكلام، أن يعيا بكلامه ويتردد من حصر أو عي، ومنه الحديث: (الذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه) أي يتردد في قراءته ويتبلد فيها لسانه.

(٢) اليعسوب: السيد والرئيس والمقدم، وأصله أمير النحل وذكَرُها.

عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدت مصيبتُك الأيام، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً، فألحقك الله بنبيه، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلّنا بعدك.

وسكت الناس حتى انقضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم).

تعتبر هذه الخطبة مثالاً لنوع من الخطب قائم بذاته، هي خطب الرثاء والتأبين، فقد ذكر علي هنا جملة من مناقب أبي بكر وفضائله، التي استحق بها في قلوب الناس الحب والمكانة التي لا تطال، والتي جعلتهم يحسون بعظم المصاب بفقده، ودفعتهم إلى البكاء عليه، وهي تشهد من ناحية أخرى بإخلاص علي رضي الله عنه للصديق، ووفائه للدين الذي جمعهم الله عليه وصنع منهم حماته، ونلاحظ أنه لم ينههم عن البكاء، لأن المصيبة كانت أكبر من ذلك، فليسترسل الناس في البكاء ما أسعفتهم الدموع.

● **ب ـ أولى خطبه في خلافته: قال بعد[1] أن حمد الله وأثنى عليه:**

(إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بيَّن فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرَّم حُرَماً مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحُرَم كلِّها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين. والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، إلاَّ بالحق. لا يحل لمسلم أذى مسلم إلاَّ بما يجب. بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة، تَحْدو بكم، فتخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم. اتقوا الله ـ عباده ـ في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات).

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٢٦.

هذه الخطبة سائرة في سَنن الخطابة الإسلامية، فهي تأخذ بدايتها، وتتوشح بالحديث كقوله: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، وبالقرآن، كقوله: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل... إلخ﴾، وهي متناسبة مع الظروف التي قيلت فيها، إذ الجمهور الذي حضرها إما ممتعض كاره لما حل بالخليفة عثمان وبالعاصمة الإسلامية من مذلة وامتهان، وإما من هؤلاء الرعاع وأوشاب البلاد الذين اجتمعوا على الغي، حاملين سيوفهم يدوسون الحرمات ويستخفون بالخلفاء، فكان عليه أن يدعوهم إلى الخير ويزجرهم عن الشر، ويذكرهم بمعنى الإسلام وحدود المسلم التي من أهمها كف الأذى، ويحثهم على التقوى والطاعة وبأنهم مسؤولون عن كل شيء أمام الله، ولم يكن في إمكانه أن يشرح خطته ومنهجه في حُكمهم وسياستهم كما فعل الشيخان في أول خطبة لهما، فإن ذلك يكون في ظروف أكثر استقراراً وبين أناس أكثر طاعة وأقوم سبيلاً.

● **ج - خطبه في موقعة الجمل:**

وأرسل يستنفر أهل الكوفة لحرب الجمل، فأقبلوا إليه مع ابنه الحسن، فقام فيهم خطيباً[1]:

(الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وآخر المرسلين.

أما بعد: فإن الله بعث محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الثقلين كافة، والناس في اختلاف، والعرب بشر المنازل، مستضيئون للثاءات بعضهم على بعض، فرأب الله به الثأي[2]، ولأم به الصدع، ورتق به الفتق، وأمن به السبل، وحقن به الدماء، وقطع به العداوة الواغرة للقلوب، والضغائن المخشنة للصدور، ثم قبضه الله عز وجل مشكوراً سعيه، مرضياً عمله،

(١) العقد الفريد ٤: ١٣٨.

(٢) الثأي: الخرم والضعف.

مغفوراً ذنبه، كريماً عند ربه نزُله، فيا لها مصيبة عمت المسلمين، وخصت الأقربين، وولي أبو بكر فسار بسيرة رضيها المسلمون، ثم ولي عمر، فسار بسيرة أبي بكر، رضي الله عنهما، ثم ولي عثمان فنال منكم ونلتم منه، حتى إذا كان من أمره ما كان أتيتموه فقتلتموه، ثم أتيتموني فقلتم لي: بايعنا، فقلت لكم: لا أفعل.. وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتم كفي فجذبتموها، وقلتم: لا نرضى إلا بك، ولا نجتمع إلَّا عليك، وتداككتم عليَّ تداكُكَ الإبلِ الهِيم على حياضها يوم ورودها، حتى ظننت أنكم قاتليّ، وأن بعضكم قاتلُ بعضٍ، فبايعتموني، وبايعني طلحة والزبير، ثم ما لبثا أن استأذناني للعمرة، فسارا إلى البصرة فقتلا بها المسلمين وفعلا الأفاعيل، وهما يعلمان والله إني لست بدون واحد ممن مضى، ولو أشاء أن أقول لقلت: اللهم إنهما قطعا قرابتي، ونكثا بيعتي، وألّبا عليَّ عدوي، اللهم فلا تحكم لهما ما أبرما، وأرِهما المساءة فيما عملا وأملا).

وهي خطبة سياسية تكشف عن تلك المواقف المتصارعة التي أخذت طريقها إلى جسم الأمة وكيف كانت إسهامات الأقاليم في تحريك الأحداث وتعيين الخليفة، وبدء انحسار الأهمية السياسية للمدينة المنورة.

● د ـ من خطبه الأولى في صفين:

وكما قلنا في صفاته، كان متسامحاً مع أعدائه ينظر إليهم أنهم جهلة وضالون، ويطلب لهم الهداية، ولا يجيز لنفسه أو لأنصاره شتمهم أو لعنهم، جاءه وهو بصفين أن قوماً من أصحابه، فيهم حُجْر بن عدي، وعمرو بن الحَمِق، يعلنون البراءة من أهل الشام، فأرسل إليهم: أن كفوا عما يبلغني عنكم، فجاؤوا فقالوا: يا أمير المؤمنين. ألسنا محقين؟ قال: بلى. قالوا: أو ليسوا مبطلين؟ قال: بلى. قالوا: فلم تمنعنا من شتمهم؟ فخطبهم قائلاً[1]:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٧٨ مطبعة الحلبي.

(كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين، تشتمون وتبرؤون، ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم، فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان لعنكم إياهم، وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءهم ودماءنا، وأصلح بينهم وبيننا، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق منهم من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان منهم من لهج به، لكان أحب إلي، وخيراً لكم).

فقالوا: يا أمير المؤمنين، نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك.

● **هـ ـ خطبة أخرى:**

وحين رأى أن لا مناص من مقاتلة أهل الشام دعا الناس إلى الجهاد، وبيَّن ضلال معاوية وإغواءه أتباعه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[1]:

(إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجَّزوا موعوده، واعلموا أن الله جعل أمراس الإسلام متينة، وعراه وثيقه، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس ورضا الرب، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة، وقد حملت أمر أَسْودها وأحمرها، ولا قوة إلَّا بالله..

ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه، وتناول ما ليس له، وما لا يدركه: معاوية وجنده، الفئة الطاغية الباغية، يقودهم إبليس، ويَبْرُق لهم ببارق تسويفه، ويُدلِّيهم[2] بغروره، وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سُلب دينُه وأمانته، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى، فلا أعرِفن أحداً منكم تقاعس عني، وقال: في غيري كفاية، فإن الذود إلى الذود إبل[3]، ومن لا يذد عن حوضه يتهدم.

(١) المرجع السابق.

(٢) يدليهم: يحطهم عن منزلتهم.

(٣) الذود: الجماعة من الإبل، اختلفوا في عددها، وهو مثَلٌ معناه: القليل إلى القليل كثير.

ثم إني آمركم بالشدة في الأمر، والجهاد في سبيل الله، وأن لا تغتابوا مسلماً، وانتظروا النصر العاجل من الله، إن شاء الله).

ونلاحظ أنه ذكَّرهم بالخلق والدين، وبواجب الطاعة، لأنه ولي أمر الأمة قاطبة، ثم هوّن من شأن معاوية وعصابته، ووصفهم بالبغي والعدوان، وأيأس من وصولهم إلى مآربهم، ونهى أصحابه عن التواكل، فإن القليل إلى القليل كثير.

وقد اعتمد على الاقتباس من القرآن، في مثل قوله: (من سفه نفسه)، (ويدلّيهم بغرور)، والأخذ من الشعر والأمثال كما في الفقرات الأخيرة.

● و ـ خطبة أخرى:

واستعرت الحرب في صفين، فقام في أحد أيام تلك الحرب يخطبهم فقال[1]:

(معاشر المسلمين استشعروا الخشية، وتجلببوا السكينة، وعضّوا على النواجذ، فإنه أنْبَى للسيوف عن الهام، وأكملوا اللأمة، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلها والْحظوا الخَزْر[2]، واطعنوا الشَّزر[3]، ونافحوا بالظُّبا، وصلوا السيوف بالخطا، واعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله ﷺ، فعاودوا الكر، واستحْيوا من الفر، فإنه عارٌ في الأعقاب، ونار يوم الحساب، وعليكم بهذا السواد الأعظم[4]، والرواق المطَنَّب[5]، فاضربوا ثبجَه[6]، فإن الشيطان كامن في كِسْرِه[7]، قد قدَّم للوثبة يداً، وأخر

---

(١) نهج البلاغة ١: ٥٧.
(٢) الخزر: النظر في جانب، وهو عند الغضب.
(٣) الشزر: الطعن يميناً وشمالاً.
(٤) السواد الأعظم: العدد الكثير، يعني جمهور أهل الشام.
(٥) الرواق المطنب: السرادق والخيمة المشدودة بالحبال.
(٦) الثبج: الوسط.
(٧) كسر: جانبه.

للنكوص رجلاً، فصمْدا صمْداً، حتى ينجلي لكم عمود الحق، وأنتم الأعلون، والله معكم، ولن يتركم أعمالكم).

هذه خطبة حربية، ولذلك جاءت كلماتها فخمة جزلة قوية، لها قعقعة السلاح وجلبة الخيل، ووقع الرماح (عضوا على النواجذ - الحظوا الخزر - اطعنوا الشزر - عاودوا الكر - استحيوا من الفر. . . إلخ)، وزاد أسلوبها قوة وشدة وقع ما فيها من استعارات وتخييل: (صلوا السيوف بالخطا - إن الشيطان كامن في كِسْرِه - قدم للوثبة يداً - أخر للنكوص رجلاً. . إلخ).

● ز - خطبته بعد التحكيم:

واضطر علي بعد ذلك إلى قبول التحكيم، وخُدِع أبو موسى الأشعري عن رأيه - كما هو مذكور في كتب التاريخ - فانقلب علي إلى أصحابه حزيناً لائماً، ووقف فيهم خطيباً فقال[1] والأسف يعصر نفسه:

(الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحادث الجلل، وأشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده، لا شريك له، ليس معه إلّه غيره، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله.

أما بعد: فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة، وتُعْقِب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر[2]، فأبيتم علي إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضن الزند بقدحه، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن[3]:

أمــرتهمُ أمــري بمنعــرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

(١) الطبري ٦: ٤٣ الرحمانية.

(٢) قصير: مولى جذيمة الأبرش، وكان قد نصحه أن لا يأمن الزباء ملكة تدمر، فخالفه فقتلته، فقال قصير هذه الجملة فذهبت مثلاً.

(٣) أخو هوازن: دريد بن الصمة.

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل منهما هواه، بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بينة، ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام).

● ح ـ خطبته في الخوارج بالنهروان:

لجأ الخوارج إلى النهروان[1]، وأحدثوا فيها الفساد، فسار إليهم عليٌّ وخطبهم فقال[2]:

(أيتها العصابة التي أخرجتها عداوةُ المِراء واللجاجة، وصدها عن الحق الهوى، وطمع بها النزق، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم، إني نذير لكم أن تصبحوا تُلفيكم الأمة صرعى بأثناء هذا النهر، وبأَهْضام هذا الغائط[3]، على غير بينة من ربكم، ولا سلطان مبين معكم، وقد طوحت بكم الدار واحتبلكم المقدار. . .[4]).

وهي خطبة في غاية التهديد والوعيد لهذه الفئة التي تمردت عليه سياسياً، وخرجت عن الأمة دينياً ورمته ومن معه بالكفر، ودفعها ضلالها آخر الأمر إلى قتله على يد ابن ملجم، وكعادته لا يبدأ أعداءه بشر تحرجاً وتأثماً من دماء المسلمين، نراه ينذرهم ويتوعدهم علَّهم يرجعون ويثوبون إلى الحق، واستعان بالازدواج والسجع على التهويل والترهيب، واقتبس من القرآن قوله تعالى: ﴿على بينة من ربكم﴾ وقوله: ﴿سلطان مبين﴾، وكثيراً ما كان رضي الله عند يأخذ من القرآن.

ولا نريد أن نسترسل في إيراد النماذج، فخطب علي من الكثرة بمكان،

---

(١) النهروان: قرية قرب بغداد.

(٢) الطبري ٦: ٤٧ الرحمانية.

(٣) أهضام: جمع هضم، وهو المنخفض من الأرض. والغائط: المنخفض الواسع من الأرض.

(٤) احتبله: أوقعه في الحبالة.

وكلها تؤكد له الإمامة في البلاغة، والريادة في الخطابة، وأنه كان أفصح الناس بعد رسول الله ﷺ، جمع في خطبه بين جمال اللفظ وشرف المعنى، والحكمة البالغة، والفكر المنظم، وأضاف إلى جزالة البداوة صقل الحضارة، وإلى عبقرية العقل نفحة الروح، وكان في جميعها شديد الاحتذاء بأسلوب القرآن. ولقد تمثلت فيها الروح الدينية والسياسية والحربية، فلم تضطرب الموازين بين يديه، بل كان عنده لكل مقام مقال. ولكل حادث حديث.

* * *

ومن رسائله:

○ أ ـ كتب إلى ولده الحسن[1]:

(من علي أمير المؤمنين الوالد الفان، المقِر للزمان، المستسلم للحدثان، المدبْر العمر، المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، ورهينة الأيام، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وأسير المنايا، وقرين الرزايا، وصريع الشهوات، ونُصب الآفات، وخليفة الأموات.

أما بعد: يا بُنَيَّ، فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني، وإقبال الآخرة علي، وجُموح الدهر علي، ما يرغّبني عن ذكر سِوائي، والاهتمام بما ورائي، غير أنه حيث تفرد بي همُّ نفسي ودون همٍّ الناس، فصدَقني رأيي، وصرفني عن هواي، وصرح بي محض أمري، فأفضى بي إلى جد لا يزري به لعب، وصدق لا يشوبه كذب، ووجدتك يا بُني بعضي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك لأصابني، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني. فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني من أمر نفسي.

كتبت إليك كتابي هذا يا بني مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنِيت، فإني موصيك بتقوى الله، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، فإن الله تعالى يقول: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾، وأي

(١) العقد الفريد ٣: ٩٠.

سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى إن أنت أخذت به، أحيِ قلبك بالموعظة، ونوّره بالحكمة، وأمِته بالزهد، وذلله بالموت، وقوه بالغنى عن الناس، وحذّره صولة الدهر، وتقلُّب الأيام والليالي، واعرض عليه أخبار الماضين، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر ما فعلوا وأين حلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور، ونزلوا دار الغربة. وكأنك عن قليل يا بني قد صرت كأحدهم، فبع دنياك بآخرتك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والأمر فيما لا تكلّف، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك، وانْه عن المنكر بيدك ولسانك، وباين مَنْ فعله، وخض الغمرات إلى الحق، ولا يأخذك في الله لومةُ لائم، واحفظ وصيتي ولا تذهب عنك صفحاً، فلا خير في علم لا ينفع، واعلم أنه لا غنى لك عن حسن الارتياد مع بلاغك من الزاد، فإن أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به في معادك فاغتنمه، فإن أمامك عقبة كؤوداً لا يجاوزها إلا أخف الناس حملاً، فأجمِل في الطلب، وأحسن المكتسب، فرب طلب قد جر إلى حرب. وإنما المحروب من حُرِب دينه، والمسلوب من سُلِب يقينه، واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة ولا فقر يعدل النار، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

● **ب ـ وكتب إلى ولده محمد بن الحنفية[١]:**

(تفقه في الدين، وعود نفسك الصبر على المكروه، وكِلْ نفسك في أمورك كلِّها إلى الله عز وجل، فإنك تكِلُها إلى كهف حريز، ومانع عزيز، وأخلِص المسألة لربك، فإن بيده العطاء والحرمان، وأكثر الاستخارة له، واعلم أن من كان مطيته الليل والنهار، فإنه يسار به وإن كان لا يسير، فإن الله تعالى قد أبى إلاّ خراب الدنيا وعمارة الآخرة، فإن قدرت أن تزهد فيها زهدك كله فافعل ذلك. وإن كنت غير قابل نصيحتي إياك فاعلم علماً يقيناً أنك لن تبلغ أملك، ولا تعدو أجلك، فإنك في سبيل من كان قبلك، فأكرِم نفسك عن كل دنيّة وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذل من

---

(١) المرجع السابق ٣: ٩١ ـ ٩٢.

نفسك عوضاً، وإياك أن توجف بك مطايا الطمع وتقول: متى ما أُخِّرت نزعت، فإن هذا أهلك من هلك قبلك. وأمسِك عليك لسانك، فإنَّ تلافيك ما فرط من صمتك، أيسرُ عليك من إدراك ما فات من منطقك، واحفظ ما في الوعاء بشدِّ الوكاء، فحسن التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير مع الفساد، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور، والمرء أحفظ لسره، ولربما سعى فيما يضره، وإياك والاتكال على الأماني، فإنها بضائع النَّوْكَى، وتثبِّط عن الآخرة والأولى، ومن خير حظ الدنيا القرين الصالح، فقارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبِن عنهم، ولا يغلبن عليك سوءُ الظن فإنه لن يدع بينك وبينَ خليل صلحاً، أذْكِ قلبك بالأدب كما تذكى النار بالحطب، واعلم أن كفر النعمة لؤم، وصحبة الأحمق شؤم، ومن الكرم منع الحُرَم، ومن حلُم ساد، ومن تفهم ازداد، امحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة. لا تصرِم أخاك على ارتياب، ولا تقطعه دون استعتاب، وليس جزاء من سرَّك أن تسوءه. الرزق: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك.

واعلم يا بني أنه ما لك من دنياك إلَّا ما أصلحت به من مثواك، فأنفق من خيرك، ولا تكن خازناً لغيرك، وإن جزعت على ما يفلت من يديك، فاجزع على ما لم يصل إليك، ربما أخطأ البصير قصده، وأبصر الأعمى رشده، ولم يهلك امرؤ اقتصد، ولم يفتقر من زهد، من ائتمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه، رأس الدين اليقين، وتمام الإخلاص اجتناب المعاصي، وخير المقال ما صدقه الفعال.

سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار، واحمل لصديقك عليك، واقبل عذر من اعتذر إليك، وأخر الشر ما استطعت، فإنك إذا شئت تعجلته، لا يكن أخوك على قطيعتك أقوى منك على صلته، وعلى الإساءة أقوى منك على الإحسان. لا تملكن المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها، فإنَ المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، فإن ذلك أدوم لحالها، وأرخى لبالها،

واغضض بصرها بسترِك، واكففها بحجابك، وأكرم الذين بهم تصول، فإذا تطاولت تطول.

اسأل الله أن يلهمك الشكر والرشد، ويقويك على العمل بكل خير، ويصرف عنك كل محذور برحمته. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته).

● فهاتان رسالتان لا علاقة لهما بتسيير شؤون الدولة، فليستا هما من الرسائل الحكومية أو الديوانية في شيء، بل هما مما اعتادوا أن يسموه بالرسائل الإخوانية، وهذا النوع ألصق بالأدب وأوشج، لعدم خلوه من عنصر العاطفة، ورغم أن هاتين الرسالتين حشرت فيهما مجموعة من النصائح المتوالية في شؤون الدنيا والدين، فإننا نحس بعاطفة الأبوّة بما فيها من حنان وشفقة ودفء تنشر ظلالها على العبارات، وترفرف بأجنحتها خلال الكلمات، وتدلنا الرسالتان من جهة أخرى على أسلوب التربية والتوجيه الذي كان يتعهد به علي رضي الله عنه أبناءه، ويأخذهم به في الكبر كما كان يسهر على تربيتهم وهم صغار، ورغم طول الرسالتين فإن منهج الإيجاز غالب عليهما، إذ تكاد كل جملة فيهما أن تكون موضوعاً تربوياً قائماً بذاته، يحتاج إلى مزيد من الشرح والإبانة.

والحقيقة أن عليًّا في جميع ما أُثِر عنه يمتاز بعمق التفكير وثراء المعاني وحسن التصوير وإشراق العبارة، فهو الخطيب المفوّه الذي لا يشق له غبار، والكاتب الموهوب الذي لا يبارى، والفارس الشجاع الذي تتحاشاه الأبطال فكأن المتنبي تكلّم بلسانه حين قال:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

غير أنَّه زاد على هذه المناقب المذكورة في البيت بالبلاغة والخطابة وفصاحة اللسان وزاد في كل واحدة منها زيادة الشمس على الكواكب، والبحر الغامر على الساقية في كف الرمال.

* * *

الفَصل السَّادِس

النقد الأدبي في صدر الإسلام

- مدخل:

أ - تعريف النقد - النقد في الجاهلية.

ب - في صدر الإسلام



مدخل

يحسن بنا قبل أن نتحدث عن النقد الأدبي في صدر الإسلام، أن نتعرض لنقتطين هامتين، لهما صلة وثيقة بموضوع الحديث، باعتبار أنهما المقدمة الطبيعية له، والأساس الذي ينبني عليه، ونعني بذلك تحديد المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة نقد، ثم التعرف على المحاولات النقدية في العصر الجاهلي، وما نصيب المدينة منها؟.

ومن المعلوم أن العرب عرفوا معاني كثيرة للنقد، ليس من بينها ـ على المرجح ـ المفهوم الفني المعروف به النقد الأدبي بيننا اليوم.

والنقد والتنقاد عندهم بمعنى واحد، ومن تلك المعاني: تمييز الدراهم[1] والدنانير، وإخراج صحيحها من زائفها، أنشد سيبويه:

تَنفي يداها الحصَى في كلّ هاجرةٍ   نفْيَ الدنانير تَنقادُ الصياريف

ومنها: القبض، وفي حديث جابر وجمله قال: فنقدني ثمنه، أي أعطانيه نقداً معجلاً.

ومنها: النقر بالإصبع والضرب به، وفي حديث أبي هريرة: وقد أصبحتم تهذرون الدنيا ـ ونقد بإصبعه ـ أي نقر. وقريب من هذا قوله: نقد الطائر الحب ينقده، إذا كان يلقطه واحداً واحداً.

ومنها: اختلاس النظر بخفاء، قالوا: فلان ينقد الشيء بعينه، أي

(١) لسان العرب، مادة (نقد).

يخالس النظر إليه لئلا يفطن له.

ومنها: الذم والاستهجان، والعيب على الناس واغتيابهم، وفي حديث أبي الدرداء الأنصاري أنه قال: إن نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تركوك أي إن عبتهم واعتبتهم قابلوك بمثله.

ومن هذه المعاني اللغوية، مجتمعة، أو منفردة، نقل العلماء وأهل الصناعة الكلمة إلى معنى آخر جديد، واستعملوها استعمالاً مجازياً في تعقب أخطاء الأدباء شعراً ونثراً وبيان جيد الكلام من رديئه، وبذلك بدأ يتحدد المعنى الاصطلاحي لكلمة نقد، وكان ذلك على ما يبدو في القرن الثالث الهجري، فقد روي عن بعضهم أنه قال: رآني البحتري ومعي دفتر شعر، فقال: ما هذا؟ قلت: شعر الشنفرى[1]، فقال: وإلى أين تمضي؟ قلت: إلى أبي العباس أقرؤه عليه. فقال: قد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة، فما رأيته ناقداً للشعر، ولا مميزاً للألفاظ، ورأيته يستجيد شيئاً وينشده، وما هو بأفضل الشعر، فقلت له: أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى، ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه[2].

وبدأ يشيع بين الناس قولهم: فلان من نقدة الشعر، وانتقد فلان على قائله وما شابه ذلك من العبارات، وظهرت هذه الكلمة عند الشعراء أنفسهم بهذا المعنى أيضاً، فقال بعضهم[3]:

إن نقد الدينار إلا على الصَّيْـ ـرف صعبٌ، فكيف نقد الكلام؟

وقال آخر[4]:

ربَّ شعر نقدْتُه مثل ما ينـ ـقُد رأسُ الصيارفِ الدينارا

(١) الشنفري: شاعر جاهلي، من فتّاك العرب وعدّائيهم.
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٩٥ مطبعة المنار ١٣٢١ هـ.
(٣) المرجع السابق ص ١٩٦.
(٤) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي، للصاحب بن عباد ص ٥ مطبعة المعاهد بمصر ١٣٤٩ هـ.

ولعلَّ أول من استخدم هذا المصطلح من المؤلفين في تمييز الكلام هو قدامة بن جعفر المتوفَّى سنة ٣١٠ هـ وذلك في كتابه (نقد الشعر)، ثم تلاه غيره من المؤلفين، ولكن المَرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ يقصر كتابه (الموشح) على ذكر العيوب والمآخذ التي أخذها العلماء على الشعراء، من لفظ أو معنى أو وزن أو خروج عن المألوف من قوانين النحو والعروض والبيان.

وبصفة عامة كان مفهوم النقد عند رجالنا القدامى يعني: دراسة النصوص الفنية أو العلمية، وتفسيرها، وتحليلها، وموازنتها بغيرها، المشابهة أو المماثلة، ثم الحكم عليها، ببيان قيمتها ودرجتها.

وكذلك كانت نظرة الأوروبيين له إلى آخر القرن الثامن عشر، يقول الناقد الإنجليزي أرنولد: في أدب فرنسا وألمانيا كما هو في ثقافة أوروبا عامة، كان الجهد المبذول منذ سنوات عديدة حتى الآن هو جهد نقدي، متمثل في محاولة رؤية الشيء كما هو في حقيقته في جميع فروع المعرفة، مثل: الدين، والفلسفة، والتاريخ، والفن، والعلم، ولهذا كانوا يعرفونه بأنه نشاط حر للذهن في كل الموضوعات التي يطرقها.

إلَّا أن النقد الأدبي تفرد بعد ذلك بمدارسة النصوص الأدبية، فنقد الشعر لقدامة، والعمدة في صناعة الشعر ونقده، وما يتصل بهما من كتب الموازنات، لم تكن غير دراسة للشعر والنثر وتفسيرهما وبيان عناصرهما وفنونهما وما يعرض لهما من أسباب الحسن والقبح، والتنبيه على الجيد المقبول والرديء المنبوذ، إلى نحو ذلك من الإيضاح والتفسير.

وفي اصطلاح المحدثين هو: تقدير النص الأدبي تقديراً صحيحاً وبيان قيمته ودرجته الأدبية.

أو هو تذوق الأدب وتحليل نصوصه وإبراز ما فيه من فن وجمال، وتعرف الأسس النظرية التي يقوم عليها ذلك الذوق وهذا التحليل[1].

(١) محمد خلف الله في تقديمه لكتاب (أثر القرآن في تطوير النقد العربي) للدكتور محمد زغلول =

ويقول[1] الدكتور محمد غنيمي هلال: النقد علم من علوم الدراسة الأدبية، وهو عمليات عقلية تركيبية، مبدؤها النظر الدقيق والتأمل العميق للنتاج الأدبي، وثمرتها التقويم لهذه الأعمال في ضوء أجناسها الأدبية وتطورها العالمي.

وكأنَّه كان يرى بعض القصور في التعريف السابق فعاد مرة أخرى يقول: هو الكشف عن جوانب النضج الفني في النتاج الأدبي، وتمييزها مما سواها، عن طريق الشرح والتعليل، ثم يأتي بعد ذلك الحكم عليها.

* * *

وهذه التعاريف وغيرها مجمعة على أن مجال عمل النقد هو الأدب، فهو ميدانه الذي يشتغل فيه، وبالتالي فهو سابق له في النشأة والوجود، فالأدب يوجد أولاً، ثم يتقدم النقد لفهمه وتحليله وتقديره والحكم عليه بهذه الملكة المهذبة أو الملهمة التي يمتلكها الناقد، والتي تكون لملاحظاتها قيمة فنية ممتازة وتأثيرات إيجابية في تطوير الأدب، ولكن هذا لا يعني بحال أن في إمكاننا أن نتصور أن الأدب مر بفترة طويلة أو قصيرة بمنأى عن النقد، فذلك ما لا يقول به أحد، فإن النقد عاصر الأدب منذ طفولته ولعل أول ناقد وجد عقب أول شاعر، سواء كان نقده سلبياً يقف عند تذوق الشعر فحسب، أم إيجابياً يتجاوز ذلك إلى الإفصاح عن هذا الانفعال شارحاً معللاً. ومعنى هذا أن النقد ساير الأدب في كل عصوره التاريخية، ومنها العصر الجاهلي وصدر الإسلام. والملاحظ أن علاقة النقد بالشعر أوثق من علاقته بالنثر، وأقدم، ولذلك كان ظهور كتب النقد التي تعالج الموضوعات النثرية متأخراً نسبياً أو على الأقل بدأ أول الأمر في نطاق محدود جداً.

وقد ذكروا أن للأدب ثلاث ملكات[2]:

= سلام ص ٧ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م.

(١) النقد الأدبي الحديث لمحمد غنيمي هلال ص (١).

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ـ أحمد أحمد بدوي ص ٨١.

١ ـ ملكة منتجة، تتمثل في الشعراء والكتاب والخطباء.

٢ ـ ملكة ناقدة، في قدرتها بيان مواضع الجمال والقبح في النصوص الأدبية والتعليل لها.

٣ ـ ملكة متذوقة، تدرك بنفسها أو بوساطة الناقد ما في النصوص من حسن أو قبح وتلتذ بما تدركه من مظاهر الحسن والجمال.

ويقول عبد القاهر في هذا المجال معقباً على بعض الصور البيانية: (وهذا موضع في غاية اللطف، لا يبين إلَّا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر، وخفي حركته التي هي كالمهمس، وكمسرى النفس إلى النفس[١])، ويقول في موضع آخر: (وأنت إذا نظرت إلى الشعر من جهته الخاصة به، وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه، لم تشك في أن الأمر على ما أشرت لك إليه[٢])، ويقول وهو يتحدث عن جمال الاستعارة: (وهذا موضع لا يتبين سرَّه إلَّا من كان ملتهب الطبع حادّ القريحة[٣]).

* * *

وقد كانت الملكات الثلاث متوفرة بالفعل لعرب الجاهلية وصدر الإسلام، غير أنهم لم يبرعوا في التعليل لمدركاتهم وتذوقاتهم الجمالية، أو لم يوغلوا فيها، إن التهاب الطبع ووحدة القريحة كانتا تهيئان وجداناتهم لاستقبال همسات الحسن ووشوشات الجمال التي تنبثق هادئة من القصائد أو الخطب التي كانوا يسمعونها في المجامع والملتقيات والمنتديات، فيتفاعلون معها ويستجيبون لما فيها من معانٍ وأفكار، ثم يتجاوزون ذلك إلى التعبير الصريح عن موقفهم من هذه النصوص في صور مختلفة تأخذ شكلاً فردياً تارة، وجماعياً تارات، فقد انعقد إجماع الجاهليين على مجموعة من القصائد، نالت إعجابهم وانتزعت استحسانهم فكتبوها بماء الذهب وعلقوها على جدران

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦٦.
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٧.
(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٤٦.

الكعبة، رمزاً للشعر الناضج والفن الجميل، أو نقشوها في قلوبهم فهي عالقة بها لا تبرح، وهي القصائد المعروفة في تاريخنا الأدبي بالمعلقات السبع، ولا شك أن هذا حكم عام من أهل الصناعة في ذلك العصر بغنى هذه النصوص بالعناصر الجمالية اللازمة لتصدرها ونيلها هذه المكانة، وقد أثبتت الدراسات الأدبية التي تمّت حول هذه المعلقات في العصر العباسي وما بعده أنها خير ما يمثل القيم الفنية الجاهلية للشعر الجاهلي، وهذا يدل على أن من حكموا بتصدرها من الجاهليين لم يكونوا يرسلون أحكامهم بناءاً على مجرد الانفعال، بل لا بد أن يكون حكمهم قائماً على أسس موروثة متعارف عليها، كان يقنع بها بعضهم بعضاً حول هذه النصوص، لأن التسليم بتصدر هذه القصائد لم يكن في البيئة العربية مجرد حدث عابر لا يزيد على منح جائزة أو (ميدالية) تتم في العصر الحديث، وإنما كان يعني التسليم للشاعر وقبيلته بمجد الدهر، وليس ذلك من السهل في مجتمع تسيطر عليه الروح القبلية ويعشق المجد ويدافع عنه حتى الموت. أما أن تلك الأسس والتعليلات لم تصلنا فإنها ليست الشيء الوحيد الذي ضاع من تراثنا ولم يصلنا، وقد عللنا ذلك غير مرة ونحن على كل حال لا نستطيع أن نقبل أن تتم عملية تصدير هذه الأشعار في جو من الصمت أو الإيعاز الصارخ أو الهامس، بل لا بد أن يكون قام حولها كثير من الجدل والإقناع.

ومن الملاحظ أن الحكم هنا اتجه إلى الشعر لا إلى الشاعر، وإن جلب المجد لصاحبه، فهم لم يجعلوا جميع شعر هؤلاء الشعراء مساوياً لمعلقاتهم في الجودة، وإنما حكموا بجودة هذه القصائد من شعرهم، وهو موقف قد يؤيد ما ذهبنا إليه من اعتماد أحكامهم على قيم محددة ثابتة.

● ومما يؤيد ذلك ويقويه ما ورد في كلام النضر بن الحارث لقريش حول نبوة الرسول ﷺ: (وقلتم شاعر.. والله ما هو بشاعر، وقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه[1])، وما تقدم من كلام ابن

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٣٠٠.

فارس الذي ذكرناه في الباب الثاني من هذه الرسالة وتأكيده في كتابه (الصاحبي) على إلمام العرب الجاهليين بالنحو والصرف وعلم العروض مستدلاً برائية الحطيئة وغيرها[1]، وكلام أهل المدينة مع النابغة في الإقواء[2].

ويدل كلام النضر باستعماله (نا) المتكلمين من ناحية أخرى على أن البصر بالشعر وأصوله ليس وقفاً على الشعراء كما يتوهم البعض، وأن الأحكام النقدية لا يختصون بها، بل يكون الناقد شاعراً وغير شاعر، والفيصل في ذلك إنما هو الذوق والثقافة والمران.

● وقد حكمت أم جندب الطائية ـ زوجة امرىء القيس ـ حكماً معللاً بين امرىء القيس وعلقمة الفحل في بائيتيهما، حول وصف الفرس حين احتكما إليها:

قال امرىء القيس:

خليليّ مُرّا بي على أم جندُب ... لِنقْضِي لبانـاتِ الفؤادِ المعـذّب

إلى أن قال حول فرسه:

فللساقِ ألهوبُ، وللسوطِ درةٌ ... وللزجر منه وقع أهوجَ مُنْعِب[3]

وورد في وصف علقمة في قصيدته التي مطلعها:

ذهبتِ من الهجران في غير مذهب ... ولم يكُ حقاً كل هذا التجنّب

قوله:

فأقبل يهوي ثانياً من عنانه ... يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلّب[4]

---

(١) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٨.

(٣) ألهوب: شدة جري الفرس. درة: جري في لين، وأصله ما يدر من اللبن. الأهوج: الأحمق. المنعب: الذي يستعين بصوته.

(٤) الرائح: السحاب. المتحلب: السائل والمقصود: عرقه المتساقط.

فلما انتهيا من الإنشاد، أصدرت حكمها بتفضيل شعر علقمة على شعر زوجها، فقال لها: بم فضلته عليَّ؟ قالت: فرس علقمة أجود من فرسك. فقال: وبماذا؟ قالت: إنك زجرت، و حركت ساقيك، وضربت بسوطك. وأما علقمة فقد أدرك فرسه ثانياً من عنانه، لم يضربه بسوط، ولم ينعبه. ولم يعجب هذا الحكم زوجها امرأ القيس وقال لها: والله ما هو بأشعر مني، ولكنك له عاشقة، وطلقها، فخلفه عليها علقمة.

فهذه القصة إن صحت تعطينا التأكيد على وجود لون من النقد الأدبي المعلل الذي لا يبني أحكامه على مجرد التأثر والإعجاب والاعتماد على السليقة.

● وسمع طرفة[1] بن العبد شاعراً ينشد في مجلس بني ثعلبة، هو المسيب[2] بن علس أو غيره، كان مما قاله:

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضارِه بناجٍ عليه الصَّيعريَّة، مُكْدَمِ[3]

فصاح: (استنوق الجمل)، يريد أن الشاعر وصف الجمل بما توصف به الناقة، لأن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا البعير. وذهبت كلمة طرفة هذه مثلاً، ومعناه: صار الجمل ناقة، وهو نقد لهذا الشاعر واتهام له بالغفلة، وبالخلط بين خصائص الناقة وخصائص البعير.

● واجتمع رهط من شعراء تميم في مجلس شراب، وهم الزبرقان بن بدر، والمخبل السعدي، وعَبْدة بن الطبيب، وعمرو بن الأهتم، وذلك قبل إسلامهم، وذكروا أشعارهم بكل فخر، وقال أحدهم: لو أن قوماً طاروا من جودة الشعر لطرنا، ومع إيمانهم بشاعريتهم كمجموعة فإن أحدهم لم يسلم للآخر بالتفوق عليه، فتحاكموا إلى أول من يطلع عليهم، فطلع عليهم ربيعة

(١) الموشح ص ٧٦ ـ ٧٧.
(٢) مجمع الأمثال ٢ : ٩٤.
(٣) الناجي: الجمل السريع. والمكدم: الصلب.

ابن حذار الأسدي في بعض الروايات، فقالوا له: أخبرنا أينا أشعر. فقال: أما عمرو فشعره برود يمانية تطوى وتنشر. وأما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزوراً قد نحرت، فأخذ من أطيابها، وخلطه بغير ذلك. وأما أنت يا مخبل فشعرك شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده. وأما أنت يا عَبْدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء.

● وأخذ العرب على المهلهل بن ربيعة أنه كان يبالغ في القول، ويدعي فيه بأكثر من فعله.

● وقد سبق أن ذكرنا في حديثنا عن الشعر اليثربي الجاهلي أن عمرو بن الحارث الغساني فضل حسان بن ثابت على النابغة وعلقمة بن عبدة وكانا حاضرين، وأثنى على لاميته التي منها:

لله درُّ عصابةٍ نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأول

وسماها (البتّارة) أي التي بترت كل المدائح.

وكذلك كانت تلقب بعض القصائد الأخرى لشعراء آخرين لمزية فيها، ويلقب بعض الشعراء لمزية فيهم كالنابغة وغيره ممن ذكرناه هناك.

● وأسهمت الأسواق في الحركة النقدية إلى حد كبير، حيث كانت هذه الأسواق تضم بين جنباتها مجالس للخطابة وللشعر إلى جانب نشاطها التجاري - كما ذكرنا أيضاً - وقد احتفظت كتب تاريخ الأدب بما كان للنابغة في سوق عكاظ، حيث كانت تضرب له قبة حمراء من أدم، يحتكم إليه فيها الشعراء.

● وكان أهل المدينة ذوي بصر بالنقد، وقد تحدثنا عن زيارة النابغة لسوق الجسر بها، وتنبيه أهلها له عما كان يعتري شعره من إقواء.

● على أن هناك ما هو أعمق من هذه الشواهد جميعاً في الدلالة على وجود النقد الأدبي في العصر الجاهلي، وهو أن بعض الشعراء كانوا يبلؤون

حياتهم الشعرية برواية شعر غيرهم، وكأنهم بذلك يتلقون أصول الشعر تعلماً من أساتذة، فزهير بن أبي سلمى كان متصلاً ببشامة بن الغدير، وحين سأله زهير أن يقسم له من ماله قال له: حسبك شعري ورثته ورويته عني، وكذلك أخذ زهير من أوس بن حجر. وأخذ من زهير ولداه كعب، وبجير، والحطيئة.

● وظهرت أيضاً طبقة الشعراء المنقحين أصحاب الحوليات الذين سماهم بعض نقادنا: (عبيد الشعر). كزهير والحطيئة. وهو نوع من النقد الذاتي، لأن الأديب في الحقيقة هو أول ناقد لعمله الفني.

وهكذا عرف الجاهليون النقد الذاتي والنقد الخارجي جميعاً. وإن لم يدون لنا منه غير القليل.

* * *

وفي ظل ما قدمنا يمكننا إبداء الملاحظات التالية:

١ - إن النقد في العصر الجاهلي في طور النشأة، كان مواكباً تماماً لعمر الشعر نفسه، مسهماً في صقله وتقويمه، مساعداً على نضجه واكتماله. ولم يحصل أن تخلف أحدهما عن الآخر. ذلك أنه لم يكن طفرة أن يهتدي العربي للوحدة النغمية في القصيدة، أو وحدة رويها مع وحدة الحركة فيه، وليس مصادفة الاهتداء للتصريع في أولها، ولا لافتتاحها بالنسيب والوقوف بالأطلال وغيرها من الأصول الشعرية، وإنما عرف ذلك كله بعد تجارب، وبعد إصلاح وتهذيب تم من نقاد متمرسين.

٢ - إنه كان كالشعر عربي النشأة، لم يتأثر بأي تيارات خارجية أو ثقافات وافدة.

٣ - إن من أهم مباحثه الصياغة والمعاني، والعُروض لهما من ناحية الصحة، ومن ناحية الصقل والانسجام، كما رأينا في قصة طرفة وقصة النابغة في سوق عكاظ. وملاحظة الإقواء في شعر النابغة وبشر بن أبي خازم،

وفساد المعنى عند المهلهل لتزيده ومغالاته.

٤ - رغم أن أغلب ما وصلنا منه قائم على مجرد الاستحسان دون إبداء للأسباب، فإننا نجد في بعضه ميلاً إلى شيء من التعليل ولو في نطاق محدود.

٥ - إنه اقتصر على الحكم على الشعر والتنويه بمكانة الشعراء، ولم يشمل البحث في طريقة الشاعر، أو مذهبه الأدبي، ولا بيان صلة شعره بالحياة الاجتماعية، فكانوا يأخذون الكلام منقطعاً عن كل مؤثر، بل منقطعاً عن بقية شعر الشاعر.

٦ - إنهم كانوا يصدرون في حكمهم عن ذوق أدبي أصيل وسليقة موروثة وحس مرهف، صقلته الدربة والمران، عن طريق السماع والرواية والإنشاد، يضاف إلى ذلك ما أشرنا إليه من ترجيح اعتمادهم على بعض المعارف والعناصر الثقافية التي كانت تستدعي وجودها كل الظروف القائمة ويؤيدها بعض ما أوردنا من أدلة.

٧ - كان بعضه نقداً فنياً خالصاً وموضوعياً، ولا سيما حين كان الناقد يقرر المثل العليا في الصياغة والمعاني، وحين يقدم شاعراً حقه التقديم، كتقديمهم أصحاب المعلقات ولكن بعضه لم يستطع التخلص من المؤثرات الخارجية، تبعاً للحياة الاجتماعية السائدة كالرغبة في الحط من شأن شاعرٍ و الإعلاء من شأن شاعر آخر، وما يتبع ذلك من فخر لقبيلته أو هجائها، وذلك كأبيات كعب بن زهير التي أوردناها في الباب الثاني من هذه الدراسة والتي أثنى فيها على شعر الحطيئة، ولذلك رد عليها مزرِّد بن ضرار.

* * *

وعلى كل حال نحن لا ندعي للجاهليين ملكة تحليلية في النقد الأدبي، ولا فكراً قوياً بلغ درجة النضج والاكتمال، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننظر إليه نظرة ازدراء ونسلبه أهميته ونقول إنه لم يزد على مجرد ملحوظات

سريعة كان يهديهم إليها طبعهم وسليقتهم، واهتياجهم العاطفي، بل كان يضم إلى ذلك الاعتماد على بعض المعارف الكثيرة أو القليلة، ولا ينكر ذلك في اعتقادنا إلَّا من تعود أن ينكر على العرب كل ما يدل على استقامة العقل وأصالة التفكير.

* * *

أما عن نصيب المدينة من هذه السمات النقدية فإننا أشرنا إليه في ثنايا هذا الحديث، فقد كان لها شعراؤها الذين أسهم النقد بلا شك في تطوير شعرهم وإنضاجه، وكان بها سوقها التي لم تخل من المجالس الأدبية الراقية التي اجتذبت إليها أمثال النابغة وعروة بن الورد والخنساء وخفاف بن ندبة، وقد شهد لها النابغة بالفضل عليه في تقويم شعره حين قال: دخلت المدينة وفي شعري عاهة وخرجت منها وأنا أشعر الناس. ولكن نظراً لقلة النصوص النقدية التي انتهت إلينا عن المدينة في الجاهلية لم يكن هناك مجال لتخصيص فصل يتناول هذا الجانب، الأمر الذي جعلني أوثر الإشارة إليه في إطار النقد الجاهلي العام.

● في صدر الإسلام:

وكما كان للمدينة القيادة على جميع أنحاء الجزيرة مدناً وقرى وبوادي: دينياً وسياسياً وأدبياً، كانت لها أيضاً القيادة النقدية، فإنها العاصمة لدولة الإسلام الكبرى، وهي متجمع الصفوة من أهل الفكر والعلم والساسة والقواد، وهي قلب الجزيرة المتدفق بالحياة، وقد كان من الطبيعي أن يتطور النقد في المدينة كما تطورت أنواع النشاط الفكري والإنساني الأخرى من جهة، وتبعاً لما أحدث الإسلام من تغيير في القيم والمثل والمقاييس، وما نشأ عن ذلك من آثار بيانية وأدبية كماً وكيفاً، وهو ما أوضحناه في الفصول السابقة، وقد كان القرآن نموذجاً للنثر الأدبي الأسمى الذي ارتسم أمامهم ذروة بيانية لا تبارى، أدركوا معه كيف يكون حسن التأليف وتلاحم القول،

وكيف تقع الكلمة موقعاً لا يحسن فيه غيرها، ولا يليق به سواها، فلا غرو إذا أصبح بينهم مرجعاً يقيسون به بلاغة الشعر والنثر، ويغترفون من معينه، ويوسعون به معارفهم النقدية، ويعتبرونه القاعدة في إصدار الحكم على النصوص الأدبية وبيان حظها من الجودة والحسن مع الإيمان بالعجز عن محاكاته، فقد زعم بعض فصحاء العرب من المشركين أنهم قد يستطيعون الإتيان بمثله، وتحداهم القرآن أن يبروا بزعمهم، فعادوا خائبين مسلمين بفصاحته، وبيانه، وأدى ذلك الاندهاش ببعضهم إلى مزيد من العناد والحقد، وهدى الله به أقواماً فرجعوا مؤمنين، ورغم ما يبدو من اختلاف الاتجاه عند الفريقين، فإن موقفهما تجاه القرآن ـ في حقيقته ـ واحد، خلاصته هذه الحالة النفسية النقدية التي مارساها أمام هذا النص الأدبي الإلهي العظيم، ولعلَّ أكبر دليل على الانبهار الذي واجهوه به هو ما وقع فيه كفارهم من اضطراب إزاءه، فمن قائل: إنه سحر، ومن قائل: إنه شعر، ومن قائل: إنه أساطير الأولين أو سجع الكهان.

● وقد تولى الرسول ﷺ تفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم ولم يتوسع في ذلك اعتماداً على أن الذين كانوا يتلقونه هم أهل فصاحة وبيان، ومن ذلك أن أعرابياً سأله عن قوله تعالى: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسر له الظلم بالشرك، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم[1].﴾.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً[2]﴾.

● وفي كتب الحديث كالبخاري ومسلم، وغيرهما، كثير من الأحاديث المتعلقة بتفسير القرآن وبيان وجه التشريع أو الموعظة في بعض آياته.

---

(١) مرآة التفاسير ص ٣ طبع الهند ١٣١٦ هـ.

(٢) ضحى الإسلام ١: ١٣٨.

● وقد نشأت منذ الأيام الأولى للإسلام بالمدينة طبقة من الحفاظ المسلمين تقوم ببعض تفسيره على النحو السابق، عرفوا بين الناس بالقراء، وكان الرسول يرسل من أصحابه إلى القبائل من يعلم الناس القرآن ويفقههم في مقاصده ومعانيه.

● وكان الصحابة بالمدينة يجتمعون لمناقشة آياته وشرح مقاصده وتفسير كلماته واستنباط الأحكام منه، وتلمس مواطن الإعجاز فيه، واشتهر جماعة منهم في هذا المجال كزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب من الأنصار، وابن عباس وابن مسعود من المهاجرين ولا شك في أن كثيراً من هذه النواحي يدخل في صميم ما نسميه وتسميه الآداب الأخرى: (نقد الأدب) وإن كنا تأدباً مع القرآن الكريم نفضل له اسماً آخر من الأسماء التي أطلقتها الثقافة العربية على هذه الدراسات... عدولاً عن لفظه النقد، لما تتضمنه هذه اللفظة من ذكر المحاسن والمساوىء وإصدار الحكم على النص المنقود[١].

* * *

● (منذ بدء الحياة الإسلامية إذن، أخذ القرآن مكان الصدارة بصفة كونه النص الأدبي الأول لهذه الأمة، والكتاب المبين المعجز، هذا إلى كونه وحي السماء وأساس التشريع والقانون المنظم للسلوك، والمرشد الموجه إلى معالي الأمور[٢])، ولا يقولن قائل: إن الصحابة في تناولهم النص القرآني كانوا يواجهونه بالتسليم المسبق ببلاغته وإعجازه وكمال كل صفة بيانية فيه، وبذلك لا يتجاوز عملهم البحث عن تلك المحاسن المفترضة، ولا كذلك النقد، فإن الناقد النزيه يتناول النص خالي الذهن من أي اعتبار مسبق أو أي ملابسات أو ظروف خارجية ليبحث عن العيوب والمحاسن معاً.

ولكن هذا القول مردود من أساسه، ذلك أن هؤلاء الصحابة الذين أشرنا إليهم كانوا من المخضرمين، ومعنى ذلك أنهم لم يواجهوا القرآن بأي

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام ص ١٠ المقدمة.

(٢) المرجع السابق.

أحكام مسبقة أو شعور ديني يدفعهم إلى التسليم الصوفي، بل على العكس تماماً كانوا كفاراً به وبالعقيدة التي جاء بها، ولذلك واجهوه بكل ما يمكن أن يواجه به جديد يصادم أعرافهم ويسفه أحلامهم ويناقض ما هو واقع لديهم موقع التسليم، قابلوه بالشك والحذر والتردد، بل وكانوا ينظرون إليه بالعين الرافضة، ولم يأنسوا له إلاَّ بعد أن دانوا لأفكاره وانبهروا بمحاسنه، ومن هنا كان حكمهم عليه حكماً موضوعياً دقيقاً أخضعوا فيه النص لعديد من الموازين والمقاييس، ولذلك كان إيمانهم به بعد ذلك وتسليمهم له بقدر تلك الوسائل الدقيقة التي استعملوها في الحكم له أو عليه، مما لا يصلح معه استبعاد موقفهم هذا عن مجال النقد.

* * *

● وكان القرآن والحديث بعيدين كل البعد عن التكلف، ولذلك كان من أصول النقد في هذه الفترة الدعوة إلى الطبع والفطرة في البيان، والبعد عن التكلف، قال الرسول ﷺ: (إياي والتكلف)، وأنكر على ساجعٍ تكلّفَ السجع فقال: (أسجع كسجع الكهان). وهذه القضية اتسع لها باب النقد بعد ذلك تحت عنوان (قضية الطبع والصنعة) وهي قضية دقيقة لا تزال إلى اليوم مثار بحث ودراسة.

* * *

● وجاء القرآن والحديث يحببان الصدق ويحثان عليـه، وينهيان عن الكذب ويلعنان الكذابين، فكان من مطلوبات النقد الإسلامي الصدق، يتوخاه من الشاعر في الوصف والمدح والفخر والرثاء وغيرها من الأغراض، ومن هنا جاء سؤال الرسول ﷺ عن مدى صدق قول الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم:

أجـالدهم يـوم الحديقـة حاسـراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فأجابوه: نعم، والله لقد خرج إلينا كما قال.

وكان ذات مرة يُشيد بابي بكر فالتفت إلى حسان فقال[1]: (هات ما قلتَ فيّ وفي أبي بكر؟)، فقال حسان: قلت يا رسول الله:

إذا تـذكّرتَ شجـواً من أخ ثقـةٍ فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
التـاليَ الثـانيَ المحمـودَ شيمتُـه وأوّلَ الناسُ طُرّاً صـدَّق الرّسـلا
والثاني اثنين في الغار المنيف وقد طـاف الـعدوُّ به إذ صَعَّد الجبلا
وكان حِبَّ رسول الله، قد علموا من البريّة، لم يَعـدِل به رجـلا
خيـرُ البـريـة أتقـاهـا وأرأفُهـا بعـد النبي، وأوفاهـا بما حَمَـلا

فقال ﷺ: (صدقت يا حسان، دعوا لي صاحبي)، قالها ثلاثاً.

وحين سمع عمر متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً الذي قتله خالد في حروب الردة ويذكر خَمَصَه، يقول:

لقـد كَفّنَ المُنهـالُ تحت ردائـه فتى غير مبْطانٍ العشيّـات أَرْوَعَا

وقد كان عمر رأى مالكاً حين مقدمه على النبي ﷺ، فقال: أكذاك يا متمم كان؟ قال: أما ما أعني فنعم.

وحين أُنشِد قول الحطيئة[2]:

متى تـأته تعشـو إلى ضوء نـاره تجد خيرَ نار عندهـا خيرُ مُـوقِد

قال: كذب، بل تلك نار موسى نبيِّ الله عليه الصلاة والسلام.

وأُنشِد عثمان بن عفان قول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فقال: أحسن زهير وصدق، لو أن رجلًا دخل بيتاً في جوف بيت

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣١.
(٢) الأغاني ٢: ١٦٨ ثقافة.

لتحدث به الناس، قال النبي ﷺ: لا تعملْ عملاً تكره أن يُتحدَّث عنك به[1].

ونسبوا إلى حسان قوله[2]:

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته: صدقاً

وقضية الصدق والكذب من القضايا النقدية الهامة التي شغلت حيزاً في نقدنا القديم والحديث أيضاً ولكن من زوايا مختلفة، فبعضهم يحدد الصدق بمطابقة الكلام للواقع، وبعضهم يفسره بمطابقته لاعتقاد المخبر، كما حدد بعضهم الكذب بعدم مطابقته للواقع، بينما يفسره آخرون بعدم مطابقته لاعتقاد المخبر، ويرى بعضهم أن من الكلام ما ليس بصادق ولا كاذب، ولا شك أن النقد في صدر الإسلام كان ينسبهما إلى الواقع، كما يظهر من خلال الأمثلة التي أوردناها. على أن نجعل للواقع وجهين، واقع خارجي وواقع نفسي، فيكون الشعر صادقاً إذا اتفقت أحكامه مع الواقع الخارجي، إذا كان للكلام واقع خارجي، ومع الواقع النفسي العاطفي والشعوري، إذا تحدث الشاعر عن عاطفته وشعوره إزاء ما يراه ويتحدث عنه، فالمنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن مرفوض كلامه مردود عليه، لأنه غير صادق شعورياً، ولهذا قال الرسول ﷺ: (إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان).

وإلى اعتبار الواقع الخارجي ذهب ابن رشيق حين يقول: (وليس في العرب قبيلة إلاَّ وقد نيل منها وهُجِيت، وعُيِّرت، فحط الشعر بعضاً منهم بموافقة الحقيقة، ومضى سفحاً عن الآخرين، لما لم يوافق الحقيقة، ولا صادف موضع الرميّة)[3].

---

(١) المرجع السابق ١٠: ٣١٤.
(٢) الديوان ص ١٦٩.
(٣) العمدة ٢: ١٤٧.

وحتى الذي يوافق الواقع لا يقبله الإسلام كلَّه، فقد يكون فيه هتك لأعراض الناس واستباحةٌ لبعض الحرمات، وسنشير إلى ذلك عما قليل.

● ولعلَّ من الردة الفنية والنقدية ما ذهب إليه نقادنا العباسيون الممدَّحون، في قبول الكذب، وعدم اعتبار الصدق في تقويم الأعمال الأدبية، يقول أبو هلال العسكري: في حديثه عن الشعر: (أكثره قد بُني على الكذب... والنعوت الخارجة عن العادات، والألفاظ الكاذبة: من قذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان[1])، فهو في حديثه عن الهجاء يبين أن الشعر ينبني فيه على الكذب، من غير أن يشوهه الكذب، أو يضع من قيمته، ويقول قدامة بن جعفر: (إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده في وقته الحاضر[2]).

وهذا مذهب يصطدم بأصول النقد الإسلامي وترفضه أسسه القائمة على قبول المعاني المتطابقة مع الطبع والشرع، في أسلوب فني مباشر أو قالب تخييلي تصويري رائع يزيد تلك المعاني جمالاً وبهاءاً وتمكيناً في النفوس.

* * *

● ويجعل القرآن والحديث لأعراض المسلمين حرمة كحرمة دمائهم، فكما ينكران اغتيال الأرواح ينكران اغتيال الأعراض والولوغ فيها: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه[3]﴾، ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم[4]﴾، والمسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه. إلى غير ذلك من النصوص. فالهجاء على هذا الأساس غرض شعري مرفوض، إلَّا

(١) الصناعتين ص ١٣١.
(٢) نقد الشعر ص ٦.
(٣) الحجرات: ١٢.
(٤) النور: ٢٣.

في حالة الدفاع عن الإسلام كما فعل حسان وزميلاه، والغزل المفحش الذي يقدم المرأة عارية أو يتعرض لنساء بأعيانهن، مرفوض أيضاً على هذا الأساس، لأنه من قبيل نهش الأعراض، وهكذا يدعو الإسلام إلى أن يكون الأدب أخلاقياً يحمي الفضيلة، ويُشيد بالمسلك الحميد.

● ولم يكن في الشعراء بعد البعثة شاعر أهجى للناس من الحطيئة، عرفت له العرب ذلك، وعرفه له عمر، فزجره وألزمه الجادة، فقد ذكر الرواة أنَّ هذا الشاعر الذي أشرنا في كلام سابق أنه كان ممن لم يتعمق الإسلامُ نفسه، هجا الزبرقان[1] بن بدر بقصيدته التي جاء فيها:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنَّك أنت الطاعم الكاسي

فاستعدى عليه الخليفة، وأدرك عمر - وهو الناقد الأديب - ما قصده الحطيئة من جعل الزبرقان كالخدم والعبيد مطعوماً مكسواً لا همة له ولا طموح، ولكنه أراد أن يهدىء من روع الزبرقان ويخفف من غضبه، ثم ينظر في الأمر على رويَّة، وقال له: إنما هو يعاتبك. فلم تُرض هذه الإجابة الزبرقان، وهو شاعر خبير بالشعر وأهله. ثم إن عمر أراد أن يقيم الحجة على الحطيئة[2] برجل من أهل صناعته، فاستدعى حسان بن ثابت، وسأله: ماذا ترى يا حسان؟ قال حسان: إنه لم يهجه يا أمير المؤمنين بل ذرَق عليه. فأمر عمر بحبس الحطيئة، ولم يطلق سراحه إلاَّ بعد أن استشفع بأطفاله، وبعد أن أخذ عليه موثقاً بعدم هجاء المسلمين، ثم أعطاه ثلاثة آلاف درهم يسد بها حاجته وحاجة عياله.

● وكان بنو العجلان وهم رهط ابن مقبل الشاعر، يفخرون بلقب أبيهم هذا، لزعمهم أنه إنما سمي بذلك لتعجيله القرى للأضياف. فهجاهم النجاشي الشاعر واستعدوا عليه عمر أيضاً فسألهم: ماذا قال فيكم؟ فأنشدوه قوله:

---

(١) الأغاني ٢: ١٥٥ - ١٥٨ ثقافة.

(٢) البيان والتبيين ١: ٢٣٩ - ٢٤٠.

إذا الله عـادى أهـل لؤم ورقـة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر: إنما دعا عليكم، ولعلَّه لا يجاب، فقالوا: إنه قال:

ولا يـرِدون المـاء إلا عشيـةً إذا صـدر الورَّاد عن كـل منهل

فقال عمر: هذا أقل للسكاك - يعني الزحام - قالوا: إنه قال:

ومـا سُمِّي العجلان إلا لقـولـه: خُذِ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فدعا عمر بحسان أيضاً للغرض نفسه ولرغبته في درء الحد بالشبهة، فقال حسان أيضاً مقالة شبيهة بما قاله في هجاء الحطيئة: إنه يا أمير المؤمنين قد سلح عليهم. فأمر عمر بالنجاشي إلى السجن.

● وكان ابن عباس من حفاظ الشعر ورواته الذين جعلوا منه وسيلة لتفسير القرآن والنصوص الدينية، وتذكر الروايات إقباله على سماع شعر ابن أبي ربيعة في مجالسه العلمية، ولكنه كان ممن يرفض الهجاء أيضاً ويحكّم الموازين الإسلامية فيه، يقول أبو الفرج[1]: (بينما ابن عباس جالسٌ في مجلس الرسول ﷺ بعدما كُفَّ بصره، وحوله ناس من قريش، إذ أقبل أعـرابي يخطر، وعليه مِطرَفٌ وجُبّة وعمامة خزٍّ، حتى سلَّم على القوم، فردوا عليه السلام، فقال: يا ابن عم رسول الله، افتني، قال: في ماذا؟ قال: أتخاف عليَّ جناحاً إن ظلمني رجل فظلمته، وشتمني فشتمته، وقصر بي فقصرت به؟ فقال: العفو خير، ومن انتصر فلا جناح عليه، فقال: يا ابن عم رسول الله، أرأيت امرأً أتاني فوعدني وغـرني ومناني ثم أخلفني، واستخف بحـرمتي، أيسعني أن أهجوه؟ قال: لا يصلح الهجاء، لأنه لا بد لك من أن تهجو غيره من عشيرته، فتظلم من لم يظلمك، وتشتم من لم يشتمك، وتبغي على من لم يبغ عليك، والبغي مرتع وخيم، وفي العفو ما قد علمت من الفضل. قال: صدقت وبررت. فلم ينشَبْ أن أقبل عبد الرحمن بن سيحان المحاربي حليف

---

(١) الأغاني ٢: ١٦١ - ١٦٣ ثقافة.

قريش، فلما رأى الأعرابيٌّ أجلَّه وأعظمه وألطف في مسألته، وقال: قرَّب الله دارك يا أبا مليكة، فقال ابن عباس: أجرْول؟ قال: جرول... فقال ابن عباس: لله أنت، أي مِرْدي[1] قذاف، وذائد عن عشيرة، ومُثْن بعارفة تؤتاها أنت يا أبا مليكة، والله لو كنت عركت بجنبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان كان خيراً لك، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك، وشتمت من لم يشتمك، قال: إني والله بهم يا أبا العباس لعالم، قال: ما أنت بأعلم بهم من غيرك، قال: بلى والله، يرحمك الله، ثم أنشأ يقول:

أنا ابن بجدتهم علماً وتجربة ... فسل بسعد تجدني أعلم الناس
سعدُ بن زيد كثيرٌ إن عددتهمُ ... ورأس سعد بن زيد آلُ شمَّاس
والزبرقانُ ذُناباهمْ وشرُّهمُ ... ليس الذنابىَ أبا العباس كالراس

فقال ابن عباس: أقسمت عليك أن لا تقول إلا خيراً. قال: أفعلُ).

وكذلك سجن عثمان الشاعرَ ضابِىء البرجمي - كما مر - لأنه هجا بني نهشل بأمهم ورماها بالفاحشة مع كلب، ولم يطلق سراحه حتى مات في سجنه.

● ومن هذا المنطلق الأخلاقي أُثِر أن الرسول كان يعجبه قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظَلُّه ... حتى أنال به كريم المأكل

وقال: (ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة[2]).

وقال عمر[3]: (ارووا من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أحسنه، ومن النسب ما تَواصَلُون عليه، وتعرفون به، فربَّ رحم مجهولة قد عُرِفت فوُصِلت، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق، وتنهى عن مساويها).

---

(١) المردي: حجر يرمى به.
(٢) المرجع السابق ٨: ٢٤٣ دار الكتب.
(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٣٦.

وأصل آخر من الأصول النقدية في هذا العصر يكاد يكون جِماعاً لما سبق وهو النظر إلى النص من منظور إيماني ديني وتقويمه على أساسه، ومن هنا لم تنفع الفنيات الشعرية المطلقة امرأ القيس في حكم الرسول عليه ولم يستحق عنده التقديم، لا لشركه، فقد أعجب ببعض شعر عنترة وهو مشرك، ولكن قد يكون لما تضمنه بعض شعره الغزلي من تصريح يأباه الإسلام، وود الرسول أن لو كان أدركه فنفعه، وذلك اعتراف منه ـ على ما يبدو ـ بشاعريته التي لم يكن ينقصها إلا انسجامها مع العفة والخلق والدين ، قدم وفد من جهينة على النبي ﷺ، فسألهم عن مسيرهم، (فقالوا: يا رسول الله، لولا بيتان قالهما امرؤ القيس لهلكنا، قال: وما ذلك؟ قالوا: خرجنا نريدك، حتى إذا كنا ببعض الطريق، إذا برجل على ناقة مقبل إلينا، فنظر إليه بعض القوم، فأعجبه سير الناقة، فتمثل ببيتين لامرىء القيس وهما قوله:

ولما رأت أنَّ الشريعة وِرْدُها ... وأن البياضَ من فرائصها دامي
تيمَّمتِ العين التي جنْبَ ضارجٍ ... يُفيء عليها الظلَّ عِرمضُها الطامي[1]

وقد كان ماؤنا نفد، فاستدللنا على العين بهذين البيتين فوردناهما، فقال النبي ﷺ: أما إنّي لو أدركته لنفعته، وكأني أنظر إلى صفرته وبياض إبطيه وحموشة ساقيه، في يده لواء الشعراء يتدهْدَى[2] بهم في النار[3]).

ولما سمع قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قال عنه: إن معناه من كلام النبوّة.

ولما سمع جزءاً من شعر أمية بن أبي الصلت قال: آمن لسانُه ولم يؤمن قلبه.

---

(١) العرمض: صغار السدر والأراك.
(٢) تدهدى: مثل تدهده، أي تدحرج.
(٣) المرجع السابق ص ٣٨.

● فالدين والخلق إذن من أهم المعايير النقدية في صدر الإسلام، وهو معيار ينبىء عن إدراكهم لخطر الكلمة وقيمة القول، وتأثيره في النفوس وقيادته لها.

● وفي العصر الأموي نجد عبد الملك بن مروان[1]، وهو الخليفة الأديب الناقد، يلتزم بهذا المقياس، ويستنكر على ابن أبي ربيعة قوله:

ولولا أن تُعنِّفني قريش ... مقال الناصح الأدنى الشفيق

لقلت إذا التقَيْنا: قَبّليني ... ولو كنا على ظهر الطريق

● ونرى[2] عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة يكتب إلى عامله على المدينة (قد عرفت عمر والأحوص بالخبث والشر، فإذا أتاك كتابي هذا فاشددهما واحملهما إلي، فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر، فقال له: هيه.

فلم أر كالتّجمير مَنظر ناظرٍ ... ولا كليالي الحج يفْتِنّ ذا هوى[3]

وكم مالىء عينيه من شيء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البِيضُ كالدُّمى[4]

فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شيء غيرك، ثم أمر بنفيه، ولكن ابن أبي ربيعة عاهده على أن لا يعود إلى مثل هذا الشعر فخلى سبيله.

ثم دعا بالأحوص، فقال له: هيه..

الله بيني وبين قَيِّمها ... يهرب مني بها وأتّبع[5]

(١) الموشح ص ٢٠٢.
(٢) الأغاني ٦: ٦٤ ـ ٦٥ دار الكتب.
(٣) التجمير: تجمع الناس لرمي الجمار في الحج.
(٤) الجمرة واحدة الجمرات: الجمرة الأولى والجمرة الثانية، وجمرة العقبة. الدمى: جمع دمية، وهي الصورة فيها حمرة كالدم.
(٥) قيم المرأة: زوجها.

وأمر بنفيه إلى إحدى بلاد اليمن، كما أخذ عليه قوله:

أدور، ولـولا أن أرى أم جعفـر بـأبيـاتكم مـا درتُ حيث أدور
وما كنت زوَّاراً، ولكنّ ذا الهوى إذا لم يُزَر لا بـدّ أن سيـزور

● ورفض[1] دخول الأخطل عليه، لقوله:

ولست بصـائم رمضـان طـوعـاً ولست بـآكـل لحم الأضـاحي
ولست بـزاجـر عيسـا بكـوراً إلى بـطحـاء مكـة للنجـاح
ولـست بـزائـر بيتـاً عـتيقـاً بمكـة أبتغي فيـه صـلاحي
ولست بقـائم بـالليـل أدعـو قبيل الصبح: حيَّ على الفـلاح
ولـكنـي سـأشـربهـا شَـمـولاً وأسجـد عنـد منبلج الصبـاح

● وقد تبنى بعض النقاد العباسيين هذا الاتجاه ونادوا بالالتزام به، لولا أن غلبهم على أمرهم أنصار الثقافة اليونانية، كتب محمد بن القاسم الأنباري رسالة إلى ابن المعتز يقول فيها: (جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانىء، والشعر الذي قاله في المجون... وإن لكل ساقطة لاقطة، وإن لكلام القوم رواة، وكل مقول محمول، فكان حق شعر هذا الخليع أن لا يتلقاه الناس بألسنتهم، ولا يدونوه في كتبهم، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم... فإن صنع فيه غناء كان أعظم لبليته، لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى، فيَهيج الدواعي الدنيئة، ويقوي الخواطر الرديئة، والإنسان ضعيف... والنفس في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كرة منحدرة من رأس رابية إلى قرار فيه نار، إن لم يحبس بزواجر الدين والحياء أداها انحدارها إلى ما فيه هلكتها، والحسن بن هانىء ومن سلك سبيله في الشعر... كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم، وحسنوا

(١) ثمرات الأوراق ص ٤٦ ـ ٤٧ والشمول: الخمر.

ركوب القبائح، فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم، وأن يستقبح ما استحسنوه ويتنزه من فعله وحكايته. وقول هذا الخليع: ترك المعاصي إزراء بعفو الله تعالى، حضٌّ على المعاصي أن يتقرب إلى الله عز وجل بها تعظيماً للعفو. وكفى بهذا مجوناً داعياً إلى التهمة لقائله في تعظيم الدين، وأحسن من هذا وأوضح قول أبي العتاهية:

يخاف معاصيه من يتوب   فكيف ترى حال من لا يتوب[1]).

● ولم يكتف بعضهم بما يرِد في الشعر من معنى ديني أو خلقي، بل ربط النص أيضاً بأخلاق الشاعر نفسه ودينه، ولم يرتضوا الفصل بين أخلاق الرجل وآثاره الفنية. فقد تكون الآثار الفنية متمشية مع الخلق والدين، ومع ذلك يرفضونها إذا لم تكن متفقة مع سلوك أصحابها، يقول أبو الفرج[2]: (جعل محمد بن سلام الأحوص، وابن قيس الرقيات، ونصيباً، وجميل بن معمر، طبقة سادسة من شعراء الإسلام، وجعل الأحوص بعد ابن قيس وبعد نصيب)، ويعلل أبو الفرج ذلك فيقول[3]: (والأحوص، لولا ما وضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال، أشد تقدماً منهم، عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة، وهو أسمح طبعاً، وأسهل كلاماً، وأصح معنى منهم، ولشعره رونق، وديباجة صافية، وحلاوة، وعذوبة ألفاظ، ليست لواحد منهم، وكان قليل المروءة والدين، هجّاءاً للناس، مأبوناً فيما يروى عنه).

● ورأى الأصمعي[4] جزءاً فيه شعر السيد الحميري، فقال: قبحه الله.. ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه، ولولا ما في شعره من سب السلف لما تقدمه من طبقته أحد).

---

(١) جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ٣٣ لأبي إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني المطبعة الرحمانية بمصر.

(٢) الأغاني ٤ : ٢٣٣ دار.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق ٧: ٢٣٦ دار.

● ولكن تلامذة اليونان من النقاد، كابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبو بكر الصولي وأبو الحسن الجرجاني وغيرهم لا يرون أيّ دخل للدين والخلق في الشعر.

* * *

● ومن الأصول النقدية التي سادت في صدر الإسلام غير ما تقدم، الاقتصادُ في تصوير المعاني، وصحة الأسلوب ووضوحه والدقة فيه.

أما الاقتصاد في تصوير المعاني، فالمقصود منه ترك الإسراف والغلو والمبالغة لأن ذلك نوع من الكذب يزري بالشعر ويحط من مقامه.

وأما الصحة فإنها تستلزم أموراً، منها: الخلو من ضعف التأليف ومن التعقيد ومن الفصل الطويل بين المتعلقات، والتزام قواعد الصرف والتذكير والتأنيث[١].

وأما الوضوح فإنه يتحقق بالابتعاد عن الإغراب، وبدونه يصبح الكلام عاجزاً عن أداء معناه، فيفوت الغرض منه[٢].

وأما الدقة في الأسلوب فإنها تعني الابتعاد عما لا مبرر له من ابتذال أو سموّ[٣].

وفي كلام عمر رضي الله عنه حول شعر زهير ما يشير إلى هذه الأصول، فقد قال لابن عباس مرة[٤]: حدثني عن شاعر الشعراء. فسأله ابن عباس: ومن ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذلك هو القائل:

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء

---

(١) النقد الأدبي الحديث لمحمد غنيمي هلال ص ١١٦.
(٢) المرجع السابق ص ١١٧.
(٣) المرجع السابق ص ١١٨.
(٤) الأغاني ١٠ : ٢٩٨ ثقافة والجمهرة ص ٥٧.

والقائل:

ولو أن حمدا يُخلد الناس أُخلِدوا ... ولكنّ حمـدَ الناس ليس بمُخلِد

قال ابن عباس: ذلك زهير. فقال عمر: فذاك شاعر الشعراء، فقال ابن عباس: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه كان لا يعاظل في الكلام[1]، ولا يتتبع الغريب الوحشي[2]، ولا يقول إلاَّ ما يعرف، ولم يمدح أحداً إلاَّ بما فيه. وبهذا تشمل النظرة النقدية عند عمر الصياغة والمعنى معاً.

● وإذا كنا نرى عمر هنا يفضل زهيراً مع التعليل لهذا التفضيل، فإننا نراه أحياناً أخرى يكتفي بإبداء رأيه دون تعليل، وذلك كحكمه على شعر النابغة، فقد خرج[3] رضي الله عنه وبباته وفد غطفان، فقال: أي شعرائكم الذي يقول:

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً ... وليس وراء الله للمرء مَذهب

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عني سعايةً ... لَمبلِغُك الواشي أغشُّ وأكذب

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه ... على شعَثٍ أيّ الرجالِ المهذّب

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين، قال: فمن القائل:

خطا طِيفُ حُجْنٌ في حبال متينةٍ ... تمدّ بها أيْدٍ إليك نوازع[4]

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلتُ أن المنتآى عنك واسع

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل:

إلى ابن محرِّقٍ أعملتُ نفسي ... وراحلتي، وقد هدأتْ عيون

فألفيتُ الأمانة لم يخنْها ... كذلك كان نوحٌ لا يخون

---

(١) يعاظل في الكلام: يداخل فيه، بتكرار اللفظ والمعنى.

(٢) وحشي الكلام: غريبه. ويقال حوشي أيضاً، والمعنى واحد.

(٣) الجمهرة ص ٦٠.

(٤) حجن: معوجة. نوازع: جواذب.

أتيتـك عـاريـاً خلَقـاً ثيـابـي   على خـوف تُـظَنُّ بي الـظنـون

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل:

إلّا سليمان إذ قال المليـك له: قم في البرية فاحدُدْها عن الفند

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: هو أشعركم.

ولعلَّ عدم التعليل هنا راجع إلى أنهم لم يطلبوه منه كما طلبه هناك ابن عباس، ولو تأملنا الأبيات لعرفنا سر تفضيله لها بسهولة، فهي سائرة في إطار الأصول النقدية التي ذكرناها، غير أننا لا نكاد نجد سبباً لتفضيل المجموعة الثانية غير التصوير الفني الذي يـطرز حواشيهـا، ويضفي عليها مـطارف الجمال، فالجمال الفني أيضاً من أصولهم النقدية التي يجب أن تضاف إلى ما تقدم من أصول، ومما يؤكد هذا قوله ﷺ: (إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحُكْماً، أو حكمة). فهو يعطي للأدب قيمة فنية جمالية تتمثل في قدرته على التأثير والاستيلاء على القلوب، ويقرر قيمته الفكرية، المتمثلة في معانيه الشريفة ومضامينه السامية، وبذلك يجمع له بين قيم الحق والخير والجمال، (فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه[1]).

* * *

ولإتمام هذا الصرح النقدي كان الرسول ﷺ كثيراً ما يقوم بتـوجيه الشعـراء والمتكلمين، ويـدعوهم إلى تغيـير لفظ بلفظ طلباً للحق والخـير والجمال، فحين قال كعب بن زهير يمدحه:

إن الـرسـول لنـور يستضـاء بــه   مهنـد من سيـوف الهنـد مسلول

لم تعجبه هذه الإضافة الجاهلية إلى الهند، وأراد أن يسِمَ هذا الشعر بسمة إسلامية، فقال له: بل من سيوف الله، فعاد كعب فقال: مهند من سيوف الله مسلول).

---

(١) العمدة ١: ٢٧.

وحين قال شاعره كعب بن مالك:

مَجالدُنا عن جذْمنا كلَّ فَخمةٍ مُـدَرّبـةٍ فيهـا القـوانسُ تلمـع

عمد إلى هذا التعبير الجاهلي فصححه لكعب، وقال له: لا تقل عن جذمنا، ولكن قل: عن ديننا. كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في ترجمة كِعب، لأن الإسلام لا يقبل القتال والمجالدة إلا من أجل إعلاء كلمة الله ورفعة دينه.

إلى غير ذلك من الأمثلة التي أوردتها كتب السيرة والحديث.

* * *

وهكذا نجد أن مجموعة من الأصول النقدية بدأت تتحدد ملامحها في هذا العصر وتبرز كصوىً هادية لرواد القول وعشاق التعبير، الذين تتابعوا بعد ذلك وجعلوا مهمتهم تفسير النصوص الأدبيـة وتقويمهـا والبحث عن مواطن الجمال والقبح فيها.

● وإذا أردنا إجمال تلك الأصول قلنا: إنهم بدؤوا بتفسير النصوص الأدبيـة - وناقشـوا قضية الـطبع والصنعـة - والصيـاغـة والمعنى - والصـدق والكذب - والدين والخلق - والمبالغة والغلو - وضربوا المثل العملي للالتزام.

ومعنى هذا أن النقد لم يكن يقتصر على مجرد الاستحسان والاستهجان كما كان يحلو لأكثر الكاتبين أن يقولوا، بل تجاوز تلك المرحلة إلى وضع بعض الأصول الهادية، ولعلّ ما ظهر فيه من ميل إلى التعليل كان نتيجةً لانتفاع العقول التي تعاطته من مدرسة القرآن، ونشأتها في ظل الإسلام شحذ العقول وهذب الأذواق، وخلق في النفوس عدم الاعتماد في إصدار الأحكام على التأثر والانفعال، ولا يحط من قدر هذه الحركة النقدية أن القائمين بها لم يتركوا كتاباً يُرجَع إليه في أصولهم، فكذلك كان شأن كل العلوم الإسلامية من فقه وتفسير وحديث وأصول حديث، ثم اتسعت وتطورت حين تهيأت لها ظروف التطور والاتساع.

● ويلاحظ أن هذه الحركة النقدية التي شبت وترعرعت بـالمدينـة، أخذت على عاتقها إعادة تقويم التراث الشعري الجاهلي، أو هي في الحقيقة نهجت الطريق إلى إعادة تقويمه، وذلك بعرضه على المعايير الجـديدة، في الوقت الذي تمسكت به كوسيلة لتفسير القرآن وقياس بلاغته وبيان إعجازه وفهم مقاصده، ودعت إلى الحفاظ عليه والحرص على روايته، كما كانت هذه الحركة تقوم أيضاً بدور الريادة من أجل إنشاء أدب إسلامي ملتزم يحترم الخلق ويقدس العقيدة ويلتصق بآمال الجماعة وآلامها، ويحفظ للكلمة شرفها وقداستها، في إطار الجمال المبدع، بعيداً عن التزييف والتخريف والكذب والتناقض. وهو إطـار (كوني ملتـزم وإنساني إيمـاني، وثوري وتـوحيدي، وأخلاقي إيجابي، وكما يعبر الإسلام عن مرونته الفنية في قضيـة المحتوى الفني، فإنه يمتلك ذات المرونة في مسألة الشكل، فهو مفتوح للتعبير عن التجربة الفنية بأية وسيلة كانت: الكلمة، الصوت، الحركة التشكيـل.. ضمن الإطار الذي يرتضيه، ذلك أن إحدى معجزات القرآن الكريم نفسه تقديمه أمثلة عليا للأداء الفني الذي يعتمد الكلمة والموسيقى والصورة الفنية، في وحدة متجانسة رائعة تعبر عن مثَلٍ إلهي أعلى في العطاء الفني[1]).

وإذا آمنا أن الأدب هو مرآة عصره، وأن الأديب هو ابن بيئته الفكرية والطبيعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأنه ليس شيئاً منفصلاً عن جذوره يعيش حياته طفيلياً أو ذرة رمل ضائعة في عاصفة حاقدة، أو شخصاً ضعيف الانتماء، فإننا ندرك كيف يسهل عليه الالتزام ويتبناه ويحرص عليه، ويبشر به، فلا حاجة به إلى سلطة تذكره به أو تدعوه إليه طوعاً أو كُرْهاً.

● إن الأدب الإسلامي يرفض الانحراف، فيأبى ـ مثلاً ـ تأليه الإنسان (كلاسيكياً)، وإغراقه الذاتي الأناني (رومانسيـاً)، وتمجيد لحظاتِ الضعف البشري (واقعياً)، وتصـوير الانحـراف الفكري أو النفسي أو الأخـلاقي (وجودياً)، فليس ثمَّة عبث ولا جدوى كما يرى (كامب)، وليس ثمة لا

---

(١) في النقد الإسلامي المعاصر ص ٤٢.

معقولية للحياة والوجود كما يرى (كافكا)، وليس ثمة حرية أخلاقية مطلقة من كل قيد كما يرى (سارتر)، وليس ثمة تناقضات نفسية لا نهاية لها، تنتهي دائماً بالضياع كما يرى (دستوفسكي)، ذلك أن الفن الإسلامي يستمد تجاربه الباطنية من خلال الحقيقة لا الزيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، فللوجود غاية: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون[1]﴾، ولكدح الإنسان جدوى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه[2]﴾، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى[3]﴾، وللحياة معقولية لأنها صادرة عن إرادة الله، وحرية الإنسان قائمة في أعماقه، ولكنها مصونة عن الفوضى الخلقية التي تنتهي بالإنسان دائماً إلى تمزيق علائقه مع الوجود الخارجي[4].

إن الالتزام يغدو عند الأدباء المسلمين أمراً نابعاً من داخل الذات، الممتلئة بقوى الحق والإيمان الضاربة في أعماق الجمال، وليس هو حبلاً تلفه جهة خارجية على أعناق الفنانين لتخنق فيهم شهوة العطاء، ولا كِماماتٍ تضعها السلطة الدينية على أفواههم كما يريد بعضهم أن يتصورها، وفرق بين الإلزام والالتزام، فإذا أصر بعضهم بحساسياته الخاصة إلا أن يسميه إلزاماً فمرحباً بإلزام يأتي من عند الله بارىء الخلق وموجد الأكوان، والأعلم بالأصلح والأجدى من منابع الفن وغاياته، وما أجمل ما قاله محمد قطب حول الفن الإسلامي حين قال: هو الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود، هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان. هو الفن الذي يهيء اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة

---

(١) المؤمنون: ١١٥.
(٢) الانشقاق: ٦.
(٣) النجم: ٣٩.
(٤) المرجع السابق.

الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود[1].

وكما أنه يجب أن تكون للأدب الإسلامي سماته المحددة وخصائصه المميزة التي يعرف بها من بين الآداب الأخرى، فإنه يجب أن يقوّم بمعايير إسلامية، وأن يُحْكَم عليه بالجودة أو الرداءة من خلال منظور إسلامي، وذلك يؤكد ضرورة الدعوة إلى تبني فكرة وجوب تخليص كتاباتنا النقدية مما علق بها من بعض المسلّمات الدخيلة التي تصطدم بالإيدولوجية الإسلامية والروح الإيمانية، ويؤكد على وجوب التمسك بالاستقلال الروحي والفكري والثقافي والأدبي. فمرحى لأولئك الرواد الذين وضعوا اللبنات الأولى للنقد الإسلامي في المدينة المنورة، وللذين أخذوا أنفسهم بهذا المنهج في عصرنا الحديث، حميّة منهم للعروبة، وذوداً عن حرمات الإسلام.

(١) منهج الفن الإسلامي لمحمد قطب ص ١٠.

الخاتمة[1]

كانت المدينة المنورة تحتل في الجاهلية مكاناً مرموقاً بين البيئات المعاصرة لها في الجزيرة العربية في جميع مجالات الثقافة والأدب، بل إنه كان لها في ذلك أوليات وتفوقات. فلما هاجر الإسلام إليها أصبحت تحتل مكان الصدارة في الجزيرة، بل أصبحت المركز الأول للإشعاع الثقافي والأدبي إلى جانب الإشعاع الديني في العالم كله، وكأنَّ الله سبحانه حين هيأ مكة لتكون منبثق الدعوة الإسلامية، هيأ المدينة كذلك لتكون منطلق هذه الدعوة ومثابتها الكبرى، وقد ظلّت كذلك العاصمة الأولى للحضارة الإسلامية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

ومن هنا اخترت تلك المساحة الزمنية الداخلة ضمن إطار هذين العصرين: مجالاً لرصد الحركة الثقافية والأدبية في المدينة الحبيبة، وإبراز دورها الكبير في العطاء المطلق وإثراء الأدب والثقافة.

ولعلي بعد الفراغ من هذه الدراسة أستطيع أن ألخّص أهم خطوات البحث تلخيصاً موجزاً على النحو التالي:

١ ـ حققت اسم يثرب وأصله وناقشت الآراء في ذلك، وفيها ورد حول مَنْ عَمَرها من الأقدمين، ووقفت طويلاً عند نسب الأوس والخزرج متطرقاً إلى ما يتصل بذلك من أهمية الأنساب في الحياة العربية وما تعرضت له من تشكيك، ثم حققت تاريخ نزول الأوس والخزرج ونزول اليهود بالمدينة. وحددت منازلهم فيها والعلاقة بينهم، وصححت خطأ قصر اسم

(١) هي خاتمة لكل ما جاء في الكتاب ٣، ٤، ٥، ٦، من هذه السلسلة.

الأنصار على الأوس والخزرج، كما تحدثت عن آطام المدينة وعروبتها، وكشفت عن أنها خاصة من خـواص المدينـة في العصر الجـاهلي، لا يشاركها فيها إلا الحيرة.

وقد خالفت كل المؤرخين في تقسيم المجتمع العربي الجاهلي إلى حاضرة وبادية، فقسمته من أجل تحقيق دراسة أفضل - إلى مجتمعات ثلاثة: رعوي - زراعي - تجاري. وانتهيت إلى أن مجتمع المدينة مجتمع زراعي له سماته الخاصة، وكشفت لأول مرة عن الدور الأدبي الذي كانت تضطلع به سوق الجسر بالمدينة.

٢ - ثم تناولت الحياة السياسية في المدينة فكشفت عن قيام إمارتين فيها، بجانب تطلع أهلها إلى الوحـدة والعدالـة، وربطت بـين ذلك وبـين الإرهاص بظهور الإسلام وقيام المدينة بدورها الفعال فيه.

وتناولت الحروب التي قامت بالمدينة، وصححت أسبـاب بعضها وأماكنها وأزمنتها.

٣ - ثم عرضت لألوان الثقافة والمعارف التي شاعت في المدينة واختصت بها، وأبنت عن التأثر والتأثير اللذين أحدثهما النشاط التجاري بين المدينـة وسائر البلاد الأخرى في هذا المجال.

وتناولت في تصوير الحياة الدينية مظاهر الديانات فيها وعلاقاتها بالبيئة المدنية، وأبرزت دور الحنفاء المدنيين، وكشفت عن سر عدم تهود الأوس، والخزرج[١].

٤ - درست الشعر المدني في الجاهلية، وحددت معالمه وكشفت عن خصائصه المميزة، وتتبعت أغراضه وسجلت كثيراً من شواهده التي وقفت عند كثير منها محللاً مفسراً.

---

(١) ما تقدم يمثله الكتاب رقم (٣) من هذه السلسلة.

وقد كشفت عن أن البذرة الأولى للنقائض إنما نبتت نباتها الحقيقي في ظل الحروب اليثربية التي كانت بدايتها بحرب سُمَيْر ونهايتها بحرب بُعاث.

كما لاحظت وجود بعض القصائد الغزلية المستقلة في شعر حسان، وكشفت عن أن رثاء الممالك الزائلة الذي ظهر في العصر العباسي والأندلسي كانت له جذور في الشعر اليثربي الجاهلي.

أما رثاء الشاعر لنفسه فقد كانت البيئة اليثربية الجاهلية ـ فيما أحسب ـ من البيئات العربية الأولى التي عرفته، على نحو ما أوضحته في البحث.

٥ ـ وحول بنية القصيدة المدنية في الجاهلية تحدثت عن تعدد الأغراض واختلاطها فيها، وتنوع مقدماتها، وغلبة المقدمة الغزلية الصرفة عليها.

وناقشت آراء النقاد العرب والمستشرقين حول المقدمة وصلتها بفكرة الفناء أو ازجاء الفراغ، وانتهيت إلى رأي مستقل.

وفسرت شيوع ظاهرة المقطعات الصغيرة بالمدينة.

وأوضحت خصائص المعاني اليثربية في الشعر، وأبنت عن سلامتها وجدة كثير منها وخلوها من الأخطاء التي وقعت فيها بعض البيئات الأخرى.

واستظهرت الصور والأخيلة الجمالية في شعر اليثربيين وعلاقتها بالبيئة الزراعية المدنية، وحددت وسائل الخيال التي استخدموها في التصوير الشعري.

وفي مجال الألفاظ كشفت عن ارتباطها بالوجدان الجماعي وعن الحس اللغوي الذي امتاز به بعض شعرائهم، موازناً بينهم في هذا المجال.

وتحدثت عن ظواهر التكرار والتشابه في الشعر المدني، وطريقة استهلال القصائد، وأبنت عن أن شعراء المدينة لم يكونوا من عبيد الشعر أو المتكسبين به.

وأشرت في الجانب الموسيقي إلى أكثر البحور شيوعاً لديهم، وإلى تحاشيهم التقفية بالحروف الصعبة.

٦ ـ وفي حديثي عن مكانة المدينة بين البيئات الشاعرة توصلت إلى أن الشعر في هذه البيئة لم يكن أقل ازدهاراً من البيئات الرعوية. وناقشت رأي ابن سلام في هذا الموضوع مستنداً إلى الأدلة والشواهد.

ولاحظت تفاعل المدينة مع غيرها من البيئات الشعرية تأثراً وتأثيراً. وكشفت عما ورد من ذكرها والإشادة بها في البيئات الأخرى، وتتبعت ما سبقت به من المعاني والصور التي احتذاها فيها غيرها.

وأحصيت الشواهد المدنية الكثيرة التي اعتمد عليها علماء العربية في كتب اللغة والنحو والبلاغة.

وناقشت رأي الفارابي وبلاشير في تحديد المساحة العربية المعتمدة زمن التدوين.

٧ ـ واخترت أربعة من أشهر شعراء المدينة، اجتهدت في تحديد مولدهم ووفاتهم لأول مرة، وكشفت عن ملامحهم الشخصية والفنية، ودرست نماذج كثيرة من شعرهم دراسة فنية.

وفي حديثي عن حسان ناقشت قضية جبنه، وانتهيت إلى رفضها معتمداً على الأدلة والشواهد.

٨ ـ أما النثر الادبي فقد مهدت له بالحديث عن أن اللغة ظاهرة اجتماعية تفرضها طبيعة المجتمعات، وأن النثر كذلك ضرورة يقتضيها الاجتماع، وناقشت الآراء التي أثيرت حول وجود النثر الفني أو إنكاره، وانتهيت إلى

أنه حقيقة لا مجال للشك فيها، مستنداً إلى أدلة كثيرة استنبطتها من دراساتي الخاصة، ثم عرضت لألوان النثر اليثربي من خطب وأمثال وقصص ووصايا، ووثقت ذلك كله، واستقصيت كل الأمثال المدنية، ثم سجلت خصائص كل لون من هذه الألوان، وحللت كثيراً منها.

ولاحظت عدم مشاركة اليهود في فن النثر، وأرجعت ذلك إلى أسبابه[1].

* * *

٩ - وفي ظلال الإسلام رسمت صورة واضحة للمجتمع المدني الجديد، وتحدثت عما هيأته الهجرة النبوية الشريفة للمدينة من عوامل الأصالة والصدارة والبقاء، بالإضافة إلى ما كان لها من مميزات في الموقع والموضع، بحيث لم تستطع العوادي أن تذهب بها كما ذهبت بكثير من المدن الأخرى.

وأوضحت كيف أن هذه الهجرة بما حملت إليها من خير وبركه غيرت من وظيفتها، فنقلتها من مجرد كونها مركزاً زراعياً وتجارياً إلى أن أصبحت مركز إشعاع ديني ومقرّاً للحكم والسلطة. كما أوضحت أثر هذه الهجرة أيضاً في التوزيع السُّكنيّ والسكاني فيها. وفصلت القول في بنائها البشري والديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ورددت طعن المستشرق مونتجمري في صحة وثيقة الموادعة التي وضعها الرسول ﷺ عقب وصوله المدينة لتنظيم العلاقة بين سكانها.

١٠ - ثم كشفت عن الجذور الثقافية التي غرسها الإسلام في المجتمع المدني الجديد، وتتمثل في:

تحرير الإنسان من الخرافات - تكريم العقل وتمجيد التفكير والتدبر - تكريم الإنسان وبيان سلطانه - التعريف بالأمم السابقة -

---

(١) انظر الكتاب رقم (٤).

الاتصال بالعالم الغيبي ـ التنظيم والتشريع ـ رفع مكانة المعلم ـ حضارة البلاد المفتوحة.

وعرضت لمظاهر الثقافة العلمية وارتباطها بالقرآن والسنة والمسجد، وأوضحت آثارها في الحياة الجديدة.

أما الجانب الأدبي فقد تناولت تناولاً عاماً ما أحدثه الإسلام من تغيرات كان من مظاهرها:

تغير المهمة الأدبية ـ تغير القيمة ـ انتقال الأهمية الأدبية إلى المدينة ـ ظهور مجموعة من الشاعرات في المدينة ـ تعدد المواقف الأدبية تبعاً لتعدد مواقف الأدباء من الإسلام ـ نشاط بعض الأنواع النثرية ـ وغير هذا مما فصلته بعد ذلك[1].

١١ ـ وعرضت لموقف الشعر من الإسلام وموقف الإسلام من الشعر، وناقشت الآراء المختلفة حول نشاط الشعر أو جموده في ظل الإسلام، وانتهيت من ذلك إلى دحض الآراء التي تصمه بالضعف والجمود، مستنداً إلى الشواهد الكثيرة، والروايات العديدة، والأمثلة المستفيضة، المنبثة في كتب التراث، وحققت موقف القرآن من الشعر، وموقف الرسول وخلفائه وصحابته منه، مما يُظهر بجلاء عدم الغض من الشعر أو الحط من مكانته. وخلصت بعد ذلك إلى أن تلك الأحكام الجائرة إنما كانت تهدف إلى خلق عداء دائم بين الإسلام والفن، وتتعمد قياس الشعر الإسلامي بمقاييس جاهلية، حتى تجرده من كل فضيلة فنية أو أدبية، على نحو ما تعودنا أن نراه من المستشرقين وأشياعهم من التشكيك في التراث العربي والإسلامي وأصالته.

١٢ ـ ثم فصلت القول في أثر الإسلام في الشعر، غرضاً ولغة وأسلوباً ومعنى، ومهدت لذلك بتحقيق معنى الخضرمة، وناقشت آراء المتشككين

(١) انظر الكتاب رقم (٥).

في صحة أكثر الشعر الإسلامي ، ورددت قلة ما وصلنا منه إلى الطمس والضياع .

وأوضحت ارتباط الأغراض الشعرية بالإسلام وجوداً وعدماً وضموراً، ووازنت بين كل غرض إسلامي ونظيره في الجاهلية.

وكشفت عن سر قلة رثاء الرسول ﷺ على الرغم من اتساع مجال الرثاء في صدر الإسلام، كما أوضحت السبب في عدم رثاء شعراء الأنصار لأبي بكر الصديق، وفسرت عدم رواج فنيَّ المدح والحكمة.

ولم يفتني أن أسجل مظاهر النقائض الإسلامية وتأثرها بالقرآن الكريم، والموازنة بينها وبين النقائض الجاهلية.

أما المعاني فقد فصلت مظاهرها الجديدة والتقليدية في كل غرض، وأوضحت كيف أنها أصبحت في الغالب تدور في نطاق المبادىء الإسلامية، وفي إطار مكارم الأخلاق التي رسمتها الدعوة. ولاحظت أن شعراء اليهود لم يتعرضوا في شعرهم للمعاني الدينية التي كثيراً ما كانوا يناقشون فيها الرسول عليه الصلاة والسلام وعللت لذلك بعدة أسباب، كما لاحظت وضوح المعاني الإسلامية وصدقها وقربها وقوة حرارتها وتأثرها المباشر وغير المباشر بالقرآن الكريم.

ثم سجلت بالشواهد والأمثلة نماذج من الألفاظ التي استحدثت أو اتسع مدلولها، والألفاظ التي اختفت، مما كان مرتبطاً بالحياة الجاهلية. وكشفت عن مدى تأثر الشعر بأسلوب القرآن تركيباً وتصويراً كما أوضحت كثيراً من الصور الخيالية التي تكشف عن استمرار قوة الشعر الإسلامي وامتداد وسائله الفنية التي عرفها اليثربيون في الجاهلية مع اكتساب خصائص الوضوح والسجاحة التي أضفاها الإسلام على أسلوب الشعر، داعماً كل ذلك بالشواهد.

١٣ ـ أما النثر الأدبي الإسلامي فقد درست عوامل ازدهاره ودواعي نشاطه، وقسمته إلى:

نثر لساني، ويتمثل في: ـ الخطب ـ الحوار ـ القصص ـ الأمثال ـ الوصايا، ونثر قلمي، يتمثل في: الرسائل والعهود.

وكشفت عن أهمية النثر الحواري، وأبنت عن مزاياه الأدبية وقيمته التاريخية والاجتماعية، وسجلت كثيراً من مظاهره.

وفي مجال الأمثال أوضحت ما استمر منها وما جدّ عن طريق ما نطق به الرسول الكريم، أو جلبه معهم الوافدون إلى المدينة والمهاجرون إليها، كما أشرت إلى ما كان يقوم به الرسول من توجيهٍ لما لم يكن متفقاً منها مع مبادىء الإسلام.

ووازنت بين الخطابة الجاهلية والإسلامية.

وكشفت في مجال القصة عن روافدها، وأوضحت معالمها، وسجلت نماذج منها، وحللت بعضها تحليلاً فنياً يكشف عن عناصرها التي تكاد تتفق مع أحدث عناصر القصة الحديثة.

وفي مجال النثر القلمي كشفت لأول مرة عن وجود رسائل إخوانية لم يلتفت إليها الباحثون، كما كشفت عن وجود رسائل يمكن اعتبارها جذوراً لجغرافية الأماكن والمعالم.

ثم سجلت بعد ذلك الخصائص العامة للنثر الإسلامي من خلال دراسة النصوص الكثيرة وتحقيقها والتعليق عليها.

١٤ ـ واخترت أربعة من الخطباء والكتاب يمثلون الاتجاه الجديد في النثر الأدبي أصدق تمثيل، ولشهرتهم اقتصرت في دراستهم التفصيلية على الجوانب الهامة التي تتصل بالفصاحة والبيان، وسجلت كثيراً من نماذجهم محللاً لكل نص، مستخلصاً منه الخصائص الجمالية والفنية.

ولاحظت أن خطب الرسول عليه السلام كانت تتفاوت سهولة وغرابة تبعاً للغة الوفود والقبائل المختلفة، كما لاحظت أن خطب أبي

بكر كانت تميل إلى الإيجاز تبعاً لطبيعته، وربطت بين إسلام عمر وحسه الفني، وبين أدبه وأخلاقه. أما علي فقد كان أدبه ثمرة علمه وفقهه، وقد وقفت عند كتاب (نهج البلاغة) وما دار حوله من آراء، ولاحظت أن خطبه تمتاز بالتنوع والكثرة والطول، كما تمتاز بالفكر المنظم والجمع بين جزالة البداوة وصقل الحضارة، وكشفت عن إحدى خطبه التي يمكن اعتبارها أول نموذج للخطابة العربية في باب الرثاء والتأبين.

١٥ ـ ثم عرضت للنقد الأدبي في صدر الإسلام، ومهدت لذلك بالإشارة إلى اختلاف الآراء في تعريف النقد، لاعتماد الأصل اللغوي للكلمة على شواهد مدنية، ولأني أردت التعقيب على هذه الآراء حتى أبني عليها حكمي على النقد الجاهلي والإسلامي.

ثم أشرت إلى النقد بصفة عامة في الجاهلية، وكيف كان في أكثره أحكاماً عامة، وفي أقله أحكاماً معللة وإن كانت موضع شك من أكثر الباحثين. ونظراً لأن النقد في المدينة كان يندرج في إطار النقد الجاهلي العام بحيث لم يصل لنا منه مما يخص المدينة إلا النزر اليسير الذي لا يستأهل أن يعقد له فصل في الجاهلية، فإنني اكتفيت بأن سجلت مظاهر هذا النقد المدني الجاهلي في مستهل الحديث عن النقد الإسلامي.

ولقد كاد النقاد جميعاً يجمعون على أن النقد في صدر الإسلام إنما هو امتداد لتلك النظرات الأولية التي وقعت في العصر الجاهلي، ولكنني هنا استطعت أن أكشف عن كثير من الأصول النقدية التي استقرت ووضحت بالمدينة المنورة في هذه الفترة، والتي تعتبر الجذور الحقيقية لكثير من القضايا النقدية التي عرفت في عصور العربية بعد ذلك وفي عصرنا هذا الحديث. وذلك مثل: النقد التفسيري ـ الطبع والصنعة ـ الصدق الأخلاقي والفني ـ الالتزام ـ المنهج الخلقي والديني ـ المنهج الفني ـ ونحو ذلك.

وقد رأيت أن هذه الأصول التي نشأت أول ما نشأت في إطار الفكر الإسلامي، والتي كانت بها المدينة المنطلق الجديد للمعايير النقدية: يجب أن تظل سائدة في دراساتنا الأدبية وألا تصرفنا عنها تلك المقاييس الوافدة التي قطعت ما بيننا وبين تراثنا الفكري الإسلامي المتميز، وهكذا أيضاً فَهِم هذا الرأي وأخذ به بعض النقاد الذين سجلت مواقفهم في هذا الفصل، ومن هنا لم أرتض مواقف بعض نقاد العربية القدامى والمحدثين الذين نكصوا عن المنهج النقدي الإسلامي ولم يعبؤوا بمقاييسه بدافع الشعوبية أو الافتتان بالثقافات الأخرى.

ودعوت إلى وجوب تميز الأدب الإسلامي والنقد الإسلامي تبعاً لتميز الشخصية الإسلامية.

وأعتقد أنه لم يستوعب أحد من النقاد ما استوعبته من الشواهد والأمثلة في استخلاص هذه الأصول النقدية التي كانت المدينة المنورة أول رائد لها في تاريخ العربية[١]

* * *

هذه هي أهم معالم البحث المتكامل عن المدينة المنورة ودورها الثقافي والأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام، تلك المدينة التي أسهمت في تأصيل التراث العربي وحملتْ راية الإسلام، والمدينة التي ما تزال القلوب تهفو إليها والألسنة تلهج بذكرها والصلاة والتسليم على ساكنها محمد بن عبدالله مع إشراقه كل صباح وإغفاءة كل مساء، فمرحى لها ولما قدمته لدنيا العروبة والإسلام..!

(١) انظر الكتاب رقم (٦) وهو هذا الكتاب.

فهـــرس

مقدمة المؤلف ٥

الفصل الأول

الشعر وموقف الإسلام منه

موقف الشعر من الإسلام ٩
موقف الإسلام من الشعر ١١
الرّد على القائلين بضعف الشعر الإسلامي ١٢
موقف القرآن الكريم ١٣
موقف الرسول ﷺ ٢٠
موقف الصحابة ٣٠
خطأ استعمال المقاييس الجاهلية ٤٣

الفصل الثاني

أثر الإسلام في الشعر

تمهيد ٤٩
أولاً: في الأغراض ٥٧
ثانياً: في المعاني ١١٧
ثالثاً: في الألفاظ ١٣٧
رابعاً: في الأساليب ١٣٩

الفصل الثالث
أشهر شعراء المدنية في صدر الإسلام

أ ـ كعب بن مالك ١٥٦

ب ـ عبدالله بن رواحة ١٩٤

جـ ـ حسان بن ثابت ٢٢٧

الفصل الرابع
النثر الأدبي في المدينة
أنواعه ـ أغراضه ـ خصائصه

تمهيد ٢٥٣

أولاً: النثر اللساني ٢٥٧

أ ـ الخطب ٢٥٧

ب ـ الحواريات ٢٧٦

جـ ـ الأمثال ٢٨٦

د ـ الوصايا ٢٨٩

هـ ـ القصص ٢٩٤

ثانياً: النثر القلمي ٣٠٨

تمهيد ٣٠٨

أ ـ الرسائل ٣١٠

ب ـ العهود ٣٢٦

الفصل الخامس
أشهر الخطباء والكتاب

تمهيد ٣٣٩

١ ـ محمد ﷺ ٣٤١

٢ ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ٣٥٨

٣ ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣٧٨
٤ ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٣٩٧

الفصل السادس
النقد الأدبي في صدر الإسلام

مدخل ٤١٩
أ ـ تعريف النقد ـ النقد في الجاهلية ....
ب ـ في صدر الإسلام ٤٣٠
الخاتمة ٤٥١
الفهرس ٤٦١
المصادر والمراجع ٤٦٥
الدوريات ٤٧٩
صدر للمؤلف ٤٨١

المصادر والمراجع [1]

١ ـ **أبجد العلوم**: صديق البخاري القنوجي ـ طبعة بهوبال ١٢٥٩ هـ.

٢ ـ **أثر القرآن في تطوير النقد الأدبي**: الدكتور محمد زغلول سلام ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م.

٣ ـ **الأحكام السلطانية**: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ـ مطبعة البابي الحلبي ١٩٦٠ م.

٤ ـ **أخبار مكة**: أبو الوليد محمد الأزرقي ـ جوتنجن ١٨٥٨ م ومطبعة خياط ١٩٦٤ م.

٥ ـ **أخبار المدينة**: المعروف بالدرة الثمينة ـ محمد بن محمود ابن النجار ـ تحقيق صالح محمد جمال.

٦ ـ **الأدب وفنونه**: الدكتور محمد مندور ـ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣.

٧ ـ **الإسرائيليون في مكة**: دوزي.

٨ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير ـ المكتبة الإسلامية بطهران ١٣٤٢ هـ.

٩ ـ **أسس النقد الأدبي عند العرب**: الدكتور أحمد أحمد بدوي ـ طبعة دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٧٩ م.

١٠ ـ **أسماء المغتالين من الأشراف**: محمد بن حبيب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ نشر الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد ١٩٥٤ م.

---

(١) هذا الثبت يمثل أهم المراجع المستعملة في الرسالة (أي الكتب ٣، ٤، ٥، ٦ من هذه السلسلة).

١١ ـ **الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية**: أنور الرفاعي.
١٢ ـ **الأشباه والنظائر**: الخالديان ـ تحقيق الدكتور سيد محمد يوسف لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ م.
١٣ ـ **الأصمعيات**: أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصـرط الثالثة ١٩٦٧.
١٤ ـ **أصول الشعر العربي**: د. س. مرجليوث ـ ترجمة الدكتور يحيى الجبوري طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٨ م.
١٥ ـ **أصول النقد الأدبي**: الأستاذ أحمد الشايب ـ الطبعة الفاروقية ـ الإسكندرية ١٩٤٠ م.
١٦ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ بيروت ط الأولى ـ ومطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨ هـ.
١٧ ـ **الأضداد**: محمد بن القاسم الأنباري ـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم ـ الكويت ١٩٦٠ م.
١٨ ـ إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١.
١٩ ـ **الأعلاق النفيسة**: أبو علي أحمد بن عمر بن روسته. ليدن، برابل ١٨٩١ م.
٢٠ ـ **الأغاني**: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ـ تحقيق عبد الستار فراج ـ دار الثقافة ـ بيروت.
٢١ ـ **الأغاني**: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ـ دار الكتب بمصر ١٩٢٧ م.
٢٢ ـ **الأغاني**: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ـ بـولاق بمصر ١٢٨٤ هـ.
٢٣ ـ **الإمتاع والمؤانسة**: أبو حيان التوحيدي ـ تحقيق أحمـد أمين وزميله ـ لجنـة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ م.
٢٤ ـ **الإمتاع**: المقريزي، القاهرة ـ ١٩٤١ م.
٢٥ ـ **أمراء غسان**: ثيودور نولدكه ـ ترجمة بندلي جوزي ـ وقسطنطين زريق ـ بيروت ١٩٣٢ م.
٢٦ ـ **الأمالي**: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ـ دار الكتب القاهرة ١٩٢٦ م.
٢٧ ـ **أمالي المرتضى**: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي ط ٢ ـ بيروت ١٩٦٧.

٢٩ ـ **أنساب الأشراف**: أحمد بن يحيى ابن جابر البلاذري، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ـ دار المعارف، بمصر ١٩٥٩ م.

٢٩ ـ **الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال**: ناصر الدين الإسكندري المالكي.

٣ ـ أهدى سبيل إلى علمي الخليل: محمود مصطفى، ط ٤ مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة ١٩٦٠.

٣١ ـ **أيام العرب في الجاهلية**: محمد أحمد جاد المولى وزميلاه، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

٣٢ ـ **البخلاء**: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق العوامري ـ والجارم ـ طبعة دار الكتب، ١٩٣٩ م.

٣٣ ـ **البدء والتاريخ**: المطهر بن طاهر المقدسي ـ نشر كالمان هواز مكتبة المثنى بغداد.

٣٤ ـ **البداية والنهاية**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ـ مطبعة السعادة ١٩٣٢ م.

٣٥ ـ **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**: محمود شكري الألوسي، الطبعة الثالث، مطبعة الكتاب العربي بمصر ١٣٤٢ هـ.

٣٦ ـ **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**: الدكتور محمد سيد الطنطاوي.

٣٧ ـ **البيان والتبيين**: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ طبعة عبد السلام هارون ـ وطبعة السندوبي.

٣٨ ـ **الترغيب والترهيب**: زكي الدين عبد العظيم عبد القوي المنذري ـ مطبعة صبيح، مصر.

٣٩ ـ **التراتيب الإدارية**: الشيخ عبد الحي الكتاني، بيروت.

٤٠ ـ **التصوير الفني في القرآن**: سيد قطب، مطبعة دار الشروق ـ بيروت.

٤١ ـ **تفسير القرآن العظيم**: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار أحياء الكتب العربية.

٤٢ ـ **التنبيه والإشراف**: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ـ عن طبعة مصر ١٩٣٨.

٤٣ ـ **التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه**: أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري، دار الكتب، ١٩٢٦.

٤٤ ـ تهذيب التهذيب: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ حيدر أباد ١٣٢٧ هـ.
٤٥ ـ **تاريخ الأدب العربي**: الأدب الجاهلي، الدكتور ريجيس بلاشير، تعريب الدكتور إبراهيم كيلاني ـ دار الفكر بدمشق ١٩٥٦.
٤٦ ـ **تاريخ الأدب العربي**: الأدب القديم، الدكتور عمر فروخ ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩.
٤٧ ـ **تاريخ الأدب العربي**: من الجاهلية حتى العصر الأموي، كارلونيلنو، باللغة العربية مصر ١٩٥٤.
٤٨ ـ **تاريخ الأدب العربي**: السباعي بيومي. مطبعة النهضة ١٩٥٢.
٤٩ ـ **تاريخ أداب اللغة العربية**: جرجي زيدان ـ دار الهلال.
٥٠ ـ **تاريخ الأمم الإسلامية**: محمد الخضري ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٣٧٦ هـ.
٥١ ـ **تاريخ التمدن الإسلامي**: جرجي زيدان ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٠٣.
٥٢ ـ **تاريخ الرسل والملوك**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف مصر ـ ١٩٦٦.
٥٣ ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: الدكتور حسن إبراهيم حسن ط ٧ ـ النهضة المصرية ١٩٦٤.
٥٤ ـ **تاريخ الشعوب الإسلامية**: كارل بروكلمان ـ ترجمة منير البعلبكي ـ وزميله ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط ٣ ١٩٦٢.
٥٥ ـ **التاريخ العربي وجغرافيته**: أمين المدني، ط ١ الهيئة المصرية للكتاب.
٥٦ ـ **تاريخ العرب**: فيليب حتى ـ ترجمة مبروك نافع ـ مطبعة العالم العربي ١٩٤٩.
٥٧ ـ **تاريخ العرب القديم**: عصر الرسول ـ الدكتور نبيه عاقل ـ مطبعة دار الفكر دمشق ط ٣، ١٩٧٥.
٥٨ ـ **تاريخ العرب العام**: ل. أ. سيدبّو ـ ترجمة عادل زعيتر ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٩.
٥٩ ـ **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧.
٦٠ ـ **تاريخ النقائض في الشعر العربي**: أحمد الشايب ط ٢، النهضة المصرية ١٩٥١.

٦١ - **تاريخ اليعقوبي**: أحمد بن أبي يعقوب بن وهب اليعقوبي - نشر المكتبة المرتضية - النجف - ١٣٥٨ هـ.
٦٢ - **تاريخ اليهود في بلاد العرب**: إسرائيل ولنفنسون - مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٧.
٦٣ - **جمهرة أشعار العرب**: أبو زيد بن أبي الخطاب القرشي - دار صادر - ودار بيروت ١٩٦٣.
٦٤ - **جمهرة أنساب العرب**: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي - تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م.
٦٥ - **الجامع الصحيح**: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري. المطبعة السلفية بمصر.
٦٦ - **الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الكتب المصرية - القاهرة.
٦٧ - **حسان بن ثابت**: الدكتور محمد طاهر درويش ط ٢ - دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م.
٦٨ - **الحيوان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ**: تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٩٥٩.
٦٩ - **حياة الصحابة**: محمد يوسف الكاندهلوي - طبعة دار القلم بدمشق ١٩٧٠.
٧٠ - **حياة محمد**: محمد حسين هيكل - ط ٦، النهضة المصرية ١٩٥٦.
٧١ - **الخراج**: أبو يوسف بن إبراهيم - المطبعة السلفية ومكتبها بمصر.
٧٢ - **خزانة الأدب**: عبد القادر بن عمر البغدادي - مطبعة دار العصور - القاهرة.
٧٣ - **الخصائص**: أبو الفتح عثمان بن جني، ط ٢، دار الكتب المصرية.
٧٤ - **الخطابة العربية**: في عصرها الذهبي - الدكتور إحسان النص - دار المعارف بمصر ١٩٦٣.
٧٥ - **الخطابة في صدر الإسلام**: الدكتور محمد طاهر درويش - دار المعارف بمصر ١٩٦٥.
٧٦ - **الخلافة**: توماس أرنولد - مطبعة دار التضامن - بغداد ١٩٦١.
٧٧ - **دراسة في السيرة**: عماد الدين خليل - دار النفائس - بيروت.
٧٨ - **دراسات في النظم العربية والإسلامية**: الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي جامعة الموصل - ١٩٧٧.
٧٩ - **دراسات في الأدب الإسلامي**: محمد أحمد خلف الله - طبعت لجنة التأليف

والترجمة والنشر ١٩٤٧.
٨٠ ـ **دراسات في فقه اللغة**: الدكتور صبحي الصالح ـ بيروت.
٨١ ـ **دلائل الإعجاز**: عبد القاهر الجرجاني ـ مطبعة المنار ١٣٢١ هـ.
٨٢ ـ **الدعوة إلى الإسلام**: توماس أرنولد ـ ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن القاهرة.
٨٣ ـ **ديوان أبو قيس بن الأسلت**: جمع وتحقيق الدكتور حسن محمد باجودة ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٧٢.
٨٤ ـ **ديوان حسان بن ثابت**: دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧١.
٨٥ ـ **ديوان حسان بن ثابت**: تحقيق الدكتور سيد حنفي حسنين ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٤.
٨٦ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمى**: مطبعة دار الكتب المصرية.
٨٧ ـ **ديوان طفيل الغنوي**: تحقيق محمد عبد القادر أحمد ـ مصر.
٨٨ ـ **ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري**: جمع وتحقيق الدكتور حسن محمد باجودة ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٧٢.
٨٩ ـ **ديوان العباس بن مرداس السلمي**: تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ـ طبعة بغداد ١٩٦٨.
٩٠ ـ **ديوان قيس بن الخطيم**: تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ط ٢ دار صادر بيروت ١٩٦٧.
٩١ ـ **ديوان المعاني**: أبو هلال العسكري ـ مكتبة القدس ـ مصر ١٣٥٢ هـ.
٩٢ ـ **ديوان المفضليات**: شرح ابن الأنباري ـ طبعة كالوس لابل ١٩٢٠.
٩٣ ـ **دائرة معارف القرن العشرين**: محمد فريد وجدي ـ ط ٣ دار المعرفة بيروت ١٩٧١.
٩٤ ـ **دائرة المعارف الإسلامية**.
٩٥ ـ **ذيل الأمالي**: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ـ دار الكتب القاهرة ١٩٢٦.
٩٦ ـ **الرحلة الحجازية**: محمد لبيب البتانوني ـ مطبعة الجمالية ـ القاهرة ١٣٢٩ هـ.
٩٧ ـ **رغبة الآمل من كتاب الكامل**: سيد بن علي المرصفي ـ مصر.
٩٨ ـ **الروض الأنف**: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي ـ مطبعة الجمالية القاهرة ١٩١٤.

٩٩ ـ **الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة**: العامري اليمني.
١٠٠ ـ **الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار**: ابن قدامة المقدسي.
١٠١ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر القرطبي ـ بهامش الإصابة ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨ هـ.
١٠٢ ـ **سمط اللآلىء**: أبو عبيد البكري ـ تحقيق عبد العزيز اليمني ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦.
١٠٣ ـ **سنن أبي داوود**: سليمان بن الأشعث السجستاني.
١٠٤ ـ **سنن النسائي**: أحمد بن شعيب بن علي النسائي.
١٠٥ ـ **سنن ابن ماجه**: أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني.
١٠٦ ـ **السيرة النبوية**: لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وزملائه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (ط ٢) ١٩٥٥.
١٠٧ ـ **السيرة النبوية**: أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ دار الشروق جدة ١٣٩٧ هـ.
١٠٨ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي مطبعة الصدق الخيرية ١٣٥٠ هـ.
١٠٩ ـ **شرح أدب الكاتب**: الجواليقي ـ مكتبة المقدسي ـ مصر ـ ١٣٥٠ هـ.
١١٠ ـ **شرح ابن عقيل**: تعليق محمد محي الدين عبد الحميد ط ١١ القاهرة ١٩٦٠.
١١١ ـ **شرح التصريح على التوضيح**: خالد بن عبدالله الأزهري ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة.
١١٢ ـ **شرح حماسة ابن تمام**: التبريزي ـ بولاق ١٢٩٦ هـ.
١١٣ ـ **شرح ديوان الحماسة**: أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق أحمد أمين، وعبد السلام هارون ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧.
١١٤ ـ **شرح شواهد الشافية**: عبد القادر البغدادي ـ نشر محمود توفيق، القاهرة.
١١٥ ـ **شرح شواهد الألفية**: بهامش الخزانة.
١١٦ ـ **شرح شافية ابن الحاجب**: الإمام رضى الدين الإستراباذي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وزميليه ـ مطبعة حجازي. القاهرة ١٩٢٩ م.

١١٧ ـ **شرح نهج البلاغة**: ابن أبي الحديد ـ مصر ١٣٢٩ هـ.
١١٨ ـ **شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي**: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ـ دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٥٨ م.
١١٩ ـ **شرح المعلقات السبع**: أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني، دار القاموس الحديث ـ بيروت.
١٢٠ ـ **الشعر والشعراء**: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري دار الثقافة. بيروت ط ٢ ١٩٦٩ م.
١٢١ ـ **شعر المخضرمين**: الدكتور يحيى الجبوري ط ١ منشورات مكتبة النهضة بغداد.
١٢٢ ـ **الشعراء اليهود العرب**: مراد فرج المحامي ـ ط ٢ مطبعة صلاح الدين الاسكندرية ١٩٣٩.
١٢٣ ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**: شهاب الدين أبو العباس أحود بن علي القلقشندي ـ دار الكتب ـ مصر ١٩١٣.
١٢٤ ـ **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**: محمد بن عبدالله بن بلبهد ـ ط ٢ ـ بيروت ١٩٧٢ م.
١٢٥ ـ **صحيح مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري.
١٢٦ ـ **الصاحبي**: أبو الحسين أحمد بن فارس ـ تحقيق أحمد صقر مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧.
١٢٧ ـ **ضحى الإسلام**: أحمد أمين، ط ١٠ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٢٨ ـ **الطبقات الكبرى**: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري ـ ليدن ١٣٢٢ هـ.
١٢٩ ـ **طبقات فحول الشعراء**: محمد بن سلام الجمحي تحقيق محمد محمود شاكر مطبعة المدني بالقاهرة.
١٣٠ ـ **طيف الخيال**: الشريف المرتضى ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٥.
١٣١ ـ **عبقرية محمد**: عباس محمود العقاد ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر.
١٣٢ ـ **عبقرية الصديق**: عباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر.
١٣٣ ـ **عبقرية الإمام**: عباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر.
١٣٤ ـ **عبقرية عمر**: عباس محمود العقاد ـ دار الهلال بمصر.

١٣٥ ـ **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**: الدكتور إحسان النص.
١٣٦ ـ **العرب قبل الإسلام**: جرجي زيدان طبعة حسين مؤنس، دار اليقظة العربية، ١٩٦٣.
١٣٧ ـ **العصر الجاهلي**: الدكتور شوقي ضيف ـ ط ٤ دار المعارف ـ مصر ١٩٦٠ م.
١٣٨ ـ **العصر الإسلامي**: الدكتور شوقي ضيف ـ ط ٥ دار المعارف ـ مصر ١٩٦٣.
١٣٩ ـ **العقد الفريد**: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ـ تحقيق محمد سعيد العريان ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ١٩٥٣ م.
١٤٠ ـ **علم اللغة**: الدكتور علي عبد الواحد وافي ط ٧ مطبعة دار النهضة بمصر.
١٤١ ـ **عمدة الأخبار في مدينة المختار**: أحمد بن عبد الحميد العباسي ط ٣ مطبعة المدني ـ بالقاهرة.
١٤٢ ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**: أبو الحسن بن رشيق القيرواني ط ٣ ـ مطبعة السعادة ـ ١٩٦٣ م.
١٤٣ ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**: أبو الحسن بن رشيق القيرواني طبعة أمين هندية.
١٤٤ ـ **عيون الأخبار**: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مطبعة دار الكتب مصر ١٩٢٤.
١٤٥ ـ **فتح الباري في شرح البخاري**: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية ـ مصر.
١٤٦ ـ **فتوح البلدان**: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ القاهرة ـ ١٣١٨ هـ.
١٤٧ ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ١٠ ١٩٦٩ م.
١٤٨ ـ **الفصول في سيرة الرسول**: الحافظ ابن كثير ـ تحقيق الدكتور محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو. ط ١، ١٣٩٩ هـ.
١٤٩ ـ **فقه السنة**: السيد سابق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧١ م.
١٥٠ ـ **فقه اللغة**: الدكتور علي عبد الواحد وافي ط ٤ ـ نشر لجنة البيان العربي ١٩٥٦.
١٥١ ـ **فن الخطابة**: الدكتور أحمد محمد الحوفي ط ٤ ـ دار النهضة بمصر ١٩٧٢ م.
١٥٢ ـ **الفهرست**: محمد بن إسحاق بن النديم ـ دار المعرفة بيروت ١٩٧٨ م.

١٥٣ ـ في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية: الدكتور محمد طه الحاجري ـ طبعة رويال ١٩٥٣ م.
١٥٤ ـ في النقد الإسلامي المعاصر: الدكتور عماد الدين خليل ـ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٢.
١٥٥ ـ الفائق في غريب الحديث والأثر: جار الله الزمخشري ـ طبعة حيدر أباد الهند.
١٥٦ ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: البطليوسي ـ تحقيق عبدالله البستاني ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت ١٩٠١.
١٥٧ ـ قراضة الذهب: ابن رشيق ـ تحقيق الشاذلي بن يحيى تونس.
١٥٨ ـ الكتاب: سيبوية ـ بولاق ١٩١٣.
١٥٩ ـ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي: الصاحب بن عباد ـ مطبعة المعاهد بمصر ١٣٤٩ هـ.
١٦٠ ـ كعب بن مالك الأنصاري: الدكتور سامي مكي العاني ـ سلسلة إعلام المسلمين ـ دار القلم ـ بيروت ـ ١٩٧٩.
١٦١ ـ الكامل في التاريخ: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، دار الطباعة بالقاهرة ١٢٩٠.
١٦٢ ـ لباب الآداب: أسامة بن منقذ ـ تحقيق أحمد شاكر ـ المطبعة الرحانية ـ مصر ـ ١٩٣٥.
١٦٣ ـ لباب التأويل: (تفسير الخازن) علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. مطبعة المويلحي ـ القاهرة ١٢٧٨ هـ.
١٦٤ ـ لطائف المعارف: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ليدن بيرل ـ ط ١٩٦٧ م.
١٦٥ ـ لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ عن طبعة بولاق.
١٦٦ ـ لزوم ما لا يلزم: أبو العلاء أحمد بن علاء بن سليمان المعري ـ مطبعة الجمالية مصر ١٩١٥.
١٦٧ ـ المثل السائر: ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن عبد الكريم المطبعة البهية ١٣٠٣ هـ.
١٦٨ ـ المحبر: ابن حبيب ـ بليز لختين ـ حيدر أباد ١٩٤٣.

١٦٩ ـ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**: أبو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق عبد الفتاح شلبي وزميليه نشر المجلس الأعلى ـ للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٦٩.

١٧٠ ـ **المجتمعات الإسلامية**: في القرن الأول الهجري ـ الدكتور شكري فيصل ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٦.

١٧١ ـ **مجمع الأمثال**: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩.

١٧٢ ـ **مجموعات الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة**: محمد حميد الله ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر.

١٧٣ ـ **مختارات الشعر الجاهلي**: يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري ـ القاهرة ـ تحقيق عبد المتعال الصعيدي.

١٧٤ ـ **المختصر في أخبار البشر**: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفداء دار المعرفة ـ بيروت.

١٧٥ ـ **المدينة المنورة**: عاصمة الإسلام الأولى ـ الدكتور محمد السيد الوكيل رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية ـ قسم التاريخ (لم تنشر) ١٩٧٩ م (١٣٩٩هـ).

١٧٦ ـ **المدينة المنورة**: الدكتور عمر الفاروق سيد رجب ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٧.

١٧٧ ـ **المدينة بين الماضي والحاضر**: إبراهيم العياشي ـ نشر المكتبة العلمية المدينة المنورة ١٣٩٢ هـ.

١٧٨ ـ **المرشد لفهم أشعار العرب وصناعتها**: الدكتور عبدالله الطيب المجذوب، مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٥.

١٧٩ ـ **مروج الذهب**: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي.

١٨٠ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزميلاه ـ ط ٢ دار إحياء الكتب العربية ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي.

١٨١ ـ **مصادر الشعر الجاهلي**: الدكتور ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر ط ٤، ١٩٦٩.

١٨٢ ـ **معجم البلدان**: أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت الحموي ـ مطبعة السعادة ـ

مصر ١٩٠٦.
١٨٣ ـ **معجم الشعراء**: أبو عبيدالله محمد بن عمران المرزباني ـ مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٤.
١٨٤ ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع**: أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ـ تحقيق مصطفى السقا ط ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٥.
١٨٥ ـ **المعجم المفهرس: لألفاظ القرآن** ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ مطابع الشعب ـ القاهرة ١٣٧٨.
١٨٦ ـ **معجم الأدباء**: ابو عبدالله ـ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي ـ دار المأمون بمصر ـ ١٩٣٨ م.
١٨٧ ـ **المعاني الكبير**: ابن قتيبة ـ طبعة الهند ١٣٦٣ +.
١٨٨ ـ **المعمرون في الأرض**: حاتم السجستاني ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ طباعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦١.
١٨٩ ـ **مغازي رسول الله**: أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٨.
١٩٠ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: للدكتور جواد على شركة الرابطة للطبع والنشر ١٩٥٣ م.
١٩١ ـ **مقدمة ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون ـ مطبعة التقدم ١٣٢٩ هـ.
١٩٢ ـ **مقاييس اللغة**: أبو الحسين أحمد بن فارس ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة الحلبي.
١٩٣ ـ **مكة والمدينة**: أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، بيروت.
١٩٤ ـ **مميزات لغة العرب**: وتخريج ما يمكن من اللغات العامية عليه وفائدة التاريخ من ذلك ـ حفني ناصف ـ مطبعة السعادة ط ٢ ١٣٣٠.
١٩٥ ـ **منهج السالك إلى الفية بن مالك**: الأشموني ـ دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٩٦ ـ **منتهى الطلب من أشعار العرب**: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون ـ مصورة عن مخطوطة دار الكتب رقم (٥٣).
١٩٧ ـ **المناسك وأماكن طرق الحج**: أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي ـ تحقيق حمد الجاسر ـ بنشر دار اليمامة ـ الرياض ١٩٦٩ م.

١٩٨ ـ **المنازل والديار**: أسامة بن منفذ ـ تحقيق مصطفى حجازي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٩٦٨.

١٩٩ ـ **الموسوعة العربية الميسرة**: دار الشعب بالقاهرة ـ مصورة عن طبعة ١٩٦٥.

٢٠٠ ـ **الموشح**: مآخذ العلماء على الشعراء ـ في عدة أنواع من صناعة الشعر ـ أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني تحقيق علي البيجاوي ـ دار نهضة مصر.

٢٠١ ـ **النثر الفني في القرن الرابع**: الدكتور زكي مبارك ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥ م.

٢٠٢ ـ **نسب قريش**: أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري ـ طبع ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر.

٢٠٣ ـ **النظم الإسلامية**: عبد العزيز الدوري ـ مطبعة نجيب ـ بغداد ـ ١٩٥٠ م.

٢٠٤ ـ **النظم الإسلامية**: صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٥ م.

٢٠٥ ـ **النقد الأدبي الحديث**: الدكتور محمد غنيمي هلال ـ دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٣ م.

٢٠٦ ـ **نقد الشعر**: أبو الفرج قدامة بن جعفر ـ المطبعة المليحية ـ مصر ١٩٣٤ م.

٢٠٧ ـ **نهج البلاغة**: جمع الشريف الرضى ـ القاهرة ١٣٢٨ هـ.

٢٠٨ ـ **نهاية الأرب**: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ـ المؤسسة المصرية العامة ـ مصورة عن طبعة دار الكتب ـ مصر.

٢٠٩ ـ **نيل الأوطار**: شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ـ محمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر.

٢١٠ ـ **الوسيط**: أحمد علي عمر الإسكندري وزميله ـ ط ١٠ ـ طبع المعارف ـ مصر.

٢١١ ـ **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**: نور الدين علي بن أحمد السمهودي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط ١ ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ م.

٢١٢ ـ **هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري**: مطبعة الرغائب ـ ط ٢ القاهرة ١٣٤٠ هـ.

٢١٣ ـ **يتيمة الدهر**: أبو منصور الثعالبي ـ مطبعة الصاوي ١٩٣٤ م.

٢١٤ ـ **يهود المغرب العربي**: الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة ـ مطبعة الجبلاوي بمصر

١٠ ـ المدينة في صدر الإسلام (الحياة السياسية والاجتماعية): الطبعة الأولى ـ دار التراث ومؤسسة علوم القرآن.

١١ ـ المدينة في صدر الإسلام (الحياة الأدبية): الطبعة الأولى ـ دار التراث، ومؤسسة علوم القرآن.

١٢ ـ أمجاد الرياض: ملحمة شعرية في حياة الملك عبد العزيز.

١٣ ـ غناء الجرح: ديوان شعر ـ منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي.

١٤ ـ همسات في أذن الليل: ديوان شعر ـ منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي.

الدوريات

١ - مجلة (الأبحاث) البيروتية: الجامعة الأمريكية - السنة ٢ ج ١ آذار ١٩٥٩ م.
٢ - مجلة (الخفجي) السعودية: العدد الثاني - المجلد السادس - نوفمبر ١٩٧٦ م.
٣ - (المجلة) المصرية: العدد ٩٨ - والعدد ١٠٠ -والعدد ١٠٤ - من عام ١٩٦٥ م.
٤ - مجلة (العربي) الكويتية: العدد ١٩٣: ١٩ /١٢/ ١٩٧٤ م.
٥ - مجلة (المعرفة) السورية: السنة الثانية - العدد الرابع - حزيران ١٩٦٣ م.
والعدد ٢٧ السنة الثالثة - آيار ١٩٦٤ م.



صدر المؤلف

١ ـ **شعراء من أرض عبقر**: الجزء الأول ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

٢ ـ **شعراء من أرض عبقر**: الجزء الثاني ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

٣ ـ **الرائد في علم الفرائض**: الطبعة الرابعة ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٤ ـ **شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج**: الطبعة الثانية ـ مؤسسة علوم القرآن. (دمشق ـ بيروت).

٥ ـ **المدينة(المنورة) في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية)**: الطبعة الأولى ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٦ ـ **الفصول في سيرة الرسول، للحافظ ابن كثير**: الطبعة الثالثة ـ تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٧ ـ **المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية**: للحافظ علي بن بلبان ـ الطبعة الأولى ـ تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٨ ـ **عارف حكمة**: حياته ومآثره، أو (شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم) لشهاب الدين أبي الثناء محمود الألوسي (تحقيق)، الطبعة الأولى ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة)، مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٩ ـ **المدينة (المنورة) في العصر الجاهلي (الحياة الأدبية)**: الطبعة الأولى ـ دار التراث ومؤسسة علوم القرآن.